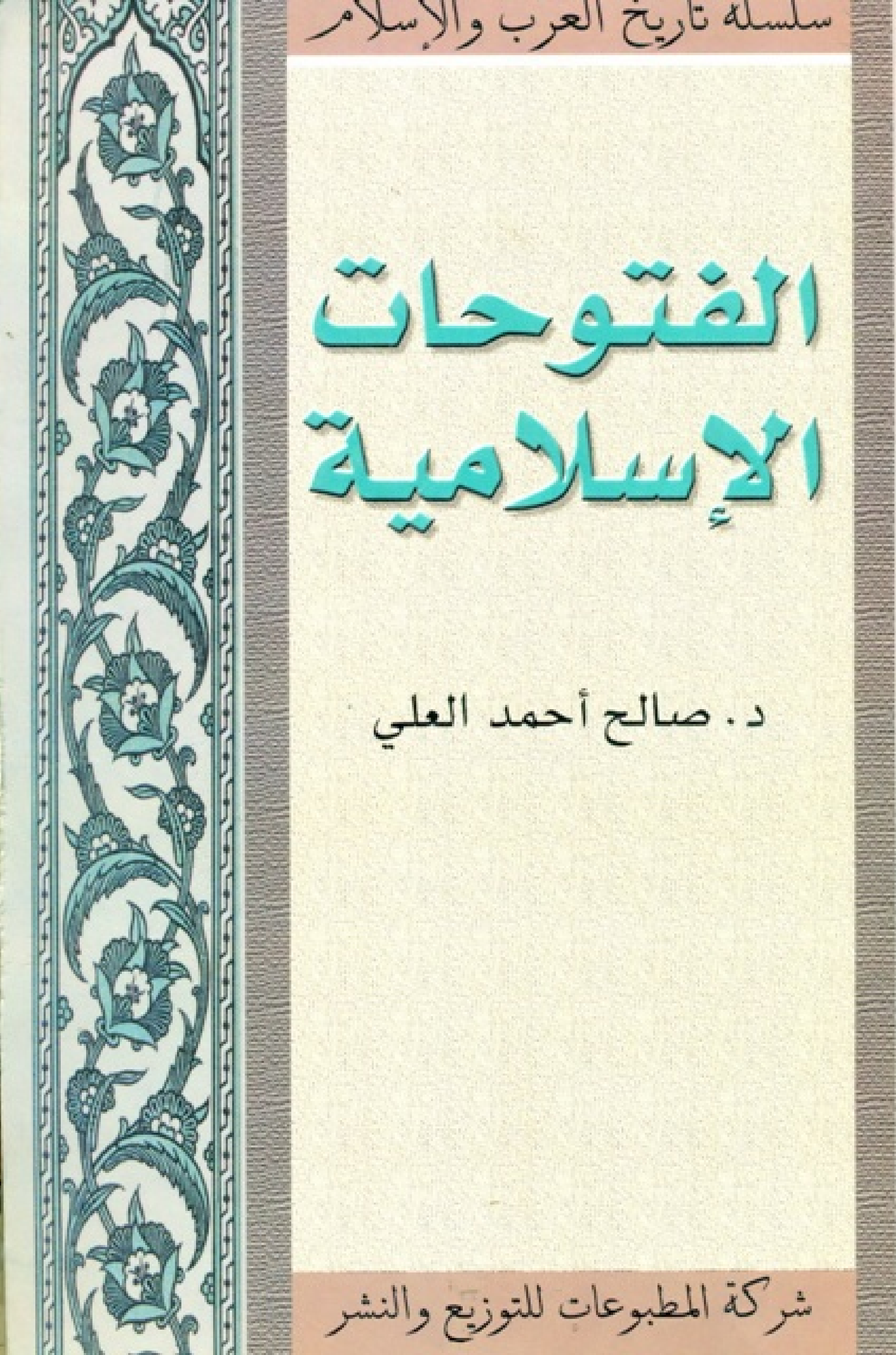

سلسلة تاريخ العرب والإسلام
الفتوحات الإسلامية
د. صالح أحمد العلي
شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

الدكتور صالح أحمد العلي

الفتوحات الإسلامية

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شارع جان دارك - بناية الوهاد

ص. ب. ٨٣٧٥ : ١١ - بيروت - لبنان

تلفون: ٣٥٠٧٢٢ (٠١)

تلفون + فاكس: ٣٤٢٠٠٥ - ٣٥٣٠٠٠ (١ ٩٦١)

e-mail: allprint@cyberia.net.lb

الطبعة الأولى ٢٠٠٤

تصميم الغلاف: عباس مكي

الاخـراج الفنـي: بسمة التقي

تقديم

للفتوح الإسلامية الأولى أهمية بالغة في تاريخ العرب والعالم. فبعد أن بسط الرسول سيادة دولة الإسلام، خلال السنوات الأخيرة من حياته، وثبّت أبو بكر الإسلام ودولته في جزيرة العرب، لم يتأخر عن توجيه الجيوش إلى أطراف الجزيرة الشمالية. ثم تابع عمر التوسع، وفي خلال ست سنوات تقريباً من خلافته دحر جيوش الفرس والروم وثبَّت سيادة الدولة على بلاد الهلال الخصيب ومصر. وتابع عثمان بن عفان سياسة الانسياح هذه، فضمَّت جيوش الإسلام بلاداً تمتد من تونس غرباً إلى نهر جيحون شرقاً، وقد تمت هذه الفتوح بسرعة مذهلة، مرسّخةً سيادة دولة الإسلام، التي فيها كلمة الله هي العليا.

أولى المعنيون بالتاريخ منذ أوائل الإسلام اهتماماً بأخبار الفتوح، ولما عمَّ التدوين ظهر عدد غير قليل من المصنفات، منها ما تناول فتح مدينة، أو فتح إقليم، أو جاء أكثر تفصيلاً فتناول أخبار الفتوح بصورة عامة.

كما انصبَّ اهتمام الباحثين القدماء والمحدثين على سرد خطوط سَيْرِ الجيوش والمعارك التي خاضوها تبعاً لتعاقبها الزمني، غير أن القلة منهم عنوا بالقوات الإسلامية تعبئةً وتركيباً وتنظيماً، فضلاً عن تلك التي واجهوها وغير ذلك، مما هو أساس في الفهم الحضاري لهذه الفتوح وما تلاها من تنظيمات.

إن دراستنا الحالية راعت سَيْر الحركات والمعارك الكبرى، فوصفتها باقتضاب، إلا أنها ركزت أساساً على الجوانب التنظيمية لقوات العرب السلمية وقوات الأعداء، خصوصاً ما تعلق منها بالأسلحة وميادين التحرك والالتحام،

مما كان له الأثر الدائم على التنظيمات التي وضعها العرب، وظلت قائمة بتفاصيلها في العهود الأولى، وثبت تأثيرها على التوجهات التي فرضها الزمن في العهود التالية. فالبحث يركز على دور الأمة ومُقاتِلَتِها، وأعمال الهيئات الحاكمة من خلفاء وولاة، في وضع نظام قائم على أسس مقبولة، لم تزعزعه الثورات والاحتجاجات التي قام أكثرها اعتراضاً على ما رأوه انحرافاً عن النظام الأول، وليس على عيوب أرادوا إبدالها فيه. إن البحث يحاول إبراز الثوابت في النظام وعوامل تكوُّنه، دون الإيغال في دراسة الاحتجاجات عليه.

عنينا بوصف هذه الأسس وعوامل الأخذ بها إبّان تأسيسها ثم تطورها، وحاولنا إظهار مكانة كلٍّ منها في ضوء قيامها، واعتمدنا على ما ذكرته الروايات، ولكننا ذهبنا لإبراز ما وراء هذه الروايات وخلفياتها دون أفكار مسبقة.

لقد عملنا على إبراز الجوانب التي لم تَلْقَ الاهتمام الجديرة به، فجاءت الصورة العامة التي يقدمها هذا الكتاب مبنية على حقائق كثير منها جزئي متفرق في ثنايا كتب منوَّعة، وذُكر كثير منها عرضاً دون توضيح أو تقدير لأهميته؛ ولا نزعم أن ما جمعناه مستوفٍ، وإنما مقداره يكفي لتقديم أساس إذا تمَّ إظهار أهميته ودلالاته، ويقدّم بالتالي هيكل صورة جديدة قد تثبتها أو تعدّلها حقائق لم يسعفني في جمعها وإكمالها ما اطّلعت عليه من المصادر .

فمحاولتي تحمل كل مزايا الأبحاث وعيوبها، التي تقدم صورة رائدة استُنبطت من المعلومات المتفرقة، دون أن أفرض عليها فكرة مُسبقة تصبُّها في قالب سبق إعداده. ورائدي في ذلك عرض ما أراه من حقائق تقدَّم ليفيد منها القارىء، ولتكون أساساً يتابعه الباحثون. والله من وراء القصد.

المدخل

لما أتمَّ الخليفة أبو بكر الصديق القضاء على حركات الردّة والانشقاق، وثبَّت سيادة دولة الإسلام في جزيرة العرب، وأمّن نشر الدين الإسلامي بِمُثُلِهِ العقائدية والاجتماعية بين العرب، وجَّه إلى أطراف الجزيرة العربية القوات المقاتلة المتيسِّرة لديه ممن أصبح أفرادها يؤمنون بالإسلام ومُثُلِهِ ووجوب تحقيق رسالته وتوسيع دولته. وقد أظهرت أعمال أبي بكر أهداف الدولة الجديدة وعزمها على التوسع، وأحرزت نجاحاً في مختلف الجبهات خلال سنة من تقدمها، فضمَّت إلى حضيرة الإسلام كثيراً من العشائر المقيمة في أطراف جزيرة العرب والتي لم تكن قد اتصلت بالإسلام بعد، كما أثارت مشاعر المستائين من تعسُّف الدول التي كانت قد هبطت عليهم من قبل، وبدأت تكشف ما في تلك الدول من ضعف وخلل.

ولما وَلِيَ عمر بن الخطاب الخلافة بعد أبي بكر الصديق، تابع السير على أسس السياسة التي وضعها الرسول (ص) وتنفيذها، وأتاحت له السنوات العشر التي قضاها في الخلافة، تحقيق إنجازات واسعة من أبرز ثمارها امتداد الدولة وضمُّها العراق وبلاد الشام والجزيرة الفراتية ومصر، وهي بلاد لسكانها ارتباط عرقي وثقافي وثيق بسكان جزيرة العرب، ولها في أطرافها الشرقية والشمالية حدود جغرافية تعزلها عما وراءها. وقد تمّ هذا الإنجاز بعد معارك ضارية انتصر فيها العرب على الفرس والروم وأجبروهما على التخلي عن هذه الأقاليم، وكان الاعتماد الأول في الانتصارات على المقاتلة العرب بما أبدوه من بسالة ونظام وطاعة للقواد الذين توجِّه حركاتهم الخلافة، وهي السلطة العليا في البلاد.

تطلَّب الفتح وامتداد الدولة معالجة كثير من القضايا المستجدة، منها ما يتصل بالعرب المقاتلة ومنها ما يتصل بأهل الأقاليم التي ضُمَّتْ حديثاً، وكانت معالجة هذه القضايا ضرورية لإقامة نظام ثابت مقبول. وكان الدليل الهادي الأساس في التوجه، هو القرآن الكريم وأعمال الرسول (ص) والمبادىء العامة فيهما مما يدركها العقل الواعي والحسُّ السليم.

ولما كانت أحكام القرآن الكريم في كثير منها مبادىء عامة، وأعمال الرسول (ص) كثيرة، وبعضها متنوِّع بسبب ظروف وقوع كلٍّ منها، كان لا بدَّ من تثبيت ما تتطلبه مبادىء العدالة وأسس ثبات الدولة بأوضاعها الجديدة. وقد أقرَّ الخليفة عمر بن الخطاب التنظيمات الجديدة بعد تفكير عميق واستشارات واسعة، واتخذ قرارات روعي فيها أن تكون ناجحة في التطبيق، فكانت عند صدورها مقبولة عند الناس. ولم يظهر تردُّد في تطبيقها، ولم يحدث عليه تمرد في التطبيق. ومع أن تنظيمات الخليفة عمر بن الخطاب تعرضت لتعديلات تالية اقتضتها الظروف المستجدة، فإنها ظلت توليها الأجيال التالية، من العلماء، بخاصة، تقديراً متميزاً، فدراستها تكشف عن أسس تنظيم الدولة الجديدة التي ظلت قائمة متماسكة متجاوزة التحديات الصغرى التي كانت تظهر بين حين وآخر، فهي تلقي ضوءاً على الأحوال الاجتماعية والإدارية والاقتصادية، وعلى الأسس العلمية لكثير من السنن والأحكام الفقهية، وكذلك على النظريات السياسية التي صاغها المفكرون وأهل الفرق والأحزاب.

وللبلاد التي ضُمّت إلى دولة الإسلام أوضاع خاصة. فقد كانت قبل ضمِّها تابعة إلى دول قوية لكلٍّ منها نُظُمٌ خاصة وحكام يختلفون عن أهل البلاد في أصولهم وأفكارهم، وكانت هذه الدول «تمتلك» البلاد، ولم يتمَّ إقصاؤها إلا بعد انتصار العرب في معارك دامية، فكان على الدولة الجديدة أن تصدر قراراً بعائدية ملكية البلاد وتقرر وضع أهلها، وكانت معالجتها يسيرة مع أهل البلاد الذين لم يقاوموا الجيوش، وعقدت معهم معاهدات فيها شروط خفيفة، غير أن الأمر كان أعسر مع البلاد التي لم يكن لأهلها عقد أو عهد مع العرب، فكان يُبَتُ في حكمها وتُثَبَّتُ الواجبات الملقاة عليهم والحقوق التي تُؤَمِّنُ لهم.

وكوّن أهل هذه البلاد مجتمعات كثيرة قائمة على أسس من الدين أو المذهب أو العرق أو العيش المتقارب ولكلٍّ منها تقاليد وأعراف خاصة بها بجانب تقاليد عامة يختلف بعضها عما للعرب، كان على الخليفة أن يقرر موقف الدولة من هذه التقاليد والأعراف، وخصوصاً إذا كانت شديدة التعارض مع نُظُمِ الإسلام وتقاليد العرب، لا سيما وأن توسع العرب أثار نشاطاً وقضايا تسريَ على العرب وغيرهم. وكان لا بدَّ من معالجة أمرها بما يضمن القناعة والاستقرار وتيسير الازدهار، كل هذه القضايا كانت تتطلب العلاج الناضج السريع، ولكنها كانت من الكثرة والتنوع بما يسمح للخلافة ألا تقصر تفكيرها على القتال والفتوح فحسب، وإنما تمدُّه أيضاً إلى معالجة قضايا الحياة السلمية، وقد أدرك عمر بن الخطاب جسامة كل ذلك، فأراد أن يقصر التوسع على الحدود الطبيعية التي وصلتها الجيوش في زمنه وهي العراق، والجزيرة الفراتية ومصر.

إن رأي عمر بن الخطاب، في وقف التوسع عند المناطق الجبلية في شمال بلاد الشام والجزيرة الفراتية، وشرق العراق، وعند صحراء ليبيا، تدعمه الصلة الوثيقة بين جزيرة العرب والأقاليم التي حولها، ولكن الأحوال كانت تقضي بمتابعة التوسع، لأن الإسلام لم يحدد مدى التوسع، ولأن توقف الدولة عند هذه الحدود قد يعرِّضها لأخطار، ما يجعل الدولة السابقة تحاول استعادة ما فقدته من الأراضي، وبذلك يتهدم البناء الذي تقيمه. وقد أدرك الخليفة عثمان بن عفان والخلفاء الأمويون الأولون من بعده هذا الخطر فتابعوا توسيع الدولة في جهاتها الشرقية والغربية. ومع أن تقدمهم كان «انسياحاً» واسعاً وسريعاً ولم يَلْقَ مقاومة معرقلة، إلا أنه واجه أوضاعاً وقضايا بعضها يختلف عما واجهه الخليفة عمر، غير أنهم تابعوا معالجتها بالأخذ بما وضعه هذا الخليفة، مع وضع تنظيمات جديدة وتعديلات تؤمِّن تماسك الدولة وتعزِّز هيمنة الخلافة. ولما كان «الانسياح» يتابع «الامتداد» الأول والفصل بينهما تعسفي، فقد ارتؤي معالجتهما مع تفصيل أوفى من الامتداد زمن خلافة عمر بن الخطاب.

تمَّت الفتوحات بإدارة السلطة المركزية للخلافة وتنسيقها وتوجيهاتها العليا، غير أن التطبيق تطلَّب مراعاة الأحوال التي تؤمِّن النجاح. ومن هذه تخصيص

مراكز للمقاتلة تتابع فتوحها في جبهات معيَّنة، هي جبهة العراق، والشام، ومصر ثم القيروان، ولكلٍّ من هذه الجبهات أمير يقيم في المصر الرئيس ويشرف على إدارة المقاتلة والبلاد التي فتحوها، ويتولى قيادة الجيش، ويقوم هو، أو من يولّيه، بإدارة المعارك، وله سلطات واسعة، ومجال في اتخاذ كثير من القرارات، ولكنه يكون تابعاً للخليفة الذي له حقُّ توليته ومراقبة عمله وعَزْلِه.

تطلَّبت الأحوال أن تستقل الجبهات في بلاد الجزيرة وأرمينية، وخراسان وشمال أفريقية، والأندلس. وحدث استقرار في المقاتلة، وأصبح كلٌّ منهم مسؤولاً عن القتال والأمن في جبهته، وكان لذلك تأثير في تنظيم الإدارة وصرف العطاء. فتنظيم بحث الفتوح تبعاً للجبهات قد يشوِّش صورة تناسق الحركات بين الجبهات، ولكنه ييسِّر فَهْمَ سَيْرِ الحركات وارتباطاتها بالتنظيم الإداري وتوزيع المقاتلة والقضايا التي تتصل بها أو تنجم عنها، ولذلك أقمنا تنظيمنا على هذا الأساس الذي يختلف عما اتَّبعه عدد من المؤرخين الذين نظموا كتبهم على أساس السنين أو الخلفاء.

تقتصر الدراسة في هذا الكتاب على متابعة الفتوح وامتداد العرب تبعاً لجبهات القتال، وهي لاحقة لدراستنا عن الدولة في عهد الرسول، وتتابع الاهتمام بعرض أحوال البلاد وسكانها والمشاركين في الحوادث ثم بحث تلك الحوادث وتسلسلها. ونرجو أن نيسِّر في ذلك عرضاً واضحاً لمجرى تاريخ العرب. واللّٰه من وراء القصد.

المصادر

المخلفات الأثرية

لا ريب في أن المخلفات الأثرية تكوّن مصدراً أساسياً معتمداً في دراسة تاريخ أيِّ حقبة، وقد بقي من القرن الأول للهجرة قليل من المعالم الأثرية ومنها أطلال عدد من الأبنية كالقصور في بادية الشام وأبنية حدثت عليها تطورات تالية، ومنها الجوامع في عدد من الأمصار.

ووصلتنا من تلك الحقبة أيضاً كميات غير قليلة من مسكوكات الدنانير الذهبية والدراهم الفضية والفلوس النحاسية، وكانت هذه المسكوكات موضوع دراسات لتوضيح دلالاتها التاريخية والاقتصادية والفنية، وقد أظهرت هذه الدراسات أهميتها في هذه الميادين. غير أن المكتشف من هذه المسكوكات غير شامل، فهو كثير في بعض المناطق والأزمنة، وقليل أو معدوم في أخرى. وبذلك لا تزال فيها فراغات واسعة، إضافة إلى أنها محدودة النطاق، فهي توضح بعض المعالم المطلوبة لا كلّها.

وفي المتاحف مقدار من الآثار التي يرجَّح أنها ترجع إلى القرن الأول للهجرة، هذه الآثار هي من المنسوجات والنقوش والأسلحة والمواد المعدنية، ولكن عددها قليل، والكتابات التي عليها قليلة إلى حدٍّ لا تصلح عنده أن تكون مادة كافية أو أساساً صلداً لاستنتاجات سليمة في التطورات التاريخية.

وقد وصلتنا من ذلك العصر مدوَّنات من أوراق البردي، كُشِفَ منها مقدار

كبير دُرِسَ معظمه دراسات علمية دقيقة[1]، فألقت أضواءً على عدد الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والقانونية والفكرية في تلك الحقبة. غير أن أوراق البردي، رغم أهميتها الفائقة، غير كافية في إلقاء ضوء كامل على الأحوال، فهي أولاً مقصورة على مصر وفلسطين دون غيرهما من الأقاليم، ولا تشمل المناطق كافة، وإنما تخص مناطق وأماكن محدودة حتى في مصر ذاتها. وهي غير موزعة بانتظام على مختلف الأزمنة والأمكنة، ولذلك لا يمكن استخلاص حقائق كاملة منها في معرفة كل النظام الذي قام في مصر أو تطوّره، علماً بأن كثيراً من هذه الوثائق غير كاملة، وفيها فراغات مما هو ممسوح أو ممزق منها، بالإضافة إلى غموض بعض التعابير التي فيها وصعوبة قراءة بعض كلماتها.

وترجع قلة الوثائق المكتوبة التي وصلتنا إلى أن الكاغد، وهو أحسن وأرخص مواد التدوين، لم يعمَّ استعماله في العالم الإسلامي حتى أواسط القرن الثاني للهجرة، فأما قبل ذلك فإن مواد الكتابة كانت إما غالية، كالجلود والأدم، أو أنها كالأقمشة وعسيب النخيل أو ألواح الطين، وهي لا تلائم تدوين الكتب بالمفهوم الحالي.

الروايات والمدونات

اهتمت الدولة بأمر الوثائق، وخاصة المتعلقة بإدارة الدولة فكانت تحتفظ بها في الدواوين. غير أن هذه الوثائق اندثرت في العصور التالية ولم تحفظ الكتب من محتوياتها إلا القليل. ويلاحظ أنه بالرغم مما عُرِفَ عن بعض الخلفاء الأمويين من اهتمامهم بالتاريخ، وتقريبهم للمعنيين به كمعاوية، أو تشجيع بعضهم على تدوين تاريخ الرسول (ص) كالذي فعله عبد الملك وعمر بن عبد العزيز، أو اهتمامهم بأحوال ونُظُمِ الدول السابقة، كهشام بن عبد الملك،

(١) انظر عرضاً عاماً عنها في كتاب الدكتور عبد العزيز الدالي: «البرديات العربية»، وكذلك كتاب جروهمان «من أوراق البردي العربية».

إلا أن المصادر لم تذكر عن أيٍّ من الخلفاء أو الولاة أو الحكام اهتمامه بتدوين أخبار أعماله الخاصة أو الأحداث التي واجهها.

وبسبب فقدان الكاغد وغلاء مواد الكتابة وسرعة تَلَفِها إبان القرن الأول للهجرة، فقد أصبح الاعتماد الأول في حفظ المعلومات على السماع والروايات التي تناقلت كثيراً من الأخبار عن الحوادث السياسية وعن جوانب من الأحوال الإدارية والاجتماعية والاقتصادية والفنية. ومما أغنى هذه الأخبار والمعلومات اهتمام العرب بها وتقديرهم للماضي، واتخاذهم أعمال الرسول (ص) والصحابة والموثوقين من التابعين قدوة في السلوك والتصرف في الحياة[١].

ظلت هذه الأخبار تُنْقَلُ شفاهاً بالروايات حتى بدأ تدوينها في الكتب منذ أواخر القرن الثاني، ووصل التدوين مستوى متقدماً في أوائل القرن الثالث للهجرة. وقد عُنِي العرب بتدريب الذاكرة على حفظ الأخبار، واهتم بعضهم بدقة رواية ما يسمعونه، غير أنهم لم يحرصوا في نقلهم أخبار التاريخ على المحافظة على نص المسموع، كما هي الحال في الحديث النبوي والسنن، ولم تكن رواية الأخبار ملزمة بالحفاظ على حرفية ما يُنقل، وهذا ما عرَّض المرويات المتأخرة إلى بعض التحويرات.

وكان الراوية يستعمل عادة التعابير اللغوية السائدة في زمنه، وكثيراً ما كان يترك استعمال بعض التعابير غير المألوفة عنده، إما لبطلان استعمالها أو لأنها كانت سائدة في بيئات عامية أو أعجمية، فهي من «الغريب» الذي لم يعنوا كثيراً في تناقله أو شرحه وتوضيحه.

كان الرواة يقدِّرون أهمية الأحداث كما تبدو لهم أو كما يقدِّرها أهل عصرهم، وهي قد تختلف عن تقديرها في زمن حدوثها، وهذا التطور في التقدير يرجع بعضه إلى التطورات التالية التي تقتضي إعادة النظر في تقييم الأحداث السابقة، أو إلى تأثر الراوية بمعتقداته في الحكم على قيمة بعض

(١) انظر تفاصيل أوفى في كتابنا «دراسات في نشأة الحركة الفكرية في الإسلام».

الأحداث، مما يجعله يرويها بما يلائم أفكاره الخاصة أو أفكار عصره، أي أن التقدير ينظر إليه بمنظار متأخر نسبياً. ولا ريب في أن لهذا بعض الفوائد، إذ إن مرور الزمن يخفف من أثر (حرارة) الجو التي قد ترافق بعض الأحداث، فتبالغ في أهمية بعضها وتقلّل من أهمية بعضها الآخر، وتفصِّل في ما كان يبدو عند حدوثه بسيطاً. لكن تطور الزمن يظهر أهميتها في مجرى الأحداث.. وهذا يؤدي إلى أننا أحياناً لا نستطيع أن نفهم من الأخبار المتأخرة روايةً روح العصر الذي حدثت فيه.

إنّ تأخُّر التدوين يؤدي إلى إهمال ذكر بعض الأحداث أو تفاصيلها، وبالتالي إلى نسيان بعضها، مما يولد «فراغات» واسعة في معرفتنا، كما أنه قد يبالغ في رواية تفاصيل عن حوادث لم تكن لها الأهمية التي تناسب التفصيل، ولعل هذا يتجلى بأوضح مظاهره في الأمور المتعلقة بالعقائد السياسية والفرق الدينية.

ولا يخفى أن أكثر المدوَّنات من الكتب والمؤلفات، أُلِّفَتْ في الأمصار العربية أي الكوفة والبصرة والمدينة ومكة والشام وبغداد والفسطاط. وكل هذه المراكز لها سمات مشتركة تميِّزها عن غيرها من حيث إن أهلها من العرب وأكثرهم من المقاتلة، ولهم نُظُمٌ ومِلَلٌ متميزة، وهي قد تختلف عما ساد غيرها من الأماكن الحضرية والريفية والصحراوية التي تُعَدّ معلوماتنا عنها نزرة قليلة.

إن ما ذكرنا لا يحجب حقيقة واضحة، وهي أن المعلومات التي وصلتنا عن الحوادث والحياة في القرن الأول للهجرة هي معلومات واسعة، ولا تقل عن المخلفات التي وصلتنا عن الأزمنة التالية التي ظهر فيها الكاغد. وتتجلى هذه الحقيقة عند ملاحظة نسبة الصفحات التي خصصت لأحداث القرن الأول في كتب التاريخ العام. فتاريخ الطبري الذي يعتبر أوسع مصدر اعتمده الباحثون وتابعه المتأخرون بالنقل والتلخيص، خصَّص لحياة الرسول (ص) خمسمائة وتسعين صفحة، وللخلفاء الراشدين ألفاً ومائة وثلاثين صفحة، وللخلافة الأموية ألفاً وخمسمائة وثلاثين صفحة، في حين أنه خصَّص لأحداث الخلافة العباسية حتى سنة ٣٠٢هـ، ألفاً وستمائة وستين صفحة. وخصص اليعقوبي لإخبار سيرة

الرسول (ص) مائة صفحة، وللخلفاء الراشدين تسعين صفحة، وللخلفاء العباسيين إلى سنة ٢٥٩ مائة وستاً وأربعين صفحة. أما خليفة بن خياط فإنه في تاريخه الذي طبع على نسخة واحدة غير كاملة قد خصَّص للسيرة النبوية ستين صفحة، وللراشدين مائة واثنتين وعشرين صفحة، وللأمويين مائتين وثماني وأربعين صفحة، وخصَّص للعباسيين حتى سنة ٢٣٢ ستاً وثمانين صفحة، علماً بأن كثيراً منها قوائم بأسماء الولاة وقتلى بعض المعارك البارزة كأحداث اليمامة ووقعة الحَرّة.

أولى الرواة والمؤرخون بعض الحوادث اهتماماً خاصاً، فكتبوا في عدد منها كتباً خاصة مفصلة، ذكر ابن النديم عدداً منها، ووصلنا بعضها بنصه، أو بما نقل عنه المتأخرون، كالذي كتبه الطبري عن معركة القادسية وفتوح العراق، وعن وقعة الجمل، ووقعة صفين، ووقعة كربلاء وبعض حوادث حركات الخوارج. وأُلِّفَتْ كتب غير قليلة في سِيَرِ عدد من الرجال البارزين في الإدارة والسياسة والعلم، نجد مظهرها في كتاب (أنساب الأشراف) للبلاذري، وما فيه من تفاصيل عن رجال البيت العلوي، والأموي، وعدد من البارزين في القبائل الأخرى من العرب[1].

ومشكلة الباحث في هذه الحقبة هي ليست في كمية المعلومات المطلوب معرفتها لتكون أساساً للبحث، وإنما في طريقة تنظيم هذه المادة، إنْ في إعادة النظر في الجوانب التي يجب أن تبرز، أو في تقدير أهمية كل حادثة تقديراً سليماً وكذلك في مظاهر الترابط، أو بعبارة أخرى في التحليل والتعليل والتقدير الذي ينبغي أن يقدَّم.

تنظيم عرض المعلومات

إن كثرة المعلومات التي وصلتنا عن هذه الحقبة تتطلب قصر الكتاب على بعض هذه المعلومات، أي اختيار ما نراه منها صحيحاً ومنسجماً مع نطاق

(١) انظر القائمة التي نشرناها ضمن كتاب «علم التاريخ عند المسلمين»، وفيها إعادة ترتيب لما أورده ابن النديم تبعاً للمواضيع.

البحث وميدانه. ولما كانت المعلومات المتروكة كثيرة، فسنغفل الإشارة إليها، باستثناء ما كانت له أهمية خاصة، وذلك تجنباً لتضخم حجم الكتاب أو إرباك القارىء وتشتيته وصرفه عن متابعة الحوادث. وسنقتصر على ذكر الحوادث التي نراها أساسية، ونفصل فيما نراه مهماً، ونقتصر في الهوامش على ذكر المراجع المهمة فحسب، تاركين جزئيات التفاصيل للأبحاث المتخصصة المستوعبة التي يخرج هذا الكتاب عن نطاقها.

المؤلفات الأولى في الفتوح

ذكرت بعض المؤلفات الأولى التي وصلتنا عن الفتوح رواة نقلت عنهم أخبار الفتوح، وغالبية الذين ذكرتهم هم من رجال أوائل القرن الثاني للهجرة، وبعضهم ممن ذكرت المصادر أنهم مؤلِّفو كتب.

لقد وصلتنا أخبار الفتوح من كتب قديمة بارزة منها تاريخ خليفة بن خياط (ت ٢٤٠)، و«فتوح البلدان» للبلاذري (ت ٢٥٩)، و«تاريخ الرسل والملوك» للطبري (ت ٣١١)، وكتاب «الفتوح» لابن أعثم (ت ٣١٤)، وتاريخ اليعقوبي (ت ٢٨٤).

وذكرت هذه الكتب الرواة الذين نقلت عنهم أخبارها، واختلفت في كثرة ذكرها، فخليفة بن خياط ذكر رواة بعض الأخبار، وأغفل ذكرهم في كثير من الأخبار. أما البلاذري فأشار إلى كثير، ممن نقل عنهم الأخبار وسمّاهم، غير أنه في أخبار كثيرة يكتفي بـ «قالوا» دون أن يذكر أسماء من قالوا.

أما الطبري، فيتميز بعنايته بالإسناد، فهو يذكر في أخباره كافة تقريباً أسماء من نقل عنهم.

إن أبرز الشيوخ الذين أشارت هذه المصادر إلى اعتمادها عليهم هم: ابن إسحاق (ت ١٥٠)، والواقدي (ت ٢٠٧)، وأبو مخنف[١] (ت ١٥٧)، وأبو

---

(١) تجد تفاصيل عن هؤلاء الشيوخ وغيرهم في كتاب فؤاد سزكين «تاريخ التراث العربي»، م ١، ج ٤ ـ (الترجمة العربية).

عبيدة (ت ٢٠٤)، والهيثم بن عدي (ت ٢٠٦)، وعلي بن محمد المدائني (ت ٢٢٩)، وسيف بن عمر (ت حوالى ١٩٠).

فأما ابن إسحاق والواقدي، فهما من أهل المدينة، تلقّى كلٌّ منهما فيها العلم وقضى معظم حياته، ونقل عن علمائها، فهما يمثلان علم «أهل الحجاز»، ولكن أكثر رواتهما من أهل العراق، وقد ألَّف كلٌّ منهما كتاباً في سيرة الرسول، كان معتمد المتأخرين في موضوعه.

ذكر ابن النديم لابن إسحاق كتاباً في «الخلفاء» نشرت نبيهة عبود وعبد العزيز الدوري قطعة منه. وذكر للواقدي كتابين في «فتوح العراق» و«فتوح الشام» وفي فتوح كلٍّ من مصر، والبهنسا، وأفريقية، والجزيرة، والخابور، وآمد، ومنها مخطوطات لم تطبع بعد. وقد فقدت هذه الكتب، وتداول الناس للواقدي كتباً في هذا الموضوع لكنها أقرب إلى القصص. مما يدل على أنها منسوبة إليه، وأنه لم يؤلفها لبعد معلوماتها عن الحقائق المعروفة.

أشار كلٌّ من خليفة والبلاذري والطبري إلى نقله عن ابن إسحاق والواقدي، وكان خليفة أكثر نقلاً منهما. ويظهر مما نقلوه عنهما أنهما يقدمان أرقاماً معتدلة عن عدد العرب المشاركين في المعارك، فجاء عرضهما بسيطاً مركّزاً وخالياً من المبالغة في وصف الأحداث، أو بطولات الرجال، كما أنهما يبرزان دور الخلافة في تسيير الأحداث. ويدل ما نقل عنهما أنهما قصرا بحثيهما على فتوح العراق وبلاد الشام وأخبار غزو الروم، دون الأقاليم الأخرى. ولم يذكر الناقلون عنهما أسماء المصادر التي استقيا منها المعلومات عن الفتوح.

أما أبو مخنف، والهيثم بن عدي، وسيف بن عمر، وأبو عبيدة، والمدائني وعمر بن شبّة، فهم عراقيون: الثلاثة الأولون من أهل الكوفة، والثلاثة الآخرون من أهل البصرة.

وأما أبو مخنف، فقد ذكر له ابن النديم عدداً كبيراً من الكتب، كلٌّ منها في أحد أحداث العراق، وخصوصاً ما يتصل بالكوفة. ولم يصلنا أيٌّ من كتبه، لكن الطبري في «التاريخ» والبلاذري في «الأنساب» وفي «فتوح البلدان»،

يكثران من نقل نصوص طويلة عنه في الحوادث المتصلة بالكوفة، والتي يتميز فيها بالتبسّط في العرض، وبذكر الشيوخ الذين استقى منهم المعلومات، وذكر له ابن النديم كتاباً عنوانه «فتوح العراق»[1]، لعل الإشارات القليلة، التي أوردها الطبري والبلاذري ونسباها إليه في الفتوح، كانت منه.

أما الهيثم بن عدي، فقد ألَّف كتباً كثيرة لم يصلنا منها سوى مقتطفات نقلها الطبري والبلاذري، وأكثر كتبه التي ذكر أسماءها ابن النديم هي في حوادث متصلة بالكوفة، غير أنه ذكر له الكتب التالية: «التاريخ على السنين» و«تاريخ الخلفاء» و«الصوائف» و«نزول العرب خراسان» و«مداعي أهل الشام»[2]. ولعل القليل الذي نقله عنه الطبري والبلاذري في أخبار الفتوح كان من هذا الكتاب.

أما أبو عبيدة معمر بن المثنّى، فكان من كبار العلماء، ألَّف كتباً في تاريخ العرب قبل الإسلام وفي حركات الخوارج كانت معتمد كثير من المؤلفين في الموضوع. وذكر له ابن النديم ثلاثة كتب متصلة بالفتوح هي «السواد وفتحه» و«فتح خراسان» و«أمر قتيبة»[3]. وقد فقدت هذه الكتب، ولعل ما نقله عنه الطبري في أخبار الفتوح كان منها.

وذكر ابن النديم كتاباً في الفتوح لعبد الله بن محمد بن أبي شيبة[4]، ولعله الجزء الخاص بالموضوع الذي ورد في كتابه «المصنف».

أما علي بن محمد المدائني، فقد ذكر له ابن النديم كتباً كثيرة اختص كلٌّ منها بفتح إقليم، وهي تشمل الشام، ومصر، والنوبة، وبرقة، والجزيرة، وأرمينية، والعراق، والبصرة، والأهواز، وفارس، وسجستان، وكرمان، ومكران، والهند، والقلاع والأكراد، والري، وطبرستان، وجرجان،

---

(١) الفهرست لابن النديم.
(٢) الفهرست لابن النديم، ص ١١٥.
(٣) الفهرست لابن النديم، ص ٥٩.
(٤) الفهرست لابن النديم، ص ٢٥٨.

وخراسان[1]. ويتبين من هذه القائمة أنه استوعب دراسة فتوح أقاليم الدولة الإسلامية كافة، في المشرق. وقد فقدت هذه الكتب إلا ما نقله الطبري والبلاذري، وهي إشارات قليلة، غير أنها واسعة ومفصلة في أحداث خراسان وما وراء النهر، حيث كان المعتمد الأكبر للطبري في ذلك، ولعله استوعب نقل كل كتاب المدائني الذي يذكر شيوخه.

أما سيف بن عمر، فذكر له ابن النديم ثلاثة كتب هي «الفتوح الكبير»، و«الردة»، و«الجمل ومسير عائشة»[2] وكان المعتمد الأكبر للطبري في ما أورده عن الردة وفتوح العراق، وبعض فتوح الشام ومصر.

ينقل ابن النديم عن أحمد بن الحارث الخزاز أن العلماء (في زمنه) كانوا يَرَوْن «أبا مخنف يهتم بأمر العراق وأخبارها وفتوحها يزيد على غيره، والمدائني بأمر خراسان والهند وفارس، والواقدي بالحجاز والسيرة، وقد اشتركوا في فتوح الشام»[3].

أما فتوح مصر فأقدم الكتب التي توسعت فيها كتاب «فتوح مصر» لابن عبد الحكم الذي كان المصدر الأساسي لمن تلاه[4].

المؤلفات الحديثة

إن الصورة المثالية للدراسة التاريخية هي استيعاب مختلف جوانب النشاط الإنساني بما فيها الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية، مع مراعاة مدى أهمية كل عامل وتقديره، وتوضيح ماهيته وأثره، أي مدى تفاعله

---

(١) الفهرست، ١١٣ ـ ١١٦، وانظر عنه «موارد البلاذري» لمحمود المشهداني.

(٢) الفهرست، ١٠٦، وانظر عنه تفاصيل أوفى في بحث الدكتور جواد علي «موارد تاريخ الطبري».

(٣) الفهرست، ١٠٦.

(٤) انظر «فتح العرب للمغرب» لحسين مؤنس. وانظر «تاريخ التراث العربي» لفؤاد سزكين، و«نشأة علم التاريخ عند المسلمين» لعبد العزيز الدوري، ففي كل منهما تفاصيل أوفى.

في الأحداث المعاصرة وأثره في التطورات التالية. غير أن اختيار المادة الموضحة لهذه الجوانب، ومدى التعمق في تحليلها، وطريقة عرضها، كل ذلك يواجه مشاكل ليس من اليسير أن تحظى بالتقدير العام. وقد ركز عموم المؤرخين العرب على اهتمامهم بسرد الحوادث السياسية، وأوردوا أحياناً روايات متناقضة، وذكرت بعض كتب الفقه والأدب حوادث أشارت إلى شرعيتها، وعنى أهل علم الرجال بنقد الرواة وتقرير مدى الاعتماد عليهم، كما أشارت بعض الكتب إلى أهمية عدد من الحوادث ونتائجها، ولكن أبحاثها متفرقة تتطلب من الباحث الحديث إظهار التنسيق بينها لإظهار التطور العام.

إننا في دراستنا هذه نسعى إلى الإفادة من المعلومات التي وردت في مختلف أصناف المصادر الفقهية والأدبية والجغرافية وغيرها، دون الاقتصار على ما جاء في كتب التاريخ العام التي تعنى بالحوادث السياسية.

حظيت الحقبة المُخصّص هذا الكتاب لدراستها باهتمام واسع من الأقدمين والمحدثين فأُلِّفت كتب كثيرة فيها أو في بعض أحداثها أو جوانب تطوراتها أو رجالها، ويخرج عن نطاق هذا البحث إيراد الدراسات الحديثة كافة، وفيها كثير من القيم. وإنما نقتصر على ذكر الكتب المهمة في الموضوع، وهي كتب أَلَّف بعضها المستشرقون، وبعضها العرب.

فأما المستشرقون فمن أوائل من كتب في التاريخ العام وليم موير، غير أن أبرز المؤلفين في هذه الحقبة هما يوليوس فلهاوزن وليوكايتاني.

وقد غدا كتاب فلهاوزن «الدولة العربية وسقوطها» المرجع الأساسي للباحثين، وهو يعتمد بالدرجة الأولى على تاريخ الطبري، مع ملاحظات وتحليلات قيِّمة، وقد يكمله كتاب آخر عن حركات الشيعة والخوارج، وكلا الكتابين مترجم إلى العربية، كما بحث فلهاوزن عدداً من أحوال صدر الإسلام في كتاب «فصول ومقدمات».

وأما كايتاني، فإن كتابه «الحوليات الإسلامية» الممتد إلى سنة ٤٠هـ استوعب فيه المصادر العربية والأجنبية، مع تعليقات نقدية قيِّمة، وتحليلات

عميقة لا يستغني عنها باحث هذه الحقبة، وقد يكمل هذا الكتاب دراساته التي نشرها في «دراسات في التاريخ الشرقي» وفيها تلخيص لنظرياته في بعض الحوادث والجوانب. ومع أن دراسات تالية أصلحت وكملت ما كتبه كايتاني، فإنه ظل يشغل مكانة بارزة في دراسة هذه الحقبة، علماً بأنه يبالغ أحياناً في نقده ويميل إلى أبرز العوامل الاقتصادية وإعطائها مكانة أكثر مما تستحق.

وكتب بعض المستشرقين في الأزمنة القريبة عدداً من الكتب العامة نذكر منها: «تاريخ العرب» لفيليب حتي، اللبناني الأصل، و«تاريخ الشعوب الإسلامية» لكارل بروكلمان، و«الحضارة العربية» ليوسف هل، و«العرب في التاريخ» لبرنارد لويس، و«تاريخ العرب» لكلٍّ من كلود كاهين، ودومينكوسورديل، وإيليسيف، وهي كتب مقتضبة، ولكنّ فيها عرضاً واضحاً، وتحليلات وترابطاً جديراً بالتقدير.

وتناولت بعض الدراسات الحديثة الفتوحات الأولى، ومن أحدثها كتاب «الفتوحات الإسلامية الأولى» لدونر، وفيه دراسة واسعة وآراء مستوعبة لموضوعه، وتجدر الإشارة إلى كتاب «العراق بعد الفتوح الأولى» لموروني، وفيه دراسة شاملة للأحوال البشرية والاقتصادية للعراق، مع قائمة مستوعبة بالمصادر.

ونشر عدد من الدراسات في فتوح إقليم واحد، من أبرزها «مذكرات في فتح العرب بلاد الشام» لالدي خويه و«فتح العرب مصر» لبتلر. وبحث فتوح المغرب والأندلس عدد من المستشرقين من أبرزهم ليفي بروفنسال عن الأندلس، ومارسيه عن أفريقية. كما ألَّف عدد من العرب المحدثين كتباً في فتوح عدد من الأقاليم ومنهم جورج مرعي حداد وأحمد كمال عادل في فتح الشام، وحسين مؤنس وسعد زغلول في فتح بلاد المغرب.

وبالنظر للأهمية الكبرى للفتوح في أحداث هذا القرن وأثرها في الإدارة والنظم والحياة العامة، فقد درست بتفصيل. ومن المعلوم أن حركات الفتوح

كانت سريعة وفي جبهات متعددة ثم تباطأت وبعدت جبهاتها بمرور الزمن. وقد اتَّبعت الكتب في عرض حوادثها العامة طريقتين متمايزتين. الأولى: اتبعها خليفة بن خياط، واليعقوبي ثم الطبري ومن تابعه. وتذكر حوادث كل سنة في مختلف الجبهات، وهذه الطريقة تظهر الترابط والتنسيق بين الحوادث ضمن إطارها العام الزمني، غير أنها تقطع الحوادث ولا تظهر الاستمرارية في كل منطقة.

أما الطريقة الثانية، فتتجلى بأوضح أشكالها في كتاب «فتوح البلدان» للبلاذري، حيث يتتبع حوادث الفتوح تبعاً للجبهات، فيتكلم عن امتداد الإسلام في الجزيرة العربية ثم عن الفتوح في جبهة بلاد الشام منذ بدايتها حتى بلوغ الجيوش الإسلامية أرمينية، ثم ينتقل إلى جبهة الكوفة فيتحدث عنها منذ بدايتها في حركات المثنّى حتى وصول الجيوش أذربيجان، ثم يتلوها فتوحات البصرة وجبهتها في خراسان وجنوب الهضبة الإيرانية فالسند، وهذه الطريقة أكثر ملاءمة لفهم التنظيمات الإدارية والاجتماعية، لأن الجيش الذي يوجه إلى جبهة يستقل بها ويستمر في حركاته، ويكون مسؤولاً عن حفظ الأمن والنظام في البلاد التي يفتحها، كما يأخذ عطاءه من جباياتها، وتتبع هذه البلاد والي المصر الذي يستقر فيه هذا الجيش.

وسنتَّبع في عرض الحوادث الطريقة الثانية، فندرس الأحداث في كل جبهة منذ بدايتها حتى نهاية القرن الأول، علماً بأننا سنعتمد على المادة التي اتَّبعت الطريقة الأولى، أي طريقة الحوليات، وهي مادة لا تناقض ما جاء في الطريقة الثانية، وإنما هما متكاملتان.

الفصل الأول

الشرق الأوسط عند ظهور الإسلام

عندما ظهر الإسلام كانت تسيطر على أقاليم الشرق الأوسط دولتان كبيرتان هما الدولة الساسانية والدولة البيزنطية. فأما الساسانيون فقد شملت دولتهم كل الأقاليم الواقعة بين نهر الفرات غرباً ونهر جيحون في أواسط آسيا شرقاً. وأما البيزنطيون، فقد شملت دولتهم بعض أراضي شرق أوروبا كما شملت آسيا الصغرى وبلاد الشام وفلسطين ومصر وشمال أفريقية وإسبانيا وإيطاليا. وقد تأسست كلٌّ من هاتين الدولتين قبل الإسلام ببضعة قرون. فاستطاعتا أن تحكما مدة طويلة، نظمتا فيها الإدارة، واتّسمتا بالقوة والعظمة، لكن كلاً منهما كانت تواجه مشاكل تضعفها.

الساسانيون

تأسست الدولة الساسانية في أواسط القرن الثالث للميلاد[1] على يد بابك بن ساسان، وكان حاكماً على أحد قلاع فارس، ثم استطاع ابنه أردشير أن يوسع أملاكه ويقضي على الملوك والحكام الضعفاء حتى وصل إلى العراق واتخذ طيسفون، في وسط العراق عاصمة له، وظلت عاصمة للدولة طوال حكم الساسانيين. وكانت هذه الدولة تسمى أيضاً الدولة الفارسية نسبة إلى إقليم

---

(١) أوسع المصادر العربية في تاريخ الساسانيين هو «تاريخ الأمم والملوك» للطبري؛ و«مروج الذهب»، و«التنبه والإشراف» للمسعودي. وأوسع الكتب الحديثة هو كتاب «إيران في عهد الساسانيين» لكرستن‍ـن. وكذلك الجزء الثالث من كتاب «تاريخ إيران» الذي طبعته جامعة كمبردج وشارك في كتابته عدة باحثين، وفيه قائمة مستوعبة بالمصادر.

فارس الذي نشأت فيه أول مرة وظل ملوكها يقرِّبون أهل ذلك الإقليم ويعتمدون عليهم ويقدمونهم على أهل بقية الأقاليم.

وانحصر الحكم في هذه الدولة بأبناء الأسرة الساسانية وحدهم، حتى أصبح الناس يعتقدون في زمنهم أن حكمهم بتفويض إلّهي، وأن الآلهة لا تؤيد من يريد الاستيلاء على الحكم من غير أبناء هذه الأسرة. وقد ساعدت هذه العقيدة على تثبيت سلطان الساسانيين، ولكنها أدت أيضاً إلى أن يصل إلى الحكم كثير من الملوك الضعفاء والفاسدين. ولما كان حكم هذه الدولة منحصراً بالأسرة الساسانية سُمِّيَتِ «الدولة الساسانية».

اعتنق الملوك الساسانيون الدين الزرادشتي الذي كان أول من دعى إليه زرادشت في القرن السادس قبل الميلاد. واستطاع أن يجلب إليه ملوك الدولة الأخمينية، فانتشر في زمنهم، فلما سقطت هذه الدولة وسيطر الإغريق على بلاد الشرق الأوسط أهملوا هذا الدين فقلَّ أتباعه وضاع كثير من كتبه المقدسة، وتشتت أنصاره فالتجأوا إلى الأقاليم البعيدة الوعرة وبخاصة إقليم فارس.

ولما كوَّن الساسانيون دولتهم جعلوا الزرادشتيه ديناً رسمياً للدولة، ونظموا إدارته، وقربوا رؤساءه، وعملوا على جمع الآفستا، وهو الكتاب المقدس عند الزرادشتيين، وبنوا بيوت النيران وأغدقوا عليها الهبات، وأوقفوا عليها أراضي واسعة.

وبجعل الساسانيين الزرادشتية ديناً رسمياً للدولة استفادوا من رجال ذلك الدين الذين صاروا يسندون الدولة ويدعمونها ويثبتونها بين العامة وفي مختلف الأرجاء الواسعة التي ينتشر فيها رجال الدين، فزاد ذلك من اعتقاد الناس بشرعيتها.

غير أن الدين الزرادشتي كانت أفكاره غريبة وطقوسه معقدة، ونُظُمُهُ شديدة متزمِّتة، فلم يُقْبِلِ الناس على اعتناقه، وظل أتباعه قلة محصورة بالهيئة الحاكمة ومن حولها. أما أغلبية سكان تلك الدولة الكبيرة، فلم يعتنقوا ذلك الدين،

وانتشرت بينهم أديان متعددة أخرى، خصوصاً النصرانية واليهودية، واحتفظ أتباعهما بتنظيمات إدارية دينية خاصة بهم. وكان أتباع هذه الديانات يشعرون أن الدولة غريبة عنهم، وأنهم كالأجانب فيها، فزاد ذلك من سَعَةِ الهوّة بين الحكام وبين الشعب.

كانت الدولة الساسانية طبقية إقطاعية، وقد قرَّبت أبناء الطبقات العليا ورَعَتْهُم وحفظت مكانتهم وأغنت امتيازاتهم. ومن الطبيعي أن أعلى الأسر هي الأسرة الساسانية التي انحصر الملك فيها. وقد وَلِيَ عدد من أفرادها قيادة الجيوش وإدارة الولايات الكبيرة، كما كانوا يمتلكون إقطاعات وأراضي واسعة.

ويتلو الأسرة الساسانية في المكانة البيوتات السبعة وهم أُسَرٌ قديمة كان يسيطر كلٌّ منها على إقليم واسع يتولى إدارته وجباية أمواله وإقامة القضاء فيه. ولكلٍّ من رؤساء هذه البيوتات السبعة إقطاعات وأملاك غنية، وجيش خاص يأتمر بأمره، وأشهر هذه البيوتات السبعة هي أسرة قارن التي كانت تسيطر على المناطق الشمالية الغربية. وكان جيش قارن أول جيش اصطدم به المسلمون عندما تقدموا إلى العراق بقيادة خالد بن الوليد في زمن خلافة أبي بكر. وقد شارك جيش قارن في المعارك الأخرى ضد العرب. فلما سقطت الدولة الساسانية، انتقل قارن إلى طبرستان وسيطر عليها، ولم يستطع المسلمون إخضاعه إلا في عهد خلافة هارون الرشيد، ثم عاد رئيس هذه الأسرة وقادة الخرّمية في ثورتهم على المأمون، وظل يقاتل الجيوش الإسلامية القوية التي جهزها المعتصم ضده إلى أن استسلم أخيراً.

ومن البيوتات السبعة المشهورة أسرة سورين التي كانت تحكم في الأهواز، وقام رئيسها الهرمزان بمقاومة الجيوش الإسلامية لمدة سنتين، ثم عقد مع المسلمين صلحاً ضَمِنَ فيه لجنده أن يُعاملوا كالجيوش العربية، فيعطوا شرف العطاء ويشاركوا مع المسلمين في الفتوح[١]. أما الهرمزان فقد أُرسل إلى

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري.

المدينة حيث أقام فيها وأُعْطِيَ شرف العطاء، وكان عمر يستشيره في قتال الفرس، ثم اتُّهِمَ بالتحريض على قتل عمر، فهجم عليه عبيد الله بن عمر وقتله.

وكانت بلاد الدولة الساسانية مقسمة إلى أقاليم إدارية متعددة، يحكم كثير منها ولاة يعيِّنهم الملك؛ ولولاة الأقاليم الواقعة على الحدود سلطات إدارية وعسكرية واسعة، ويدعى كلٌّ منهم «مرزباناً» كما أن كثيراً من المناطق في الدولة كان يحكمها حكام يتولون مناصبهم بالوراثة، ويدعى كلٌّ منهم بـ «شاه» أي ملك. وقد عدَّد ابن خرداذبه خمسة وعشرين من هؤلاء الشاهات[١]، وأكثرهم في الأطراف الشرقية من الدولة. وتتوافر تفاصيل واسعة عن ملوك الحيرة، حيث كان لكلٍّ منهم جيش خاص، وله تنظيم إداري خاص، ويتمتع باستقلال واسع لا يتدخل فيه الملك الساساني، ولعل كثيراً من الملوك الآخرين كانوا يتمتعون بمثل هذه السلطات.

أشارت الكتب إلى طبقات أرستقراطية، منها «الآزادان» أو «أولاد الأحرار» و«الأساورة» ولكنها لم تذكر شيئاً من أصولها وامتيازاتها سوى أن الفرسان كانوا يؤخذون من الأساورة.

أثار تعالي الطبقات الأرستقراطية وامتيازاتها واستغلالها ونفوذها إستياء الناس، حتى إنهم قاموا ضدهم بعدة ثورات كان أوسعها ثورة مزدك التي ساندها الملك قباذ، ونجحت هذه الثورة بتدمير الطبقات الأرستقراطية، ولكن لما تولى الحكم أنوشروان بعد أبيه قباذ، اضطهد المزدكية وأعاد النظام الطبقي بأشد مما كان قبله، فجمع الأرستقراطية التي كان أفرادها قد تشتتوا، وحماهم ورعاهم، وأعدَّ سجلات دوّن فيها أسماءهم وأنسابهم وأحوالهم، وأعاد لبعضهم أملاكه، وأدخل كثيراً منهم في بلاطه ليقوموا بخدمته[٢].

ونظَّم أنوشروان أيضاً رجال البلاط وموظفي الدولة على طبقات، وعيَّن لكلٍّ

---

(١) المسالك والممالك. وانظر كتابنا «التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة».
(٢) بالإضافة إلى كتابَيْ كريستسن وكمبرج، ينظر كتاب «المدن الساسانية» لبيجو لوفسكايا.

منهم طبقته، فلا يجوز له تجاوزها في سلوكه أو عند مقابلته للملك أو في الاحتفالات وحضور المآدب. وسرى هذا التنظيم الطبقي حتى على الموسيقيين والمغنين الذين عين لهم بُعد مكانهم عن الملك إذا استدعاهم لطربه، كما عيَّن موضع كلٍّ واحد، وأمر بإعداد كتاب للتشريفات «جاهنامه» فيه قواعد سلوك الناس بحسب طبقاتهم[1].

وعيَّن للصناع وأصحاب الحرف رؤساء يحفظ كلٌّ منهم سجلاً بأسماء أفرادها، ويشرف عليهم، ويقال إنه أجبر كل فرد أن يرث حرفة أبيه ولا ينتقل إلى غيرها. أما الفلاحون فقد أجبرهم على البقاء في الريف، وعيَّن موظفين يراقبونهم ويمنعونهم من الانتقال إلى المدن لسكناها. ولم يكن الفلاحون في حالة يُحسدون عليها، إذ كانوا يعيشون في بيوت مبنية من الطين، وهي صغيرة وغرفها قليلة، ويتعيش فيها معهم الحيوانات التي يستخدمونها في الزراعة والنقل، أو الماشية وهم في الغالب لا يمتلكون الأرض التي يزرعونها، ولا يحصلون من عملهم إلا على نسبة ضئيلة من المنتوج الذي يذهب باقيه، وهو يبلغ ٣/٥ المنتوج، إلى الملاكين والإقطاعيين وإلى الخزينة المركزية التي كانت تجبي الخراج بالإضافة إلى عدد غير قليل من الضرائب الأخرى. وكثيراً ما كان الفلاحون يسخّرون لبناء الجسور وحفر الترع وصيانتها ومقاومة الفيضان. وتجدر الإشارة إلى أن العراق كان أغنى أقاليم الدولة، وكان فلاحوه عرباً من أهل الجزيرة في الأصل، ويعتنقون بمعظمهم المسيحية، فكانوا منعزلين في الأصل والدين واللغة والثقافة عن الحكام الساسانيين الذين كانوا يعيشون حياة مترفة، ويبذخون في صرف الموارد.

ومما زاد الأحوال سوءاً حدوث فيضان استثنائي في السنة السابعة للبعثة النبوية، فتكسر كثير من السدود، وتبدلت مجاري الأنهار في جنوب العراق، فجفَّ بعضها، وطغى الماء على بعضها الآخر فأغرقها، فتدمرت المزارع

---

(١) انظر كتاب «التاج في أخلاق الملوك» المنسوب للجاحظ، وكذلك «التنبيه والإشراف» للمسعودي.

واتسعت البطائح، ولم يفلح الساسانيون، رغم ما بذلوه من جهود، في إعادة الأوضاع إلى أحوالها الأولى[١]. ثم تلا ذلك طاعون اجتاح البلاد فأفنى معظم سكانها[٢]، وكان أحد أسباب حدوث اضطرابات داخلية وخلافات كثيرة على ولاية العرش، ما أدى إلى انقسام الأسرة المالكة واضطراب الإدارة وتولي النساء الحكم، وتسلم ملوك صغار ضعفاء العرش.

وقد تعاقب على الحكم قبيل تقدم العرب ستة ملوك، معظمهم من النساء، خلال مدة سنتين إلى أن استقر الأمر على تولّي يزدجرد العرش، وهو شاب صغير قضى حياته الأولى في الأهواز بعيداً عن العاصمة ولم يكن مطّلعاً على أحوالها أو مسيطراً فيها، وكان يرافق هذه التبدلات قتل عدد كبير من مؤيدي الملك المعزول.

وكانت دولة المناذرة تهيمن على الأطراف الغربية للدولة وتؤمن ضبط العشائر العربية من التجاوزات على الحدود، غير أن الساسانيين قضوا على هذه الدولة، فزال الحاجز الذي يصد تقدم العرب، لتزداد العلاقة بين الطرفين سوءاً، حين كثرت غارات العرب على أطراف السواد الغربية، ولم تكن للساسانيين فيها دفاعات قوية فكان ذلك مساعداً على تقدم الجيوش العربية ودخولها العراق وقضائها على الحكم الساساني.

الجيش

اعتمدت الدولة الساسانية في تأسيسها وتثبيت حكمها على القوة العسكرية، واتَّبعت سياسة هجومية توسعية، فعمل ملوكها على توسيع بلادهم، وخاصة نحو الغرب، فاضطربت حالة السلم التي كانت قد سادت الشرق الأوسط في القرون السابقة، وتكررت الحروب مع الدولة البيزنطية فتسببت بتدمير كثير من المدن والمزارع، وازدادت أعباء الدولة جراء ما كانت تنفقه على الجيش.

---

(١) انظر فتوح البلدان.

(٢) انظر «المناقب المزيدية» لأبي البركات.

والقوة الرئيسة في الجيش الساساني هي جيش الأمبراطور الذي كان يأتمر بأمر الملك، الذي كان يقوم بنفقات هذا الجيش ويشرف على تدريبه وإدارته، ويقيم هذا الجيش في وقت السلم، عادة، في العاصمة.

كان رمز الجيش الملكي الراية الملكية «درفش كابيان»[١] وكانت من جلود النمور، طولها اثنا عشر ذراعاً وعرضها ثمانية أذرع، مرصعة بالياقوت واللؤلؤ وأنواع الجواهر، وتحمل على خشب طوله اثنا عشر ذراعاً وكانت فارس تتيمَّن بها وتظهرها في الأمر الشديد[٢].

والخيالة هم عماد الجيش الساساني وقوته الضاربة، ولذلك كان فرسانها يُختارون من طبقة الأساورة النقية الدم؛ وكان الفرسان مجهزون بأجهزة ثقيلة، فكان لكل فارس تجفاف ودرع وجوشن وبيضة ومِغْفر وساعدان وساقان ورمح وترس وجُرز يلزمه منطقته، وطبرزيناً وعموداً وجعبة فيها قوسان ووتراهما وثلاثون نُشّابة ووتران ملفوفان[٣].

لم تذكر المصادر دوراً للخيالة في معارك الفرس مع العرب أو في القادسية، وإنما ذكرت استخدامهم البغال، إذ إن رستم عندما أراد الفرار ركب بغلاً، كما استخدم الساسانيون في جيشهم الفيلة، وكان قد استخدمها قديماً عدد من الدول بمن فيهم الفراعنة والبطالسة والسلوقيون.

وكانت الفيلة التي اقتناها الساسانيون تُستورد من الهند[٤] ومعدل ارتفاعها حوالى عشرة الايج، ونادراً ما كانت تبلغ اثني عشر ذراعاً[٥]، وألوانها رمادية أو بيضاء[٦] كانت هذه الفيلة تُكسى بالتجافيف من الحديد وتُجلل بالديباج

(١) فتوح البلدان ٢٥٤، مروج الذهب ٢/٣٠٨.
(٢) مروج الذهب ٢/٣١٩.
(٣) الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري ٧٣.
(٤) مروج الذهب ١/٣١٢، الطبري ١/١٠٥٠.
(٥) مروج الذهب ١/٣١٣.
(٦) الحيوان للجاحظ ٧/١٨٣.

والحرير[١] وتوضع فوقها صناديق يجلس فيها المقاتلة من رماة النبال[٢]، ويبلغ عددهم عشرين رجلاً على كل فيل[٣]. وتوضع الفيلة عادة في الطليعة، يحيطها الرجالة والخيالة، ووضعها في الأمام مع ارتفاعها يمكِّنها من أن تكون منظرة لشهود المعركة[٤]، وقد استخدم الفرس في معركة القادسية ثلاثين فيلاً[٥].

وكانت مقاتل الفيلة في مشافرها وعيونها[٦]؛ وإذا قطعت وُضُتها سقطت الصناديق التي عليها المقاتلة[٧].

أما المشاة فكانوا يُجمعون من الفلاحين وأبناء الشعب، ولم يكونوا مدربين على القتال أو متحمسين له. لذلك كثيراً ما كانوا يُربَطون بالسلاسل والحبال أثناء المعارك كيلا يفرّوا[٨]، وهم يستعملون النشاب والنبال لصدِّ أيِّ تقدُّم، فيكونون موانع تعرقل تقدُّم العدو، ولكنهم قد يعرقلون مرونة الحركات التي تتطلبها مقتضيات القتال ويتعرضون للقتل عند اندحار الجيش[٩].

واستعمل الفرس لتعطيل الخيل حسك الحديد والرمي بالنبال، كما كانوا يقرنون خيلهم بعضها ببعض كي لا تفر[١٠].

ولا بدَّ أن الجيش كان يرافقه عدد من الأتباع والخدم ليقوموا بالخدمات التي يحتاجها الجيش من إعداد الطعام والعلوفة، وجمع النبال وإعداد الأسلحة. وعموماً، فإن الجيش الساساني كان حسن التجهيز جيد التنظيم والتدريب.

---

(١) التنبيه والإشراف ٩٠.
(٢) الطبري ١/٢١٦٣.
(٣) الطبري ١/٢٢٩٦.
(٤) الطبري ١/٢٤٦٢، فتوح البلدان ٢٥٧.
(٥) الطبري ١/٢٢٨١ ـ ٢/٢١٩٤.
(٦) الطبري ١/٢٣٢٥، ٢٢٦٦.
(٧) الطبري ١/٢٣٠١، ٢٣٢١.
(٨) الطبري ١/٢٢٩٤؛ مروج الذهب ٢/٣١٨.
(٩) الطبري ١/٢٢٩٤، ٢٢٣٢، ٢٢٣٧، ٢٢٥٨.
(١٠) الطبري ١/٢٣٥٦.

وكان لكلٍّ من الأمراء والحكام المحليين جيش خاص بهم يقومون بإعداده وتدريبه والنفقة عليه، وهو يأتمر بأوامرهم وينفذ أغراضهم، وإذا أعلن كسرى حرباً عامة فإن كلا من هؤلاء الأمراء يقدم جيشه للقتال مع جيش الملك. فجيش الدولة مكون من جيش الملك وجيوش الأمراء المحليين المتعددين.

الروم البيزنطيون

نشأت الدولة الرومانية من التوسع التدريجي الذي قامت بها روما خلال ثلاثة قرون واستطاعت أن تسيطر على شبه جزيرة إيطاليا ثم على الأقاليم الواقعة حول البحر المتوسط، فأصبحت تهيمن على أقاليم غنية لكثير منها حضارات قديمة. وقد جلبت لها هذه الأقاليم الثروة والغنى، فنشطت فيها الحياة الاقتصادية والفكرية، وازدهر العمران.

غير أن سعة الدولة الرومانية جعل لها حدوداً برية طويلة يتطلب الدفاع عنها اهتماماً خاصاً. وقد تأمنت الحدود الشرقية لتلك الدولة بفضل الحاميات الرومانية التي وضعت في بعض المدن الشرقية، وبعد أن أعلن أغسطس «السلم الروماني» الذي اعتبر فيه الرومان نهر الفرات الحد الشرقي لدولتهم، أعلنوا توقفهم عن التوسع، واتِّباعهم سياسة سلمية مع جيرانهم في الشرق. وظلت هذه السياسة سائدة، بصورة عامة، حتى أواسط القرن الثالث للميلاد عندما ظهر الساسانيون وحاولوا التوسع نحو البحر المتوسط.

أما أطراف الحدود الجنوبية لأملاك الدولة الرومانية في أفريقية فكانت تحميها أطراف الصحارى الواسعة الخالية من السكان، والتي لم تكن مصدر خطر يهدد الدولة الرومانية.

غير أن الدولة الرومانية لقيت مصاعب كثيرة في حماية حدودها الشمالية الطويلة، فوراء تلك الحدود كانت تقطن الشعوب الجرمانية وهم قبائل غير متحضرين، ولكنهم كانوا مقاتلين أشداء، ولذلك كانوا يهددون الأطراف الشمالية للدولة. وعلى الرغم من الحملات المتعددة التي أُرسلت لإخضاعهم،

والمستعمرات الرومانية التي أقاموها على تلك الحدود لحمايتها، فإن الرومان لم يفلحوا في السيطرة عليهم.

وبهذا فإن الدولة الرومانية، وبعد استقرار حدودها، واجهت كثيراً من المشاكل الاقتصادية والاجتماعية، فضلاً عن المتاعب العسكرية التي كان يخلقها لها هؤلاء الجرمان.

وحاول عدد من الأباطرة الرومان القيام بإصلاحات لمعالجة هذه المشاكل، ومن أبرزهم دقليانس (٢٨٤ ـ ٣٠٥) الذي قام بعدة إصلاحات مالية وإدارية، من أهمها أنه جعل للامبراطورية حاكمين متساويين في السلطة، أحدهما يقيم في روما ويشرف على الأقاليم الغربية، والثاني يقيم في بيزنطة ويشرف على الأقاليم الشرقية؛ وكان قصد دقليانس من ذلك تيسير إدارة الدولة، ولكن تنظيمه لم ينجح في ضمان التعاون بين الحاكمين، الشرقي والغربي، ما أدى في أخيراً إلى انشطار الامبراطورية إلى شطرين متباينين.

والواقع أن الجانب الغربي من الامبراطورية كان يعاني من الاضطرابات الداخلية، ومن تهديد الجرمان الذين ازداد تغلغلهم في الدولة وتهديدهم لها حتى استطاعوا سنة ٣٥٣م أن يستولوا على روما وينهوا حكم الرومان فيها.

أما الجانب الشرقي فكان سكان أقاليمه متنوعين، ففيهم الإغريق اليونانيون ويسكنون في مدنهم الكثيرة المنتشرة في جزيرة اليونان وفي السواحل الشرقية من آسيا الصغرى، وقد احتفظ هؤلاء الإغريق بالثقافة الإغريقية، وظلوا يتدارسون الفلسفة اليونانية. وفي شرق الأناضول كان يقيم الأرمن الذين كانت لهم حضارة قديمة ودولة قوية أزالها الرومان، لكن حضارتهم بقيت مزدهرة. وفي الأقاليم الجنوبية كان العرب يسودون في جنسهم ولغتهم وثقافتهم، وخصوصاً في أقاليم الجزيرة الفراتية والشام وفلسطين، كما كان المصريون وسكان شمال أفريقية قد احتفظوا بحضارتهم وتقاليدهم العريقة.

ازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة في هذه الأقاليم الشرقية ونمت فيها المدن، وتقدمت الحركة الفكرية، وقد ساعد على هذا الازدهار والتقدم انتشار الأمن فيها. فقد كانت حدودها آمنة، لم يهددها إلا الساسانيون في الشرق

والسلاف في الغرب، ولكن هؤلاء لم ينجحوا في تشكيل خطر أساسي على الدولة البيزنطية.

وتميزت الأقاليم الشرقية بِقِدَم وسَعَةِ انتشار المسيحية فيها. والمسيحية هي الدين الذي بشّر به السيد المسيح، الذي كان قد ظهر في فلسطين واتّبعه عدد من الناس ثم ارتاب به الحكام الرومان وحكموا عليه بالصلب قبل أن تكتمل تعاليم الدين المسيحي أو يستطيع تكوين دولة مسيحية. وقد انتشر أتباعه في مختلف البلاد وصاروا رسلاً يبثون تعاليمه ويشرحونها، ودوّن كلٌّ منهم تعاليم المسيح وأقواله وسيرته، فكانت أناجيل يتداولها الناس. وتابع الحكام الرومان اضطهاد المسيحيين وعملوا على قمع المسيحية، ولكنها مع ذلك تابعت دعوتها بصورة سرية وخصوصاً في الأقاليم الشرقية حيث ازداد انتشارها وكثر أتباعها، بين العامة، وأصبحوا قوة لا يمكن تجاهلها، فاضطر حكام تلك الأقاليم إلى التوقف عن اضطهادها، ثم اعتنقوها هم أنفسهم وبذلك صارت ديناً رسمياً للدولة.

غير أن المسيحية بعد أن أصبحت ديناً رسمياً، بدأ كبار رجالها يبحثون في طبيعة المسيح وعلاقته بالله تعالى، فرأى بعضهم أن المسيح إلّه، ورأى آخرون أنه إنسان فيه روح الإلّه، ورأى فريق ثالث أن المسيح إنسان في الأرض إلّه في السماء، واختلفوا أيضاً في مكانة مريم أم المسيح، فرأى بعضهم أن لها صفة قدسية، ورأى بعضهم أنها امرأة محترمة لأنها حملت المسيح فحسب، وقد اشتد بينهم الخلاف وظهرت فيهم الفرق، فحاول بعضهم نشر أفكاره في الأقاليم البعيدة عن العاصمة، فحازت تلك الأفكار تأييد كثير من النصارى في تلك الأقاليم بدافع من اعتقادهم أو نكاية بالملوك. وهكذا أصبحت هذه الفرق المسيحية تعبِّر عن الاختلافات العنصرية والقومية والحضارية بين أبناء أقاليم الدولة الشرقية، فأيد معظم سكان الجزيرة الفراتية النسطورية، وأيد الغساسنة ونصارى الشام اليعقوبية، وأيد المصريون الملكانية، وأهل تونس الآريوسية، حتى أصبح الخلاف بين هذه الفرق على أشدّه ومصدر خطر لإضعاف الدولة. ويلاحظ أن الأقاليم كافة، التي يقطنها العرب في الشام، وكذلك مصر وتونس، لم تعتنق المذهب الذي اعتنقه أهل العاصمة القسطنطينية، الأمر الذي يظهر عدم تأييدهم لها.

تعرَّضت الأطراف الغربية للدولة البيزنطية لتهديدات وأخطار من قِبَل البلغار والسلاف الذين تقدموا في القرن الرابع للميلاد من جهات روسيا، وهاجموا الدولة البيزنطية، لكنهم أخيراً استقروا في البلقان فخف خطرهم على الدولة.

أما في الشرق فإن الساسانيين اتَّبعوا منذ بداية تكوين دولتهم سياسة توسعية، وحاولوا الوصول إلى البحر المتوسط، ولتحقيق ذلك شنُّوا عدة حروب دامية، لكنهم لم يحرزوا فيها نجاحاً كبيراً. وفي السنة الثامنة لبعثة الرسول (ص) هاجم الساسانيون الدولة البيزنطية، واستولت جيوشهم على بلاد الشام وفلسطين ومصر، كما توغلت في آسيا الصغرى حتى اقتربت من القسطنطينية. غير أن هرقل، وكان حاكماً على تونس، تقدم إلى القسطنطينية وأعلن نفسه امبراطوراً، ثم قاد حملة سريعة تقدمت من شرق آسيا الصغرى إلى طيسفون عاصمة الساسانيين، فشهرابان التي تبعد حوالى ٧٠ كيلومتراً عن العاصمة. واضطرَّ الساسانيون إلى تَرْكِ البلاد التي فتحوها وسَحْبِ جيوشهم للدفاع عن عاصمتهم. وبذلك أنقذ هرقل الدولة البيزنطية من الانهيار.

ثم حاول هرقل معالجة الخلافات الدينية، فابتدع عقيدة تجمع آراء مختلف الفرق المسيحية، لعلهم يجتمعون عليها. ولكنهم عملياً عارضوها جميعاً، فزادت في فرقتهم بدل أن تنجح في توحيدهم.

كان الساسانيون الخطر الرئيسي الذي يهدِّد بلاد الدولة البيزنطية في آسيا، وكانت معظم حملاتهم تتقدم من منطقة الجزيرة الفراتية إلى إنطاكية، أو تتجه جنوباً إلى دمشق، ولذلك عني البيزنطيون بتنظيم دفاعاتهم في الجزيرة الفراتية وشمال بلاد الشام. أما الأطراف الجنوبية الشرقية المشرفة على البادية فلم يتوقعوا منها خطراً مهدِّداً، لذلك اكتفوا بإقامة نقاط مراقبة متباعدة، في كلٍّ منها قوة عسكرية صغيرة، معتمدين على علاقاتهم الوثيقة بالقبائل المقيمة في بادية الشام، وعلى دولة الغساسنة التي ساندوها وثبتوا معها علاقات وثيقة فأمنت لهم هذه الحدود، غير أن هذه العلاقات ضعفت قبيل تقدُّم الجيوش الإسلامية، ولعل توغل الجيوش الساسانية في بلاد الشام وفلسطين هو الذي ضعضع دولة

الغساسنة، فلما استعاد هرقل سيطرته على هذه الأقاليم كان جلُّ اعتماده على حسن علاقته بالعشائر العربية، وخصوصاً المقيمة في الأطراف الجنوبية من بلاد الشام وفلسطين والأردن. وعلى الرغم من تأخّر اسلام هذه العشائر، فإنها لم تندفع في مساندة الروم، فلما تقدمت الحملة الإسلامية على مؤتة كان الحاكم البيزنطي هو الذي تصدّى لها، ولا بدَّ أنه اعتمد على جيشه الرومي في التصدي. وبذلك كانت الحدود الشرقية والجنوبية للدولة غير محكمة التحصين ومكشوفة لتقدُّم الجيوش الإسلامية.

أخذ هرقل موقف الدفاع أمام تقدُّم الجيوش الإسلامية، ولم يحاول استغلال حركات الردة والانشقاق لتحدي دولة الإسلام، كما أنه لم يقم بهجوم عليها وبنقل المعركة إلى أراضيها كالذي فعله مع الساسانيين عندما قاد حملة توغلت في بلادهم وهددت عاصمتهم.

ثم إن هرقل لم يقم بنفسه في إدارة المعارك مع المسلمين، وإنما اتخذ مقرَّه في مدن بعيدة عن ميدان المعركة، وكان يعيِّن قادة من المتصلين به لمواجهة العرب.

كما اختار للمعارك ضد العرب مناطق زراعية تقيِّد المناورة وتعيق الانسحاب وتعرِّض جيشهم للتطويق والإفناء. واعتمد على مقاومة المدن التي كان أكثرها محصناً، إلا أن ولاء أهلها له لم يكن مضموناً. والواقع أن معظمهم كانوا من أرومة عربية، ممن يعتنقون المذهب اليعقوبي المخالف للمذهب الذي يتبناه، وفيهم عدد من اليهود أيضاً، ولما كانت نفقات جيوشه قد أرهقتهم، لم يتحمسوا لمقاومة العرب، واستسلمت المدن للمسلمين بعد حصار قصير لم يبدِ أهلها خلاله مقاومة عنيدة.

وتجدر الإشارة إلى أن المعارك الكبيرة التي قادت إلى فتح بلاد الشام حدثت كلُّها في أشهر الدفء التي تعوَّدها العرب، ولم تحدث أيٌّ منها في أشهر البرد التي ربما لم تكن تلائمهم.

العرب في جزيرتهم

كانت شبه جزيرة العرب، بحكم موقعها الجغرافي، تقع بين دولتَيِ الفرس والروم، لا تفصلها عن أيٍّ منهما حواجز جغرافية معرقلة، وهذا ما يسَّر اتصالاتها بهما، فكانت القوافل تسلك الطرق المتعددة التي تخترق شبه الجزيرة إلى كلتا الدولتين، كما كان التجار والمبشِّرون النصارى منهما يتغلغلون فيها. وقد حاولت كلٌّ من هاتين الدولتين أن تكوِّن مع أهل شبه جزيرة العرب علاقات سياسية مباشرة أو بواسطة دولتَيِ المناذرة والغساسنة اللتين والت كلٌّ منهما إحدى الدولتين. غير أن هذه العلاقات لم تصل إلى الحد الذي يجعل أياً منهما يحكم شبه جزيرة العرب حكماً مباشراً، اللهم إلا مناطق محدودة في أطراف شبه الجزيرة، كالبحرين واليمن، اللتين كانت الدولة الساسانية قد سيطرت عليهما سيطرة ضعيفة محدودة الأثر ولمدة قصيرة من الزمن.

وظلت شبه جزيرة العرب بعيدة عن السيطرة الأجنبية المباشرة، ولم تؤدِّ اتصالاتها المتعددة إلى أن يكون للمؤثرات الأجنبية فيها تأثير واسع أو عميق. والواقع أن أثر شبه الجزيرة في الأقاليم المجاورة التابعة للفرس والروم كان أظهر وأقوى من أثر هاتين الدولتين فيها، حيث إن الهجرات الفردية والجماعية، والاتصالات المستمرة جعلت تلك الأقاليم سامية الجنس، عربية اللغة، وجعلت ثقافة الفرس والروم أجنبية منعزلة فيها.

لقد ربطت أهل شبه جزيرة العرب لغة عربية واحدة فصحى وعامة تعبِّر عن ثقافة غنية، فضلاً عما كان لهم من نُظُم وعادات ومُثُلٍ اجتماعية ترجع إلى أزمنة سحيقة وتستند إلى أصول عرقية خالصة نظراً لقلة هجرات الأجانب إلى شبه الجزيرة.

غير أن شبه جزيرة العرب عند ظهور الإسلام كانت تفتقر إلى دولة واحدة تجمع أهلها وتهيمن على حكمها وتنظِّم إدارتها. لذلك كانت مفككة سياسياً، كما أن الحياة الاقتصادية فيها لم تكن مزدهرة، ما عدا بعض المدن والواحات المتفرقة[١].

---

(١) انظر تفاصيل أوفى في كتابنا «تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية».

لقد أدى فقدان السلطة المركزية العامة، وقلة الموارد الاقتصادية إلى اضطراب الأمن وتزايد أخطار الغزو، وهذا ما دفع بالسكان إلى التدرب على القتال، والحروب. كما أن شظف العيش فيها جعلهم مدربين على تحمُّل المشاق وعلى والاكتفاء بالغذاء القليل، كما أن تطرف مناخ الجزيرة درّبهم على القتال في مختلف أنواع الأراضي والمناخات، ولم يكن يعيقهم إلا الجبال والثلوج التي لم يكونوا قد تعوَّدوا القتال فيها.

أسلحة العرب

لم تكن الدولة في أول الإسلام تصنع السلاح ولم تكن تزود مقاتلتها به، فكان كل مقاتل يجهز نفسه بما يحتاجه من سلاح مما كان يتوافر فيها، ولذلك كانت أسلحتهم تتنوَّع بتنوُّع أحوال شبه الجزيرة.

كانت السيوف من أهم الأسلحة، وكانت منوَّعة، بعضها مما يصنع في شبه الجزيرة وبعضها مما يستورد من الخارج، وقد اشتهرت من سيوفهم السيوف اليمانية، والهندية، والمشرفية، والدمشقية، والحنيفية. أما الرماح فكانت أغلبها من الخيزران، وكثير منها مما يستورد قصبه من الهند.

ذكر الجاحظ وصفاً لأسلحة العرب بالمقارنة مع أسلحة الفرس فقال «إنما كانت رماحكم من مران، وأسنتكم من قرون البقر، وكنتم تركبون الخيل في الحرب أعراء، فإذا كان الفرس ذا سرج فسرجه رحاله من أدم، ولم يكن ذا ركاب.. وكان فارسهم يطعن بالقناة الصماء، وقد علمنا أن الجوفاء أخف حملاً وأشد طعنةً، ويفخرون بطول القناة.. ويفخرون بطول الرمح وقصر السيف، وكنتم تتخذون للقناة زجاً وسناناً.. وكنتم تتساندون في الحرب، وكنتم لا تقاتلون بالليل ولا تعرفون البيات ولا الكمين ولا الميمنة ولا الميسرة ولا القلب ولا الجناح ولا الساقة ولا الطليعة ولا الدراجة، ولا تعرفون من الحرب الرتيلة ولا العرادة ولا المجانيق ولا الدبابات ولا الخنادق ولا الحسك ولا تعرفون الأقبية ولا السراويلات ولا تعليق السيوف، ولا الطبول، ولا البنود،

ولا التجافيف ولا الجواشن، ولا الخوذ، ولا السواعد، ولا الأجراس ولا الوهق، ولا الرمي بالبنجكان والزرق بالنفط والنيران. وليس لكم في الحرب صاحب علم يرجع إليه المنحاز ويتذكره المنهزم، وقتالكم إما سلة وإما مزاحفة والمزاحفة على مواعد متقدمة»[1].

ذكرت المصادر أوصافاً لأسلحة العرب في القادسية فذكر الطبري «ما كان عامة جُنَن الناس إلا البراذع، براذع الرجال قد أعرضوا فيها الجريد، وعصّب من لم يكن له وقاية رؤوسهم بالأنساع[2]»، وذكر «رمى ترساً ورموا جحفته فخرق ترسهم وسلمت جحفته»[3]. وكان الفرس يضحكون من نبال العرب ويشبهونها بالمغازل[4] وهي القوس الناوكية[5]».

إن وصف الفرس لأسلحة العرب ينطبق، إلى حد كبير، على ما كان للعشائر العربية المقيمة في كثير من أرجاء الحجاز، وفي هضبة نجد وأطراف العراق وكثير من مناطق سواحل الخليج الشرقية، ولكنه لا ينطبق على أسلحة أهل اليمن التي قامت فيها دول لكلٍّ منها جيش منظم[6]، ولما زالت هذه المدن قبيل ظهور الإسلام حل محلهم أمراء يحكم كلٌّ منهم منطقة في اليمن وله جيش مدرب يثبت حكمه ويصد عنه تجاوزات الأمراء الآخرين من الأذواء[7]؛ وكانوا يتقنون فنون القتال، ويكثرون من استخدام الخيل التي لم يكن استخدامها شائعاً عند عشائر الجزيرة البدوية. وقد انضم اليمانيون إلى

(١) البيان والتبيين ٣/١٦ فما بعد.
(٢) الطبري ١/ ٢٣٢٢.
(٣) الطبري ١/ ٢٢٧٣.
(٤) الطبري ١/ ٢٢٣٦، فتوح البلدان ٢٥٩.
(٥) فتوح البلدان ٢٥٩.
(٦) انظر كتاب «الفن الحربي في اليمن القديم» لبيستو.
(٧) قدم حمزة بن أيفع الناعطي الهمداني، إلى الشام ومعه أربعة آلاف عبد فأعتقهم كلهم فانتسبوا إلى همدان. المحيط للفيروزابادي ٢/ ٣٦.

الجيوش الإسلامية منذ زمن خلافة أبي بكر في جبهة بلاد الشام، ثم انضم كثير منهم منذ زمن خلافة عمر إلى الجيوش المقاتلة في جبهة العراق. وشكّل المقاتلة اليمانيون نسبة كبيرة من الجيوش العربية التي قاتلت في المعارك الكبيرة الأولى في بلاد الشام، وكانت نسبتهم أكبر في معركة اليرموك.

وظل مقاتلة أهل اليمن يشكّلون نسبة كبيرة من المقاتلة التي استقرت في بلاد الشام، وبخاصة في دمشق وحمص.

وفي إحدى الروايات شكّلت غافق، وهي عشيرة يمانية، ثلث القوة العربية التي أنفذت لفتح مصر، ثم تتابعت هجرات أهل اليمن إلى الفسطاط حتى شكّلوا أكثر مقاتلتها العرب.

وفي جبهة العراق شارك جرير البجلي، وديار عشيرته في الأطراف الشمالية من اليمن، في معركة البويب ومعركة القادسية وما تلاهما من المعارك، وشكّل المشاركون من أهل اليمن في معركة القادسية عدداً كبيراً؛ ويذكر الشعبي أن نسبة أهل اليمن كانت أكثر من نصف أهل الكوفة عند تأسيسها، ومع أن هذه النسبة تناقصت بالهجرات التالية إلى الكوفة، إلا أن أهل اليمن ظلوا محتفظين بنسبة كبيرة من سكانها، وعندما نظَّم زياد الكوفة أرباعاً، كان كل ربع يتكون من مجموعتين إحداهما يمانية. ولم يكن هؤلاء اليمانيون «أعراباً» وإنما كانت غالبيتهم من «أهل الحضر» المدربين على القتال المنظم(١).

ذكر الطبري أن المقاتلين العرب في القادسية «ما عامة جننهم غير براذع الرحال، قد عرضوا فيها الجريد، يترّسون بها عن أنفسهم، وما عامة ما وضعوه على رؤوسهم إلا أنساع الرحال يطوي الرجل نِسْعَ رحله على رأسه يتقي به،

(١) انظر تفاصيل مشاركة العشائر في الأجزاء الخاصة من المعارك من هذا الكتاب. وانظر كتابينا «الكوفة وأهلها» و«أهل الفسطاط»، وانظر كتابنا «امتداد العرب في صدر الإسلام».

والفرس فيما بينهم من الحديد واليلامق[١].

أشارت المصادر إلى استعمال الجمال في مواجهة الفيلة، إذ برقعوها ودفعوها إلى الفيلة[٢]. ولا بدَّ أن الجمال كانت قد استخدمت، قديماً، في النقل والقتال وفي نطاق أوسع مما ذكرته المصادر[٣].

غير أن طريقة قتال العرب التي عابها عليهم الفرس كانت في الواقع من عوامل انتصارهم، إذ كانوا مدرَّبين على الكرِّ والفرّ، وعلى سرعة الحركة والتنقُّل، كما أن انتظامهم في القتال في جماعات صغيرة تهجم على العدو من مختلف الجهات، كان يربكه ويجعله مضطرباً، لأن الجيوش الفارسية والبيزنطية كانت بطيئة الحركة، ولم تكن قد تعوَّدت على أسلوب قتال العرب، فكان سلاح العرب هذا نوعاً من المباغتة لهذه الجيوش.

ثم إن تطرف المناخ في شبه الجزيرة بحرارته العالية في النهار وفي الصيف، وبرودته في الليل وفي الشتاء، وشظف العيش فيها، جعل أهلها مدربين على تحمُّل المشاق والاكتفاء بالغذاء القليل، والقدرة على القتال بمختلف أنواع الأراضي والمناخات، ولم يكن يعيقهم إلا الجبال والثلوج التي لم يكونوا متعودين على القتال فيها.

دفاعات الفرس والروم

كانت العاصمة المركز الرئيس في كل من الدولتين الساسانية والبيزنطية، ففيها مقام الملوك وكبار الحكام والإداريين والتجار وأصحاب الأعمال، فهي

---

(١) الطبري ١/٢٢٥٣.

(٢) الطبري ١/٢٢٠٩، ٢٢٢٥، ٢٣٠١.

(٣) الطبري ١/٢٣٢٦، ويلاحظ أن عمر بن الخطاب كان يمد المقاتل على أربعين ألف بعير، يحمل الرجل إلى الشام على بعير والرجلين إلى العراق على بعير. «أنساب الأشراف» ٦٠٠٧ ـ ٨.

مركز الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية، وهي المسيطرة على إدارة الدولة. وبالنظر لهذه الأهمية فقد عنى كلٌّ من الفرس والروم بحماية عاصمته والدفاع عنها.

اتخذ الفرس عاصمتهم في طيسفون على دجلة في وسط العراق، وكانت حماية هذه العاصمة مؤمَّنة من الشرق والجنوب حيث كانت البطائح في جنوب العراق وسلاسل جبال حمرين وأطراف الهضبة الإيرانية بمثابة حواجز دفاعية تعرقل تقدُّم الجيوش المعادية من الجنوب أو الشرق إلى طيسفون، علماً بأن موقع هذه العاصمة كان بعيداً عن الحدود الشرقية والجنوبية، ولم تكن على هذه الحدود دولة قوية تهدِّد الدولة الساسانية.

أما الخطر الرئيس الذي كان يهدِّد الساسانيين وعاصمتهم فكان يأتي من الشمال حيث كانت الدولة البيزنطية القوية في حالة عداء معهم أدت إلى نشوب حروب كثيرة بينهما، لذلك أعدَّ الساسانيون تنظيماتهم الدفاعية الرئيسة لصدِّ هذه الأخطار التي تأتي من الشمال عن طريق دجلة والفرات، فحفروا القاطول والنهروان، واستغلوا لهذا الغرض عدداً كبيراً من الأنهار والترع التي في وسط العراق، كما أقاموا عدداً من المراكز العسكرية على طول مجرى الفرات لإكمال منظومتهم الدفاعية. أما الحدود الغربية للدولة الساسانية، القريبة من العاصمة طيسفونُ فكانت حدوداً طويلة صحراوية مكشوفة ليس فيها عائق دفاعي يعرقل تقدّم الجيوش.

ويبدو أن الساسانيين اعتمدوا في الدفاع عن الحدود الغربية لدولتهم على المناذرة الذين تمكنوا من السيطرة على القبائل العربية وتأمين خطرهم، ومع هذا فقد استفاد الساسانيون من منخفض طويل يمتد في غربي العراق، يسمى خندق سابور، فأقاموا عليه عدداً من الحصون العسكرية «العيون» بغية المراقبة والدفاع، غير أن هذه الحصون كانت أضعف من أن تكون مانعاً عسكرياً قوياً، نظراً لطول هذه الحدود وطبيعتها الصحراوية. ولما زالت دولة المناذرة، وضع الساسانيون قوات فارسية في الحيرة وفي بعض المواقع ذات الأهمية العسكرية

التي تحيط بها، ولكنها لم تكن قوات كبيرة وخصوصاً أن الفرس لم يتوقعوا خطراً جدياً يهدِّد عاصمتهم من الغرب.

فلما تقدَّم العرب من الصحراء، كان تقدُّمهم مباغتاً للفرس، ولم يكونوا مستعدين له، وعندما انكسر الفرس في القادسية وتابع العرب تقدُّمهم في الخريف حين تشحُّ مياه الأنهار، لم تصادفهم في تقدُّمهم عوائق عسكرية، واستطاعوا فَتْحِ طيسفون دون أن تواجههم في فَتْحِها مقاومة جدية، وقد أدى فتح طيسفون إلى زيادة إرباك الساسانيين واختلال نظامهم وضعفهم. ثم حاولوا بعد ذلك المقاومة في جلولاء ثم في نهاوند ولكنهم لم يفلحوا، وأدى تغلُّب العرب عليهم في هاتين الموقعتين إلى انهيار كامل دولتهم وسقوطها.

أما الروم فقد كانوا قبل تقدُّم العرب يتوقعون الخطر من الفرس، فرتَّبوا دفاعاتهم لمقاومة تقدم الفرس نحو عاصمتهم القسطنطينية أو نحو بلاد الشام ومصر، ورتَّبوا لهذا الغرض عدة مراكز عسكرية متتابعة. فلما تقدَّم العرب من الجنوب لفتح الأقاليم التابعة لدولة الروم، واجهوا مقاومة عنيفة في تلك المراكز، واضطروا للتغلب عليها إلى خوض عدد من المعارك المتعاقبة في وادي العرابة ومرج الصفر وفحل وأجنادين واليرموك ثم في دمشق وحمص، الأمر الذي أنهك قواهم واضطرهم إلى التوقف عند جبال طوروس، في شمال بلاد الشام، بعيدين جداً عن العاصمة القسطنطينية. وقد أفسح هذا التوقف المجال أمام الروم لتقوية دفاعاتهم عند طوروس، وبذلك أنقذوا عاصمتهم من السقوط بأيدي العرب، واحتفظوا بالأقاليم الواقعة في شمال جبال طوروس وفي أوروبا، وتمكنوا من الصمود رغم محاولات العرب العديدة للقضاء عليهم.

الفصل الثاني

دوافع الفتوح

ماهية الدوافع

نقصد بدوافع الفتوح المؤثرات والقوى التي تدفع الأفراد أو الدول للتحرك والقيام بالفتوح، وهذه الدوافع تتعدَّد وتتنوَّع وتعمل على دفع الأمة وأفرادها للتحرك، إلا أن محركها يتطلب أحوالاً غير الدوافع، فسوء الأحوال الاقتصادية في مجتمع ما يعيش قرب مجتمع ينعم بالثروة لا يكفي أن يكون وحده دافعاً محركاً. والواقع أن كثيراً من المجتمعات ظلَّت أمداً طويلاً في حالة مزرية من الفقر مستكينة قانعة بوضعها دون أن تحاول تبديله. ولا يصحّ اعتبار الثروة العظيمة والرخاء الذي أعقب الفتوح دليلاً على أن الفتوح الإسلامية حدثت بدافع اقتصادي لأن الذين قاموا بها لم يكونوا يدركون النتائج الكبيرة التي أحدثتها تلك الفتوح.

ودراستنا للدوافع ما هي إلا دراسة استنتاجية، لأن كتب التاريخ التي لم تذكر إلا الحوادث والتطورات دون أن تذكر الدوافع التي لم يصلنا عنها إلا نصوص قليلة منوَّعة وملاحظات عابرة متباينة.

ولا بدَّ أن الفتوحات الإسلامية، شأنها شأن كل الحركات الكبيرة في التاريخ، كانت لها مؤشرات متعددة يمكن إدراكها بالمقارنة مع مثيلاتها في المجتمعات الأخرى. ولا يكفي في التاريخ تعداد العوامل المؤثرة فحسب، بل ينبغي تقييم هذه العوامل وتقدير الأهم منها. وهذا التقييم يعتمد على رأي

المؤرخ وحُكْمِه، ويتصل بالفلسفات العامة التي يرتبط كثير منها بالعقائد السياسية، لذلك كان مثار نقاش وجدل، وخصوصاً أنه قائم على التأصل والاستنباط أكثر من اعتماده على ما دونته الأخبار التي في كثير منها تناقض وتحيُّز، ويقتصر على وصف الظواهر دون الإمعان في الكوامن وحقائقها. والواقع أن تفسيرات متعددة لمجرى التاريخ صاغها وعرضها الفلاسفة وعلماء النفس، وحاول بعض المؤرخين تطبيقها، غير أن هذه التفسيرات جاءت متعددة ومتناقضة، ولم ترتفع إلى مستوى العلم الثابت، لا سيما أن علم النفس الذي يتوقف عليه البتُّ في هذه الأمور لما يزل غير مكتمل.

ومن المعلوم أن التاريخ يدرس التبدلات، ويهتم بإبراز محاولات الإنسان الخروج عن حالة الركود والخنوع للطبيعة، وقلما يعرض دوافعه لتلك المحاولات.

ومن الصعوبات التي تواجه الباحث في تحديد دوافع الفتوح تقرير الجهة التي كان لدوافعها أقوى الأثر في توجيه الحوادث، فمن المعلوم أن التاريخ يدرس نشاط الإنسان الذي يعيش في المجتمع، غير أن الناس يتنوَّعون كثيراً، ودوافعهم الفردية تتنوَّع بتنوع عقلية وأحوال كلٍّ منهم، ولا بدَّ أن عيشهم ضِمْنَ الجماعة يوجِّههم نحو سلوك جمعي يتَّسم بطابع خاص واتجاهات عامة، وقد يطغى على أحوالهم وتوجُّهاتهم الفردية.

ولكل حركة تاريخية كبيرة هيئة حاكمة ترسم أهدافها وتنظِّم نشاطات الأفراد والجماعات، وتدفعها للتحرك نحو الجهة التي تريدها. وبذلك يتوجه السلوك الفردي والجماعي نحو الهدف الذي ترسمه الهيئة الحاكمة.

نظريات في الدوافع

ازداد الاهتمام في الأزمنة الحديثة بدراسة العوامل المؤثرة في سَيْرِ التاريخ، وظهرت في الموضوع دراسات متتالية، افترضت مبدئياً أن الأحداث التاريخية بالرغم من تنوُّعها، فإن فيها اتجاهات عامة تنظمها وتعبِّر عن سَيْرِها، فهي

كالقوانين الجبرية التي تنظِّم سَيْرِ البشرية، ولكنهم اختلفوا في القوة الرئيسة الموجهة لسَيْرِ الأحداث، فمنهم من ردَّها إلى العوامل العرقية، ومنهم من عزاها إلى العوامل الجغرافية، أو الاقتصادية، أو الدينية. وقد حاول أغلب هؤلاء المفكرين إرجاع سَيْرِ التاريخ إلى عامل وحيد أو رئيس.

إن النظريات والآراء المتعلقة بتفسير التاريخ أو تقرير العوامل المؤثرة في مجراه تكوِّن شطراً كبيراً من الأبحاث التي ندعوها فلسفة التاريخ. وأن اعتبارها فلسفة هو مظهر من اعتمادها على التأمل والشعور دون التجارب والاختبارات التي هي الأساس المميِّز للعلم، فهي آراء مثيرة ولكنها لم ترقَ إلى مستوى الحقائق المثبتة، فهي أدخل في الفلسفة منها في العلم لأنها قائمة على دراسة سلوك الإنسان وأعماله؛ وميدانها علم النفس وهو علم حديث نسبياً لما تكتمل بحوثه لعوامل متعددة، أبرزها صعوبة دراسة تكوين اللاشعور ودوره الذي له أثر فعّال في تقرير سلوك الفرد وردود فعله.

حاول بعض علماء النفس المحدثين إرجاع سلوك الفرد إلى عامل واحد رئيس، ولكنهم اختلفوا في تقرير هذا العامل، فيرى فرويد وأتباعه أن الغريزة الجنسية هي القوة الرئيسة التي تؤثر في سلوك الإنسان والمجتمع، ويرى أدلر أن حب السلطة والاعتزاز بالقوة هما الدافع الأكبر الموجِّه لسلوك الفرد، بينما يرى يونغ أن حب السلطة هو القوة الرئيسة المسيِّرة للإنسان. وكلٌّ من هذه النظريات وما يماثلها تدخل اللاشعور في حساب دراساتها، وترجع سلوك الإنسان إلى عامل واحد.

والواقع أن سلوك الأفراد يتأثر بعوامل متعددة، ولكلِّ فرد غرائز وميول متعددة، ومن الخطأ القول بأن سلوك الفرد يرجع إلى عامل واحد، فالإنسان يخضع إلى دوافع متعددة وقد يتصرف الفرد بسلوك معيَّن في وقت معيَّن متأثراً بعامل معيَّن يختلف عن العامل الذي يؤثر في سلوك آخر. وقد تشترك عدة دوافع في تقرير سلوك ما، الأمر الذي يتطلب تقدير الأهمية الحقيقية والدور الصحيح لكلٍّ من هذه العوامل.

إن دراسة العوامل المؤثرة في سير الأحداث التاريخية، ومنها أحداث التاريخ الإسلامي، لا تزال دراسة تأملية فلسفية قُدِّمت عنها نظريات قابلة للنقاش ولمّا تصل مرحلة الجزم بعد، ولكن يمكن التأكيد على أن لكل حدث عوامل متعددة، وأن من مقاييس نضج البحث مراعاة مختلف العوامل، مع تقدير دقيق لقيمة كل عامل وأثره في التوجيه العام.

إن موضوع تفسير التاريخ وبيان علل ودوافع حوادثه لمّا تُسْتَوْفَ دراستهما بعد، إذ إن الأقدمين اهتموا بسرد الحوادث فقدَّموا عنها معلومات وافية اعتمدها المحدثون في دراسات نقدية عميقة، أما عِلَلُ الحوادث ودوافعها فقد قصر القدماء فيهما على إبداء ملاحظات عابرة وأفكار متناثرة تصلح أن تكون مادة أولية للباحثين. ولم يكتب أحد منهم بحثاً شاملاً متماسكاً في الموضوع غير ابن خلدون في مقدمته الرائعة.

دوافع الفتوح الإسلامية

تطرَّق عدد غير قليل من المحدثين إلى بحث دوافع أحداث التاريخ الإسلامي أو بعضها، ومنها دوافع الفتوح الإسلامية. بعض هذه البحوث التي قام بها كتّاب مهتمون بدراسة العقائد والاتجاهات السياسية، اتسمت بفرض آرائهم على تاريخ الإسلام دون أن تكون ناجمة عن اطّلاع شامل على أحداث التاريخ واستنباط دوافعها.

وعرض بعض المستشرقين أفكاراً عن عِلَلِ الأحداث؛ تميّز فيها اتجاهان رئيسان في تفسير دوافع الفتوح الإسلامية، أولهما: التفسير الاقتصادي، وثانيهما: التفسير الديني[١].

(١) Cambridge Medieval History. II P.

الدافع الاقتصادي

كان أبرز من أكد على الدافع الاقتصادي في الفتوح الإسلامية كارل بيكر وليون كايتاني، فأما بيكر فقد عرض رأيه باقتضاب في الفصل الذي كتبه عن الفتوح الإسلامية وخلاصة رأيه: أن الفتوح الإسلامية أدت إلى السيادة السياسية للعرب فحسب، إذ إن العرب لم يجبروا أحداً على اعتناق الإسلام، واكتفوا بأخذ الجزية ممن لا يريد اعتناقه، وأن الاندفاع العربي لم يكن مفاجئاً، إذ إن الهجرات العربية من الجزيرة إلى الأقاليم المجاورة كانت قائمة منذ أزمنة قديمة، وكان مردُّها إلى التدهور الاقتصادي الذي كانت تعانيه جزيرة العرب، وأن الدافع الحقيقي للفتوح كان الجوع والحاجة، أما الدين الإسلامي فقد خلق حماساً في المقاتلة وتنظيماً للحركة، وتوحيداً في إدارتها. وأسند رأيه إلى عدد من النصوص التي وردت في بعض كتب التاريخ العربية، منها ما ذكره البلاذري أن أبا بكر بعد أن قضى على حركات الردة وعزم على توجيه الجيوش إلى الشام «كتب إلى أهل مكة والطائف واليمن وجميع العرب بنجد والحجاز يستنفرهم للجهاد ويرغبهم فيه وفي غنائم الروم، فأسرع الناس إليه بين محتسب وطامع، وأتوا المدينة من كل أوب»[1]. ويروي الأهدل أن أبا بكر كتب إلى أهل اليمن يستنفرهم وكان مما كتب إليهم «فسارعوا عباد اللّه إلى فريضة ربكم وإلى إحدى الحُسْنَيَيْن: إما الشهادة وإما الفتح الغنيمة»[2]. ويذكر الطبري أنه عندما عزم عمر بن الخطاب على فَتْحِ العراق وتردَّد الناس في التوجه إلى العراق «فلم يزل بهم ويأبون عليه حتى عزم على ذلك وجعل لهم ربع خمس ما أفاء اللّه على المسلمين إلى نصيبهم من الفيء». ويروي الطبري أيضاً أن رستم قال للمغيرة بن شعبة قبيل نشوب معركة القادسية «قد علمت أنه لم يحملكم على ما خضتم إلا ما أصابكم من الجهد في بلادكم»[3]، فأجابه المغيرة «وأما

---

(١) فتوح البلدان ١٠٧؛ معجم البلدان لياقوت ٢/ ٥١٥.

(٢) الأهوال ١٠٧؛ الوثائق السياسية ٣٠٢.

(٣) الطبري ١/ ٢١٨٦.

الذي ذكرته فينا من سوء الحال وضيق المعيشة وأخلاق القلوب فنحن نعرفه ولسنا ننكره»[1].

ويلاحظ أن معظم من انضمَّ إلى جيش الفتوح في خلافة أبي بكر هم ممن أسلم بعد الفتح، أي إنهم لم تكن لهم صلة سابقة بالرسول (ص)، أما في خلافة عمر فقد انضمَّت أعداد كبيرة ممن كانوا قد ارتدوا إبان خلافة أبي بكر.

أما كايتاني[2] فقد قدم أوسع شرح للدافع الاقتصادي في الفتوح الإسلامية؛ وخلاصة رأيه أن الجزيرة العربية كانت في العصور الجيولوجية الحديثة منطقة خصبة، فيها أمطار غزيرة وأنهار كثيرة ومزارع واسعة، وأن وديانها الكبيرة، كوادي حوران، ووادي سرحان، ووادي الرمة، ووادي الدواسر كانت مجاري أنهار غزيرة المياه يصبُّ بعضها في نهر الفرات وبعضها في الخليج العربي وأن جنة عدن كانت في جزيرة العرب.

ويورد كايتاني نصوصاً كثيرة من المصادر القديمة تذكر ما كان في بعض مناطق الجزيرة العربية من دببة وحيوانات نهرية، وما كان فيها من مياه ومزروعات، ولا سيما في اليمامة، وتذكر هذه النصوص أن مئات القرى كانت في فلسطين والأردن والحجاز.

ويشير كايتاني أيضاً إلى أن النقوش المصرية تذكر أن تحوتمس الثالث قام باصطياد الفيلة في شمال بلاد الشام، وأن النقوش الآشورية تذكر أن بعض الملوك الآشوريين كانوا يصيدون الفيلة في جبال لبنان وفي حرّان التي تقع في أعالي الفرات. هذا بالإضافة إلى كثرة صُوَرِ الأسود في النقوش الآشورية والتي تدل على كثرة تواجد هذا الحيوان في شمال العراق زمن الآشوريين. ولا بدَّ أن هذا يدل على أن المناخ في تلك المنطقة كان، آنذاك، مناخاً ممطراً، وأن الزراعة كانت كثيفة، في حين أن هذه المنطقة اليوم قليلة الأمطار والمزروعات، وخالية من تلك الحيوانات.

---

(١) الطبري ١/ ٢٢٧٦.

(٢) عرض كايتاني أفكاره في كتابه Annali Del Islam وكذلك في كتاب Studi della Storia Orientali.

ويقول كايتاني إن المناطق الغربية من الحجاز كانت غنية بالمزارع، آهلة بالسكان، وإن الغابات والمزارع كانت تغطي معظم أراضي الحجاز وإن سكانه كانوا أربعة أضعاف ما هم عليه اليوم، وأن وادي القرى كانت فيه عشرات القرى المأهولة.

ويرى كايتاني أن جزيرة العرب بدأت تتعرَّض لتبدلات كبيرة في المناخ، فقلَّت أمطارها، وشحَّت مياهها، وتناقصت مزارعها، وانخفضت مواردها، فلم تعد تكفي لإعاشة أهلها الذين أخذوا يهاجرون بسبب الفاقة والجوع إلى الأقاليم الغنية المجاورة. وقد بدأت هذه الهجرات منذ آلاف السنين، وكان بعضها محدوداً، وبعضها واسع النطاق، وأدت هذه الهجرات إلى جعل الأقاليم المجاورة للجزيرة عربية في لغتها وثقافتها وفي كثير من مظاهر حياتها.

غير أنه منذ القرن الخامس قبل الميلاد ظهرت في الأقاليم المجاورة للجزيرة العربية إمبراطوريات قوية سيطرت على الحدود وقيَّدت الهجرات إليها، فانحصر العرب في جزيرتهم وتفاقمت مصاعب الحياة فيهم وزاد شقاؤهم، وفي خلال ذلك تزايد الجفاف في الجزيرة وتناقصت مواد المعيشة. ثم كوّن العرب في أطراف العراق وبلاد الشام دولاً مستقرة أقامت علاقات طيبة مع الامبراطوريات التي تحكم العراق والشام والتي عملت بدورها على استغلال هذه الدول في تأمين سيطرتها على الحدود ومنع تجاوزات أهل الجزيرة على تلك الأقاليم، وهذا ما حدَّ من هجرات العرب. غير أن هذه الدول العربية أزيلت قبل الإسلام، ورافق زوالها ضعف الفرس والروم وتناقص مواردهما فلم تعد لأيٍّ منهما الأموال الكافية لصرفها على ما يضمن تأمين الحدود، وعلى أثر هذا، ازدادت تحركات القبائل العربية وتجاوزاتها على حدود تينك الامبراطوريتين.

في هذه الأحوال ظهر الإسلام في مكة ثم اتخذ مركزه في المدينة، وكلاهما مركز حضري، غير أن الرسول (ص) استطاع بعد جهود كبيرة ضمَّ العرب إلى الإسلام وتوحيدهم في ظل دولته، وبذلك جلبوا إلى الإسلام

حيويتهم ونشاطهم، ولكنهم لم يتفهموا المبادىء التي كان يدعو إليها الرسول (ص)، ولم يتشبعوا بروح الإسلام، بدليل أنهم سرعان ما ارتدوا بعد وفاة الرسول، ولم تتم عودتهم إلى الإسلام إلا بعد أن استعمل أبو بكر القوة لإعادتهم إلى حضيرة الدولة الإسلامية، فكوَّنوا بعد ذلك عظم الجيوش الإسلامية التي قامت بالفتوح، ونجحت بفضل حيويتهم وحماسهم، وقد عاونهم إخوانهم العرب القاطنون في أطراف دولتَي الفرس والروم. واستطاعوا بعد انتصاراتهم الرائعة عليهما أن يزيلوا معظم الأديان التي كانت سائدة في السابق، ويحلّوا الإسلام محلها، كما أنشأوا نظاماً مستقراً ازدهرت فيه الحضارة والفكر.

لقيت نظريات كايتاني قبولاً عند عدد من المستشرقين، غير أن عدداً من العلماء أخذ على كايتاني عدم دقته في بعض المعلومات التي أوردها، وانتقد آخرون الأحكام التي استنبطها. ومن أبرز من انتقده الرحالة آلواموزيل الذي أخذ على كايتاني أخطاءه في تثبيت المواقع الخصبة في الجزيرة واعتباره منطقة النفوذ منطقة جرداء تسفوها العواصف الرملية، ومبالغته في وصف بعض الأماكن، كمنطقة بطرا، ووادي القرى، والبحرين، بأنها جرداء.

ومما أخذه موزيل على كايتاني أنه عزا انهيار سد مأرب وغيره من سدود اليمن إلى تبدُّل المناخ وأنه بالغ في أثر هذا الانهيار على الهجرات العربية. ويرى موزيل أن جزيرة العرب لم تكن في حالة الإجداب التي صوَّرها كايتاني وأن هيمنة دولتَي الفرس والروم لم تكبِّل العرب، بل ظلوا محتفظين بدورهم في التجارة العالميَة التي كانت تدرُّ عليهم أرباحاً وتوفر لهم العيش، وكذلك الواحات الواسعة الغنية في الجزيرة التي كانت تموِّن معظم سكان الجزيرة بالمواد الغذائية.

ويرى موزيل أن الجزيرة لم تكن تعاني الفاقة ولكنها كانت تفتقد حكومة قوية بعيدة النظر، كما أنها لم تفقد النبات، إذ كان فيها مراعٍ واسعة ومزارع حول الآبار الكثيرة.

وقدم هنري لامنس في كتابه بالفرنسية «مهد الإسلام» وفي كتابه عن الطائف معلومات واسعة عن الازدهار الزراعي في الحجاز عند ظهور الإسلام؛ وقد عرضت في بحثي عن الزراعة في منطقة المدينة معلومات غير قليلة عن مناطق الزراعة في أطراف المدينة لا بدَّ أن أصول كثير منها ترجع إلى ما قبل الإسلام.

ويلاحظ أن أهل اليمن شكّلوا نسبة ملحوظة من الجيوش الإسلامية منذ زمن خلافة أبي بكر، ولا يوجد ما يدل على أن الأحوال الزراعية في اليمن كانت آنذاك متدهورة، علماً بأن كثيراً من هؤلاء المقاتلة القادمين من اليمن كان كثير منهم من جند الأذواء، ومدربين على القتال بأساليب تختلف عن أساليب غارات البدو.

الدافع الديني في الفتوح الإسلامية

نقصد بالدافع الديني مدى دور الدين الإسلامي في تنظيم وتوجيه ودفع العرب للقيام بالفتوح. ومن المعلوم أن العرب كانوا قبل ظهور الإسلام قبائل مفككة يقاتل بعضهم بعضاً، ويقومون بالغزو والغارات على بعضهم دون هدف واضح أو غاية بعيدة، الأمر الذي أرهقهم واستنزف قواهم وأبقاهم مفكَّكين. فلما جاء الإسلام نظَّمهم جميعاً في طاعته وأخضعهم لسلطة مركزية واحدة لا تقرُّ الغزو أو القتال بين القبائل، وقد نسَّق الإسلام قوات العرب ووجَّهها نحو غاية واحدة هي التقدم نحو الخارج، فكان العامل الأكبر في استخدام الطاقة الهائلة للعرب ضد الدول الخارجية.

ثم إن الإسلام وضع للحروب غاية سامية، فلم تعد مجرَّد غزوات للحصول على مغانم مادية وقتية، بل أصبحت فتوحاً لإعلاء كلمة الإسلام والدين، وهي غاية سامية تخصُّ المصلحة العامة للجميع وليس لمصلحة فرد معيَّن، وهي غاية بعيدة.

ثم إن فكرة الآخرة التي أكد عليها الإسلام كانت تدفع الناس إلى الانخراط

في القتال والصمود في الحرب وعدم تهيُّب الموت، لأن الذين يُقْتَلون في سبيل اللّه يذهبون إلى الجنة وهم ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران]، هذا فضلاً عن أن الاعتقاد باللّه الواحد الحق المؤيد للمسلمين بنصره والحامي لدينه، من شأنه أن يزيد الثقة في قلوب المحاربين ويقوّي معنوياتهم.

وتتجلى قوة الدافع الديني في الفتوح، في الرسائل التي وجَّهها الخليفة أبو بكر لدعوة الناس إلى المشاركة في الفتوح من أجل إعلاء كلمة اللّه. ومن المعلوم أن الخلفاء الأولين تشبَّعوا بآراء الرسول (ص) وتابعوا سياسته التي كانت تهدف إلى نشر الإسلام وإعلاء كلمة اللّه، وليس الحصول على مغانم مادية، ومظهر ذلك أنه لم يهتم كثيراً في الجباية، ولم تصله موارد كبيرة بعد توسع الدولة الإسلامية، وكذلك الأمر في خلافة أبي بكر، فلو كان غرضه الحصول على المغانم لكانت الجباية أوسع بكثير مما كانت عليه في الواقع.

دوافع المقاتلة العرب

إن دراسة دوافع الأفراد المقاتلة المشاركين في الفتوح دراسة غير يسيرة، وذلك لكثرة عدد المقاتلة وتنوُّع المناطق التي قَدِموا منها من جزيرة العرب واختلاف أحوالهم ونُظُمِهم باختلاف أحوال المناطق وحداثة عهد معظمهم بالإسلام، وقصر الوقت الذي مضى على اعتناقهم الإسلام وانضمامهم إلى الجيوش وتوجُّههم رأساً إلى ميادين القتال دون أن يمروا بمرحلة توجيهية. وقد ترسَّخت هذه السِّمة عندما سمح عمر بن الخطاب للمرتدين بالانضمام إلى الجيش الإسلامي، مما قوى حجة القائلين بأن الدافع الرئيس للفتوح كان الحصول على الغنائم، حيث أصبح معظم الجيش الإسلامي مكوَّناً من البدو الذين أسلموا مؤخراً وكانوا قد أَلِفوا استهداف الغنائم من الحرب. ومن الأدلة التي استند إليها هؤلاء الدارسون أن الإسلام يقرُّ للمنتصر الحصول على الغنائم التي تُوَزَّعُ على المقاتلة، وكذلك ذكر الكتّاب نصوصاً دعى فيها الخلفاء الأولون، القبائل إلى المشاركة في الفتوح ومنّوهم بما سيحصلون عليه من الغنائم.

غير أنه يجب أن نلاحظ إلى جانب حداثة إسلام البدو الذين كوَّنوا معظم جيش الفتوح، أن روح الجماعة، وسيكولوجية المجموع، تدفعان كثيراً منهم إلى الحماس في القتال بدافع من هذه الروح ولغرض إظهار البطولة والشجاعة بصرف النظر عن أي دافع آخر، فالعواطف الملتهبة، ونزعة حب القتال في الجند هي أقوى من إذكاء الحماس في الأمل بالحصول على الغنائم.

دوافع القيادة العليا الموجهة

عند دراسة الحركات العامة ودوافعها ينبغي أن نولي أهمية خاصة لموقف السلطات العليا الموجِّهة لهذه الحركات، لأنها القوة الكبرى التي تحرك الجيوش وتوجه الفتوح وتؤثِّر في خلق وتحريك روح الجماعة التي تطغى على الدوافع الفردية المتعددة والمتشعبة، علماً بأن المصادر نقلت عن مواقفهم معلومات واسعة تيسِّر تكوين فكرة أوضح.

ومن المعلوم أن القيادة العليا الإسلامية كانت تتجلى في الخليفة ومن يحيط به من الصحابة في المدينة. ويتبين لنا من خلال دراسة حياتهم قلة اهتمامهم بالمال وجمعه. فموارد الرسول والدولة الإسلامية في زمنه كانت قليلة جداً[١]، وكذلك الحال في خلافة أبي بكر، علماً بأن الدولة كانت تشمل رقعة واسعة فيها مناطق غنية يؤدي استغلالها إلى جمع أموال أكثر بكثير مما تذكره المصادر وتؤيده الأحوال. ولو كان هدف الخلافة المال لكانوا اهتموا بإنشاء نظام لجمعه ولتشددوا فيه ولحصلوا على أموال طائلة من خلال ذلك، وهو ما لم تذكره المصادر.

والواقع أن السِّمة البارزة للخلافة والصحابة كانت التوسع وتحرير البلاد الأخرى لتكوين دولة تكون فيها كلمة اللّه هي العليا ولجعل الإسلام يسودها بصرف النظر عن مدى انتشار الإسلام وعدد من يعتنقه.

---

(١) انظر الفصل الخاص بالمالية من كتابنا «الدولة في عهد الرسول (ص)».

وكان الطابع المميِّز للخلافة والصحابة اعتزازهم بالدين، وحماسهم لفكره وتمسكهم به باعتباره القوة الجامعة والرابطة القوية ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران] وقد خلق فيهم الدين ثقة في النفس، وإيماناً في العقيدة، وقوة منبعثة من إيمانهم بالحق، وقتالهم من أجل الحق، وأن اللّه العليَّ العظيم ناصرهم ومؤيدهم.

جمع المقاتلة وحشدهم

الجهاد والقتال

أدرك أبو بكر سعَةَ الإمكانيات التي توافرت له بعد القضاء على حركات الردة والانشقاق فلم يتوانَ عن توجيهها لمتابعة توحيد العشائر العربية كلّها في أطراف الجزيرة وضمِّها إلى دولة الإسلام، ثم توجيهها لتوسيع الدولة خارج الجزيرة، وهي أهداف عامة تتطلب مشاركة واسعة. وقد تابع، في هذا، الأهداف التي وضعها الرسول (ص) والمبادىء التي سار عليها، مع مراعاة الظروف والأحوال الجديدة من حيث عالمية الرسالة الإسلامية، وأهمية القتال في تثبيت الدولة وتوسيعها، واعتبار الجهاد واجباً على القادرين جميعاً على حمل السلاح، دون حصره بعدد محدود، ومن هذا اعتبره بعض الفقهاء ركناً سادساً في الإسلام.

وأساس الجهاد القتال من أجل الصالح العام المنسجم مع متطلبات الدولة، وهو من حيث العموم موجَّه ضد النُّظُم التي لا تقرُّ بالإسلام، ومعنى هذا أنه لا يتوجَّه ضد الأفراد والجماعات التي لَها كيان سياسي. كما أنه لا يقتصر على الدفاع، فحسب، بل يمتد ليكون هجوماً تُزال من خلاله العوائق التي تعطل توسيع الدولة وتعرقل إيجاد تنظيم شامل تكون فيه كلمة اللّه هي العليا، فالتهاون به قد ييْسر فرصة للدول التي لا تقرُّ بالإسلام كي تبادر للقضاء على الدولة الإسلامية، أو أن عدم توجيه طاقات الحرب القتالية نحو الخارج قد يؤدي إلى استمرار الانقسامات فيهم.

إن الجهاد في الإسلام واجب ديني، غير أن للقتال وضعاً خاصاً في الجهاد فهو يتطلب تدريباً خاصاً، ومعنويات قوية تشدُّ المقاتل وتدفعه إلى الإسهام فيه وتقبل ما يؤديه من جهد واستشهاد أحياناً، ولا ريب في أن اشتراك القادرين على حمل السلاح في التحشد للقتال يصعب الوصول إليه، لأنه قد يجرِّد الأمة من طاقات يحتاجها المجتمع للخدمات السلمية وحماية المقيمين من النساء والعجزة والأطفال، كما أنه قد يؤدي إلى انضمام أفراد لا يتحلَّوْن بالشجاعة. وقد يؤثر خورهم على سَيْرِ المعركة أو على معنويات الباقين إضافة إلى صعوبة تمويل مثل هذا العدد الكبير.

إن قوة الأفراد أساسية، فهي تقوم على التدريب على القتال وإتقان فنونه، وعلى قوة الروح المعنوية التي تبعث الثقة بالنفس والشجاعة والإقدام، وما يزيد هذه القوة اعتناق الإسلام والإيمان باللّه وهو الإلّه الحق الذي ينصر من ينصره ويثبت أقدامه.

غير أن القيادة العليا هي التي تقوم بالتوجيه العام والخطة العامة؛ فهي المرجع في تقرير القيام بالأعمال الحربية، والجهات التي تقاتل فيها ومقدار ما يرسل من الجند إلى كل جبهة والقادة الذين يديرون الجند والمعارك، وأحياناً الحركات العامة أيضاً.

وقادة الميدان هم المسؤولون عن الإدارة العامة للجند والقتال في الميدان، والتحركات في المنطقة المحدَّدة لهم، وعن تفاصيل تطبيق الخطة المقرَّرة، التي يسهمون في وضعها أحياناً.

أشكال جمع الجيش

في اللغة العربية تعابير لأشكال مختلفة من جمع المقاتلة، فيها «الحشر» و«ضرب البعث» و«الاستنفار» و«التدرُّب» و«الانتخاب» و«التطوُّع». فأما الحشر فقد ورد في القرآن الكريم في خمس وأربعين آية وفي سياقات متعددة تؤول

جميعها إلى جمع الكافة، غير أنها وردت في كتب الرسول (ص) إلى عدد من سادة أهل اليمن أنهم «لا يحشرون ولا يعشرون»[1]. وكان مما اشترطته ثقيف على الرسول (ص) عندما أسلمت أنهم «لا يحشرون ولا يعشرون»[2] وقد فسَّرها ابن منظور (لا يندبون إلى المغازي ولا تضرب عليهم البعوث)[3]. وحصر منع الحشر بهذه العشائر قد يدل على إباحته مع العشائر الأخرى، والمعنى العام لها يوحي بأن الحشر يلزم القادرين جميعاً على القتال بالمشاركة فيه. ويروي الطبري أن عمر بن الخطاب كتب إلى ولاته «ولا تدعو في ربيعة أحداً ولا مضر ولا حلفائهم أحداً من أهل النجدات ولا فارساً إلا اجتلبتموه فإن جاء طائعاً وإلا حشرتموه»[4]. وذكر الطبري أن خالد بن الوليد عندما قَدِمَ إلى العراق «حشر من بينه وبين العراق.. ثمانية آلاف من ربيعة ومضر»[5].

وورد في المصادر ذكر ضرب البعث، فقد ذكر الطبري أن الرسول (ص) ضرب على الناس بعثاً وأمر عليهم أسامة بن زيد[6]. وذكر الطبري أيضاً أن أبا بكر «كتب إلى عثمان بن أبي العاص أن يضرب بعثاً على أهل الطائف على كل مخلاف بقدره.. فضرب على كل مخلاف عشرين رجلاً، وكتب إلى عتاب بن أسيد أن اضرب على أهل مكة خمسمائة مقوٍ»[7] ويدل سياق النص أن ضرب البعث فرض إجباري يتولاه الوالي وينحصر في عدد من القادرين على القتال، تقرره حاجة الدولة، وهو على أي حال محدود وليس عاماً.

وذكر الطبري أن أبا بكر أمر خالد بن الوليد استنفار من مرَّ به من المسلمين من أهل القوة[8]. كما يذكر أن المرتدين استنفرهم عمر ولم يولِّ

(١) انظر الوثائق السياسية لحميد الله ٤٨، ٨٦، ٨٤، ١٥٠.
(٢) ابن حنبل ٤/٢١٨؛ الدار ص: إمارة ١٦.
(٣) لسان العرب ٥/٢٦٦.
(٤) الطبري ١/٢٢١٠، ٢٢١١.
(٥) الطبري ١/٢٠٢١٧.
(٦) الطبري ١/٢١٧٩٥.
(٧) الطبري ١/١٩٨٨، وانظر ١/٢٢٢١، وعن قطع البعوث ١/١٨٨٠.
(٨) الطبري ١/١٨٨٠.

عليهم أحداً[1]، وقد ورد (النفور) بهذا السياق في سبع آيات في القرآن، والاستنفار هو النجدة[2] وهي تظهر دعوة إختيارية للمشاركة في القتال.

ومما استعمل من التعابير (الندب) فقد ذكر الطبري أن عمر بن الخطاب بعث أهل نجران ثم ندب أهل الردة[3] والندب هو دعوة للنجدة[4] يتوقف عدد من يدخل فيها على مدى استجابة الناس لها دون الفرض.

واستعمل الانتخاب أيضاً، فيروي الطبري أن عمر بن الخطاب كتب إلى عمال الكور «لا تدعوا أحداً له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأي إلا انتخبتموه» وأنه كتب إلى سعد بن أبي وقاص فيمن كتب «بانتخاب ذوي الرأي والنجدة... فجاءه كتاب سعد أني قد انتخبت ألف فارس مُؤد كلهم له نجدة ورأي وصاحب حيطة يحوط حريم قومه ويمنع ذمارهم إليهم انتهت أحسابهم ورأيهم»[5].

يتبين من هذا أن الانتخاب يتم من القادة ويقع على من له خيل أو سلاح أو رأي ونجدة، أي على الأكفاء في القتال وذوي السلاح، وخصوصاً من لهم خيل لِما لها من أهمية في المعارك.

---

(1) الطبري ١/ ٢٢٢٥.
(2) لسان العرب ٧/ ٨٤٠٨٢.
(3) الطبري ١/ ٢١٦٥.
(4) لسان العرب ٢/ ٢٥١.
(5) الطبري ١/ ٢٢١٦.

الفصل الثالث

العراق عند الفتح

الأرض

يمتد العراق على الأطراف الشمالية الشرقية من شبه جزيرة العرب ويتصل بأرضها دون حاجز أرضي فاصل؛ وأرضه في أقسامه الغربية والوسطى سهلة منبسطة، أما في الأجزاء الشمالية والشرقية فأراضيه متموِّجة وفيها بعض التلول والمرتفعات، وتمتد في الأطراف الشمالية والشرقية سلاسل جبلية تمتد في الشمال بين الشرق والغرب، وفي الشرق تمتد من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، وهذه الجبال حجارتها رسوبية، وهي عالية وعرة ولا سيما في الجهات الشمالية الشرقية حيث يزيد ارتفاع بعضها على ثلاثة آلاف متر. وتمتد بين هذه الجبال وديان ضيِّقة طويلة توازي الجبال، وينحدر بعضها إلى الأراضي المتموِّجة في غربيها.

ومناخ العراق مداري وشبه صحراوي، تتباين فيه درجات الحرارة في الفصول والأيام، وقد تصل الحرارة في الصيف إلى خمسين درجة مئوية، وتهبط إلى الصفر أو أقل من ذلك في الأطراف الشمالية.

المياه والري

تسقط الأمطار في العراق بين أواخر الخريف والربيع تكون أمطاراً متقطعة وغير منتظمة، ويبلغ المعدل السنوي لسقوط المطر في الشمال عشرين سنتمتراً،

وهو يكفي لإنبات العشب والحبوب وبعض الغلات الشتوية. أما في الوسط والجنوب فإن المعدَّل السنوي لا يزيد على العشرة سنتمترات، وهو أقلُّ من أن يكفي لإنبات المزروعات.

وتجري في العراق عدة أنهار أبرزها نهر دجلة والفرات وهما ينبعان من الجبال الشمالية، وينصب فيهما عدد من الأنهار الصغرى، ثم يجريان في الأرض الشمالية المتموِّجة بمجارٍ غير عريضة تحيط بها المرتفعات، فإذا وصلا إلى المنطقة الوسطى يكون مجراهما في أراضٍ سهلة منبسطة لا تحصرها مرتفعات. وللفرات روافد قليلة في الشمال خارج العراق، أما دجلة فله روافد كبيرة من الزابين ونهر ديالي، فضلاً عن الوديان التي تصبُّ فيه ما يجري فيها من مياه الأمطار، لذلك كان دجلة أكثر غزارة.

وتقل مياه دجلة في الصيف والخريف، فتزداد رقعة الأراضي الخصبة على شواطئه، غير أنها تزداد على أثر سقوط الأمطار، وفي الربيع عند ذوبان ثلوج الجبال، فتحدث فيضانات تغمر ما حولها من الأراضي والمساكن والمزارع، وتزداد أخطار هذه الفيضانات في الجنوب حيث الأراضي منبسطة رخوة التربة، فتغمر مساحات واسعة قد يستقر فيها الماء طويلاً فتكوِّن أهواراً وبطائح دائمية ينبت فيها القصب وتعيش فيها بعض الأسماك، ولكنها تهدِّد الاستقرار والزراعة، وأكثر هذه الأهوار دائمية ولكنها غير ثابتة الحدود، فقد تتسع أو تصغر أو تجفُّ أحياناً في الأطراف الجنوبية الغربية من أواسط العراق حيث يمرُّ الفرات، وتكون ثابتة في الأطراف الجنوبية الشرقية من العراق حيث ينتهي دجلة.

يأخذ من الفرات بعد اجتيازه الأرض المتموِّجة عند الرمادي عدد من الأنهار والترع التي تجري نحو الجنوب الغربي فتصبُّ في دجلة، وتتفرَّع من هذه الأنهار ترع كثيرة تسقي مزارع الأراضي التي حولها، وأكثر هذه الأنهار موغلة في القِدَمِ وكان أهمها عند ظهور الإسلام نهر الرفيل (وسُمِّيَ في العصر العباسي نهر عيسى)، ونهر صرصر، ونهر الملك، ونهر النيل. وكلها تأخذ مياهها من المنطقة التي بين الرمادي والحلّة، وتصبُّ في دجلة بين بغداد

والكويت. وهذه الأنهار تخفف من خطر فيضان الفرات في أقسامه الدنيا، وتزيد مقادير المياه في دجلة وما يتبع ذلك من توسُّع خطر الفيضان في أطرافه الدنيا. وتصرف الأنهار الأملاح في التربة إلى دجلة، غير أنها تزيد أخطار الملوحة والسباخ في الجنوب، وهذا يتطلَّب جهوداً كبيرة لاستصلاح الأراضي من السباخ التي يؤدي تكاثرها إلى تعطيل الزراعة.

وبسبب التباين الكبير في كمية مياه النهرين في فصل الصيف وفصل الربيع، والأخطار الكبيرة التي تولدها الفيضانات، وقلة الأمطار، كان لا بدَّ من العمل للسيطرة على أخطار الفيضانات، وعلى الإفادة من مياهها الكثيرة للزراعة في الصيف؛ وهذا يتطلب جهوداً كبيرة ومعرفة واسعة بأحوال المياه والتربة وانحدار الأرض، مع تنسيق جماعي عام لا تقوى عليه إلا حكومات ذات سلطات واسعة تؤمن تنفيذ ذلك وإدامته. وقد أدرك أهل العراق أهمية كل ذلك، فعملوا منذ أزمنة موغلة في القِدَم على تنظيم الريّ فأنشأوا منظومات شملت الأنهار والسدود والمتنفسات للسيطرة على المياه وخزنها وتنظيم توزيعها، كما ابتدعوا الوسائل لإيصال المياه إلى المزارع وتأمين تخليص الأرض من الأملاح. وكانت هذه الأعمال تتطلب تعاوناً وثيقاً بين السكان والحكومات، إذ إن أيَّ ضعف في الحكومة أو اختلال في علاقتها مع الأهالي يعرِّض الري والزراعة إلى التدهور الذي قد يصل حدَّ الانهيار(١).

الزراعة

يسَّر اتقان تنظيم الريّ ازدهار الزراعة ولا سيما في المناطق الوسطى من العراق، وقد اشتهر العراق منذ أقدم الأزمنة بمنتوجاته الزراعية من الحنطة والشعير والحبوب والسمسم والخضروات والقطن وعدد غير قليل من النباتات

---

(١) انظر عن علاقة تنظيم الري لسلطة الحكومات كتاب «الطغيان الشرقي» لكارتوفل (بالإنكليزية) وعن تطور أحوال الري والعمران في العراق قبل الإسلام كتاب «صميم المدن» لآدمز (بالإنكليزية).

الطبية، وكذلك النخيل والكروم والزيتون، وعدد من أنواع الفواكه وخصوصاً الأترج والتفاح والكمّثري، والمشمش والإجاص[١].

تكون الزراعة أكثف على شواطىء دجلة والفرات، حيث يكثر زرع الخضر الصيفية، ولكنها لا تنعدم في الداخل حيث تكثر زراعة الحنطة والشعير والنخيل، كما يزرع الأرز في أطراف البطائح والأهوار.

وفي الشمال يكثر زرع الخضر على الشواطىء، والحنطة والشعير والحبوب في الأراضي المتموّجة، وتنمو أشجار الفاكهة قرب الشواطىء وعلى العيون والينابيع، وتكثر الأشجار الصلبة كالجوز واللوز والبلوط في سفوح الجبال.

ويسبب أهمية الزراعة في حياة الناس، ودور الحكومة في إنمائها، فقد كان الفلاحون ملزمين بالعمل في زراعة ما تحتاجه البلاد، ويدفعون عن ذلك ضرائب عالية تتجاوز نصف المنتوج أو ثلثه، وكثيراً ما كان الفلاحون يلقون العسف من موظفي الجباية وملاكي الأرض والإقطاعيين، لذلك كانت مواردهم قليلة، وحياتهم المعاشية غير مرفَّهة[٢].

مراكز التجمعات الحضرية

رافق الزراعة قيام الصناعات التي تعتمد في مواردها الأولية على المنتوجات الزراعية، وخصوصاً المنسوجات القطنية والمصنوعات الخشبية، وكذلك صناعات الجلود، بالإضافة إلى صناعات المعادن المستوردة من الحديد والنحاس والذهب[٣].

إن متطلبات تسويق الفائض من المنتوجات الزراعية، وقيام الصناعات، أدت إلى ظهور عدة تجمعات سكانية انتشرت في مختلف أرجاء البلاد،

---

(١) انظر كتاب «الزراعة في العراق في القرن الثالث للهجرة» للدكتور حسام الدين السامرائي (بالإنكليزية).

(٢) انظر كتابنا «الخراج في العراق» ففيه تفاصيل أوفى.

(٣) انظر كتاب «المعادن في العالم الإسلامي» للومبارد (بالفرنسية).

وخصوصاً على طول النهرين الرئيسيْن وما يتفرَّع منهما، وكان حجم هذه التجمعات متبايناً، فبعضه صغير، وبعضه كثير السكان، وكانت بعض هذه التجمعات مراكز لإقامة الولاة وسكِّ النقود، ولكن لم تضع الإدارة معايير لتميز هذه التجمعات، كأن تسمّى قرى، أو بلداناً أو مدناً، ولعلَّ هذا يدل على أنه لم تكن في هذه التجمعات كيانات خاصة وتنظيمات إدارية خاصة بها، وهذا الوضع كان من أسباب عدم قيام هذه التجمعات بدور في تقدُّم الجيوش العربية أو عقد معاهدات مع المدن، ما عدا الحيرة وبانقيا وألّيس.

تدهور أحوال البلاد قبيل تقدم الجيوش العربية

جرت في العراق قبيل تقدُّم الجيوش العربية حوادث جسيمة ضعضعت الاستقرار فيه، كان من هذه الحوادث تفاقم المعارك بين الفرس والروم، مما أدى إلى تدمير عدد من المدن وقَتْلِ كثير من الجند وزيادة الضرائب لمواجهة تكاليف الحروب.

وحدث أيضاً فيضان عارم في السنة الخامسة للهجرة، تكسرت فيه السدود ومنظومات الريّ، وفرقت أراضٍ واسعة وازدادت البطائح والأهوار وحوّل دجلة مجراه في جنوب العراق، فأخذ يسير في مجرى جديد، وترك المجرى القديم الشرقي ليصبح آجاماً وأدغالاً[1]. ولا بدَّ أن هذا التخريب شرَّد كثيراً من السكان وأنقص الأرض المزروعة وزاد من انتشار الملاريا التي تضعف قدرة الفلاحين على الإنتاج، فقلّت بذلك مواردهم وموارد الدولة، واجتاح البلاد بعد ذلك طاعون جارف أفنى عدداً كبيراً من السكان فزاد من التدهور والاضطراب في الأحوال وفي نقص الموارد.

وحدثت خلافات على العرش، فقد قتل شيرويه الذي عزل أباه أبرويز وتعاقب خلال سبع سنوات ستة من الأكاسرة، وكان من يعتلي العرش يقرِّب أنصاره، ويقضي على أنصار من سبقه أو يقتلهم.

---

(١) انظر: فتوح البلدان للبلاذري ٢٩١ ـ ٢٩٣؛ الطبري ١/١٠٠٩ ـ ١٠١٠.

وتعاقب على العرش في هذه المدة القصيرة ثلاث نساء، وأدى هذا إلى فناء معظم رجال البلاط النبلاء، فخلت من الأكفاء الإدارة ثم استقر الأمر على اختيار يزدجرد، وكان شاباً في الواحدة والعشرين من العمر، نشأ في الأهواز بعيداً عن العاصمة، ولم تكن له خبرة إدارية أو أنصار معتمدون[١].

وكانت الأطراف الغربية الطويلة من أرض العراق مفتوحة للجزيرة، لا يفصلها فاصل، فكان أهل الجزيرة العربية منذ أزمنة موغلة في القدم يؤمون العراق للميرة والتزوُّد بما يحتاجونه وبيع الفائض من منتوجاتهم، وكثيراً ما كانوا يستقرون في العراق محافظين على حياة البداوة، أو يعملون في الزراعة والتجارة، وكانت هذه الهجرات من الكثرة والسَّعة ما جعل العراق عربياً في ثقافته وأفكاره وأساس حضارته.

اعتمد الفرس في ضبط الحدود غربي العراق على منخفض طويل من الأرض حصَّنه سابور الثاني، وكان يسمى خندق سابور ووضع عليه قوات عسكرية قليلة في عدد من المراكز التي تتوافر فيها المياه عنده وأهمها القطقطانة، وعين جمل وعين الصيد[٢]. وبسبب تباعد هذه المراكز وقلّة القوات المرابطة فيها فإنها كانت (مناظر) أي مراكز مراقبة لا تستطيع فرض سيطرة قوية على حركات الأفراد والعشائر الذين يستطيعون النفاذ من خلالها والوصول إلى ريف العراق.

وأبرز القبائل العربية التي كانت مستوطنة في العراق ومحتفظة بنُظُمِها البدوية هم تغلب والنمر بن قاسط في الفرات الأعلى، وأياد في الجزيرة التي بين الفرات ودجلة، كما امتدت عشائر بكر على أطراف الفرات الجنوبية فكانت عجل في أطراف الحيرة، وشيبان في جنوبها إلى منطقة البصرة حيث كانت ديار سدوس.

---

(١) الطبري ١/ ١٠٦١ ـ ١٠٦٧.

(٢) فتوح البلدان ٢٩٧ ـ ٢٩٨.

المناذرة وذي قار

اعتمد الساسانيون أيضاً في ضبط حدودهم الغربية على دولة المناذرة، وهي دولة أمراؤها من العرب، ومركزها الحيرة، قام ملوكها بدور كبير في تنظيم علاقة قبائل جزيرة العرب مع العراق ومنع تجاوزاتهم، وتمّ لهم ذلك بأساليب سلمية، تعزُّزها قوَّتهم ومكانتهم المتميزة واستطاعوا تثبيت علاقات طيبة مع العشائر المقيمة في العراق وفي شرق جزيرة العرب[١].

غير أن الساسانيين قضوا قبيل الإسلام على دولة المناذرة، وبذلك أزالوا القوة التي تقف بوجه تجاوزات القبائل العربية، فأصبحت المواجهة مباشرة بين الفرس والعرب الذين لا يرتبطون مع الفرس بأيِّ رابط جنسي أو عقائدي. ومما عمَّق العداء إزالة الفرس لدولة المناذرة التي كانت لها مكانة محترمة عند العرب في غرب العراق. وقد حدث اصطدام فعليٌّ بين الفرس والعرب عندما أرسل الفرس قوة لمقاتلة هاني بن مسعود الشيباني وانتزاع بعض ما أمنه المناذرة عنده، فناصرت هاني عشيرته وبعض الجماعات من غير عشيرته، فاشتبك مع القوة الفارسية وانتصر عليها في ذي قار.

حركات المثنى ورجال بكر

كان لانتصار العرب في ذي قار وَقْعٌ كبير عند العرب[٢] فجاهروا بفرحتهم بذلك النصر، وزاد من تجرؤهم على الفرس فقام عدد من رؤساء العشائر مع أنصارهم بغارات على أطراف العراق. وفي هذا يقول البلاذري (كان المثنى بن حارثة بن سلمة الشيباني يغير على السواد مع رجال من قومه، فبلغ أبا بكر الصديق (رض) خبره فسأل عنه، فقال له قيس بن عاصم بن سنان المنقري:

---

(١) انظر: «المناقب المزيدية» لأبي البقاء الحلي وانظر «الحيرة» ليوسف غنيمة، وكتابنا (محاضرات في تاريخ العرب).

(٢) انظر عن موقعة ذي قار: الطبري ١/١٠١٦ ـ ١٠١٨؛ النقائض لأبي عبيدة (٦٤ ـ ٦٤٢)، وانظر (بنو شيبان) لمحمود عبد الله العبيدي.

هذا رجل غير خامل الذكر ولا مجهول النسب ولا ذليل العماد، هذا المثنى بن حارثة الشيباني. ثم إن المثنى قدم على أبي بكر فقال له: يا خليفة رسول اللّٰه استعملني على من أسلم من قومي أقاتل هذه الأعاجم من أهل فارس، فكتب له أبو بكر في ذلك عهداً، فصار حتى نزل خفان، ودعا قومه إلى الإسلام فأسلموا. ثم إن أبا بكر (رض) كتب إلى خالد بن الوليد المخزومي يأمره بالمسير إلى العراق، وكتب أبو بكر إلى المثنى بن حارثة يأمره بالسمع والطاعة له.

وكان مذعور بن عدي العجلي قد كتب إلى أبي بكر يعلمه حاله وحال قومه ويسأله توليته قتال الفرس فكتب إليه يأمره بأن ينضم إلى خالد فيقيم معه إذا أقام، ويشخص إذا شخص، فلما نزل خالد النباج لحقه المثنى بن حارثة، وأقبل خالد حتى أتى البصرة وبها سويد بن قطبة الذهلي ومعه جماعة من قومه وهو يريد أن يفعل بالبصرة مثل فِعْلِ المثنى بالكوفة[(١)].

ويتبيَّن من هذا النص أن عدداً من العرب كان يعمل للإغارة على الفرس ومنهم قطبة بن قتادة ومذعور العجلي والمثنى بن حارثة، وأن حركاتهم كانت مستقلة وغير منسقة. ثم إنهم اتصلوا بمبادرة منهم بأبي بكر لربط حركاتهم بالحركات الإسلامية العامة، دون أن يطلبوا منه قوات تُعِينهم في حركاتهم، وقبل أبو بكر بارتباطهم وأشرف على تنسيق حركاتهم دون أن يتدخل في تنظيماتهم فأقرَّ مذعوراً وطلب منه أن ينضم إلى خالد، وأن ينفرد المثنى بالحركات في منطقة الحيرة.

كان المثنى يعتمد في حركاته الأولى على رجال من قومه فلما ربط حركته بالإسلام وجعلها جزءاً من الحركات الإسلامية. دعا قومه إلى الاستجابة له، فأعلنوا إسلامهم وأقبلوا على الإسهام في الحركات ضد الفرس بقيادة المثنى وباسم الإسلام، ولا بدَّ أن ميدان حركاته كان في بوادي العراق الغربية، ولم

---

(١) فتوح البلدان ٢٤٠.

تعرقلها مناظر الفرس، ولم يصطدم بقواتهم، ولا بدَّ أن حريته في هذه الغارات شجعت الراغبين في القتال على الانضمام إليه، فازدادت قوته، وإن لم تذكر المصادر مقدارها أو مدى نجاحها أو توغّله في ريف العراق.

حركات خالد في العراق

بعد أن قضى خالد بن الوليد على مسيلمة وحركته وأمّن سيادة لدولة الإسلام كتب إليه الخليفة أبو بكر أن يتوجَّه إلى العراق، ويبدأ بأطرافه الجنوبية دون أن يحدِّد له مدينة معيَّنة وإنما أشار إلى المنطقة «فرج الهند» وكان ذلك في المحرم من سنة ١٢ للهجرة.

ومن الواضح أن الخليفة حدّد هذه المنطقة لتكون بداية حركاته في العراق دون أن تقتصر عليها، ولعلَّ الذي حمله على تحديد هذه المنطقة هي أنها أقرب مناطق العراق للقادم من اليمامة. وتجدر الملاحظة أن هذه المنطقة كانت منعزلة نسبياً عن باقي السواد بالبطائح التي اتسعت بعد التبدلات المائية التي جرت قبيل تقدُّم العرب، كما أنها كانت بعيدة عن أخطار تهديدات الروم. ولذلك لم تكن فيها قوة عسكرية كبيرة، وكان الدفاع عنها مودعاً لقوات قارن والهرمزان، وكلاهما من البيوتات السبعة ولا بدَّ أن هذه القوات كانت محلّية.

والسيطرة على هذه المنطقة تحرم الفرس من قواعد برية وبحرية قد تهدِّد سيادة العرب في شرقي الجزيرة. ولا بدَّ أن حملة خالد بن الوليد كان لها أثر في تثبيت قوات الفرس ومَنْعِهِم من العمل على استعادة البحرين فضلاً عن أنه يعرقل حركة السفن الفارسية في هذه المنطقة ويعيقها عن استرجاع البحرين.

ولا بدَّ أن خالد بن الوليد قد مرَّ في طريقه بالبحرين، ولكنه لم يشارك في القضاء على حركات المنشقّين التي كانت لا تزال قائمة في أطرافها الشرقية قرب السواحل، مما يدل على أنه سلك الطريق البرّي المألوف، وإن لم تذكره المصادر، واتخذ النباج نقطة تجمُّع، وانضمَّ إليه المثنى، وقسَّم جيشه ثلاث فرق تسير متتابعة، بين كل فرقة وأخرى مسيرة يوم، وذلك من أجل الماء، ولتجتمع عند الحفير.

إن الجيش الذي تقدَّم به خالد من اليمامة كان بعضه مكوَّناً من القوة التي تابعته بعد سيطرته على اليمامة، وكان أبو بكر قد أذن بالقفول لمن شاء من القوات الإسلامية التي شاركت في حروب القضاء على حركة مسيلمة، فعاد عدد منهم إلى أهلهم، وسار خالد إلى العراق بمن بقي منهم، ولا بدَّ أن كثيراً من هؤلاء كانوا من الأنصار والمهاجرين من أهل المدينة، ولم تذكر المصادر عددهم، غير أنَّ عدداً من بني تميم وطي ممن لم يرتدوا انضمّوا إليهم. وقد ذكرت المصادر دور عدد من بارزيهم وقياداتهم الرئيسة، ومنهم عدي بن حاتم الطائي، وعاصم بن عمرو التميمي، والذين لم يُذكروا في حوادث القتال في اليمامة، مما يدل على أنهم انضمّوا إلى جيش خالد بعد انتصاره في اليمامة.

يذكر الواقدي أنه اختلف في أمر خالد، فقائل يقول مضى من وجهه ذلك من اليمامة إلى العراق، وقائل يقول رجع من اليمامة فَقَدِمَ المدينة ثم سار إلى العراق من المدينة على طريق الكوفة[1]. ويقول أيضاً «الذي عليه أصحابنا من أهل الحجاز أن خالداً قَدِمَ المدينة من اليمامة ثم خرج منها إلى العراق على فيد والثعلبية»[2]. ويقول ابن إسحاق «عاد خالد إلى المدينة ثم ردَّه أبو بكر إلى العراق»[3]. ومن الواضح أن القائلين بتحرُّك خالد من المدينة ينكرون حركاته في منطقة البصرة، والراجح أن قولهم هذا هو محاولة غير مقبولة لإبراز مبالغ فيه بدور الخلافة في التوجيه.

معركة ذات السلاسل

استعد الساسانيون لمواجهة جيش خالد، مما يدل على أنهم كانوا متتبِّعين لحركاته وللحوادث في اليمامة، وكان أول من تصدى له الهرمزان وكان

(١) الطبري ١/٢٠١٦.
(٢) فتوح البلدان ٢٤١.
(٣) الخراج لأبي يوسف ٢١٤.

«صاحب النفر يومئذٍ وهو رأس بيت سورين من أهل البيوتات السبعة[1]»، ومقامه الأصلي في الأهواز وهو «يحارب الغرب في البر والهند في البحر»[2] أي أنه مسؤول عن الدفاع عن الخليج العربي وما حوله من الأرض، وأنه قاتل بجيشه الخاص دون أن يحصل على مدد من طيسفون «وكان من أسوأ أمراء ذلك الفرج جواراً للعرب فكلّ العرب عليه مغيظ»[3].

اتخذ الهرمزان مقامه في كاظمة[4] قرب الساحل في الأطراف الشمالية من الكويت الحالية، ولا بد أنه حصَّن مواقعه استعداداً لصدِّ خالد، وكان أكثر جنده من المشاة المقترنين بالسلاسل، ويقاتل معه علىٰ مُجْنَبَتَيْهِ قباذ والأنوشجان[5].

ولما اقترب خالد من شمالي الخليج توقف عند الحفير وهي تبعد مسافة خمسين كيلومتراً عن معسكر الهرمزان في شماليه الغربي، فترك الهرمزان معسكره المحصَّن وتقدَّم لمواجهة خالد، غير أن خالداً أسرع بالتحرك نحو كاظمة فعاد الفرس إليها، ولكنهم لم يستطيعوا العودة إلى الأماكن التي كانوا قد حصَّنوها، كما أن جندهم المشاة تعبوا من التنقلات السريعة بين هذين المكانين المتباعدين، فعاجلهم خالد بهجوم قوي استطاع من خلاله أن يدحرهم ويشتِّت قواتهم ويستولي على غنائم كثيرة أرسل خمسها إلى المدينة، وكان ذلك في المحرم سنة ١٢[6] (نيسان ٦٣٢). وأفلت قواد الفرس من القتل أو الأسر، وبلغ سهم الفارس في ذات السلاسل ألف درهم والراجل ثلث ذلك[7].

---

(١) الطبري ١/ ٢٠٢٥.
(٢) الطبري ١/ ٢٠٢٢.
(٣) الطبري ١/ ٢٠٢٣.
(٤) الطبري ١/ ٢٠٢٣.
(٥) الطبري ١/ ٢٠٢٣.
(٦) الطبري ١/ ٢٠٢٥.
(٧) الطبري ١/ ٢٠٢٦.

حركات خالد في منطقة البصرة

أصبح الطريق مفتوحاً أمام خالد للتقدم إلى منطقة البصرة، فتقدَّم إلى الأطراف الغربية منها بعيداً عن النهر، وانضمت إليه القوات العربية التي كانت تقاتل الفرس في تلك المنطقة بقيادة قطبة بن قتادة السدوسي، وعسكر في الخريبة[1] قريباً من الزبير الحالية وكانت فيها مسلحة للفرس فانتزعها منهم، وأغار على الأبلّة الواقعة على شط العرب في مكان العشار الحالية دون أن يفتحها، وهيمن على حصن في شمال البصرة عند نهر المُرَّة[2].

ثم تقدَّم خالد إلى المذار[3]، بالقرب من العزير الحالية، وكانت مركزاً عسكرياً وفيها مرزبان، وقابله الفرس بقيادة قارن، وهو من البيوتات السبعة وكان مقامه الأصلي في جنوبي إقليم فارس[4]، وكان يقاتل مع مجنَبَتَيْه قباذ والأنوشجان[5]، مما يظهر أن الفرس كانوا يدركون ما يحدثه تقدُّم خالد من أخطار على سلطاتهم في الخليج.

واشتبك خالد مع القوات الفارسية في المذار وانتصر عليها بعد أن قتل قائدها[6]، وبان تفوُّق العرب في الأطراف الشمالية من الخليج، وكان غرضهم عسكرياً، هو دحر الجيش الفارسي، ولم يستولوا على أيٍّ من المدن المهمة في تلك المنطقة، كما أنهم لم يعبروا شط العرب. وكانت وقعة المذار آخر معركة يقاتل فيها الفرس بجيش البيوتات و«لم يقاتل المسلمون بعده أحداً انتهى شرفه في الأعاجم»[7].

---

(١) الطبري ١/٢٠٢٦؛ فتوح البلدان ٢٤١، ٣٣٩.
(٢) فتوح البلدان ٢٤٠، ٣٣٩؛ تاريخ خليفة ٨٥ (عن المدائني).
(٣) فتوح البلدان ٢٤١.
(٤) الطبري ١/٢٠٢٧.
(٥) الطبري ١/٢٠٢٧.
(٦) تاريخ خليفة ٨٥، الطبري ١/٢٠٢٨.
(٧) الطبري ١/٢٠٢٨.

والمنطقة التي وصلها خالد تقع وراءها بطائح تغمرها المياه، وكانت قد تسعت بعد انحراف دجلة وتكسُّر السدود وتخرُّب شبكات الريّ، كما أن أرضها تكثر فيها الوهاد ومجاري السواقي والترع وبساتين النخيل والمزارع، فهي تعرقل حركات الجيوش وتعيقها، وتعرِّض مؤخرة الجيش المتقدم منها إلى خطر تهديدات الأعداء.

تقدم خالد إلى منطقة الحيرة

حملت هذه الأحوال الجغرافية خالد بن الوليد على الاكتفاء بما حققه في منطقة البصرة، فعاد نحو الأطراف الغربية من العراق إلى هدفه في منطقة الحيرة وهي «باب فارس» وسلسلة طريق البر الصحراوي الجاف الذي ييسِّر سير الإبل وتنقُّل المشاة، وييسِّر له حرية الحركة وتكون مؤخرته مؤمَّنة، لقلة سكان البادية وأكثرهم من بني بكر الذين علاقتهم سيئة بالفرس، ولم تعرقل حركاته القوات التي كان قد وضعها الفرس في المناظر في أطراف الصحراء، إذ لم تُبْدِ أيَّ مقاومة، ولعلها كانت ضعيفة، فلم يُضِعْ وقته في الهجوم عليها ووصل إلى أطراف الحيرة.

ويُروى أن خالداً هاجم كسكر (في موقع واسط) والزندورد في غربيها. ويُرجّح أن هذا الهجوم إن صحَّ كان من الغرب[1].

علم الفرس بتحركات خالد، وأخذوا بالاستعداد لصدِّها، فتقدَّم جيش فارسي كبير، عليه قائدان هما بهمن جادويه والأندرزغر وحشدوا من القبائل العربية المتنصّرة من بني عجل وتيم وضبيعة وعرب الضاحية[2].

الولجة واْلَّيْس

تقدَّم الأندرزغر فعسكر بالولجة، وهي سهل مستوٍ بين هضبتين، يبلغ ارتفاع

---

(١) تاريخ خليفة ٨٥؛ فتوح ٢٤١. ويضيف استيلاؤه على درنى وهرمزجرد.

(٢) الطبري ١/٢٠٢٩.

كلٌ منهما قرابة العشرين متراً، وتقع على بعد ستة أميال من جنوبي الشنافية الحالية، وكان جيشهم أكبر من جيش خالد فركز خالد هجومه على العرب وشتَّتهم، ثم أطبقت خيالته على جناحَي الفرس فانتصرت عليهم وقضت على جيش الفرس في صفر[1] (أول أيار ٦٣٢)، ومات الأندرزغر عطشاً.

ثم تجمَّع الفرس في ألّيس، وهي تبعد قرابة عشرة أميال عن الولجة، وكانت محصَّنة كالقلعة تحمي أمغيشيا وهي مدينة كبيرة عند مصب الفرات بالبطائح.

اتخذ بهمن مقرَّه في قسيانا، ووجَّه إلى ألّيس جابان[2] وطلب منه أن يقيم ولا يشتبك بالقتال حتى يتم تجمع القوات الفارسية إلا إذا اضطر إلى ذلك: «كفكف نفسك وجندك عن قتال القوم حتى ألحق بك إلا أن يعجلوك»[3]، وأخذ يجمع القوات التي كانت في المسالح، والمؤيدين له من العرب من بني عجل وتيم وضبيعة وعرب الضاحية[4].

والمنطقة التي تقع فيها ألّيس منطقة صحراء في غربي الفرات، والخسيف في غربيها، وهي ضيقة لا تتسع للمناورة، وفيها انضم إلى الفرس عدد من متنصرة العرب فاغترَّ الفرس بعددهم وبحصانة موقعهم، فتقدَّم إليهم خالد بن الوليد عندما كانوا منصرفين إلى الغداء غير آبهين، وانقضَّ عليهم بهجوم قوي مباغت، وركز هجومه على العرب المتحالفين معهم فدحرهم، ودمر الفرس الذين سقط لهم عدد كبير من القتلى بعد أن أبدوا مقاومة شديدة حتى يُروى أن خالداً قال «ما لقيت من أهل فارس قوماً كأهل ألّيس»، وذكر الطبري أن قتلى الفرس بلغ عددهم سبعين ألفاً، وفي هذا العدد مبالغة ظاهرة[5].

---

(١) الطبري ١/٢٠٢٩.
(٢) فتوح البلدان ٢٤١.
(٣) الطبري ١/٢٠٣٣.
(٤) الطبري ١/٢٠٣٣.
(٥) الطبري ١/٢٠٣٣.

وبعد انتصار العرب في ألّيس استسلمت أمغيشيا «وكانت مصراً كالحيرة، وكان فرات بادقلى ينتهي إليها وكانت ألّيس من مسالحها»[١] وكانت السفن تصلها من الفرات، فأخربها خالد وأخرب ما حولها فتشتَّت أهلها، وأصبحوا عمالاً متجولين «شكرات» في المنطقة[٢].

ثم تقدَّم خالد إلى الشمال نحو الحيرة، واستعمل النهر لِنَقْلِ الجند، غير أن الفرس قطعوا الماء من أعالي الأنهار، فتعطَّل سَيْرُ السفن فعاجل خالد الفرس بالهجوم وفتح النهر، وعادت السفن في سيرها[٣].

ثم تقدَّم خالد بعد دحره القوات الفارسية إلى الحيرة وكانت أكبر مدن المنطقة وكان يحكمها بعد زوال دولة المناذرة إياس بن قبيصة الطائي الذي ولّاه الفرس عليها ولم يكن معه فيها قوة فارسية تسنده أو عشيرة يركن إليها. وأهلها عرب، وفيها عدد من القصور في كل قصر رجل له أتباعه الذين يقاتلون معه، فقواتهم كانت متفرقة وهم عموماً يكرهون الفرس، فلما تقدَّم إليهم خالد استسلموا له، وعقدوا معه معاهدة يدفعون له بموجبها مبلغاً من المال[٤]. واتخذها خالد قاعدة لحركاته.

وتقدم خالد أيضاً إلى الأنبار وكانت محصَّنة فاستولى عليها بعد حصار قصير، وسار منها إلى عين التمر واتخذها قاعدة لحركات تغلب فيها على المناطق التي كانت بينها وبين حدود الروم[٥]، وكانت جبهة قتاله واسعة إلا أنها اكتسحت مناظر الفرس وكشفت عن ضعفهم ورفعت اسم الإسلام في تلك المناطق ويسَّرت لأهلها التعاطف مع العرب.

---

(١) الطبري ١/ ٢٠٣٧.
(٢) الطبري ١/ ٢٠٣٨.
(٣) الطبري ١/ ٢٠٣٨.
(٤) الطبري ١/ ٢٠٥٩.
(٥) الطبري ١/ ٢٠٥٧ ـ ٢٠٥٩؛ وعن عين التمر ١/ ٢٠٩١؛ وعن الفراض ١/ ٢٠٦٩. وانظر ما كتبه عن هذه الحركات وتحقيق مواقعها الجغرافية كتاب «الفرات الأوسط» لألوموزيل.

ثم جاء أمر الخليفة بأن يذهب خالد بجيشه إلى جبهة بلاد الشام. فغادر العراق، وترك للمثنى أمْرَ حِفْظِ ما فتحه من البلاد وتوسيعها.

ويذكر سيف بن عمر أن المثنى اختار هذا الموقع وأيده عمر بن الخطاب، «يقاتلهم على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب وأدنى مدرة من أرض العجم، فإن يظهر الله المسلمين فلهم ما وراءهم، وإن تكن الأخرى فأووا إلى فيئة، ثم يكونوا أعلم بسبيلهم وأجرأ على أرضهم إلى أن يردَّ الله الكرّة عليهم»[1].

فاختيار الموقع راجع إلى أهميته الجغرافية والعسكرية، فهو على طرف الريف، تتوافر فيه المياه، وتكثر عنده المزارع، والطريق إليه مألوفة، وتقع وراءه الصحراء حيث يستطيع الجيش الإسلامي عند تعرُّضه لأخطار الإنسحاب إليها بأمان دون أن تتجرَّأ القوات الفارسية على ملاحقتهم فيها لجهلهم بمسالكها وصعوبة الحركات فيها.

ذكر سيف أن سعد بن أبي وقاص كتب إلى عمر بن الخطاب يصف الأرض التي عسكر فيها: «أن القادسية بين الخندق والعتيق، وان ما عن يسار القادسية بحر أخضر في جوف لاح إلى الحيرة بين طريقين: فأما أحدهما فعلى الظهر، وأما الآخر فعلى شاطيء نهر يدعى الحضوض يطلع بمن سلكه على بين الخورنق والحيرة وما عن يمين القادسية إلى الولجة فيض من فيوض مياههم»[2].

---

(١) الطبري ١/٢٢٢٨.

(٢) الطبري ٢٢٢٩ ـ ٢٢٣٠. وانظر في وصف معالم المنطقة ما كتبناه عن منطقة الحيرة في كتابنا «معالم العراق العمرانية» ودراسة الواموزيل في كتابه «الفرات الأوسط»، وبحث جواد مطر الحمد عن «موقع معركة القادسية».

الفصل الرابع

الحركات الحربية في أوائل خلافة عمر بن الخطاب

الاتجاهات الجديدة في سياسة عمر بن الخطاب

لما وَلِيَ عمر بن الخطاب الخلافة في أواخر السنة الثالثة عشرة تابع سياسة أبي بكر في توسيع الدولة ومدِّها إلى الأقاليم التي حول الجزيرة، وأدخل في الخطط العامة للدولة تعديلات كان أبرزها زيادة الاهتمام بالعرب والارتكاز عليهم في الفتوح، فقد منع العرب وقال «ليس على عربي ملك» وفدى من كان سبي من الجاهلية بخمس من الإبل، وأربعمائة درهم، وفي رواية أنه فداهم بست قلائص، وردَّ أولاد الإماء أحراراً. ويُروى أنه قال عند موته «في فداء العربي عبد وفي ابن الأمة بعيران»[1]. وكان يرى أن «كل أسير كان في أيدي المشركين من المسلمين ففكاكه من بيت المال» ويُروى أنه قال «لأن استنقذ رجلاً من المسلمين من أيدي الكفار أحب إليّ من جزيرة العرب»[2]، وقال قبيل وفاته «أوصي الخليفة من بعدي بالأعراب خيراً فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام»[3].

---

(1) الأموال ١٣٣ ـ ١٣٤، وانظر ١٣٧.

(2) الخراج لأبي يوسف ١٩٦.

(3) الأموال لأبي عبيد ٢٣٤؛ البخاري: فضائل أصحاب النبي ٨.

وأذن عمر بن الخطاب لمن كان قد ارتدَّ أو كان منشقاً عن دولة الإسلام قبلاً «أن ينضم إلى الجيوش ويشارك في الفتوح، وكان أبو بكر لا يستخدمهم في الجيش»[١]، وقد استنفرهم ولم يولِّ منهم أحداً[٢]، ويُروى أنه أمر أمراءه قائلاً: «لا تدعوا في ربيعة أحداً ولا مضر ولا حلفاءهم أحداً من أهل النجدات ولا فارساً إلا أجلبتموه فإن جاء طائعاً، وإلا حشرتموه، احملوا العرب على الحديد»[٣]، وكتب لهم أيضاً «لا تدعوا أحداً له سلاح أو قوة أو نجدة أو رأي إلا انتخبتموه ثم وجهتموه»[٤]، وانتخب من أهل الرأي والنجدة من كان له سلاح أو فرس[٥]. ولا ريب في أن تنفيذ هذه السياسة أثمر في زيادة عدد المقاتلة، وتنوُّع أصولهم القبلية والحضارية. وتطلَّب ذلك تنظيمات خاصة تيسِّر جمعهم تحت لواء واحد للعمل على هدف واحد.

ثم إن عمر اهتمَّ بجبهة العراق وحمل المقاتلة على التوجه إليها، بعد أن كان كثير منهم، وخصوصاً من قَدِمَ من اليمن يحرصون على قتال الروم في جبهة الشام[٦].

حملة أبي عبيد ومعركة الجسر

تركيب القوات وأعدادها:

انتخب عمر بن الخطاب من أهل المدينة ومن حولها ألف رجل[٧]، وأمّر عليهم أبا عبيد الثقفي ومعه سليط بن قيس الأنصاري[٨]. وكان قائد الحملة أبو

---

(١) الطبري ١/ ٢٠٦٥، ٢٠٢١، ٢١٦٥، ٢٢٢٥.
(٢) الطبري ١/ ٢٢٢٥.
(٣) الطبري ١/ ٢٢١٠.
(٤) الطبري ١/ ٢٢١١.
(٥) الطبري ١/ ٢٢١٦.
(٦) الطبري ١/ ٢١٥٩؛ مصنف ابن أبي شيبة.
(٧) الطبري ١/ ٢١٦٥؛ فتوح البلدان ٢٥١.
(٨) فتوح البلدان ٢٥١؛ ابن الأعثم ١/ ١٦٥ «كان أبو عبيد أميراً» و«سليط وزيراً».

عبيد ثقفياً من بني غبر[1]، وهي عشيرة تأخر إسلامها إلى ما بعد فتح مكة، وقد ثبتت على الإسلام ولم ترتدَّ. ولعلَّ من أسباب اختياره لقيادة الحملة كثرة من شارك فيها من ثقيف. فقد ذكر خليفة بعض الذين شاركوا فيها فكان منهم: الجبر وأبو الجبر ولدا أبي عبيد، وعبد اللّه بن مسعود، وأبو قيس بن حبيب، وذكر خليفة أن أبا عبيد أوصى أن يتتابع الأربعة الأولون على القيادة إذا قتل أحدهم[2]. وذكرت مصادر أخرى أسماء رجال من ثقيف شاركوا في الحملة، فذكر ابن أعثم منهم وهب ومالك وجبر أبناء أبي عبيد[3]، وذكر البلاذري الحكم[4]، وذكر الطبري عبد اللّه بن مرشد[5]. وذكرت عدة مصادر أنه كان منهم أبو محجن[6]، وذكر الطبري أن سبعة من ثقيف أصيبوا مع أبي عبيد وكانوا حوله[7].

ذكرنا أن عمر بن الخطاب أرسل مع أبي عبيد سليط بن قيس، وهو أنصاري من بني عدي بن النجار، كان من أوائل المسلمين في المدينة، ولما أسلم صار يكسر أصنام بني عدي بن النجار، وقد شهد مع الرسول (ص) المشاهد كلها[8]. ويبدو أن عدداً كبيراً من بني النجار شاركوا في الحملة، فقد ذكر ابن سعد أن سلمة بن أسلم كان ممن قتل منهم في المعركة[9]، بالإضافة إلى زيد بن سراقة[10]، وثعلبة بن عمرو[11]، وقيس بن السكن[12]، وأبي

---

(١) الأنساب لابن حزم ٢٦٨.

(٢) تاريخ خليفة ٩٣، وانظر عن الجبير فتوح البلدان ٢٥٢؛ الطبري ١/٢١٧٧، ٢١٧٨؛ ابن الأعثم ١/١٦٨. وعن أولاده ابن الأعثم ١/١٧٠.

(٣) ابن الأعثم ١/١٧٠.

(٤) فتوح البلدان ٢٥٢.

(٥) الطبري ١/٢١١٧، ٢١٨٠.

(٦) تاريخ خليفة ٩٣؛ فتوح البلدان ٢٥٢، ابن الأعثم ١/١٦٩.

(٧) الطبري ١/٢١٧٩.

(٨) ابن سعد ٣ ـ ٢/٦٩.

(٩) ابن سعد ٣ ـ ٢/٢٠؛ مروج الذهب ٢/٣٠٧.

(١٠) ابن سعد ٣ ـ ٢/٥١.

(١١) ابن سعد ٣ ـ ٢/٦٦.

(١٢) ابن سعد ٣ ـ ٢/٧٠.

أخرم بن عنيد[1]. وذكر أيضاً قيس بن الحطيم (وهو من ظفر)، وعبد اللّه بن يزيد (من حطمة)[2] وذكر ابن الأعثم الذين شاركوا من الأنصار فكان منهم: مطر بن فضة (من قيس بن ثعلبة) ومعاذ بن حصين[3].

ومن عشائر الحجاز التي شاركت في الحملة عشيرة بني سليم، وقد ذُكِرَ منهم عمرو بن الصلت السلمي[4].

ذكر البلاذري أن أبا عبيد عندما تحرك من المدينة أقبل لا يمر بقوم من العرب إلا رغَّبهم في الجهاد والغنيمة، فصحبه خلق[5]. ومن المعلوم أن أهل القبائل في الطريق بين المدينة والعراق هم بنو أسد، وطي، وتميم. وذكرت المصادر أن من شارك في الحملة من طي: عروة بن زيد وأبا زيد الطائيين، وذُكِرَ ممن شارك فيها الطلح الضبي وعاصم بن عمير الأسدي اللذان شاركا فيها أيضاً[6].

انضمَّ إلى أبي عبيد المثنى بن حارثة ومن معه، وكان عددهم في قول ابن الأعثم ألفاً من قبائل بكر[7]، وذُكِرَ من رجالهم مذعور العجلي[8]. ومن الذين ذكر الطبري مشاركتهم في جيش أبي عبيد: مطر بن فضة التيمي، وأكتل بن شماخ العُكلي، ووالق بن جيدارة[9]. أما المجموع الكلي لعدد القوات التي صارت مع أبي عبيد فإن الطبري يروي بسند عن أبي عثمان النهدي أن عدد من قتل فيها أربعة آلاف، وعدد من هرب ألفان، ومن بقي مع المثنى ثلاثة آلاف[10]، أي أن عددهم تسعة آلاف. ويُروى عن سيف أن عددهم بين الستة

---

(1) ابن سعد ٣ ـ ٢/ ٦٨.
(2) ابن سعد ٨/ ٢٧١؛ الطبري ١/ ٢١٨١.
(3) ابن الأعثم ١٦٥، ١٦٩؛ الطبري ١/٢١٦٨/ ٢١٨٢.
(4) تاريخ خليفة ٩٣، الطبري ١/ ٢١٦٧.
(5) فتوح البلدان ٢٥١.
(6) خليفة ٩٣، وانظر فتوح البلدان ٢٥٢، الطبري ١/ ٢١٧٥.
(7) ابن الأعثم ١/ ١٦٥.
(8) الطبري ١/ ٢١٧٢.
(9) الطبري ١/ ٢١٦٦، وانظر عن القتلى كايتاني ٣/ ١٦١ ـ ١٧١؛ دونر: الفتوحات الإسلامية.
(10) الطبري ١/ ٢١٨٠.

والعشرة آلاف، وأنه أصيب منهم أربعة آلاف بين قتيل وغريق. ويُروى في مكان آخر أن عدد من بقي مع المثنى أربعة آلاف(١).

لا ريب في أن عدد قتلى المسلمين كان كبيراً، ولكن الراجح أنه لم يبلغ أربعة آلاف كما زعم سيف. ويذكر خليفة أن عدد القتلى ألف وثمانمائة(٢). ولعلَّ عدد قوات المسلمين كان أقرب إلى ما ذكره ابن أعثم إذ قال إن أبا عبيد «خرج في أربعة آلاف من المهاجرين والأنصار والعبيد والموالي» وأن قبائل ربيعة اجتمعت إلى المثنى بن حارثة الشيباني في قريب من ألف، فصار القوم خمسة آلاف(٣)، وهو على أي حال عدد كبير يدل على أن الحملة لم تكن مجرَّد غارات استطلاعية وإنما استهدفت الفتح وتثبيت الحكم العربي.

وجَّه أبو عبيد حركاته على أطراف السواد في الجبهات الجنوبية الشرقية من الحيرة، وهي منطقة تكثر فيها الأنهار الصغيرة وبعض البطائح، وفيها بساتين النخيل ومزارع الأرز، ولم تُعِقْ حركاته مراكز الدفاع الساسانية القديمة من القلاع والمناظر، فقد كان أهل تلك المناطق من أعراب البادية، وخصوصاً بكراً، ومن الفلاحين العراقيين، الذين كانوا بمعظمهم يعتنقون النصرانية، وليست لهم صلة نسب بالحكام الفرس أو رابطة عقيدة، باستثناء بعض أراضي تلك المناطق التي كانت إقطاعات للمتنفذين من الفرس.

وكان النرسيان إقطاعاً لنرسي، وهو ابن خالة كسرى يحميه لا يأكله بشرٌ ولا يغرسه غيرهم أو ملك فارس(٤).

وأفلح أبو عبيد في حركاته الأولى، فدحر جابان في أطراف الحيرة والفرس في كسكر، وابن الأندرزغر في باروسما، ووجَّه المثنى للإغارة على الزندورد،

---

(١) الطبري ١/ ٢١٧٥، وانظر مروج الذهب ٢/ ٣٠٨.
(٢) تاريخ خليفة ٩٣.
(٣) ابن الأعثم ١/ ١٦٥.
(٤) الطبري ١/ ٢١٦٩.

وعاصم بن عمرو الأسدي على نهر جوبر، وعروة بن زيد على الزوابي[١]. وكانت هذه المواقع الثلاثة الأخيرة موغلة في الشرق حتى أطراف دجلة.

القوات الساسانية في معركة الجسر

إن النجاح الذي أحرزه أبو عبيد في حركاته نبَّه الفرس إلى الأخطار التي تواجههم من تقدُّم العرب بقوة كبيرة قادرة على الاندفاع والهيمنة على البلاد، فقاموا باستعدادات لصدِّها بالرغم من الأحوال المضطربة في عاصمتهم في المدائن، والخلافات التي كانت بينهم على ولاية العرش.

أسند الفرس قيادة جيشهم إلى بهمن جاذويه[٢]، ويسمَّى في الكتب العربية ذا الحاجب، وكان أشد العجم على العرب[٣]، وكان قد شارك في مقاتلة خالد بن الوليد حيث كان مقرُّه في قسياثا، جنوب الكوفة، ثم اتخذ مقرَّه في بهرسير[٤] وكان مسؤولاً عن الدفاع عن المنطقة الواقعة غرب المدائن إلى الأنبار وكانت بإمرة بهمن جابان[٥] وهو آمر حامية أُلّيس ومن شارك في مقاومة العرب وفي معركة أُلّيس الصغرى[٦].

كان الجالنوس من قواد الفرس في موقعة الجسر، وكانت قد أرسلته بوران لإنجاد جابان في معركة أُلّيس[٧]، ثم كان على مقدمة جيش الفرس في معركة الجسر[٨].

---

(١) تاريخ خليفة ٩٢؛ فتوح البلدان ٢٤٩، ٢٥١، وانظر تفاصيل أوفى في الطبري ١/ ٢١٦٣ فما بعد.
(٢) الطبري ١/ ٢١٧٦؛ فتوح البلدان ٢٥٠.
(٣) الطبري ١/ ٢٠٧٤.
(٤) الطبري ١/ ٢٠٥٢.
(٥) الطبري ١/ ٢٠٢٣.
(٦) الطبري ١/ ٢٠١٨؛ فتوح البلدان ٢٤١.
(٧) الطبري ١/ ٢١٧٢.
(٨) الطبري ١/ ٢١٧٥.

يذكر الطبري أن الراية الملكية «درفش كابيان»[1] كانت مع بهمن جاذويه في معركة الجسر وهذا ما يدل على تقدير الفرس لأهمية المعركة، وأن عماد جيشهم كان الجيش الملكي الذي هو أقوى جيوش الدولة الساسانية، غير أنه لا بدَّ أن يكون هذا الجيش قد ضم قوات الحاميات والمناظر المتفرقة، فكوَّن قوة كبيرة يذكر خليفة أنها بلغت اثني عشر ألفاً ومعهم فيلة[2]. ويذكر البلاذري أنها كانت أربعة آلاف مدجج، ومعه فيل ويقال عدة فيلة[3]. وقد يكون الرقم الذي ذكره للمقاتلة دون من يتبعهم، وقد لا يصل إلى العدد الذي ذكره خليفة، ولكنه، في أي حالُ عدد كبير، غير أنه لم يذكر للفيلة أو الخيالة دوراً ملحوظاً في المعركة.

يذكر الطبري أن المعركة وقعت عند قس الناطف، ولذلك تسمّى أحياناً معركة «القس» أو معركة قس الناطف، وذكر أنها بالقرب من المروحة، ومن المؤكد أنها كانت عند نهر الفرات، على الجانب الشرقي منه، حيث نُصِبَ الجسر وعبرته الجيوش الإسلامية، غير أن المصادر لم تحدِّد موقعها بدقة والراجح أنها كانت في الأطراف الجنوبية من بابل[4] وبالقرب من بانقيا حيث عقد أهلها الجسر الذي جرت عنده المعركة[5].

جمع المسلمون والفرس كل قواتهم المتيسرة في ميدان المعركة، ولم يُرِدْ خلالها خبر عن معارك جانبية جرت في مناطق أخرى، وكان عماد القتال على الرجالة، وللفيلة أثر كبير على المسلمين[6]، وكان بهمن في قلب القوات الفارسية، وعلى مجنبته جشنسماه ومردانشاه[7].

أما الجيش الإسلامي فكان على ميمنته والق بن جيدارة، وعلى ميسرته

---

(١) الطبري ١/ ٢٧٥؛ تاريخ خليفة ٩٢؛ مروج الذهب ٢/ ٣٠٨.
(٢) تاريخ خليفة ٢٨.
(٣) فتوح البلدان ٢٥١.
(٤) الطبري ١/ ٢١٧٧، ٢١٧٨.
(٥) فتوح البلدان ٢٥١، ابن الأعثم ١/ ١٦٨.
(٦) ابن الأعثم ١/ ١٧٠؛ الطبري ١/ ٢١٧٩.
(٧) الطبري ١/ ٢١٦٦.

عمرو بن الهيثم السلمي، وعلى الخيل المثنى بن حارثة[1]. ويذكر الطبري أن أكتل العكلي أسر مردانشاه[2] غير أن كثرة عدد القتلى من الأنصار يدل على أنهم كانوا في خطوطها الأمامية، ولعلَّهم في القلب، وأن تأمين المثنى انسحاب المسلمين يدل على أن قواته كانت في المؤخرة.

لقد كان قتالاً حامياً انتصر فيه الفرس، وفقد المسلمون عدداً كبيراً من القتلى يذكر خليفة أنهم ألف وثمانمائة[3]. ويذكر الطبري أنهم أربعة آلاف[4] أي قرابة ثلث القوة الإسلامية، وهو، في كل حال، عدد كبير حتى بمقارنته بقتلى المعارك الكبرى.

كانت المعركة قد حدثت يوم السبت آخر رمضان سنة ١٣[5] (أوائل كانون الأول)، أي بعد ثلاثة أشهر من تولّي عمر الخلافة، وكانت معركة قصيرة وحامية، فلم تذكر المصادر أنها استمرت أكثر من يوم واحد، ولعلَّ جسامة الخسارة راجعة إلى أن أبا عبيد عبر إلى الجانب الشرقي من الفرات الذي أصبح وراءه فكان يحدِّد مجال حركته ومناوراته، ويقيِّد مجال انسحابه عند اقتضائها[6].

وكان لانكسار العرب في معركة الجسر وَقْعٌ عظيم على الخليفة عمر بن الخطاب، فقد ظلَّ سنة لا يذكر العراق لمصاب أبي عبيد[7]. والواقع أنها كانت أول معركة كبيرة في جبهة العراق تشارك فيها قوات جهزها الخليفة من الحجاز لغرض الفتح، وسقط فيها كثير من الصحابة من أهل المدينة، الذين كانوا الركيزة الأساسية لدولة الإسلام، كما كانت المعركة الأولى من نوعها التي قاتل العرب فيها الفرس الذين لم تكن لهم بهم علاقات سابقة وثيقة.

---

(١) ابن الأعثم.
(٢) الطبري ١/٢١٦٧.
(٣) تاريخ خليفة ٩٢.
(٤) الطبري ١/٢١٧٦، ٢١٨٢؛ مروج الذهب ٢/٣٠٨.
(٥) تاريخ خليفة ٩٢؛ فتوح البلدان ٢٥١.
(٦) مروج الذهب ٢/٣٠٨؛ الطبري ١/٢١٧٨.
(٧) فتوح البلدان ٢٥١.

موقعة البويب

القوات الإسلامية:

إن انكسار المسلمين في موقعة الجسر لم يثنِ الخليفة عمر بن الخطاب عن اهتمامه بجبهة العراق والعمل على مقاتلة الفرس. فلما جاءه العرب من اليمن، بخاصة، يريدون الالتحاق بالجيوش الإسلامية في جبهة الشام ألحَّ عليهم بالتوجُّه إلى العراق وأغرى بعضهم في ذلك. فيروي الشعبي أن عمر «كان أول من وجَّه جرير بن عبد اللّه إلى الكوفة بعد قتل أبي عبيد»(١) وكان جرير قد قَدِمَ إلى عمر بن الخطاب مع قومه لينضمَّ إلى الجيوش الإسلامية المقاتلة في جبهة بلاد الشام، وأراد عمر أن يتوجَّه إلى جبهة العراق، وأغراه بأن وَعَدَهُ بالحصول على نصيب استثنائي اختلفت الروايات في مقداره، فروى بعضهم أن عمر وَعَدَهُ بأن يكون لعشيرته «الربع بعد الخمس من كل أرض»(٢)، وفي رواية أخرى أن عمر جعل لهم «ربع خمس ما أفاء اللّه على المسلمين الفيء»(٣)، وفي رواية أخرى أنه «جعل لهم ربع الخمس نفلاً»(٤).

ويروي قيس بن أبي حازم أن بجيلة كانت ربع الناس يوم القادسية(٥)، وأن عمر «أعطى جريراً وقومه ربع السواد، وأخذوه سنتين أو ثلاث، ثم ردّه عليهم فأعطاهم عمر ثمانين ديناراً»(٦)، ومن الواضح أن الثمانين ديناراً أُعْطِيَتْ لكلٍّ منهم مرة واحدة للتعويض عن تنازلهم عن أخذ الربع، ولتنفيذ تنسيقٍ عام في دفع العطاء.

---

(١) الخراج لأبي يوسف ٢٩، الأموال لأبي عبيد ٦٢.
(٢) الخراج ليحيى بن آدم ٤٥؛ الأموال لأبي عبيد ٦٢.
(٣) الطبري ١/٢١٨٦.
(٤) الطبري ١/٢١٩٧، ٢١٩٨.
(٥) الأموال لأبي عبيد ٦١.
(٦) الخراج لأبي يوسف ٣٢؛ الخراج ليحيى بن آدم ٤٥، ٤٦؛ الأموال لأبي عبيد ٦١.

جرير بن عبد اللّه البجلي:

كان جرير قدم الرسول (ص) ومعه مائة وخمسون من قومه[1] وأرسله الرسول (ص) إلى ذي الخلصة فهدمه[2]، ثم أرسله إلى ذي الكلاع وإلى ذي عمرو، وبقي إلى أن توفي الرسول (ص)[3]، فعاد إلى المدينة[4]، ثم أرسله أبو بكر «يدعو من قومه من ثبت على أمر اللّه ثم يستنفر مقويهم فيقاتل بهم من ولّى عن أمر اللّه، وأمره أن يأتي خثعم فيقاتل من خرج غضباً لذى الخلصة[5]، ثم وجّهه إلى نجران[6]، ثم انضم إلى جيش خالد بن الوليد، ولكنه عاد إلى المدينة من سوى[7]. وطلب من أبي بكر أن يجمع له بجيلة، وشارك في البويب[8]، وفي غُضَيّ[9]. وكان في القادسية منهم ألفان[10]، ثم شارك في الفتوح التالية ووَلِيَ إدارة بعض المناطق في زمن خلافة عثمان.

بجيلة:

كانت بجيلة متفرقة في العرب وقد شاركوا الأزد في ردّتهم ثم تفرّقوا[11]، فلما وَلِيَ عمر بن الخطاب الخلافة كتب إلى عماله العرب كلهم، من كان فيه أحد ينسب إلى بجيلة في الجاهلية وثبت عليه في الإسلام يعرف ذلك فأخرجوه

(١) ابن سعد ١ ـ ٢/ ٧٧؛ الطبري ١/ ١٧٦٣.
(٢) الخراج لأبي يوسف ٩٦؛ الطبري ١/ ١٧٦٣.
(٣) ابن سعد ١ ـ ٢/ ٢٠.
(٤) الطبري ١/ ١٩٨٤.
(٥) الطبري ١/ ١٩٨٨.
(٦) الطبري ١/ ٢٠٤٥، ٢١٣٦.
(٧) الطبري ١/ ٢١٨٣.
(٨) الطبري ١/ ٢١٨٤.
(٩) الطبري ١/ ٢٢١١.
(١٠) الطبري ١/ ٢٢٢١.
(١١) الطبري ١/ ١٩٨٥.

إلى جرير، فأخرجوا له ووجّههم إلى العراق[1]، ومن عشائرهم التي أخرجت قيس كبة وسمحة وعرتين[2].

واستعمل عمر عرفجة على من كان مقيماً على جديلة من بجيلة، وجريراً على من كان من بني عامر وغيرهم، غير أنهم لم يرضوا بتولية عرفجة، وهو من بارق الأزد، فجعل جريراً على كل بجيلة، فخرج في قومه سنداً للمثنى بن حارثة، ونزل بذي قار، ثم انضم إلى الجيوش الإسلامية في البويب[3].

عشائر أخرى:

أَتْبَعَ عمر بجيلة بعشائر أخرى قَدِمَتْ إليه وقد ذَكَرَهُم سيف بن عمر فقال:

«قدم على عمر غزاة بني كنانة والأزد في سبعمائة جميعاً.. فأمّر على بني كنانة غالب بن عبد اللَّه وسرّحه، وأمّر على الأزد عرفجة بن هرثمة وعامتهم من بارق.. فخرج هذا في قومه وهذا في قومه.. وخرج هلال بن علقمة التيمي فيمن اجتمع إليه من الرباب حتى أتى عمر فأمّره عليهم وسرَّحه فَقَدِمَ على المثنى..

وأخرج ابن المثنى الجشمي، جشم سعد، حتى قَدِمَ عليه فوجّهه وأمَّره على بني سعد فَقَدِمَ على المثنى.

وجاء عبد اللَّه بن ذي السهمين في أناس من خثعم فأمَّره عليهم ووجَّهه إلى المثنى.

وجاء ربعي في أناس من حنظلة فأمَّره عليهم وسرَّحهم..

---

(١) الطبري ١/٢١٨٣، ٢١٨٦.
(٢) الطبري ١/٢٢٠٠.
(٣) الطبري ١/٢١٨٦ ـ ٧.

وقَدِمَ عليه أناس من بني عمرو فأمَّر عليهم ربعي بن عامر بن خالد العنود وألحقه بالمثنى.

وقَدِمَ عليه قوم من بني ضبة، فجعلهم فرقتين، على إحداهما ابن الهوبر وعلى الأخرى المنذر بن حسان.

وقدم عليه قرط بن جماح في عبد القيس»[١].

إن هذه القائمة هي الوحيدة التي وصلتنا عن أسماء العشائر ورؤسائها ممن شاركوا في معركة البويب، وهي تشمل ثماني مجموعات ذُكِرَ منها عدد أفراد مجموعة واحدة، وهم كنانة والأزد وعددهم سبعمائة، ولعلَّ كلاً من بقية المجموعات لها مثل هذا العدد أو عدد قريب منه، أي أن عددهم قرابة خمسة آلاف رجل، ولم يُذْكَرْ معهم نساء، أي أن مشاركتهم كانت للقتال وليس للفتح والاستقرار.

ومن هذه المجموعات اثنتان من عشائر الأطراف الشمالية لليمن وجنوب الحجاز، وهم كنانة، والأزد، وخثعم، وعشيرة واحدة من البحرين، وهي عبد القيس، أما المجموعات الخمس الباقية فهي من عشائر تميم المقيمين في هضبة نجد. ولم تُذْكَرْ غيرها من عشائر الجزيرة.

ويدلّ تقديم ذكر رؤسائهم على مكانة هؤلاء الرؤساء في عشائرهم، ويشير إلى دورهم في تنظيم القتال وإدارته.

ذكر الطبري دور بعض هؤلاء الرؤساء في معركة البويب فقد شارك في قتل مهران ابن الهوبر[٢]، والمنذر بن حسان[٣]، وارتُثَّ قرط بن جماح العبدي[٤]، ولم يُذْكَرْ لهم دور في الحوادث التالية.

---

(١) الطبري ١/ ٢١٨٨ ـ ٩.
(٢) الطبري ١/ ٢١٩٢.
(٣) الطبري ١/ ٢٢٠١.
(٤) الطبري ١/ ٢١٩٤.

ذكرت المصادر أدواراً أوسع لبعض هؤلاء الرؤساء، فهلال بن علّفة التيمي أرسله المثنى إلى دست ميسان قبيل المعركة[1] وشارك في معركة القادسية وكان ممن هاجم رستم ودمَّر الحمل الذي تحته[2].

وربعي بن عامر كان هو وابن ذي السهمين قد طوّقا الفرس في معركة البويب[3]. وكان ربعي أيضاً ممن أرسلهم سعد بن أبي وقاص لمفاوضة رستم قبيل القتال في القادسية[4]، ثم شارك في فتح الأهواز[5] وفي معركة نهاوند حيث كان على إحدى المجنبتين[6]، كما شارك في فتح بلخ[7].

أما عبد اللّه بن ذي السهمين فكان على الركبان في معركة القادسية[8] وقد شارك في مفاوضة رستم[9]، وشهد صلح الماهين[10].

وضع الطبري في قائمة المجموعات العشائرية التي أرسلها عمر للمشاركة في معركة البويب عشيرتَيْ كنانةُ والأزد بمجموعة واحدة، وذكر أن عددهم جميعاً سبعمائة دون أن يذكر عدد من كان في كل عشيرة، وإن كان من المحتمل أن يكونا متقاربين في العدد.

كان رئيس كنانة غالب بن عبد اللّه الليثي، وهو صحابي قديم، أرسله الرسول (ص) على رأس سرايا إلى بني الملوح في قديد ثم إلى فدك والميفعة والكويد والمشلل[11].

---

(١) الطبري ١/٢٢٠٢.
(٢) الطبري ١/٢٣٠٦، ٢٤٣٣، ٢٣٥٦.
(٣) الطبري ١/٢١٩٥.
(٤) الطبري ١/٢٢٦٩، ٢٣٢٩.
(٥) الطبري ١/٢٥٥٤، ٢٥٦٩.
(٦) الطبري ١/٢٦٤٩، ٢٦١٥.
(٧) الطبري ١/٢٦٨٣.
(٨) الطبري ١/٢٢٢٤.
(٩) الطبري ١/٢٣٣٥.
(١٠) الطبري ١/٢٦٣٣.
(١١) انظر: الدولة في عهد الرسول (ص).

أما بارق فكان رئيسها عرفجة بن هرثمة وكان حليفاً لبجيلة وسيداً لها إلى أن وَلِيَ رئاستهم جرير[١]، وكان أبو بكر قد أرسله للقضاء على ردة مهرة[٢]، ثم أرسل مدداً لعتبة بن غزوان[٣]، وقاتل في الأهواز[٤]. ويذكر البلاذري أن الأزد قدموا إلى عمر قبل بجيلة، فكانوا أول من وجَّههم إلى العراق[٥].

المجموع الكلي لجيش المسلمين:

لم تذكر المصادر عدد المجموعات القبلية التي قاتلت في البويب، سوى ما ذكره الطبري أن كنانة والأزد كانوا سبعمائة، ولعلَّ كلاً من المجموعات الثماني الأخرى كان عدد مقاتلتها بين الخمسمائة والسبعمائة فيكون عددهم بين الأربعة آلاف والخمسة آلاف، يضاف إليهم من كان مع المثنى وعددهم ثلاثة آلاف، وبجيلة، وهي ربع الناس، أي ألفين، فيكون المجموع الكلي للجيش قرابة عشرة آلاف.

وأبرزت المصادر دور عدد من القادة، ولم تذكر القائد الأعلى في المعركة، وذكر البلاذري «كان على الناس فيما تزعم بجيلة جرير بن عبد اللّٰه، وفيما تقول ربيعة المثنى بن حارثة، وقد قيل إنهم كانوا متسايدين على كل قوم رئيسهم»[٦]، ولا ريب في أن المثنى أخبر بأحوال جبهة العراق، غير أنه أقلُّ معرفة من جرير في أحوال عشائر اليمن والجزيرة، وهذا يرجِّح أن تكون الرئاسة لجرير، غير أنه لم يظهر أثر لمنافسة أو انقسام بين القادة كالذي بدا في معركة الجسر، مما يدل على التعاون والتنسيق بين القوات الإسلامية وقادتها.

---

(١) الطبري ١/ ٢٢٠٠.
(٢) الطبري ١/ ١٨٨١، ١٩٢٩، ١٩٧٧.
(٣) الطبري ١/ ٢٢٩٦.
(٤) الطبري ١/ ٢٥٥٢.
(٥) فتوح البلدان ٢٥٢.
(٦) فتوح البلدان ٢٥٣. وأشار خليفة إلى حدوث منافسة بين جرير والمثنى مما حدا بعمر إلى إرسال سعد بن أبي وقاص لمتابعة فتح العراق (تاريخ خليفة ٩٨).

ويذكر أيضاً أنه عند انكسار الفرس وانسحابهم هرب بعض القواد وثبت آخرون، وأن ممن هرب الهرمزان وكان بإزاء عطارد، وأهود وكان بإزاء حنظلة، وزاد بن بهيش وكان بإزاء عاصم بن عمرو، وقارن وكان بإزاء القعقاع، وممن ثبت شهريار بن كنار، وكان بإزاء سلمان الفارسي، وابن الهربذ وكان بإزاء عبد الرحمن[1]، وخسرو شنوم الهمذاني بإزاء الهذيل الكاهلي، ويذكر أنه بعد بابل تفرّق جند الفرس فتوجَّه الهرمزان إلى الأهواز والفيرزان إلى نهاوند وبها كنوز كسرى، والنخيرجان ومهران الرازي إلى المدائن وشهريار من دهاقين الباب وكان في كوش[2].

إن المذكورين في هذه القوائم، وعددهم أربعة عشر، هم القادة البارزون، وقد شملت القائمة الأولى ثمانية هم الذين ولاهم رستم القيادات، وشملت القائمة الثانية ثمانية هم الذين قادوا انسحاب الجيش الفارسي بعد انكساره ومقتل رستم في القادسية، ومنهم إثنان ذكروا في القائمة الأولى، وهم الهرمزان وزاد بن بهيش، أما الستة الباقون فلم يَرِدْ ذكرهم في التنظيم الذي وضعه رستم غير أن قيامهم بالقيادة في مرحلة الانسحاب تدل على مكانتهم وترجِّح أنهم كانت لهم منذ بداية المعركة مكانة قيادية، وإن كانت أقلَّ من مكانة مَنْ ذَكَرَهُ في القائمة الأولى، وأن بروزهم عند انسحاب الجيش الساساني يظهر قدرتهم وتمسُّكهم بدولتهم.

إن هذه القوائم تحتوي على ثلاثة قواد كان لهم دور في المعارك الأولى التي قاتل فيها الفرس الجيش العربي قبل القادسية، وهم ذو الحاجب وقارن والهرمزان، أما الأحد عشر الباقون فلم يُذكروا في المعارك الأولى، مما قد يدل على أنهم حشدوا لأول مرة عند الاستعداد للقادسية.

(١) الطبري ١/٢٣٤٦.
(٢) الطبري ١/٢٤٢٦.

الفصل الخامس

معركة القادسية

أزال انتصار العرب في معركة البويب بعض آثار نكسة معركة الجسر، إذ دحروا فيها قوات فارسية مرسلة من المدائن وليس من القوات المحلية، وكان لهذا الانتصار أثر معنوي كبير، ولا بدَّ أنه شجع العرب على الصمود والثبات، كما عزز ثقة الخليفة عمر بن الخطاب بنجاح خطته في العمل على ضمِّ العراق إلى الدولة الإسلامية.

غير أن انتصار العرب في البويب لم يكن حاسماً، فقد اقتصر على تأمين سيطرتهم على غربي الفرات وبعض شرقيه، ولم يتابعوا مطاردة الفرس الذين ظلوا محتفظين بعاصمتهم المدائن وبقوات كبيرة يمكن استخدامها ضد العرب.

اختيار سعد بن أبي وقاص وتحركه من المدينة

أدرك الخليفة عمر بن الخطاب أن القوات العربية العاملة في أطراف العراق غير كافية للقضاء على الفرس في المدائن، وكانوا لا يزالون محتفظين بإمكانيات كبيرة يمكنهم استخدامها لصدِّ تقدُّم العرب، لذلك قرَّر إرسال قوة جديدة من المدينة وَلِيَ قيادتها سعد بن أبي وقاص وهو قرشي من بني زهرة، وابن عمة الرسول (ص) وكان من أوائل المسلمين في مكة، ثم هاجر إلى المدينة، وآخى عمرو بن معاذ، وشارك في غزوات الرسول (ص) كافة، وقاد في الشهر التاسع للهجرة سرية إلى الخرار وكان بارعاً في رَمْيِ النبال[1]. وقبل أن يختاره عمر

---

(١) الطبري ١/ ٢٢٣٠؛ ابن سعد.

للقيادة كان يلي صدقات هوازن التي أسلمت بعد معركة حنين التي جرت بعد فتح مكة، ولم تُعرف له صلة بعشائر هضبة نجد أو شرقي الجزيرة.

يروي سيف بن عمر أن عمر بن الخطاب سرَّح سعد بن أبي وقاص فيمن اجتمع إليه بالمدينة من نفير[1] المسلمين فخرج سعد بن أبي وقاص في أربعة آلاف، ثلاثة آلاف منهم ممن قَدِمَ عليه من اليمن والسراة. ويروي أيضاً أن عمر أمدَّ سعداً بعد خروجه بألفي يماني وألفي نجدي مُؤْدٍ من غطفان وسائر قيس فَقَدِمَ سعد زرُود في أول الشتاء[2].

عدد الجيش ومكوناته العشائرية

ذكر الطبري التركيب القبلي للعشائر التي خرجت مع سعد بن أبي وقاص، ومن هذه العشائر القوات التي انتخبها سعد من أهل الخيل والسلاح ممن له رأي ونجدة، ممن كانوا في المنطقة التي يلي صدقاتها وهي ديار هوازن في جنوب شرقي مكة وكان عددهم ألف فارس مؤدٍ كلهم له نجدة ورأي، وصاحب حيطة يحوط حريم قومه، ويمنع ذمارهم، إليهم انتهت أحسابهم ورأيهم[3]. ويذكر أيضاً خروج أهل القادسية من المدينة وكانوا أربعة آلاف: ثلاثة آلاف منهم من أهل اليمن، وألف من سائر الناس[4].

تحرك سعد بن أبي وقاص مع قواته من المدينة في أوائل الربيع، وسلك الطريق الذي كان مألوفاً، من قبل، بين الحجاز والحيرة ثم صار فيما بعد يسلكه الحجاج من العراق، وفي هذا الطريق محطات عند بعض الآبار الكبيرة التي تتوافر فيها مياه كافية[5] وكان تحرُّكه علنياً، وتوقف في طريقه أكثر من

(١) الطبري ١/ ٢٢١٨، ٢٢١٩.
(٢) الطبري ١/ ٢٢٢١.
(٣) الطبري ١/ ٢٢١٦.
(٤) الطبري ١/ ٢٢١٩.
(٥) الطبري ١/ ٢٠٧٥، ويذكر ابن الحائك أن عمر سلك هذا الطريق في ذهابه إلى الحيرة قبل الإسلام؛ الإكليل ٨/ ٣٥.

شهر في زرود، وهي تقع بالقرب من جبلي شمر، وفي منتصف الطريق تقريباً[(١)]. وجمع قوات من تميم وأسد ثم تحرك إلى شراف حيث انضمَّت إليه القوات التي كانت تعمل في العراق مع المثنى وأعاد في شراف تنظيم القوات تمهيداً للدخول في المعارك.

ذكرنا أن سيفاً روى أن سعد بن أبي وقاص عندما خرج من المدينة كان معه أربعة آلاف، ثلاثة (آلاف)، ممن قُدِمَ عليه من اليمن والسراة، وألف من سائر الناس»[(٢)]، وذكر أن سعداً كان قد انتخب من المنطقة التي كان يلي صدقاتها، وهي ديار هوازن في جنوب شرقي مكة ألف فارس»[(٣)] فكأنه يقول إن جيش سعد اقتصر على الأربعة آلاف المنتخبين مع ثلاثة آلاف من أهل اليمن، ويذكر أن سعداً خرج معه (من المدينة) من قيس عيلان ألف عليهم بشر بن عبد اللّه الهلالي»[(٤)] وبذلك لا يذكر مشاركة أهل المدينة من الأنصار والمهاجرين فيها. غير أن المصادر أشارت إلى مشاركتهم في القادسية، فيروي سيف عن عثمان النهدي أنه بعد أن نظَّم سعد بن أبي وقاص قواته في شراف «كان في الأعشار كلها بضعة وسبعون بدرياً، وثلاثمائة وبضعة عشر ممن كانت له صحبة فيما بين بيعة الرضوان إلى ما فوق ذلك، وثلاثمائة ممن شهد الفتح، وسبعمائة من أبناء الصحابة في جميع أحياء العرب»[(٥)]. ومن الواضح أن البدريين هم من الأنصار ومهاجري قريش، وأن الباقين من الأنصار والمهاجرين كانوا من قريش ومن بعض عشائر الحجاز الأوسط.

ذكر ابن سعد أسماء بعض الذين شاركوا في القادسية من أهل المدينة وأهل

---

(١) الطبري ١/٢٢٢٣. ويقول البلاذري إن سعد توقف في الثعلبية (فتوح البلدان ٢٥٦). وانظر في وصف محطات الطريق كتاب «المسالك والممالك» لابن خرداذبه؛ وانظر تفاصيل أوفى في كتابه «درب زبيدة» لسعد الراشد.

(٢) الطبري ١/٢٢١٩.

(٣) الطبري ١/٢٢١٦.

(٤) الطبري ١/٢٢١٩.

(٥) الطبري ١/٢٢٢٧.

الحجاز، فذكر من أهل المدينة سعد بن عبيد (أمية بن زيد)[١] وسعد بن عبيد القاري وابنه عمير (عمر بن عوف)[٢]. وذكر من أهل الحجاز عمرو بن عثمان (تيم بن مرة)[٣]، وعتبة بن غزوان (مزينة)[٤]، وعبد الله بن أم مكتوم وكانت معه راية[٥]، وسلمان بن شهاب (عبس)[٦]، والمسيب بن نجبة (فزارة)[٧]، وذكر أيضاً خالد بن عرفطة (عذرة) وقد ولاه سعد القتال[٨]، كما ذكر الأشعث بن الحر (كلاب)[٩]، وسلمان بن ربيعة (باهلة)[١٠]، وأبا القعقاع (جرم)[١١]. ونضيف إلى ذلك أبا محجن الثقفي[١٢]، والمغيرة بن شعبة[١٣].

ذكر سيف أن سعد بن أبي وقاص عندما خرج من المدينة كان معه ثلاثة آلاف من أهل اليمن[١٤]، وأنّ عمر أمدَّه بعد خروجه بقوة قوامها ألفان من أهل اليمن[١٥]. وذكر أن الثلاثة آلاف الذين خرجوا من المدينة كانوا من أهل اليمن والسروات، وكان «على أهل السروات حميضة بن النعمان بن حميضة البارقي، وهم بارق وألمع وغامد وسائر إخوتهم في سبعمائة من أهل السراة، وأهل اليمن ألفان وثمانمائة، منهم النخع بن عمرو، وجميعهم يومئذٍ أربعة آلاف.

غير أن سيفاً يتابع كلامه بالقول «أتاهم عمر في عسكرهم فأرادهم جميعاً

(١) ابن سعد ٣ ـ ٢.
(٢) ابن سعد ٤ ـ ٢/ ٨٦، ٨٨.
(٣) ابن سعد ٤ ـ ١/ ٩٥.
(٤) ابن سعد ٧/ ١٠٨.
(٥) ابن سعد ٤ ـ ١/ ١٥٥.
(٦) ابن سعد ٦/ ١٤١.
(٧) ابن سعد ٦/ ١٥١.
(٨) ابن سعد ٤ ـ ٢/ ٧٤، وانظر فتوح البلدان ٢٥٦.
(٩) فتوح البلدان ٢٥٩.
(١٠) فتوح البلدان ٢٥٨.
(١١) ابن سعد ٦/ ١٢٥.
(١٢) فتوح البلدان ٢٥٦؛ الاشتقاق لابن دريد ٣١٤؛ الأنساب لابن حزم ٢٦٩.
(١٣) الطبري ١/ ٣٥٠ (في ثلاثمائة)، أنساب الأشراف ١/ ٤٩٢، ٢٦١.
(١٤) الطبري ١/ ٢٢١٦، ٢٢١٨.
(١٥) الطبري ١/ ٢٢٢١.

على العراق، فأبوا إلا الشام، وأبى إلا العراق، فسرّح نصفهم فأمضاهم نحو العراق، وأمضى النصف الآخر نحو الشام». ويتابع كلامه فيقول إن عمر أمضى نصف النخع إلى الشام ونصفهم إلى العراق»[١].

ويذكر أيضاً «كان فيهم من حضرموت والصدف ستمائة، عليهم شداد بن ضمعج».

«وكان فيهم ألف وثلاثمائة من مذحج على ثلاثة رؤساء: عمرو بن معد يكرب على بني منبّه، وأبو سبرة بن ذؤيب على جعفى من إخوة جزء وزبيد وأنس اللّه ومن لفّهم. ويزيد بن الحارث الصدائي على صداء وجنب ومسلية في ثلاثمائة. هؤلاء شهدوا من مذحج فيمن خرج من المدينة مخرج سعد منها»[٢].

ووردت في المصادر معلومات إضافية عن مشاركة أهل اليمن، فذكر ابن حزم أن أبا ظبيان الأعرج كان صاحب راية غامد، وكانوا ألفين وخمسمائة[٣].

وذكر أيضاً أن صاحب راية زهران أبو ضرير حذيفة بن عبد اللّه وأنهم كانوا ألفين وخمسمائة[٤]. ولم يذكر الطبري هذين الرئيسين.

أما النخع فيذكر ابن أبي شيبة أنهم كانوا ألفين وخمسمائة[٥]، ويذكر سيف «لم يكن من قبائل العرب أحد أكثر امرأةً يوم القادسية من بجيلة والنخع، وكان في النخع سبعمائة امرأة فارغة، وفي بجيلة ألف، فصاهر هؤلاء ألفٌ من أحياء العرب، وهؤلاء سبعمائة، وكانت النخع تُسمَّى أصهار المهاجرين»[٦].

وذكر ابن سعد ممن شارك في القادسية من النخع كلاً من أرطاة بن كعب، وكانت معه راية، وقد قتل مع أخيه[٧]، ومسروق بن الأجدع وقد قتل مع ثلاثة

(١) الطبري ١/ ٢٢١٩.
(٢) الطبري ١/ ٢٢١٨ ـ ٩.
(٣) الاشتقاق ٤٩٣؛ أنساب ابن حزم ٣٧٨.
(٤) ابن حزم ٣٨٤.
(٥) المصنف ١/ ٥٧٠.
(٦) الطبري ١/ ٢٣٦٣.
(٧) ابن سعد ٤ ـ ٢/ ٧٧، ٥/ ٣٨٨.

من إخوته[١]، والأسود بن أقيش، وأبو شريك[٢]، ومالك بن الحارث[٣].

أما كندة فإن سيفاً يذكر أن القادسية «ما شهدها من كندة إلا سبعمائة، وكان بإزائهم ترك الطبري» وأن كندة وحدهم ضد الهرمزان والبيرزان فدحراهما وانفرج القلب[٤]. ويذكر ابن أبي شيبة أن كندة كانت نحو النخع ألفين وخمسمائة[٥].

أما خثعم فقد قام رئيسها عمرو بن معد يكرب بدور بارز في المعركة[٦].

ذكرنا أن الطبري ذكر أن عمر بن الخطاب أمد سعد بن أبي وقاص قبل وصوله زرود بألفي يماني[٧]، وذكر أيضاً أنه بعد زرود «قدم عليه الأشعث بن قيس في ألف وسبعمائة من أهل اليمن»[٨] ومن المعلوم أن الأشعث من كندة.

ومن أهل السروات بجيلة، وكانت قد شاركت في معركة الجسر وكان عددهم آنذاك ألفين[٩]، ويذكر ابن أبي شيبة أن عددهم في القادسية كان ثلاثة آلاف[١٠]، ويذكر سيف أنه كان معهم ألف امرأة[١١].

وفي خلال القتال في القادسية قَدِمَتِ المسلمين أمداد من الشام، ومنهم سبعمائة من مراد عليهم قيس بن مكشوح[١٢].

---

(١) ابن سعد ٦/ ٥١.
(٢) ابن سعد ٦/ ١٦٣.
(٣) ابن سعد / ١٨٣.
(٤) الطبري ١/ ٢٣٣٥.
(٥) المصنف ١٢/ .
(٦) ابن سعد ١ ـ ٢/ ٦٤، ٥/ ٣٨٤؛ الاشتقاق ٢١١.
(٧) الطبري ١/ ٢٢١٨.
(٨) الطبري ١/ ٢٢٢٢.
(٩) الطبري ١/ ٢٢٢١.
(١٠) المصنف ١٢/ .
(١١) الطبري ١/ ٢٣٦٣.
(١٢) الطبري ١/ ٢٣٢١، ٢٣٥١؛ فتوح البلدان ٢٥٧؛ تاريخ خليفة ١٠٢.

وقدمت أمداد فيها همدان ومراد، ومن أفناء الناس[1].

ويذكر الطبري عن سيف أن عمر بن الخطاب أمدَّ سعداً بعد خروجه بألفي يماني وألفي نجدي مؤدٍ من غطفان وسائر قيس، وأن سعداً عندما نزل زرود (انتخب من بني تميم والرباب أربعة آلاف، ثلاثة آلاف تميمي، وألف رِبِّي، وانتخب من بني أسد ثلاثة آلاف، وأمرهم أن ينزلوا على حدِّ أرضهم بين الحَزْن والبسيطة، فأقاموا هنالك بين سعد بن أبي وقاص، والمثنى بن حارثة[2].

ويذكر سيف أن المثنّى كان في ثمانية آلاف من ربيعة، ستة آلاف من بكر بن وائل وألفان من سائر ربيعة، وأربعة آلاف ممن كان انتخب بعد فصول خالد، وأربعة آلاف كانوا معه ممن بقي يوم الجسر. وكان معه من أهل اليمن ألفان من بجيلة، وألفان من قضاعة وطي، ممن انتخبوا إلى ما كان قبل ذلك، وكان على طي عدي بن حاتم، وعلى قضاعة عمرو بن وبرة، وعلى بجيلة جرير بن عبد اللّه[3]. ويذكر أيضاً أن سعد عند وصوله إلى شراف، بعد أن تحرك من زرود، قدم عليه الأشعث بن قيس في ألف وسبعمائة من أهل اليمن[4].

وأشار سيف إلى المجموع الإجمالي لقوات المسلمين في القادسية فذكر اختلاف الناس في عدد أهل القادسية، فمن قال: أربعة آلاف فلمخرجهم مع سعد من المدينة، ومن قال: ثمانية آلاف فلاجتماعهم بزرود، ومن قال: اثنا عشر ألفاً فلدفوف بني أسد من فروع الحزْن بثلاثة آلاف...

وقَدِمَ عليه مع قدومه شراف الأشعث بن قيس في ألف وسبعمائة من أهل اليمن فجميع من شهد القادسية بضعة وثلاثون ألفاً، وجميع من قسم عليه ألفيء في القادسية نحو من ثلاثين ألفاً[5]. ويذكر سيف أن عمر بن الخطاب أمر سعداً من مرتحله من زرود أن يرسل المغيرة بن شعبة في خمسمائة إلى منطقة الأبُلّة

(١) الطبري ١/ ٢٣٦٧.

(٢) الطبري ١/ ٢٢٢١.

(٣) الطبري ١/ ٢٢٢١.

(٤) الطبري ١/ ٢٢٢١.

(٥) الطبري ١/ ٢٢٢٢.

ثم استدعاه، وأنه قُدِمَ عليه في شراف المعنَّى بن حارثة مع القوات التي كانت مع المثنّى، وكان المعنّى قد وَلِيَ قيادتها بعد وفاة أخيه المثنّى[1].

تتفق روايتا سيف على أن سعد بن أبي وقاص خرج من المدينة بأربعة آلاف، وأن قواته في زرود أصبحت ثمانية آلاف، وأنه انضمَّ إليه من بني أسد ثلاثة آلاف. غير أن الرواية الأولى تذكر أن سعداً انتخب من بني تميم والرباب أربعة آلاف، وأنه انضمَّ إليه في شراف ثمانية آلاف من القوات التي كانت ممن انضمَّ إلى سعد من التميميين، ومن قوات المثنّى. ويذكر أنه لحق به بعد زرود ألف من القيسيين، ولحق به في شراف ألف وسبعمائة من أهل اليمن مع الأشعث بن قيس، فمجموع القوات الإسلامية في الرواية الأولى يبلغ خمسة عشر ألفاً يضاف إليها ثمانية آلاف ممن كان مع المثنّى، أما في الرواية الثانية فبلغ مجموعها ثلاثة عشر ألفاً وسبعمائة، ولا يدخل في ذلك قوات المثنّى. والفرق بين الروايتين يرجع إلى أن الرواية الأولى انفردت بذكر الأربعة آلاف تميمي، بينما ذكرت الثانية ألفاً من القيسيين انضمّوا إليه، كما ذكرت انضمام ألف وسبعمائة من أهل اليمن مع الأشعث بن قيس. وفي أي حال، فإن العدد في كلتا الروايتين لا يصل إلى بضعة وثلاثين ألفاً، وهو الرقم الذي ذكره في الرواية الثانية.

الإمدادات

وصلت سعد بن أبي وقاص إمدادات تالية، كان أولها قوات بقيادة المغيرة بن شعبة، أرسلها عمر من المدينة فانضمَّت إلى سعد بعد تحرُّكه من شراف، وعددها في قول ابن إسحاق أربعمائة[2]، وفي رواية للبلاذري أنها ثمانمائة[3]، وفي رواية الدينوري أنها ألف[4]، ولم تُذكر عشائر هذا الإمداد، ولعلَّ معظمهم من أهل الحجاز.

---

(١) الطبري ١/ ٢٢٢٣ ـ ٤.

(٢) الطبري ١/ ٢٣٥٠؛ تاريخ خليفة ١٠٢.

(٣) فتوح البلدان ٢٥٥.

(٤) الأخبار الطوال ١١٩.

ويروي ابن إسحاق أن عمر بن الخطاب أمدَّ سعداً أيضاً بقيس بن مكشوح المرادي في سبعمائة[1] كما أمدَّه بعياض بن غنم مع ألف رجل لم تذكر المصادر عشائرهم، ووصل المدد بعد معركة القادسية فلحق بجيش المسلمين في دير قرّة عندما كان يطارد فلول الجيش الفارسي[2].

وكانت القوة الرئيسة التي جاءت سعد بن أبي وقاص هي التي قَدِمَتْ مع هاشم بن عتبة بن أبي وقاص من الشام وكانت قد ذهبت من العراق لإمدادهم، وشاركت في معركة اليرموك، فأمرها عمر بالعودة إلى العراق، فوصلت طلائعها في اليوم الثاني من نشوب القتال[3]، وكان عددهم (ستة آلاف)، خمسة آلاف من ربيعة ومضر، وألف من أفناء الحجاز، وأمّر عليهم هاشم بن عتبة بن أبي وقاص وعلى مقدمته القعقاع بن عمرو، فجعله أمامه، وجعل على إحدى مجنبتيه قيس بن هبيرة بن عبد يغوث المرادي، ولم يكن شهد الأيام، وعلى المجنبة الأخرى الهزهاز بن عمرو العجلي، وعلى الساقة أنس بن عباس، فانجذب القعقاع وطوى وتعجل[4]، علماً أن عدد قوة خالد في الشام كانت تسعة آلاف من أمداد أهل العراق[5].

اقتصر سيف على القول إن ألفاً من هذه القوات كانوا من أفناء الحجاز، وخمسة آلاف من ربيعة ومضر، ولم يعيِّن عشائرهم، ولكنه ذكر من قوادهم القعقاع (تميم) وقيس بن عبد يغوث (مراد) والهزهاز (عجل) وأنس بن عباس (؟). ولعلَّ اختيار هؤلاء القادة لم يكن لمواهبهم فحسب، وإنما لأن عدداً من عشائرهم كونتها. والجدير بالإشارة إلى أن كلاً من هاشم والقعقاع وقيس كان له دور قيادي في القادسية والمعارك التالية.

ذكر الطبري أن قوات فارسية قاتلت مع المسلمين وأنهم «أناس من الحمراء

---

(١) الطبري ١/ ٢٣٥٠، ٢٣٦٧.

(٢) الطبري ١/ ٣٥٧، ١٩٥٨.

(٣) الطبري ١/ ٢٣٠٥، ٣١٨، ٢٣٢١، ٢٣٦٣.

(٤) الطبري ١/ ٢٣٠٥.

(٥) الطبري ١/ ٢٠٩٠، ٢٠٨٩، انظر المثمر ١/ ٢٣٢.

استجابوا للمسلمين وقاتلوا معهم، بعضهم أسلم قبل القتال، وبعضهم أسلم غبَّ القتال فأُشركوا في الغنيمة وفرضت لهم في ألفين أهل القادسية[1]». وذكر أيضاً أنهم من الديلم ورؤساء المسالح الذين استجابوا للمسلمين وقاتلوا معهم حتى الموت[2]. وذكر الطبري أنه كان منهم ضخم ومسلم ورافع وعشنَّق وأصحابهم من الفرس الذين أسلموا[3]، وهم الذين أرشدوا المسلمين إلى مقاتل الفيل في مشافرها وعيونها[4]. وذكر البلاذري عن قصر بن كدام أن هؤلاء كانوا «مع رستم يوم القادسية أربعة آلاف يسمّون جند شهانشاه فاستأمنوا على أن ينزلوا حيث أحبوا، ويحالفوا من أحبوا، ويفرض لهم في العطاء، ويروي رواية أنهم انضمّوا إلى المسلمين بعد هزيمة الفرس في القادسية، وهو الأرجح»[5].

ذكرنا قول سيف أن سعد بن أبي وقاص توقف في زرود حيث انضمَّت إليه أعداد من بني أسد وتميم وطي. وهي عشائر كان بعضها قد انشقَّ عن دولة الإسلام، وظلَّ بعض آخر معها وشارك الجيوش الإسلامية في حركاتها في أطراف العراق زمن خلافة أبي بكر. وعندما وَلِيَ عمر بن الخطاب الخلافة وأباح لمن سبقت له المشاركة في حركات الانشقاق والردة أن ينضمَّ إلى الجيوش الإسلامية، أقبلت أعداد منهم تنضمُّ إلى هذه الجيوش من ذاتها ومن دون أي إلزام لتوظِّف طاقاتها في القتال من أجل تحقيق الهدف الذي رسمته القيادة العليا وهو إقامة وتوسيع دولة يشارك في بنائها وتوطيدها كل العرب وتكون فيها كلمة اللّه هي العليا.

كانت ديار هذه العشائر صحراوية جرداء ليس فيها إلا قليل من المراعي، ولم تكن تُعرف لبني أسد صلة بالدول خارج الجزيرة، أما طي وتميم فكانت لهما علاقات طيبة وصلات وثيقة بالمناذرة، ولعلَّ هذه العلاقات والصلات

---

(1) الطبري ١/ ٢٢٤١.
(2) الطبري ١/ ٢٢٦١.
(3) الطبري ١/ ٢٣٤١.
(4) الطبري ١/ ٢٣٢٥.
(5) فتوح البلدان ٢٧٩.

يسَّرت لهم الاطلاع على الأحوال في العراق، وكانت دافعاً لعدم تردُّدهم في لإقبال على المشاركة في القتال على هذه الجبهة.

ذكر سيف بن عمر أنه انضمَّ إلى جيش سعد من بني أسد ثلاثة آلاف[١]، وذكر ابن أبي شيبة أن ألفين منهم شهدوا القادسية[٢]، وذكر ابن حزم أن من بني والبة بني مالك بن هنادة، كان لهم بلاء وعناء في أيام القادسية[٣]. وقد جعل عمر بن الخطاب أبا الهياج عَمْرو بن مالك بن جنادة على الخطط، وكان من أبرز رجالهم في القادسية وفتوح العراق الأخرى طلحة بن خويلد الذي كان قد ادَّعى النبوّة من قبل وجمع حوله أتباعاً من عشيرته ومن فزارة وطي فشكَّل خطراً على دولة الإسلام إلى أن قضى خالد بن الوليد على حركته وشتَّت شَمْلَ أتباعه، وكان لبني أسد عدد ملحوظ في الكوفة بعد تأسيسها، ولعلَّ كثيراً من هؤلاء أصلهم ممن شاركوا في القادسية، وأنهم لم يقتصروا على بطن واحد بل كانوا من عدة بطون[٤].

تميم والرباب

أما تميم فقد ذكر الطبري أن عدد من انضمَّ منهم إلى جيش سعد في زرود بلغ ثلاثة آلاف وبرز في القادسية من بني سعد بن زيد مناة زهرة بن حويه[٥]، أما من شارك منهم في القادسية فقد ذكر ابن سعد المنقع بن الحصين[٦]. وأما الرباب فلم يتردد ذِكْرُ رجال بارزين من الألف الذين ذكر الطبري انضمامهم إلى جيش سعد في زرود.

---

(١) الطبري ١/ ٢٢٢١.
(٢) المصنف ١٢/ ٥٧٥.
(٣) الأنساب لابن حزم ١٩٤.
(٤) الطبري ١/ ٢٢٢١.
(٥) فتوح البلدان ٢٥٦، ابن حزم ٢٥١.
(٦) ابن سعد ـ ١/ ٤٣.

الجيش الساساني

اختار الملك الساساني رستم لقيادة الجيش المُعدّ لصدِّ العرب وكان رستم قد بلغ غاية الشرف، وقيمة قلنسوته مائة ألف[١]؛ وكان أبوه حزهرمز الآذري، اصبهبذ خراسان؛ دبرت الملكة آزر ميدخت قَتْلَهُ لأنها ارتابت بطمعه في العرش[٢]. وكان له أخوان هما البندوان وخرزاد. فأما البندوان فكان مرزباناً على الباب من أرمينية[٣]، وشارك في معركة القادسية، فبارزه ابن ظبيان وقتله[٤]؛ وأما خرزاد فكان قائد الفرس في جلولا[٥]، ثم رافق يزدجرد عند انسحابه إلى مرو[٦].

كان رستم أبرز إخوته، ولعلّه أكبرهم سناً، وكان يخلف أباه في خراسان فلما سمع بمقتل أبيه سار إلى المدائن وقتل آزر ميدخت ونصَّب على العرش بوران فتوَّجته وأمرت أهل فارس أن يسمعوا له ويطيعوه، أي أنه أصبح القائد الأعلى للجيش[٧].

يقول الطبري إن رستم عندما اتخذ مقرّ تجمّعه في ساباط بعث على مقدمته الجالنوس وذا الحاجب، وعلى المجِنَّبتين الهرمزان ومهران، وعلى الساقة البيرزان، وعلى الرجالة زاذ بن بُهَيْش صاحب فرات سرياد، وعلى المجرَّدة كنارى[٨].

---

(١) الطبري ١/ ٢٣٢٠.
(٢) التنبيه والإشراف ٩.
(٣) الطبري ١/ ١٢٥١.
(٤) الطبري ١/ ٢٢٦٠، فتوح البلدان ٢٥٦.
(٥) الطبري ١/ ٢٤٦١.
(٦) الطبري ١/ ٢٨٧٣؛ فتوح البلدان ٢٥٦؛ تاريخ سنن ملوك الأرض والأنبياء لحمزة الأصبهاني ٢٥٥.
(٧) الطبري ١/ ٢١٦٣؛ ولم ينافسه في المنصب غير الجالنوس (الطبري ١/ ٢٥٥١)
(٨) الطبري ١/ ٢٢٥٨؛ ويذكر في مكان آخر أن البيرزان كان على الطلائع. أما المجردة فكان عليها ذو الحاجب ١/ ٢٢٦٦.

ويذكر أن رستم عندما خندق في قديس كان على مقدمته الجالنوس، والهرمزان ومهران على المجنَّبتين، وذو الحاجب على المجردة، وعلى الطلائع البيرزان، وعلى الرجالة زاذ بن بُهَيْش، أي أن ذا الحاجب حلَّ محلَّ كنارَى في قيادة المجرَّدة.

وعندما اندحر الجيش الساساني في القادسية كان قد ثبت منه في القتال كلٌّ من شهريار بن كنارَى، وابن الهربذ، والفرُّخان الأهوازي، وخسروشنوم الهمذاني، وهرب كلٌّ من الهرمزان، وأهود، وزاذ بن بُهَيْش[1].

وبعد يوم بابل تفرَّق جند الفرس، فتوجَّه النخيرجان ومهران الرازي إلى المدائن، وشهريار، وهو من دهاقين الباب إلى كوثى، والفيرزان إلى نهاوند[2].

ذكرت هذه القائمة ممن قوَّدهم رستم، الهرمزان وزاذ بن بُهَيْش والفيرزان، ولم يُذكر فيها، ذو الحاجب والجالنوس ومهران، ولعلَّ الذين ذُكِروا كانوا يتولون قيادات فرعية في القادسية.

لم يُذْكر في هذه القائمة قادة الفرس الذين قاوموا تقدُّم العرب قبل القادسية إلا الأندرزغر «وكان فارسياً من مولّدي السواد وتُنَّائهم، وكان قبل ذلك على فرج خراسان[3] ثم قاتل خالداً وغرق في ألَّيْس[4]. كما أنه لم يُذْكر جابان الذي كان على حامية ألْيس وتابعاً لبهمن جاذويه وقاتل في أُلْيس[5]. وكذلك النرسي، وهو ابن خالة كسرى وكانت كسكر له قطيعة[6]، وكذلك النرسيان[7] وكان قد دافع عن كسكر[8].

---

(١) الطبري ١/٢٣٤٦.
(٢) الطبري ١/٢٤٢٦.
(٣) الطبري ١/١٢٠٥.
(٤) الطبري ١/٢٠٣٢.
(٥) الطبري ١/١٢١٨.
(٦) الطبري ١/٢١٩٨.
(٧) الطبري ١/٢١٧٠.
(٨) الطبري ١/٢٠٢٩.

وكان لكلٍّ من ذي الحاجب وقارن والهرمزان دور في مقاومة العرب قبل القادسية.

وفي هذه القائمة اثنان من البيوتات السبعة، هما قارن والهرمزان، وبلادهما في الأهواز وفارس جنوب غربي الهضبة الإيرانية. وفيها عدد ممن كان مرتبطاً ببعض المراكز الإدارية، فكان زاذ بن بُهَيْش صاحب فرات سريا، والأزادبة على الحيرة، وشهريار من دهاقين الباب.

وذكر ابن أعثم ممن شارك في القادسية صاحب همدان، وشيرزاد وصاحب قم وقاشان، والبندوان صاحب أصبهان، وخرشيد صاحب الريّ، وكان مع أحدهم خمسة وعشرون ألف فارس وراجل[١]، وفي هذا الرقم مبالغة ظاهرة ولكنه يدل على أن القوات التي بإمرتهم كانت من البلاد التي يديرونها، ويلاحظ أن المعلومات التي وصلتنا لم تذكر إسهام العشائر العربية أو أيّ من رجالها في القادسية والمعارك التي تلتها.

كان لبعض قادة الفرس في القادسية دور في المعارك التي سبقتها، فبهمن جاذويه كان أشد الفرس على العرب[٢]، وكان ممن ساند الأندرزغر في قسيانا ودافع عن الأنبار، ثم اتخذ مقرَّه في بهرشير[٣]، وكانت معه الراية الملكية[٤]، ثم قُتِل في نهاوند[٥].

وكان جابان آمر حامية ألّيس[٦]، وتابع لبهمن جاذويه[٧].

وكان زاذ بن بُهَيْش دهقان فرات سريا، وعقد مع خالد معاهدة صلح[٨] ثم

(١) ابن الأعثم ١/ ٢٠٠ ـ ٢٠١.
(٢) الطبري ١/ ٢٠٧٤.
(٣) الطبري ١/ ٢٠٥٢.
(٤) الطبري ١/ ٢٠٧٥.
(٥) الطبري ١/ ٢٦١٨.
(٦) الطبري ١/ ٢٠١٨.
(٧) الطبري ١/ ٢٠٣٢.
(٨) الطبري ١/ ٢٠٥٠، ٢٠٥٧.

شارك في القادسية، وكان على الرجالة[١]، ثم قُتِلَ في المعركة[٢].

وكان الأندرزغر على فرج خراسان، وقاتل خالد بن الوليد في قسيانا ومات غرقاً[٣].

أما القواد الذين كان أول ذكر لهم في القادسية فهم كنارى الذي كان في القادسية على المجرّدة، ثم انسحب بعد المعركة إلى خراسان وسيطر على نصفها[٤]، وصالح المسلمين على أبرشهر (نيسابور)[٥] عند تقدمهم إلى خراسان، وكان ابنه من قادة الفرس المذكورين في الانسحاب من القادسية[٦].

أما الفرُّخان فهو من الأهواز وقد حمى هو وفيومان الميساني انسحاب الفرس بعد اندحارهم من القادسية[٧] ثم قتلا في سورا عند الانسحاب[٨].

أما خسرو شنوم فقد انسحب بعد القادسية إلى همدان، فلما تقدمت إليها الجيوش الإسلامية، عقد مع العرب صلحاً على همدان ودستبي، وتعهد ألا يؤتي المسلمين منها[٩]، واقتدى به أهل الماهين[١٠].

لم يرد ذكر لدور ملحوظ للخيالة الذين كانت لهم شهرة في المعارك السابقة التي خاضها الفرس، وذكر في معركة القادسية استخدام شهريار[١١] والجالنوس[١٢] البراذين.

ولم يرد استعمال الفرس في القادسية حسك الحديد.

---

(١) الطبري ١/٢٢٥٨، ٢٥٦١.
(٢) الطبري ١/٢٣٤٦.
(٣) الطبري ١/٢٠٣١.
(٤) الطبري ١/٢٠٣١.
(٥) الطبري ١/٢٠١٨.
(٦) الطبري ١/٢٠٥٠، ٢٠٥١.
(٧) الطبري ١/٢٢٥٨، ٢٢٦١.
(٨) الطبري ١/٢٤٢٢.
(٩) الطبري ١/٢٦٢٦.
(١٠) الطبري ١/٢٦٢٨.
(١١) الطبري ١/٢٤٢٣.
(١٢) ٢٧٤١؛ مروج الذهب ٢/٣٢.

عدده

ذكرت المصادر العربية أرقاماً متباينة لعدد الجيش الفارسي الذي قاتل العرب في القادسية فذكر البلاذري أنهم كانوا عشرين ألفاً[1]، وروى الطبري أنهم كانوا ثلاثين ألفاً[2]، وذكرت بعض المصادر العربية أنهم كانوا ستين ألفاً[3]، وأشارت إحدى الروايات إلى أنهم كانوا ستين ألفاً ما عدا الأتباع والرقيق[4]، وفي رواية أنهم كانوا سبعين ألفاً[5]، وذكرت أكثر الروايات أن مجموعهم الكلي بلغ مائة وعشرين ألفاً، منهم ستون ألف متبوع والباقون من الأتباع، وضع في المقدمة أربعون ألفاً وفي القلب ستون ألفاً وفي الساحة عشرون ألفاً، وفي رواية أخرى أنهم كانوا مائة ألف، وأن المسلسلين ثلاثون ألفاً[6].

ويتبين من هذه الروايات أن عدد الجيش الفارسي كان يراوح ما بين ثلاثين وستين ألفاً وأنه كان معززاً بعدد من التبع الذين يقومون بالخدمات، وعددهم يقارب عدد المقاتلة، والراجح أن عدد المقاتلة لم يزد على ثلاثين ألفاً؛ وأن من ذكر أن الجيش كان مائة وعشرين ألفاً فقد بالغ في الرقم حتى لو أخذنا بالحسبان أنه يشمل الأتباع.

تركيب الجيش

يذكر البلاذري أن رستم عندما تحرك إلى القادسية كانت معه درفش

(١) فتوح البلدان ٢٥٤.
(٢) ١/٢٢٣٦، ٢٢٩٠، مصنف ابن أبي شيبة ١٢/٥٦٧.
(٣) تاريخ خليفة ١٠١ عن ابن إسحاق؛ الطبري ١/٢٢٥٨ (عن الشعبي) ١/٢٣٥١، ٢٢٥٣، ٢٢٩٤، ٢٢٧٩.
(٤) الطبري ١/٢٣٥٠.
(٥) الطبري ١/٢٢٦٣.
(٦) الطبري ١/٢٢٥٠، ٢٢١٣، ٢٢٦١، عن الشعبي ٢٢٩٤، ٢٢٥٨؛ ابن الأعثم ١/٢٠٠.

كابيان[١] وهي الراية الملكية، وكانت من جلود النمور، طولها اثنا عشر ذراعاً وعرضها ثمانية أذرع[٢]، وكانت مرصعة بالياقوت واللؤلؤ وأنواع الجواهر، وكانت قيمتها ألف ألف ومائتي ألف وكانت تُحمل على خشب طوال موصل، وكانت فارس تتيمَّن بها وتظهرها في الأمر الشديد[٣]، وقد غنمها ضرار بن الخطاب فعوّض عنها ثلاثين ألفاً[٤].

الاستعداد للمعركة

أدرك الفرس أن العرب لن ينثنوا عن عزمهم على بسط سيادتهم على العراق، فاتصل ابن الأزادبة وكان على القوة الفارسية في الحيرة، قابوس بن قابوس بن المنذر، ووعده بإرجاعه على الملك إذا استطاع أن يجلب العرب إلى جانب الفرس، غير أن المعنَّى بن حارثة الذي وَلِيَ رئاسة عرب بكر الذين يقاتلون الفرس، تصدّى له وأفشل محاولته[٥].

وعندما اقتربت قوات سعد من العراق أدرك الفرس الخطر الذي يواجههم، فاختاروا لقيادتها رستم بن فرّخزاذ الذي اتخذ له مقراً في سباط[٦]، وهي إحدى المدائن السبع من عاصمتهم وتقع في الجانب الغربي من دجلة. ويذكر سيف أن رستم كان قد وَلِيَ القيادة قبل أربعة أشهر من نشوب القتال في القادسية[٧]. لكنه يذكر أنه كان بين وصول سعد القادسية ونشوب المعركة شهران وكان رستم وَلِيَ القيادة قبل شهرين من وصول سعد وقواته[٨]، وهو قول يصعب قبوله،

---

(١) فتوح البلدان ٢٥٤.
(٢) مروج الذهب ٢/٣٠٨.
(٣) مروج الذهب ٢/٣٠٨.
(٤) الطبري ١/٢٣٧٧؛ مروج الذهب ٢/٣١٩.
(٥) الطبري ١/٢٢٢٦.
(٦) الطبري ١/٢٢٣٥، ٢٢٤١، ٢٢٤٨، ٢٢٤٩، ٢٢٥١، ٢٢٥٣.
(٧) الطبري ١/٢٢٥٧.
(٨) الطبري ١/٢٢٥٧.

والراجح أن سعداً وصل القادسية قبل تولّي رستم القيادة، أي إنه قضى أكثر من أربعة أشهر في مكان القادسية يستعد للقتال[1].

المفاوضات

وفي خلال هذه المدة حاول الفرس ثَنْيَ العرب عن القتال، والانسحاب سلمياً، فطلب يزدجرد أن يأتيه وفد للمفاوضة، فأرسل سعد اثني عشر رجلاً اختارهم من أبرز العرب المعروفين بمكانتهم وإدراكهم الواضح للأوضاع الجديدة، وإيمانهم بأهداف العرب في تكوين دولة ثابتة الأركان تكون فيها كلمة اللّه هي العليا، ويروي سيف أن رجال هذا الوفد تم اختيارهم ممن (عليهم تجارب ولهم آراء، ولهم اجتهاد) وكانوا من عشائر متعددة، وهم النعمان بن مقرن (مزينة)، وبسر بن أبي رهم (جهينة)، والمغيرة بن زرارة بن النباش (تميم)، وعطارد بن حاجب (تميم)، وعاصم بن عمرو (تميم)، والحارث بن حسان (ذهل بكر)، والمعنى بن حارثة (شيبان بكر)، والأشعث بن قيس (كندة)، وعمرو بن معديكرب (زبيد)، وعدي بن سهل[1].

والجدير بالذكر أن سعد بن أبي وقاص أرسل فيما بعد وفداً يفاوض رستم وفيه المغيرة بن شعبة (ثقيف)، وبسر بن أبي رهم (جهينة)، وقرفة بن زهر (تميم)، وعرفجة بن هرثمة (بارق)، وحذيفة بن محصن (غطفان)، وربعي بن عامر (تميم)، ومذعور والمضارب بن يزيد، ومعبد بن عدي (عجل)[2]، كما أن زهرة بن حوية كان قد فاوضهم أيضاً[3].

وبمقارنة أعضاء الوفدين يلاحظ أن بسر بن أبي رهم هو الوحيد الذي اشترك في هذين الوفدين، ولم يكن فيهما أحد من الأنصار والمهاجرين من

---

(1) الطبري ٢٢٣٦/١، ٢٢٧٧، ٢٢٩٢.

(2) الطبري ٢٢٣٧/١، ٢٢٤٩، ٢٣٥٤، ٢٢٧٤ ـ ٢٢٧٨، ٢٢٦٩، ٢٢٧٠، ٢٢٩٢؛ وأورد البلاذري باقتضاب خبر الوفد والمفاوضة وادعاء الفرس أن السبب الذي دفع العرب إلى التحرش بفارس هو الجوع (فتوح البلدان ٢٥٦).

(3) الطبري ٢٢٦٨/١، ٢٢٧٠.

قريش، ولكن كان هناك عدد من أهل اليمن وعدد من بني تميم، ومن بكر، وهما العشيرتان اللتان كانت لهما علاقة بالمناذرة فضلاً عن اطلاعهما على أحوال فارس.

ذكرت المصادر ما دار في هذه المفاوضات، وبصرف النظر عن مدى أصالة بعضها، فإنها عبّرت تعبيراً صادقاً عن آراء الطرفين في بعضهما.

فأما الفرس فقد ذكَّروا الوفد العربي بسوء أحوالهم السياسية والاقتصادية، فأما في الأحوال السياسية فإن كسرى قال «لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عدداً ولا أسوأ ذات بينٍ منكم، قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي فيكفوناكم، لا تغزون فارس ولا تطمعون أن تقوموا لهم». ثم ذكرهم بأحوالهم المعاشية فقال «إن كان الجهد دعاكم فرضنا لكم قوتاً إلى خصبكم، وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم وملَّكنا عليكم ملكاً يرفق بكم»[1].

ومثل هذا الكلام قاله رستم للمغيرة «أنتم جيراننا، وقد كانت طائفة منكم في سلطاننا؛ فكنّا نحسن جوارهم ونكفّ الأذى عنهم ونولّيهم المرافق الكثيرة، نحفظهم في أهل باديتهم، فنرعيهم مراعينا، ونميرهم من بلادنا، ولا نمنعهم من التجارة في شيء، وقد كان لهم في ذلك معاش». وذكر أنهم كانوا يقتلون بعضهم بعضاً ويغيرون على بعض، وقال لهم أيضاً «كنتم أهل قشف ومعيشة سيئة.. وكنتم إذا قحطت أرضكم وأصابتكم السنة استغثتم بناحية أرضنا فنأمر لكم بالشيء من التمر والشعير ثم نردّكم، وقد علمت أنه لم يحملكم على ما صنعتم إلا ما أصابكم من الجهد في بلادكم»[2].

وذكر الطبري في مكان آخر أن رستم قال للوفد «إنكم معشر العرب كنتم أهل شقاء وجهد، وكنتم تأتوننا من بين تاجر وأجير من ظلالنا فذهبتم فدعوتم أصحابكم، ثم أتيتموننا بهم، فارجعوا عنا عامكم هذا، فإنكم قد شغلتمونا عن

(١) الطبري ١/ ٢٢٤٠.
(٢) الطبري ١/، ٢٢٦٨، ٢٢٧٦.

عمارة بلادنا، وعن عدوّنا، ونحن نُوقِر لكم ركائبكم قمحاً وتمراً، ونأمر لكم بكُسوة»[1].

أقر الوفد العربي بسوء أحوالهم السابقة، فقال متكلمهم «وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع، كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات؛ فنرى ذلك طعامنا، ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم».

وقال المغيرة بن شعبة لرستم «لا تذكر لنا جهداً إلا وقد كنا في مثله أو أشد منه، أفضلنا في أنفسنا عيشاً الذي يقتل ابن عمه، ويأخذ ماله فيأكله، نأكل الميتة والدم والعظام»[2].

ثم أوضح الوفد العربي للملك الفارسي الوضع الجديد الذي أصبحوا فيه بعد مجيء الرسول (ص) حيث «قذف اللّه في قلوبنا التصديق له واتّباعه، فصار فيما بيننا وبين رب العالمين، فما قال لنا فهو قول اللّه، وما أمرنا به فهو أمر اللّه؛ فقال لنا: مَنْ تابعكم على هذا فله ما لكم وعليه ما عليكم».

وقال متكلم الوفد العربي لرستم بعد ذلك «إنا لم نأتكم لطلب الدنيا، إنما طلِبتنا وهِمَّتنا الآخرى؛ بعث اللّه تبارك وتعالى إلينا رسولاً، فدعانا إلى ربه فأجبناه، فقال لنبيِّه (ص): إني قد سلَّطت هذه الطائفة على من لم يَدِنْ بديني، فأنا منتقم بهم منهم، وأجعل لهم الغلبة ما داموا مقرّين به، وهو دين الحق.. أما عموده الذي لا يصلح منه شيء إلا به، فشهادة أن لا إلّه إلا اللّه وأن محمداً رسول اللّه، والإقرار بما جاء من عند اللّه تعالى، وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة اللّه تعالى، والناس بنو آدم وحواء، إخوة لأب وأم»[3].

وذكر الطبري أن المغيرة بن شعبة أوضح لرستم تطورات أحوال العرب عند ظهور الإسلام وما استقر عليه الوضع فقال «فلم نزل كذلك (من سوء الأوضاع) حتى بعث اللّه فينا نبياً، وأنزل عليه الكتاب، فدعانا إلى اللّه وإلى ما بعثه به، فصدَّقه منا مصدّق، وكذّبه منا آخر، فقاتل من صدّقه من كذبه حتى دخلنا في

(١) الطبري ١/٢٣٥٢.
(٢) الطبري ١/٢٢٤٩.
(٣) الطبري ١/٢٢٦٨.

دينه، من بين مُوقِن به، وبين مقهور؛ حتى استبان لنا أنه صادق، وأنه رسول من عند اللّه، فأمرنا أن نقاتل من خالفنا، وأخبرنا أن من قُتِل منا على دينه فله الجنة، ومن عاش ملك وظهر على من خالفه، فنحن ندعوك إلى أن تؤمن باللّه ورسوله، وتدخل في ديننا، فإن فعلت كانت لك بلادك، لا يدخل عليك فيها إلا من أحببت، وعليك الزكاة والخمس، وإن أبيْتَ ذلك فالجزية، وإن أبيْتَ ذلك قاتلناك حتى يحكم اللّه بيننا وبينك»[١].

تعبِّر هذه النصوص عن التباين بين العرب والفرس في فهم أحوال العرب الجديدة وأهدافهم. فالفرس تصوّروا أن الحركات العربية مبعثها الحاجات المادية، لذلك اهتموا بإبراز العلاقات السلمية التعاونية التي كانت قائمة بينهما في الماضي، وهي في الحقيقة علاقات كانت مقصورة على فهم أحوال العشائر البدوية في أواسط الجزيرة وشرقها فحسب، ولم يقدِّروا أهمية ظهور دولة ذات أهداف محدَّدة، لا تسيِّرها أحوال الماضي وما كان فيه من تفككهم وحرصهم على المكاسب المادية، لقد أصبحوا ينظرون إلى المستقبل من زاوية مختلفة بعد أن ترسّخ إيمان العرب بصدق الدعوة الإسلامية، ودخولهم الإسلام، واستعدادهم للقتال من أجل تثبيت دولة الإسلام وتوسيعها، وأن المؤمنين بالدين الجديد متساوون في الحقوق والواجبات.

والواقع أن التباين في الأفكار كان أساسياً، وأن استجابة الفرس لدعوة الإسلام كانت تؤدي حتماً إلى نسف كيانهم، فهي تتطلب تَرْكَ عقائدهم القديمة وكثير من نظمهم وإزالة سلطان الأرستقراطية المتنفذة لتجعلها مساوية لعامّة الجماهير. وقد عبَّر عن ذلك رستم بقوله «إن أهل فارس منذ وَلِيَ أردشير لم يدعوا أحداً يخرج من عمله من السفلة، كانوا يقولون إذا خرجوا من أعمالهم: تعدّوا طورهم، وعادوا أشرافهم»[٢] علماً بأن الدولة الجديدة ستأخذ توجهاتها من المدينة والعرب المسلمين فيها.

---

(١) الطبري ١/٢٢٦٧.

(٢) الطبري ١/٢٢٦٨.

سياسة رستم

يروي الطبري أنه كان من رأي رستم ألا يزج كل الجيش الفارسي في المعركة، وأن يبقى في المدائن ويرسل قوة مع الجالنوس حتى إذا انكسرت كانت وراءها قوة تتابع القتال[1]. فلما أصرّ الملك على إرسال رستم مع كل الجيش. تباطأ رستم في التقدم وتحاشى الاندفاع الذي قد يؤدي إلى كارثة[2]، وقد تعمّد التباطؤ «رجاء أن يضجروا بمكانهم، وأن يجهدوا فينصرفوا، وكره قتالهم مخافة أن يلقى ما لَقِيَ مَنْ قبله، وطاولهم لولا ما جعل الملك يستعجله وينهضه ويقدّمه حتى أقحمه»[3]، ومما زاد في وضع رستم حراجة أن أهل الحيرة وأهل السواد قدَّروا قوة العرب، فأما أهل السواد فقد أرهبتهم سيطرة العرب على أطراف الفرات، وأخبروا الفرس «إن أبطأ عنا الغياث أعطيناهم بأيدينا، وكتب إليه بذلك الملوك الذين لهم الضياع بالطّفّ، وأعانوهم عليه وهيجوه على بعثه رستم»[4]، فأما أهل الحيرة فكانوا عيوناً للعرب، وقووا العرب بالمال، وكانوا مدفوعين بذلك بحسن معاملة العرب، وإخلاء الفرس المنطقة، وعدم قدرتهم على القتال وقالوا «إنما نحن بمنزلة علوج السواد عبيد من غلب»[5].

ورأى عمر أن المطاولة في صالح العرب «فعهد إلى سعد وإلى المسلمين أن ينزلوا حدود أرضهم، وأن يطاولوهم أبداً حتى يُنغضوهم، فنزلوا القادسية، وقد وطّنوا أنفسهم على الصبر والمطاولة.. فأقاموا واطمأنوا». ولا ريب في أن المطاولة كانت تتطلب كفاءة إدارية لضبط الجند وحملهم على البقاء في مكانهم مدة غير قصيرة، وهو أمر غير مألوف عند أهل القبائل من العرب، وهم الذين يتكون منهم عظم الجيش، كما أن تنوع انتماءاتهم العشائرية وثقافاتهم قد يكون مصدر خطر مهدد لهم.

---

(١) الطبري ١/٢٢٤٩ ـ ٢٢٥١.
(٢) الطبري ١/١/٢٢٤٨.
(٣) الطبري ١/٢٢٥٧.
(٤) الطبري ١/٢٢٤٧.
(٥) الطبري ١/٢٢٥٦.

ثم إن المنطقة التي سيطر عليها سعد لدى وصوله القادسية كانت جرداء خالية من المزارع، وكان هذا يتطلب علاجاً مجدياً، وقد اعتمد على ما يحصل عليه من المنطقة الزراعية المجاورة «فكانوا يغيرون على السواد، فانتسفوا ما حولهم فحوَوه وأعدّوا للمطاولة» كما أن عمر كان «يمدهم بالأسواق إلى ما يصيبون»[1]. ولعل سعد بن أبي وقاص أدرك قوة الفرس وانتظر حتى يأتيه المدد من بلاد الشام، والواقع أن وصول هذا المدد كان العامل الأكبر في نصر المسلمين بعد أن كادوا يُخذلون في اليومين الأولين من القتال.

تحديد تاريخ المعركة

اختلفت الروايات في تاريخ حدوث معركة القادسية، فذكر الطبري «الثبت عندنا أنها كانت سنة ١٤»[2]، ويدخل في هذا قول الطبري أن سعد بن أبي وقاص تزوج سلمى بعد وفاة المثنى في سنة ١٤[3]، وكان تحديده أدق أنها حدثت في المحرم، حيث خطب يوم الاثنين من ذلك الشهر في الجزيرة قبيل المعركة[4]. ويبدو أن الطبري أخذ برواية إسماعيل بن أبي خالد[5] وشيوخ سيف[6] الذين يقولون إن وقعة القادسية كانت في المحرم سنة ١٤ في أوله. وأخذ المسعودي هذا التاريخ[7]. يروى عن سيف أن عمر بن الخطاب خرج في أول يوم من المحرم سنة ١٤ إلى صرار، ثم أقر تولية سعد لقيادة الجيش. إن هذا التاريخ لا ينسجم مع مجرى الحوادث وزمنها، فمن المعلوم أن عمر بن الخطاب وَلِيَ الخلافة في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة ١٣، وأرسل

---

(١) الطبري ١/ ٢٢٥٧.
(٢) الطبري ١/ ٢٣٧٠.
(٣) الطبري ١/ ٢٣٤٧.
(٤) الطبري ١/ ٢٢٨٩.
(٥) الطبري ١/ ٢٢٩٨.
(٦) الطبري ١/ ٢٢٨٩.
(٧) مروج الذهب ٢/ ٣١٣، ٣٢٠.

منذ بدء توليه الخلافة حملتين سبقتا حملة سعد بن أبي وقاص، أولهما التي أرسلت بقيادة أبي عبيد الثقفي واندحرت في معركة الجسر التي حدثت في رمضان سنة ثلاث عشرة[١]، والثانية هي معركة البويب التي انتصر فيها العرب، وكانت في صفر من سنة أربع عشرة[٢] وبهذا لا يمكن القول إن القادسية حدثت في أول سنة أربع عشرة.

وذكر عدد من المصادر، ومنها ابن إسحاق[٣] وخليفة بن خياط[٤] وبعض أهل الكوفة[٥] وحمزة الأصفهاني[٦] أن المعركة حدثت في سنة ١٥.

ويقول الواقدي إن معركة القادسية حدثت في السنة ١٤[٧] وبهذا التاريخ أخذ البلاذري[٨]، ويقول المسعودي إن هذا رأي كثير من الناس[٩]. إن مجرى الحوادث يدل على أن معركة القادسية حدثت متأخرة عن السنة الرابعة عشرة، فمن المعلوم أن الخليفة عمر بن الخطاب ولّى سعد بن أبي وقاص الجيش المتوجّه إلى العراق بعد انتصار العرب في البويب الذي حدث بعد سنة من نكسة وقعة الجسر، وأن مسير سعد إلى العراق استغرق زمناً حيث توقف أشهراً في زرود لجمع قوات إضافية من العرب، كما توقف في شراف لتنظيم قواته[١٠]، ثم إن سعد بن أبي وقاص توقف في القادسية مدة ينتظر عمل رستم الذي تباطأ في التقدم إلى ميدان القتال[١١] كما قضى مدة في مفاوضات غير

(١) تاريخ خليفة ٩٢؛ فتوح البلدان ٢٥٢؛ الأخبار الطوال للدينوري، ١١٤؛ تاريخ سني ملوك الأرض لحمزة الأصبهاني ١٢٤.
(٢) الطبري ١/ ٢٣٧٧؛ حمزة الأصبهاني (سنة بعد الجسر) ١٢٤٨ (وهي تصادف أواخر آذار).
(٣) الطبري ١/ ٢٣٥٠، ٢٣٧٧.
(٤) تاريخ خليفة ١٠١.
(٥) الطبري ١/ ٢٣٧٧، ٢٤٢٠.
(٦) تاريخ سني ملوك الأرض ١٥٤.
(٧) الطبري ١/ ٢٣٧٣؛ ابن سعد ٣ ـ ٢/ ٣٠.
(٨) فتوح البلدان ٢٥٢.
(٩) مروج الذهب ٢/ ٢٣٩؛ التنبيه والإشراف ٧٦.
(١٠) الطبري ١/ ٢٢٢١، ٢٤٣٩؛ فتوح البلدان ٢٥٤.
(١١) الطبري ١/ ٢٢٣٤، ٢٢٥٦؛ فتوح البلدان ٢٥٤؛ الأخبار الطوال ١٠٢٠.

مثمرة، يضاف إلى ذلك أن القادسية حدثت بعد اليرموك وفتح دمشق سنة ١٥[١] حيث شاركت فيها قوات جاءت من بلاد الشام بعد هذين الحدثين.

اختار رستم يوم بدء المعركة، ولعلّه علم بالإمدادات القادمة لإنجاد سعد، فأراد أن ينشب المعركة قبل وصولهم الذي سيقوي العرب وقد يقلب ميزان القوى فيجعلهم يتفوقون عليه.

وقد وردت عدة روايات في تحديد الأيام التي نشبت فيها المعركة، فيروي الطبري أنها حدثت يوم الاثنين الأول من المحرم (أواخر شباط)[٢]، ويذكر خليفة أنها حدثت (لثلاث بقين من شوال)، ويقال لأيام بقين من رمضان[٣]، ويذكر البلاذري أن المعركة كانت يوم الخميس والجمعة وليلة السبت دون أن يحدِّد الشهر[٤].

وتجدر الإشارة إلى أن سعداً بقي في القادسية بعد انتصاره شهرين ثم تحرك إلى بهرسير حيث وصلها، في رواية للطبري، في ذي الحجة[٥] (كانون الأول) وفي رواية من آخر شوال (تشرين الثاني) وقد يؤيد هذا أن المعركة جرت في ليالٍ مقمرة، وأن مياه الأنهار كانت واطئة فلم تعِقْ تقدم سعد إلى المدائن.

تنظيم الجيش

أمضى سعد بن أبي وقاص في زرود شهرين اكتمل خلالهما ما يمكن الاستعانة به من عشائر هضبة نجد، ثم تحرك إلى شراف حيث انضمت إليه القوات التي كانت تعمل مع المثنى في جبهة العراق، ويبدو أن هذه القوات كانت مرتبة تبعاً لعشائرها، فكانت كل عشيرة تقيم وترحل سوية مع رؤسائها، وهو ترتيب قد يصلح في المسيرات السلمية، لكنه لا يلائم أحوال الإعداد

---

(١) تاريخ خليفة ١٠٠.
(٢) الطبري ١/ ٢٢٨٩؛ مروج الذهب ٢/ ٣١٣.
(٣) تاريخ خليفة ١٠٢.
(٤) فتوح البلدان ٢٥٨.
(٥) الطبري ١/ ٢٤٢٤.

للمعارك، فلما وصل شراف كانت قد اكتملت قواته، واقترب من العراق، فكان لا بدّ من إعادة تنظيم هذه القوات بما يلائم الإعداد للمعركة. وقد وصف سيف بن عمر هذا الترتيب الجديد فقال إنه بعد أن جمع سعد قواته في شراف «قدر الناس وعباهم، وأمّر أمراء الأجناد، وعرّف العرفاء، فعرّف على كل عشرة رجلاً، وأمّر على الرايات رجالاً من أهل السابقة، وعشّر الناس، وأمّر على الأعشار رجالاً من الناس لهم وسائل في الإسلام»[١].

يظهر من هذا النص أن سعد بن أبي وقاص لم يعتمد الأسس القبلية لتنظيمه، بل وضع تنظيماً جديداً ملائماً للحاجات الجديدة التي يتطلبها الموقف، وقد شمل هذا التنظيم العرافات والرايات والأعشار، فجعل على كل من هذه الثلاثة رؤساء. وذكر النص أن العرافة كانت من عشرة رجال، ولكنه لم يذكر عدد من كان في كل راية أو عشر، وترتيب مراتبها، كما أن المصادر لا تذكر عن ذلك معلومات واضحة، ولكن يمكن القول إن تسلسل الترتيب هو العرافات فالرايات فالأعشار، وإن هذه الأصناف كانت متداخلة، فالعشر يضم عدداً من الرايات، والراية تضم عدداً من العرافات. ويبدو أن هذا الترتيب كان لأغراض تموينية، أي لتيسير أمر التموين وإدارته، فهو مزيج بين الأحوال المدنية والعسكرية، ويذكر سيف أن هذا التنظيم ظل إلى أن أنشئت الكوفة فأعيد تنظيمها للاختلاف الذي حدث في التنظيم آنذاك.

ويقول سيف إن سعد بن أبي وقاص في شراف «ولّى الحروب رجالاً، فولّى على مقدّماتها ومجنّباتها وساقتها ومجرَّداتها وطلائعها ورَجْلها ورُكبانها، فلم يفصل إلا على تعبئة، ولم يفصل منها إلا بكتاب عمر وإذنه. فأما أمراء التعبئة فاستعمل زهرة بن عبد الله.. بن الحارث الأعرج؛ وكان ملك هَجَر قد سَوَّدَه في الجاهلية، ووفَّده على النبي (ص) فقدَّمه، ففصل بالمقدّمات بعد الإذن من شراف؛ حتى انتهى إلى العُذَيْب. واستعمل على الميمنة عبد الله بن المعتمّ.

---

(١) الطبري ١/ ٢٢٢٤.

واستعمل على الميسرة شُرَحْبيل بن السمط بن شرحبيل الكندي. . وجعل خليفته خالد بن عُرفطة (عذرة)، وجعل عاصم بن عمرو التميمي ثم العمري على الساقة، وسواد بن مالك التميمي على الطلائع، وسلمان بن ربيعة الباهلي على المجرّدة، وعلى الرّجْل حمال بن مالك الأسدي (والبة)، وعلى الرّكبان عبد اللّه بن ذي السهمين الخثعمي.

فكان أمراء التعبئة يَلُون الأمير، والذين يَلُون أمراء الأعشار، والذين يَلُون أمراء الأعشار أصحاب الرايات، والذين يَلُون أصحاب الرايات والقواد رؤوس القبائل»[1].

إن الأصناف الأربعة الأولى (الميمنة والميسرة والساقة والطلائع) قائمة على ترتيب عسكري، وينقصها ذكر القوات التي في القلب، ولعلها لم تذكر عمداً لأن سعد بن أبي وقاص كان عليها.

أما الأصناف الثلاثة الأخيرة (المجرّدة، والرّجل، والرُّكبان) فهي من صنوف الأسلحة، فالمجرّدة هم الفرسان، ولم تكن فيهم مجففة، أما الرُّكبان فسياق الكلام يقتضي أن يكون عملهم تنظيم النقليات، والراجح أن مسؤوليتهم كانت عن الإبل التي كان لها دور كبير في التنقلات الأولى للنقل أو القتال، وليس هناك دليل على استخدام العرب في هذه المرحلة المبكرة حيوانات أخرى كالبغال والحمير.

ولم تذكر المصادر علاقة هذه الأصناف الأخيرة بترتيب الأربعة الأولى التي لا بدّ من أنها كانت تضم الرجالة والفرسان وتحتاج إلى النقليات أيضاً. فالراجح أن هذه الأصناف كانت لإدارة الخدمات التي يتطلبها الجيش، فمسؤوليتهم إدارية بالدرجة الأولى، وهي تظهر مدى تقدير سعد لأهمية الخدمات الإدارية في الإعداد للقتال، علماً بأن هذا التنظيم قام في وقت سِلْم، وطُبِّقَ لعدة أشهر قبل الاشتباك في القتال، وكان إتقانه عاملاً مهماً في تماسك تنظيم الجيش وإعداده لدخول المعركة.

---

(١) الطبري ١/ ٢٢٢٤ ـ ٥.

إن الترتيب الذي ذكرناه للأصناف الأربعة الأولى يهدف تيسير التقدم إلى الميدان، فهو يسير في أحوال سلمية استجابة لمتطلباتها من التنظيم والتموين؛ والراجح أن هذه الأقسام الأربعة كانت متعادلة أو متقاربة في عدد رجالها، ومن الطبيعي أن دخول المعركة قد يتطلب إعادة النظر فيها تبعاً لتنظيم قوات الخصم ومقتضيات سير المعركة.

ظل هذا الترتيب أساسياً في إدارة معركة القادسية، فيروي الطبري أنه عندما تقدَّم سعد بن أبي وقاص إلى ميدان المعركة «جعل على مقدمته زهرة بن الحوية، وعلى مجنّبتيه عبد اللّه بن المعتمّ وشُرَحْبيل بن السمط الكندي، وعلى مجردته عاصم بن عمرو، وعلى المرامية فلان»[1]. واقتضت الأحوال التالية بعض التعديلات «وجعل زهرة وعاصم بن عبد اللّه وشرحبيل، ووكل صاحب الطلائع بالطِّراد، وخلط بين الناس في القلب والمجنّبات»[2] وفي مطاردة الفرس بعد القادسية «جعل سعد خالد بن عرفطة على الجماعة، وجعل على الميمنة جرير بن عبد اللّه البجلي وعلى الميسرة قيس بن مكشوح»[3]. ثم «جعل على المقدمة هاشم بن عتبة، وعلى الميمنة جرير بن عبد اللّه، وعلى الميسرة زهرة بن حويّة»[4]، وفي مطاردة الفرس بعد انكسارهم في القادسية كان زهرة في المقدمة والقعقاع بمَن سفَل، وشرحبيل بمَن علا، وخالد بن عرفطة بسلب القتلى[5].

والجدير بالذكر أن ابن أعثم يذكر أن قوات سعد كانت قريباً من أربعين ألفاً ثم أمدّهم عمر بعشرين ألفاً من أهل الشام، وأن سعد بن أبي وقاص نظَّم قواته في ميدان المعركة.

فجعل على ميمنته عمرو بن معديكرب الزبيدي وجرير بن عبد اللّه البجلي في عشرة آلاف بين فارس وراجل.

---

(١) الطبري ١/ ٢٢٦٥.
(٢) الطبري ١/ ٢٢٨٧.
(٣) الطبري ١/ ٢٣٥٣.
(٤) الطبري ١/ ٢٣٥٢.
(٥) الطبري ١/ ٢٣٣٨.

وجعل على ميسرته إبراهيم بن حارثة الشيباني وعلي بن جحش العجلي في عشرة آلاف بين فارس وراجل.

وجعل في القلب طلحة بن خويلد الأسدي والمنذر بن حسان الضبي في عشرة آلاف فارس وخمسة آلاف راجل.

وفرَّق من بقي منهم في الأجنحة والكمناء[١].

غير أني لم أجد من يؤيد هذا الكلام، ومن الصعب الاقتناع بوضع قائدين من عشائر مختلفة على كل مجموعة، وأن يخلط الفرسان بالراجلين ويفرقوا في مختلف المواضع، علماً بأن المصادر لم تذكر أياً من إبراهيم بن حارثة الشيباني (ولعله من خطأ الناسخ وصحيحه المعنى)، وعلي بن جحش العجلي كما أنه يصعب قبول قوله إن طلحة، وهو من رؤساء المرتدين، وُضِع في القلب.

لم يكن من القادة الذين ذكرهم سيف من قريش أو الأنصار أو أهل الحجاز غير خالد بن عرفطة، وهو من عذرة، نزل جده مكة وحالف بني مخزوم، ثم نقل حلفه إلى بني أمية[٢] وجعله سعد بن أبي وقاص عند نشوب القتال بينه وبين القادة كالخليفة له[٣]، ثم أرسله لقيادة مطاردي الفرس إلى المدائن[٤]، وكان في المطاردة على الساقة[٥].

ومن هؤلاء القادة إثنان من اليمن هما شُرَحبيل بن السمط، وعبد اللَّه ذي السهمين. أما شُرَحبيل فهو من كندة، كان لأبيه محجر يحميه، وانضم إلى زياد بن لبيد وقاتل معه المنشقين في حضرموت[٦]، وكان في القادسية على إحدى المجنّبتين، وهو من القواد الذين طاردوا الفرس بعد اندحارهم في

(١) الفتوح لابن أعثم ١/ ٢٠١ ـ ٢.
(٢) المنمق ٢٩٧.
(٣) الطبري ١/ ، ٢٢٨٨، ٢٢٣٨.
(٤) الطبري ١/ ٢٣٥٣.
(٥) الطبري ١/ ٢٤٢٠.
(٦) الطبري ١/ ٢٠٠٤.

القادسية[١] وولاه سعد بن أبي وقاص المدائن[٢]، ثم انتقل إلى الشام، وهو الذي قسم منازل حمص حين افتتحت[٣].

وأما عبد الله بن ذي السهمين فهو من خثعم، قدم إلى عمر فوجَّهه إلى المثنّى[٤]، وشارك في معركة الجسر[٥]، وفي القادسية، وطارد الفرس لدى هزيمتهم[٦]، ثم أرسل مدداً للمسلمين في الأهواز[٧]، وشارك في فتح الماهين وكان أحد شهود صلحها[٨].

أما سلمان بن ربيعة، فقد شارك في معركة القادسية، ووَلِيَ فقسم غنائمها[٩]، وصار قيِّماً على الأفراس التي وضعها عمر في الكوفة[١٠]. ثم وَلِيَ القضاء في الكوفة، وقاد جيشاً في فتح أرمينية وقتل هناك[١١].

وحمال بن مالك أسدي من بني والبة، وكان مع طلحة والربيل وغالب بن عبد الله، أبرز المقاتلين من بني أسد[١٢]. فقد أنجدوا بجيلة عندما ضايقتها الفرس[١٣]، وشارك مع الربيل في مهاجمة الفيل الأبيض[١٤]، وكان في الكتيبة الخرساء التي تقدمت لعبور دجلة إلى المدائن[١٥].

---

(١) الطبري ١/ ٢٣٤١.
(٢) الطبري ١/ ٢٣٦١.
(٣) ابن حزم ٤٢٦؛ الاشتقاق ٣٦٣.
(٤) الطبري ١/ ٢١٨٨.
(٥) الطبري ٢١٩٥١.
(٦) الطبري ١/ ٢٣٢٩.
(٧) الطبري ١/ ٢٥٥٢.
(٨) الطبري ١/ ٢٦٣٢.
(٩) الطبري ١/ ٢٣٤٤، ٢٤٥١.
(١٠) الطبري ١/ ٢٥٠٤.
(١١) «أخبار القضاة» وكيع.
(١٢) الطبري ١/ ٢٣٣١.
(١٣) الطبري ١/ ٢٢٩٨، ٢٣٠٨.
(١٤) الطبري ١/ ٢٣٢٤.
(١٥) الطبري ١/ ٢٤٣٦.

ذكرنا أن سيف ذكر قائدين من تميم هما سواد بن مالك وعاصم بن عمرو.

فأما سواد فقد ذكر سيف دوره في معركة القادسية، حيث أغار على النجاف والعراض حول القادسية واستاق منها ماشية[1] كما خرج مع حميضة في مائة وأغار على النهرين[2].

وذكر سيف عبد اللّه بن المعتم ودوره، إذ كان على أحد مجنّبتي جيش المسلمين في القادسية[3] ثم كان أحد القواد الذين تبعوا زهير إلى برس[4]، ثم قاد حملة في خمسة آلاف قامت بفتح تكريت[5]، ثم تقدمت إلى الموصل فضمّتها إلى الدولة الإسلامية، وصار والياً عليها[6]. ولم تذكر المصادر العشيرة التي ينتمي إليها.

ليس في هذه الأسماء رجل من المهاجرين أو الأنصار أو الصحابة الأولين، ولا من عشائر بكر أو من أهل الأيام، ولا من طي، وإنما فيها ثلاثة من تميم، واثنان من اليمن، وواحد من أهل الحجاز، وهذا إن صحَّ يدل على أن سعداً لم يراعِ التركيب القبلي في اختيار القادة ولم يعيِّن لكل عشيرة قائداً منها، كما أنه لم يراعِ السابقة في الإسلام، وإنما راعى ما رآه الكفاءة الإدارية والعسكرية، والواقع أن معظم هؤلاء أظهروا كفاءة في القتال والمعارك.

ميدان المعركة

ثم تقدَّم سعد بالجيش على هذه التعبئة نحو العراق، وسار في الطريق المألوف حتى وصل إلى أطرافه في جهة القادسية.

والقادسية باب فارس في الجاهلية، وهي أجمع تلك الأبواب لمادّتهم،

---

(١) الطبري ١/ ٢٢٤٤.
(٢) الطبري ١/ ٢٢٥٨.
(٣) الطبري ١/ ٢٢٦٥.
(٤) الطبري ١/ ٢٤٢٠.
(٥) الطبري ١/ ٢٤٧٤.
(٦) الطبري ١/ ٢٤٨١، ٢٤٨٢، ٢٤٨٧.

ولما يريدونه من تلك الآصُل، وهو منزل رغيب خصيب حصين دونه قناطر، وأنهار ممتنعة، فتكون مسالحك على أنقابها، ويكون الناس بين الحجر والمَدَر على حافّات الحجر وحافّات المَدَر[1].

ترتيب القوات الإسلامية في المعركة

ذكر الطبري أنه عندما نشب القتال في القادسية «خلط سعد بين الناس في القلب والمجنّبات»[2] أي إنه كوَّن كتلة واحدة منهم، وهو ما يصعب قبوله لأنه لا ينسجم مع كثرة عددهم ومتطلبات القتال، ولعلّ الأصح أنه قوّى القلب بنقل بعض قوات الأجنحة إليه.

وذكر ابن إسحاق أنه لما تقدّم رستم إلى ميدان المعركة «عبر له المسلمون، فجعل سعد على جماعة الناس خالد بن عرفطة، وجعل على الميمنة جرير بن عبد اللّه البجلي وجعل على ميسرتهم قيس بن مكشوح المرادي»[3] ولعلّه قصد بذلك أن خالد بن عرفطة كان في القلب، وبجيلة في الميمنة، ومراد (وربما معها اليمن) في الميسرة، وذكر أيضاً أنه في بدء المعركة جعل زهرة وعاصم بن عبد اللّه (البجلي) وشُرَحبيل (الكندي)[4]، أي إن تميم وضعت بين بجيلة وكندة، فيكون الترتيب: كندة في أقصى اليمين، ويتلوها تميم، فبجيلة.

وذكر ابن الأعثم ترتيب القوات الإسلامية في المعركة فقال إن سعداً وضع: في اليمين عمرو بن معديكرب الزبيدي وجرير بن عبد اللّه البجلي في عشرة آلاف بين فارس وراجل؛ وفي الميسرة إبراهيم (المعنى) بن حارثة الشيباني وعلي بن جحش العجلي في عشرة آلاف بين فارس وراجل؛ ووضع في القلب طليحة بن خويلد الأسدي والمنذر بن حسان العجلي في عشرة آلاف فارس

---

(١) الطبري ١/٢٢٢٨.
(٢) الطبري ١/٢٢٢٨
(٣) الطبري ١/٢٣٥٣.
(٤) الطبري ١/٢٢٨٧.

وخمسة آلاف راجل[1]. وذكر أيضاً أن جريراً كان معه ستمائة[2]، وأن عَمْرَ بن معديكرب كان معه خمسمائة[3] غير أن الطبري ذكر أن شُرَحبيل كان على الجناح الأيمن[4]، وذكر في مكان آخر أن شُرَحبيل كان على جناح، دون أن يحدده[5]. وذكر في مكان آخر أن قيس بن مكشوح كان على الجناح الأيمن[6]. وذكر الطبري أن الهزهاز كان على جناح لم يحدِّد جهته[7]. وهذا الاختلاف قد يرجع إلى عدم دقة الرواة، أو إلى حدوث تبدلات أثناء سير هذه المعركة الضارية.

إن قول ابن الأعثم إن سعداً ولّى كل جناح قائدين دون توضيح العلاقة بينهما قد يشكك في صحتها، لأنها لا تلائم إدارة المعارك، إلا إذا افترضنا أن لأحدهما سلطة على الثاني، وفي أي حال فإن اختيار القادة رُوعِيَتْ فيه الكفاءة، وربما أيضاً كثرة عشائر القائد في جناحه، غير أنه لم يستوعب كل الرؤساء، ولم يذكر فيهم تميمي.

كان طليحة ممن تنبأ وانشقّ عن دولة الإسلام إلى أن أخضعه خالد بن الوليد، وأيّد عمرو بن معديكرب الأسود العنسي والمنشقين في اليمن، ثم انضما إلى دولة الإسلام وأخلصا في خدمتها، وفيهم إثنان من بكر (إبراهيم بن حارثة وعلي بن جحش) واثنان من اليمن (عمرو بن معديكرب وجرير بن عبد اللّٰه) وهم ليسوا من أهل الحجاز أو أهل السابقة في الإسلام، وليس فيهم ممن ذكر على قيادة في الترتيب الذي وضعه في شراف عدا شُرَحبيل. ويذكر ابن الأعثم أن أول من تقدم مهران صاحب أذربيجان، ضرب المنذر بن حسان[8]،

---

(١) ابن أعثم ١/٢٠١ ـ ٢.
(٢) ابن أعثم ١/١٧٣.
(٣) ابن أعثم ١/١٧٣.
(٤) الطبري ١/٢٢٢٣، وانظر الدينوري ١٢٠.
(٥) الطبري ١/٢٢٦٥.
(٦) الطبري ١/٢٣٥٣.
(٧) الطبري ١/٢٣٠٣.
(٨) ابن أعثم ١/٢٠٤.

ولما كان مهران في الجناح الأيسر من القوات الفارسية، فالخبر يؤيد أن المنذر كان في ميمنة القوات الإسلامية.

ويقول ابن الأعثم أيضاً: «أول من تقدم إلى الحرب من المسلمين جرير بن عبد اللّه البجلي ثم ابن جحش العجلي، ثم حمل في أثره إبراهيم بن حارثة الشيباني، ثم تقدم عمرو بن معديكرب الزبيدي»[1]، وهذا يظهر أن بدء القتال كان من الجناحين الأيمن والأيسر.

ومن المحتمل أن سعد بن أبي وقاص أجرى بعض التبديلات في القيادات بسبب ما اقتضته تلك المعركة العنيفة المعقدة، على الرغم من الصعوبات التي تحدثها مثل تلك التبديلات، غير أن المصادر لم تقدم معلومات عن ذلك.

ومع أن الأحوال تقضي أن يكون القادة على قوات من عشائرهم، إلا أن التطابق لا يمكن أن يكون تاماً نظراً لكثرة العشائر وقلة المناصب القيادية، وقد يفضل أن تجمع العشائر المتقاربة في النسب مع بعضها للإفادة من النخوة بينها، ولكن المعلومات التي وصلتنا لا تيسِّر تقديم صورة دقيقة عن ذلك.

ذكرنا أن المعلومات التي وصلتنا عن معركة القادسية كانت معلومات واسعة ولكنها غير منتظمة، ولا تكون صورة واضحة لمصاف العرب فيها أو التطورات التي حدثت على مواقع العشائر، لأن أكثر معلوماتها كانت حول الأعمال البطولية لبعض الأفراد وحول مواقف بعض العشائر، علماً بأن الحركات الإندفاعية الواسعة لبعض الأفراد واختراقاتهم قد تكون مضللة في تحديد تنظيم المصاف، وخصوصاً في أيامه الأولى، وأن سعد بن أبي وقاص اتخذ مقامه خارج مواضع الالتحام ولم يتولَّ قيادة العشائر.

ذكرنا أن الروايات تشير إلى أنه في أول يوم من القتال كانت بجيلة في الميمنة، ويذكر ابن إسحاق أن بجيلة كانت ربع الناس فوجّه إليها الفرس ستة عشر فيلاً وإلى سائر الناس فيلين، وجعلوا يلقون تحت أرجل خيولها حسك

---

(١) ابن أعثم ١/ ٢١٠.

الحديد ويرشقونهم بالنشاب، وقربوا خيلهم بعضها إلى بعض لئلا يفرّوا، وأن عمرو بن معديكرب كان يمر بهم ويشجعهم[1]. ويدل توجُّه هذا العدد الكبير من الفيلة أن بجيلة كانت في يمين الميمنة، وقريبة من القلب حيث تكثر فيلة رستم.

ذكرنا أن بجيلة كانت في الميمنة، فوجّه الفرس إليها ثقلهم في أول الهجوم «فكادت بجيلة أن تؤكل، فرّت عنها خيلها نفاراً، وعمن كان معهم في مواقفهم، وبقيت الرجالة من أهل المواقف، فأرسل سعد إلى بني أسد: أن ذببوا عن بجيلة ومن لافَّها من الناس، فخرج طليحة بن خويلد وحمَّال بن مالك وغالب بن عبد اللّه والربيل بن عمرو في كتائبهم، فباشروا الفيلة»[2]، وذكر أن الفيلة تحولت إلى بني أسد فقتِل تلك العشية منهم خمسمائة[3]. وهذا يظهر أن بني أسد كانت قريبة من بجيلة، وقد تكون في يسارها أقرب إلى القلب، ومما يؤيد هذا أن المسعودي ذكر توجُّه الفيلة إلى بني أسد الذين خسروا خمسمائة قتيل، وقال: «ومالت عشرون فيلاً نحو القلب»[4]. ومما يؤيد هذا قول ابن أعثم إن طلحة (الأسدي) والمنذر بن حارثة الضبي كانا في القلب[5]، وبذلك يكون الصف: بجيلة ـ أسد ـ ضبة.

غير أن هذا لا ينسجم مع قول الطبري بأن بني أسد قاتلت في هذا اليوم ذا الحاجب والجالنوس اللذين كانا في ميمنة جيش رستم كما ذكرنا آنفاً[6].

يذكر سيف بن عمر أنه عندما هاجمت الفرس بجيلة في أول المعركة كان ممن شجعهم عمرو بن معديكرب الزبيدي[7]، وأن الأشعث بن قيس (كندة)

(١) الطبري ١/٢٣٥٦.
(٢) الطبري ١/٢٢٩٨، ٢٣٠١.
(٣) الطبري ١/٢٢٩٩.
(٤) مروج الذهب ٢/٣١٣.
(٥) الطبري ١/٢٢٩٨.
(٦) الطبري ١/٢٢٩٦.
(٧) الطبري ١/٢٢٩٧.

قاتل ذا الحاجب والجالنوس[١]، وأن الفيلة تحوّلت إلى بني أسد، أي ان كندة كانت قريبة من بجيلة وبني أسد.

وذكر سيف أن ممن شجع بجيلة رجال من تميم منهم عاصم بن عمرو، وربيع بن البلاد، وربعي بن عامر[٢]، أي إنهم كانوا قريبين من بجيلة وإن سعداً قال إن المعركة كانت تدور على أسد وعاصم (تميم) وخيله[٣].

في أخبار معركة القادسية إشارات تدل على أن تميم كانت في القلب قريبة من بني أسد، فعندما هاجمت الفرس بني أسد وقف عاصم بن عمرو التميمي يحيّي الناس[٤]، وكان عاصم وبنو أسد يهاجمون الفيلة[٥]، ولما وجّه الفرس فيلتهم إلى القلب، قابلها عاصم والقعقاع التميميان، وحمّال والربيل الأسديّان[٦]. إن القعقاع التميمي كان من القوات التي أخذها معه خالد بن الوليد إلى بلاد الشام، وشارك في معركة اليرموك، ثم عاد مع الأمداد إلى العراق ودخل معركة القادسية في يومها الثاني[٧]، وقاتل في القلب[٨]. ومما يؤيد أن تميم كانت في القلب هو أن رستم قائد الفرس تعرُّض له رجل من تميم[٩]، وأن الذي قتله هلال بن علفة التميمي[١٠].

يذكر سيف أن عبد يغوث والأشعث وعمرو بن معديكرب وابن ذي السهمين وابن ذي البردين حملوا مما يليهم حتى خالطوا الذين بإزائهم، وقام في ربيعة رجال فقالوا: أنتم أعلم الناس بفارس وأجرؤهم عليهم فيما مضى، فما يمنعكم

(١) الطبري ١/ ٢٢٩٩.
(٢) الطبري ١/ ٢٢٩٢، ٢٢٩٦.
(٣) الطبري ١/ ٢٣٠٤.
(٤) الطبري ١/ ٢٣٠١.
(٥) الطبري ١/ ٢٣٢٨.
(٦) الطبري ١/ ٢٣٢٥، ٢٣٢٦.
(٧) الطبري ١/ ٢٢٢٧.
(٨) الطبري ١/ ٢٣١٨.
(٩) الطبري ١/ ٢٣٠٩.
(١٠) الطبري ١/ ٢٣٣٧، ٢٣٤٠، ٢٣٤٣، ٢٣٥٦؛ فتوح البلدان ٢٥٦.

اليوم أن تكونوا أجرأ مما كنتم بالجرأة، فكان أول من زال حين قام قائم الظهيرة الهرمزان والبيرزان، فتأخرا وثبتا حيث انتهيا، وانفرج القلب»[١]. ويدل هذا النص على أن ربيعة، واليمن (التي من رجالها الخمسة الأولون)، كانوا أقرب إلى القلب ولعلّهم في طرفه الأيسر.

المعركة

اتخذ رستم مقرَّه في ساباط وهي إحدى المدن السبع التي تتكون منها المدائن، وتقع في أقصى الأطراف الغربية، وبعد أن أتم تجميع قواته تحرك بعد أربعة أشهر[٢] غرباً فمرّ بكُوثَى فَبُرس، فدير الأعور فالملطاط، فعسكر بين الخورنق والغَرِيَّيْن عند النجف[٣] على بعد قرابة عشرين ميلاً من المواقع التي كان يعسكر فيها المسلمون، وأمضى في هذا المعسكر مدة فاوض فيها العرب لإقناعهم بالانسحاب. ولم يحدث خلال مكوثه في هذا المعسكر أيُّ اصطدام مسلَّح، ولا بد أن كلاً من الطرفين كان خلال ذلك يراقب الطرف الثاني ويعيد تنظيم قواته، بما يمكِّنه من النصر عند حدوث القتال. ولعلَّ سعد بن أبي وقاص قدَّر قوة جيش الفرس آنذاك وطلب من الخليفة عمر بن الخطاب إمداداً ييسِّر له الانتصار، فأمر الخليفة عمر بن الخطاب بأن تمدَّه القوات التي كانت تعمل في جبهة بلاد الشام. وأظهر الطرفان في هذه المدة ضبطاً قوياً، فلم يحدث خلالها تصادم، ولم يبد أيٌّ منهما ما يدل على احتمال المصالحة وتجنُّب القتال. ويقول البلاذري إن رستم أقام في معسكره هذا بين الحيرة والسليمية أربعة أشهر لا يقدم على المسلمين ولا يقاتلهم[٤]. وفي هذا القول بعد عن الدقة، إذ يقول الطبري إن رستم قضى بين مقامه في ساباط ودخوله المعركة في القادسية أربعة أشهر[٥].

---

(١) الطبري ١/٢٣٢٦.

(٢) الطبري ١/٢٢٣٥، ٢٢٤١، ٢٢٤٨، ٢٢٤٩، ٢٢٥٢.

(٣) الطبري ١/٢٢٥٧.

(٤) الطبري ١/١/٢٢٥٢، ٢٢٥٤.

(٥) الطبري ١/٢٢٥٧.

ثم قدّم رستم جيشه فعبر العتيق واقترب من معسكر المسلمين، فكان ذلك إيذاناً ببدء القتال. ولعل الذي دفعه إلى هذا التقدم علمه بإقبال المدد الذي كان في طريقه من بلاد الشام للانضمام إلى قوات سعد، فعزم على الدخول في المعركة قبل أن يصل المدد الذي بدأ وصوله منذ اليوم الثاني للمعركة وكان له دور حاسم في انتصار العرب. واحتفظ العرب بمواقعهم ولم يقوموا بعمل جدي لعرقلة تقدّم جيش الفرس سوى أنهم منعوه من عبور القنطرة، فسكر العتيق وعبرت جيوشه من ذكر السَّكر[1].

يتبين من هذا أن رستم اختار مواقع قواته للمعركة، وهي فتحة غير واسعة يستند جناحها الأيمن الشمالي إلى مرتفعات، وجناحها الأيسر الجنوبي إلى بطائح؛ وبذلك أمن جناحَيْ قواته من خطر الالتفاف عليها؛ وكانت وراء هذه المواقع أراضٍ فيها مزارع غنية تؤمن حاجته من التموين، وتيسر له الاتصال بطيسفون؛ في حين أن معسكر العرب لم يكن فيه أو وراءه ما يؤمن حاجاتهم بكفاية من التموين.

احتفظ العرب بمعنوياتهم العالية التي يدعمها إيمانهم بسلامة الأهداف التي يقاتلون من أجل تحقيقها، وتعززها سلطة عليا حاكمة مؤمنة بأهدافها وواثقة من انتصارها؛ ومما كان يذكيها شعراء ومتكلمون يزيدون من تعزيز الثقة وتثبيت المعنويات[2].

بدأ الاصطدام عندما اشتبكت قوة من المسلمين عليها زهرة بن حوية بِخَيْلٍ للأعاجم[3] ودامت المعركة أربعة أيام، هاجم في أولها، وهو يوم أرماث،

---

(١) فتوح البلدان ٢٥٤. وانظر في وصف المعالم العمرانية لمنطقة القادسية وميدان المعركة: «الفرات الأوسط» لألواموزيل، و«موقع معركة القادسية» لجواد مطر الحمد، والفصل الذي كتبناه عن منطقة الحيرة في كتابنا «معالم العراق العمرانية».

(٢) الطبري ١/ ٢٢٩١.

(٣) في تاريخ الطبري أوسع تفاصيل عن المعركة وأحداثها، وفيه معلومات كثيرة عن دور عدد من الفرسان لعل فيها مبالغة، وهو يغفل دور بكر الذي يذكر البلاذري أنهم كانوا في القلب (معجم البلدان ٣٤١) وقد ذكر البلاذري معلومات مقتضبة قيِّمة لا تخرج في نطاقها عما الطبري. وبحث عدد كبير من المحدثين معركة القادسية من أوسعها بحث ليو كايتاني في كتابه «حوليات الإسلام»، وأحمد كمال عادل في كتابه.

الفرس بقيادة ذي الحاجب والجالنوس الجناح الأيمن للعرب، وكانت فيه بجيلة، فوجهوا عليها ستة عشر فيلاً، أثارت الاضطراب في خيل المسلمين، وعرَّضت رجالتهم للخطر «فكادت بجيلة أن تؤكل، فرَّت عنها خيلُها نفاراً، فأنجدتها بنو أسد.[١] ووقع من بجيلة خمسمائة قتيل[٢] وقتل من بني أسد ستمائة[٣].

وفي اليوم الثاني من القتال، وهو يوم أغواث، وصلت طلائع إمدادات الشام فأسهمت كثيراً في القتال[٤]. وتوقف هجوم الفيلة بعد أن أفلح العرب في إيقاع الاضطراب فيها عندما سلطوا عليها إبلاً مبرقعة تهاجمها. فلقيت فارس من الإبل يوم أغواث أعظم مما لقي المسلمون من الفيلة من يوم أرماث الأول[٥]، ونشطت خيل العرب، وكان أشد القتال في القلب، تولته تميم[٦] وأعانتها عجل وأبدى القعقاع وقوَّته بسالة متميزة وقتل في المعركة هذا اليوم من قواد الفرس بهمن جاذويه، والبيرزان والبندوان[٧]، وبزرجمهر وشهربراز السجستاني[٨]، وكان القتال حامياً، قتل فيه من المسلمين ألفان ومن الفرس عشرة آلاف ولكن لم يكن حاسماً[٩].

وفي اليوم الثالث، وهو يوم عماس، أعاد الفرس استخدام الفيلة وعززوها بالخيل والرجالة ولكنها لم تثبت في القتال، وأصابها الاضطراب[١٠]. وكان

---

(١) الطبري ١/ ٢٢٩٨.
(٢) الطبري ١/ ٢٣٣١.
(٣) الطبري ١/ ٢٣٠١.
(٤) الطبري ١/ ٢٣٠٥، ٢٣١٤، ٢٣١٩، ٢٣٢١، ٣٣٢٢، ٣٣٥٠.
(٥) الطبري ١/ ٢٣٠٩.
(٦) الطبري ١/ ٢٣١٣.
(٧) الطبري ١/ ٢٣٠٦.
(٨) الطبري ١/ ٢٣١١.
(٩) الطبري ١/ ٢٣١٧.
(١٠) الطبري ١/ ٢٣٢٥، ٢٣٢٦.

أشد القتال في القلب، وأبلت تميم بلاءاً عظيماً[1]، واستمر القتال حتى الليل[2]، ونجح العرب في اختراق حصون الفرس كما تقدموا في الجنوب وطوَّقوا الجناح الأيسر، وعبروا مخاضة كانوا يستندون إليها. وقتل في هذا اليوم من المسلمين ألفان، ومن المشركين عشرة آلاف[3].

وفي اليوم الرابع، وهو يوم القادسية، أو يوم الهرير، تابع العرب هجومهم في القلب، وأعانتهم عاصفة شديدة هبَّت باتجاه الفرس فأوقعت الاضطراب في صفوفهم، ووصل العرب إلى مقر رستم وقتلوه[4]، فكان ذلك ضربة قاضية انكشف فيها الفرس وانكسروا ووقع فيهم عدد كبير من القتلى ولا سيما في صفوف المقترنين. ويروي الطبري أنه وقع في قتال هذين اليومين من المسلمين ستة آلاف قتيل، ومن الفرس ثلاثون ألف قتيل[5].

وانسحبت بقايا الجيش الفارسي بعد انكسارهم، وقاد انسحابهم الجالنوس الذي كان يحمي المؤخرة[6]، وطاردهم العرب إلى الخرارة[7]، وقتلوا الجالنوس[8]، وكفّوا عن المطاردة وتجمَّع الفرس في دير قرة وكانت لهم قوة أمامية عسكرت في الكوفة بقيادة النخيرجان[9].

أهمية معركة القادسية

دحر العرب بانتصارهم في القادسية القوة الكبيرة التي استطاع الساسانيون

---

(١) الطبري ١/ ٢٣٢٦.
(٢) الطبري ١/ ٢٣٢٣.
(٣) الطبري ١/ ٢٣١٢.
(٤) الطبري ١/ ٢٣٣٥، ٢٣٣٧.
(٥) الطبري ١/ ٢٣٣٧.
(٦) الطبري ١/ ٢٣٣٩.
(٧) الطبري ١/ ٢٣٣٨.
(٨) الطبري ١/ ٢٣٣٩.
(٩) الطبري ١/ ٢٣٥٨، ٢٣٦٠.

جمعها لصدِّ تقدُّم العرب، وقتلوا أعداداً من أكفأ قواد الفرس، وكثيراً من رجالهم، وأفشلوا استخدام الفيلة في القتال، ولم تعد لهم قدرة على تجهيز جيش جديد يكفي لوقف تقدُّم العرب في العراق واستيلائهم على العاصمة طيسفون، وفقدوا معظم جيشهم في العراق.

واستفاد العرب من السلاح والكراع والأموال الكثيرة التي خسرها الفرس في المعركة، ولا بدّ أن الانتصار قوّى ثقة العرب بكفاءتهم وقدرتهم على دحر الفرس، وشجع بعض المترددين على الانضمام إلى المقاتلة العرب وقوّى معنويات أهل البلاد في العراق فمال إلى جانبهم الفلاحون، ويسَّر كل ذلك للجيش العربي التقدُّم دون أن تعيقه الأنهار والترع والمزارع، أو تعطله مقاومة من مراكز التجمع السكانية، بما فيها القرى والبلدان الكثيرة في أواسط العراق بخاصة، وقد استسلم الاهاقون والحكام والملاكون على الذمة والمنعة فلم يبقَ في غربي دجلة إلى أرض العرب سواديٌّ إلا آمن وأيد ملك العرب.

أضعفت معركة القادسية الفرس وضعضعت قوَّتهم، فيسَّرت للعرب التقدم وفَتْحَ طيسفون، ولكنها لم تقضِ على حكمهم، إذ استطاعوا أن يجمعوا قوات اشتبكت مع العرب في عدة معارك، ولكنهم لم ينتصروا في أيٍّ منها.

التقدم إلى طيسفون والاستيلاء عليها

تمهل سعد بن أبي وقاص بعد انتصاره في القادسية[١]، ولم يتابع مطاردة الفلول المنهزمة من الجيش الساساني المندحر، وقضى ثمانية أشهر في القادسية يعمل على إعادة تنظيم قواته وتأمين السيادة على المنطقة، ولم تذكر المصادر نجدات إضافية جاءته بعد انتصاره في المعركة، علماً بأن هذه الحوادث جرت في الوقت الذي كانت فيه الجيوش العربية في جبهة بلاد الشام تتابع أعمالها في ملاحقة الروم وإقصائهم عن بلاد الشام.

(١) الطبري ١/ ٢٤١٩.

وبعد تسعة أشهر أرسل سعد قوة قوامها إثنا عشر ألفاً[١]، جلّها من الفرسان، دون أن يرافقهم النساء والعيال الذين أبقاهم في العتيق وجعل معهم كشفاً من الجند[٢]، وكان يقودهم خالد بن عرفطة[٣]، وزهرة بن حوية ومعه ابن المعتَمّ وشُرَحبيل بن السِّمط[٤].

اشتبك العرب في بُرس مع قوة فارسية يقودها بُصْبُهْرى فدحروها وقتلوا قائدها، وهرب الفيرزان وبإمرته النخيرجان ومهران الرازي والهرمزان[٥]، وحاولوا المقاومة دون جدوى في بابل[٦]، فلما دحرهم العرب تفرقوا، فعاد الهرمزان إلى الأهواز، وانسحب الفيرزان إلى نهاوند، وقاد مهران بقية الجيش الفارسي المنسحب إلى بهرسير[٧]، ثم لحق سعد بن أبي وقاص بالجيش[٨]، وتقدَّم إلى ساباط وسيطر عليها[٩].

وصمد الفرس في بهرسير فحاصرهم العرب مستعملين المجانيق والعرادات والدبابات[١٠]، وأبدت حامية بهرسير مقاومة عنيدة دامت في قول الطبري شهرين، وفي قول البلاذري ثمانية أشهر[١١] ويقال ثمانية عشر شهراً،[١٢] ثم أجبرها العرب على الاستسلام في صفر سنة ١٦[١٣].

---

(١) الطبري ١/٢٤٤٨، ٢٤٢٠، ويذكر البلاذري أنه تحرك بعد ستة أشهر؛ فتوح البلدان ٢٦٢.
(٢) الطبري ١/٢٤١٩.
(٣) فتوح البلدان ٢٥٨، يقول الطبري إنه كان يقودها زهرة بن حوية (١/ ٢٤٢٠).
(٤) الطبري ١/ ٢٤٢٠. سلك العرب في تقدمهم من القادسية إلى دير كعب، ثم ساباط، ثم بهرسير (فتوح البلدان ٢٦٢).
(٥) فتوح البلدان ٢٥٨؛ الطبري ١/ ٢٤٢٠.
(٦) الطبري ١/ ٢٤١٩.
(٧) الطبري ١/ ٢٤٢٢.
(٨) الطبري ١/ ٢٢٤٣، ٢٤٦٢.
(٩) الطبري ١/ ٢٤٢٥؛ فتوح البلدان ٢٦٢.
(١٠) الطبري ١/ ٢٤٢٧.
(١١) الطبري ١/ ٢٤٤٨.
(١٢) فتوح البلدان ٢٦٢.
(١٣) الطبري ١/ ٢٤٣٢؛ فتوح البلدان ٢٦١.

وباستسلام بهرسير قطع الفرس الأمل بصد العرب عن العاصمة ورضوا بالصلح وتسليم ما في غرب دجلة[١]، فانسحب كسرى من المدائن إلى جسر النهروان[٢]، ودخل سعد المدائن واتخذها مقراً له.

المدائن وأهميتها

كانت المدائن عاصمة الفرس مدينة كبيرة تقع على جانبَيْ دجلة، وتتكوّن من سبع مجموعات سكنية لكل منها تاريخ خاص وبعض الميزات، وتسمى كلٌ منها مدينة، ففي الجانب الغربي من دجلة تقع الرومية التي اتخذ فيها السلوقيون مقرَّ حكمهم، وهي تقع في الأطراف الشمالية، وقد بُنِيَتْ على طراز المدن الإفريقية، فكانت شوارعها مستقيمة ومتقاطعة على هيئة رقعة الشطرنج، وكانت عند تقدُّم جيش المسلمين مركزاً لبطريرك النساطرة، وفيها جالية يهودية، وعدد من التجار ورجال الأعمال ويسميها أهل البلاد «الماحوزة» أي المدينة، ويسميها العرب «الرومية» وهي في الأطراف الشمالية الغربية[٣].

وفي الأطراف الغربية كانت تقع ساباط، وقد بناها الملك الفارسي بلاش، وسميت بالأشاباد، وكان لها حاكم خاص، وقد اتخذها رستم قاعدة لتجمُّع قواته قبل التقدم إلى القادسية، ولما قَدِمَتِ الجيوش العربية لفتح المدائن، استسلمت دون مقاومة وأعان حاكمها بسطام العرب.

وفي الجانب الغربي من دجلة أيضاً تقع بهرسير، ويبدو أنها كانت أكبر المدائن السبع، وكانت محصَّنة بسور، ومركزاً إدارياً لطسوج واسع.

أما الجانب الشرقي فكانت فيه طيسفون، وفيها مقر إقامة الملك الساساني

---

(١) الطبري ١/٢٤٢٩؛ فتوح البلدان ٢٦٢.

(٢) الطبري ١/٢٤٤٠، ٢٢٤٨.

(٣) انظر تفاصيل أوفى في مقالنا «المدائن» المنشور في مجلة سومر، ومقال جون فاي ومقال جوللين عن المدائن المنشور في مجلة «ميسوبوتاميا».

وإيوانه وقصوره وحدائقه، فهي «المدينة الملكية الرئيسة» وتسمى في النقوش «داريا»[1] أي «الباب»، وسمّاها العرب «المدينة العتيقة».

وكان الساسانيون أقاموا مراكز إدارية كثيرة في دولتهم، وخوَّلوا حاكم كل مركز صلاحيات في الإدارة وسكّ النقود، كما خوَّلوا أهل البيوتات السبع وعدداً من الأمراء والملوك حق إقامة جيوش خاصة بهم، إلا أن العاصمة طيسفون ظلت المركز الرئيس، وفيها مقام الملك وأسرته وأبرز الأرستقراطية وقصورهم وثرواتهم، كما أنها كانت المرجع الأعلى في الإدارة، وإليها تنتهي طرق المواصلات الرئيسة.

كانت المدائن أكبر مدن دولة بني ساسان، وهي مقام ملوكهم ومقرُّ حكمهم ومرجع إدارتهم وقاعدة حزبهم والجيش الملكي الذي يعتمدون عليه، ومركز الدواوين، وإليها تنتهي مواصلاتهم. وعندما اتخذ الساسانيون طيسفون مقراً لملكهم عَنَوْا بحمايتها، واعتمدوا في ذلك على شبكة الأنهار والترع، التي تجري في أطرافها الغربية، وأقاموا عند الفوهة الرئيسة للنهر الشمالي وهو الرفيل، قاعدة عسكرية في الأنبار، وعَنَوْا في الجانب الشرقي بالنهروان، وهو مجرى واسع يأخذ من شمالي سامرّاء ويكون عائقاً للجيوش التي قد تتقدم من الشرق لغزو طيسفون، وأقاموا في فوهة النهروان العليا قرب سامرّاء قلعة حصينة.

وكانت طيسفون مقراً لحرس الملك، وللجيش الخاص به، الذي يقوم بالدفاع عن الملك وقصوره لدى حدوث أيّ حركة قد تهدده من الداخل والخارج.

وقد سلك العرب في تقدمهم إلى طيسفون طريقاً يمر في الأطراف الجنوبية من هذه الأنهار، وبذلك تحاشَوْا شبكة الأنهار والمزارع الكثيفة التي في الأطراف الشمالية الغربية من طيسفون، والتي كانت قد أُعِدَّتْ لصدِّ هجمات

---

(١) انظر: ولكر: كاتالوج المسكوكات العربية الساسانية، ص ٧٢.

الروم الذين كانوا يهدّدونهم قبل الإسلام[1]، ولعل بعض أسباب تأخُّر سعد بن أبي وقاص في مطاردة الفرس بعد انتصاره في القادسية، أنه اختار وقت انخفاض المياه في أواخر الصيف، فتقدّم من الجنوب، دون أن تعرقله شبكة الأنهار والمزارع الكثيفة في الشمال، أي إنه طوّق المنظومات الدفاعية من الجنوب وتحاشى اختراقها.

ولا بد أن استيلاء العرب على طيسفون أفقد الفرس ما كان فيها من ثروات هائلة وضع العرب أيديهم عليها، وأدى إلى إخلال مربك في الإدارة وتنظيماتها. فبعد أن كانت طيسفون قد صمدت قبل الإسلام أمام كل القوى التي حاولت مهاجمتها، جاء استيلاء العرب المباغت عليها وكان له أثر كبير في ضعضعة معنويات الفرس وإرباكهم لأنهم لم يكونوا مستعدين لمواجهته.

ولما أدرك سعد بن أبي وقاص عند دخوله المدائن أن الفرس لم تعد لهم قدرة على استعادتها اتخذها مقراً له ولجيشه، فتيسرت لهم منازل وفيرة كان قد أخلاها من انسحب منها من الساسانيين، وانصرف إلى تثبيت الاستقرار ووضع النظم الكفيلة بتأمينه وطمَّن أهل البلاد، الذين لم يُبدوا أيّ مقاومة، بعدالة العرب وحرصهم على الأمن والسلام، فأعاد الفلاحين إلى مزارعهم، وأهل القرى والبلدان إلى أماكنهم الأولى، وشدَّد على تثبيت الأمن، فاستقرت النفوس، وازداد تقدير الناس للعرب ودولتهم، وقويت علاقتهم بهم.

---

(١) انظر عن دور شبكة المياه في عرقلة من يريد غزو طيسفون كتاب أميانوس وكلينوس الذي يصف ما لقيته حملة الامبراطور الروماني يوليان للاستيلاء على طيسفون؛ وانظر في الوصف الجغرافي لهذه المنطقة كتاب «الفرات الأوسط» لألوا موزيل، وكتاب «أطراف بغداد» لآدمز، وما كتبناه عن هذه المنطقة في كتابنا «معالم العراق العمرانية».

إتمام السيطرة على العراق

معركة جلولاء والتقدم في شرق العراق

كانت هيمنة العرب واضحة ومثبتة في المنطقة التي بين الفرات الأوسط من الحيرة إلى طيسفون، وظلت للفرس أماكن خارج هذه المنطقة يمكنهم أن يتخذوها مراكز تجميع قوات قد تعمل على استعادة ما فقدوه.

وكانت أخطر هذه الأماكن إلى الشرق من طيسفون حيث كانت لمتنفذي الفرس أملاك واسعة، وكانت فيها سلاسل جبال تمتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي ولا تبعد عن طيسفون أكثر من سبعين كيلومتراً، يقطعها نهر تامرا (ديالي) فيكون منفذاً للمواصلات[١]، وتمتد وراءه أقاليم واسعة كانت بعيدة عن الجيوش العربية.

قام الفرس بجمع قوات في جلولاء التي تبعد قرابة سبعين كيلومتراً شرقي طيسفون، وجعلوا قيادتها لخرَّزاذ في المنطقة الجبلية التي ينفذ منها نهر تامرا، وأدرك العرب خطر هذا التجمع، فأرسل سعد بن أبي وقاص للقضاء عليها حملة بقيادة هاشم بن عتبة، ثم أمدَّهم بقوة أخرى، فكان مجموعها «إثني عشر ألفاً كلهم فارس ليس فيهم راجل»[٢]. ويروي الطبري أن عدد من قُسِّمَتَ عليه غنائم جلولاء تسعة آلاف[٣] وإذا قُدِّر عدد القتلى من العرب في المعركة بحوالى ألفين، كان عدد القوة التي أُرسلت إلى جلولاء حوالى أحد عشر ألفاً. ويروي خليفة عن الشعبي أن عدد الذين قُسِّمَتْ عليهم غنائم جلولاء، ثلاثة آلاف، وهم الذين بقوا بعد المعركة[٤]. إذن، لا بد أن تكون القوة أقلَّ من اثني عشر ألفاً،

(١) انظر تفاصيل عن هذه المنطقة في كتاب آدمز: «أطراف بغداد» (الترجمة العربية).

(٢) الطبري ١/ ٢٤٢٠، ٢٤٢٨، ويذكر البلاذري أن العرب كانوا اثني عشر ألفاً (فتوح البلدان ٢٦٣).

(٣) الطبري ١/ ٢٤٦٢.

(٤) تاريخ خليفة ١٠٧.

لأن عدد القتلى لا يمكن أن يزيد على ربع القوة التي ينبغي أن تكون حوالى أربعة آلاف.

يذكر الطبري أن القوة التي قاتلت في جلولاء كان فيها القعقاع، وطلحة بن خويلد الأسدي وقيس بن مكشوح المرادي وجرير البجلي وعمرو بن معديكرب الزبيدي، وحجر بن عدي الكندي[1]. ويذكر البلاذري أن حجر كان على الميمنة، وعمرو بن معديكرب على الخيل، وطلحة على الرجّالة[2].

ويذكر ابن أعثم أن القواد كانوا هاشم بن عتبة ومعه ثلاثة آلاف فارس، وحجر بن عدي ومعه ألفا فارس، وقيس بن مكشوح المرادي ومعه ألفا فارس، وجرير بن عبد اللّه البجلي ومعه أربعمائة فارس، والمنذر بن حسان الضبي ومعه ثلاثة آلاف فارس[3].

وبمقارنة هاتين الروايتين نلاحظ أن ابن أعثم أغفل ذكر قادة تميم (القعقاع) وأسد (طلحة) وزبيد (عمرو بن معديكرب)، وانفرد بذكر المنذر بن حسان (ضبة).

ومن المحتمل أن المقاتلة الذين ذكرهم ابن أعثم كانوا من عشائر قوادهم ومنهم من مراد، وكندة، وضبة وأهل الحجاز؛ ولعل ابن الأعثم أغفل ذكر أسد. ولم تذكر المصادر من شارك من عشيرة بكر.

وذكر ابن أعثم أن قوات الفرس كانت ثمانين ألف فارس[4] ـ وهو رقم مبالغ فيه، وكان يقودهم مهران، ومعه من قوادهم خرّزاد وهرز على الميمنة والهرمزان في القلب، وفيروز بن خسرو على الميسرة[5]؛ وذكر الطبري من قواتهم أهل الري الذين قاتلوا بعناد ومُنِيَ أكثرهم بخسائر[6]. ولا بد أن قوات

(١) الطبري ١/ ٢٤٦١.
(٢) فتوح البلدان ٢٦٣.
(٣) ابن أعثم ١/ ٣٧٢.
(٤) ابن أعثم ١/ ٣٧١.
(٥) ابن أعثم ١/ ٢٧٢، وانظر الطبري ١/ ٢٤٥٢.
(٦) الطبري ١/ ٢٤٧١.

الهرمزان، أو أكثرها، كانت من جيشه الخاص من أهل الأهواز. اتخذ الفرس في جلولاء موقف الدفاع، فاختاروا لجندهم موقعاً حصّنوه بخنادق فيها مداخل محدودة وضعوا عليها حسك الحديد لتعطيل حركة الخيول العربية التي كانت عماد الجيش. ولكن العرب استطاعوا اختراق التحصينات وأنشبوا قتالاً ضارياً انكسر فيه الفرس، وانسحبت فلولهم إلى حلوان وغنم العرب غنائم كبيرة يذكر الطبري أنها بلغت ثلاثين ألف ألف[1]. ويذكر الشعبي أنها بلغت ثمانية عشر ألف ألف[2]، وقد تكون في هذه الأرقام مبالغة، ولكنها على أي حال هي أكبر ما غنمه المسلمون في معارك العراق، كما غنموا سبايا كثيرة وُزِّعَتْ على عدد من المشاركين في القتال[3].

تابع العرب بعد انتصارهم في جلولاء مطاردة الجيش الفارسي المنهزم، فأرسلوا قوة إلى حلوان حيث كان يزدجرد قد اتخذ فيها مقرَّه، واستولت عليها؛ فهرب يزدجرد منها إلى الري بعد أن أبقى فيها قوة بقيادة خسروشنوم، وتقدَّم القعقاع فانتصر على القوات الفارسية التي كانت في طريقه ودخل خانقين، ثم تقدَّم منها إلى حلوان وهي على فرسخ من قصر شيرين، فدخلها بعد أن قتل عدداً من قواد الفرس وأجبر الباقين على الفرار[4]. وبعد إقامة قصيرة في حلوان عاد القعقاع إلى المدائن بعد أن ترك في حلوان حامية جلّها من الحمراء، وهي قوات فارسية كانت قد أسلمت للعرب وشاركتهم في الفتوح بجدية في قتال الساسانيين، وتولى قائدهم قباذ، وهو من خراسان في الأصل، هذا الثغر[5].

ثم أرسل العرب حملة إلى الأطراف الشمالية من جلولاء وكانت فيها قوة

(١) الطبري ١/ ٢٤٦٤.
(٢) الطبري ١/ ٢٤٦٤.
(٣) تاريخ خليفة ١٠٧.
(٤) الطبري ١/ ٢٤٧٣؛ فتوح البلدان ٣٠٠ وهو يقول إن جرير البجلي فتحها، وأنه ظل بها قوم من ولد جرير.
(٥) الطبري ١/ ٢٤٧٣، ٢٤٨٣، ٢٤٨٥.

فارسية جمعها آذين بن الهرمزان للهجوم على العرب وقطعهم عن حلوان. وكانت القوة العربية بقيادة ضرار بن الخطاب، ومعه ابن الهذيل الأسدي على المقدمة، وعبد اللّٰه بن وهب الراسبي حليف بجيلة، والمضارب العجلي على المجنَّبتين، ولعل قواتهم من هذه العشائر.

وتقدَّم العرب إلى السيروان، فدحروا الفرس وقتلوا آذين ثم فتحوا ماسبذان وشتّتوا القوات الفارسية[١]. وأقاموا في ماسبذان حامية بعض رجالها من الأعاجم الذين استسلموا للعرب، ولم يأذن عمر بالتقدم وراءها[٢].

إكمال السيادة على العراق

أوقف الفرس بعد اندحارهم في جلولاء وهزيمتهم في حلوان حركاتهم في هذه المنطقة، وذهب الهرمزان إلى الأهواز ليقوم بفتح جبهة جديدة في جنوب العراق تؤمِّن سحب القوات العربية إليها، وأرسل سعد بن أبي وقاص قوة بقيادة النعمان بن المقرن سيطرت على كسكر وما حولها، وبذلك أمن سيادة الدولة على المناطق الغنية في جنوب المدائن، أما حركات الهرمزان فقد عالجتها قوات عربية مستقلة كانت تعمل في منطقة البصرة، وسنتحدث عنها بتفصيل أوفى في فصل خاص.

امتداد السيادة في شمال العراق

أمَّنت انتصارات العرب سيطرتهم على المناطق التي مرت بها جيوشهم بين القادسية وحلوان وجنوب العراق، فأقصت عنها خطر الفرس، غير أن هذه السيطرة كانت مهددة من الشمال حيث توجد فيه أراضٍ متموجة واسعة يخترقها دجلة والأنهار المتفرعة منه، وفيها بعض التلال والوهاد، كما يخترقها الثرثار

---

(١) الطبري ١/ ٢٩٨٤.

(٢) الطبري ١/٢٢٤٨؛ فتوح البلدان ٢٧٠.

الذي تجري فيه المياه في الشتاء، ويمتد من جنوب سنجار إلى أن يصبّ في دجلة قرب تكريت، وتكثر المراعي في هذه الأراضي الصحراوية، وغالبية أهلها عرب من عشائر إياد والنمرين، قاسط وتغلب؛ وفي شرق دجلة سهول يخترقها الزاب الأعلى والأسفل بمياههما الغزيرة، والعظيم الذي تكثر فيه المياه وخصوصاً بعد سقوط الأمطار.

وكان دجلة ذا أهمية خاصة للمنطقة، ففيه تجري السفن والأكلاك، وعلى ضفافه تكثر المزارع فضلاً عن القرى والبلدان والمدائن. لذلك كان المسلك الرئيس للتجارة وللجيوش التي تتحرك بين شمال العراق وأواسطه. وقد تعرضت المناطق الواقعة في الشمال لأخطار الحروب بين الفرس والروم؛ إذ إن الحدود لم تكن ثابتة بين هاتين الدولتين؛ ولم تكن للفرس سيطرة مثبتة عليها، وإنما كان الروم يسيطرون على أطرافها الشمالية. ويذكر أبو يوسف أن المعلومات التي تجمعت لديه تظهر أن الجزيرة، وهي منطقة شمال العراق، كانت قبل الإسلام طائفة منها للروم وطائفة لفارس، ولكل منها في يده منها جند، وعمال، فكانت رأس العين فما دونها إلى الفرات للروم، ونصيبين وما وراءها إلى دجلة، وكان سهل ماردين ودارا إلى سنجار وإلى البرية لفارس، وجبل ماردين ودارا وطور عبدين للروم، وكانت مسلحة ما بين الروم وفارس حصناً يقال له سرجه بين دارين ونصيبين[1]. ويقول أيضاً إن فارس لما هزمت يوم القادسية وبلغ ذلك من كان هناك من جنودهم تحملوا بجماعاتهم وعطلوا ما كانوا فيه، إلا أهل سنجار فإنهم وضعوا بها مسلحة يذبون عن سهلها وسهل ماردين ودارا، فأقاموا في مدينتهم[2].

ويبدو أن الروم استغلوا انسحاب الفرس من هذه المناطق فمدوا سلطانهم عليها وأرادوا تهديد العرب منها لتخفيف الضغط عن قواتهم المتراجعة في بلاد الشام.

---

(١) الخراج ٣٩.
(٢) الخراج ٤١.

يقول الطبري إن الروم بقيادة الأنطاق تجمعوا في الموصل، وضموا إليهم بعض العرب من تغلب وإياد والنمر، ثم تقدموا إلى تكريت، وهي تبعد قرابة مائتي كيلومتر من المدائن وكانت فيها قلعة حصينة وسور يحميها وتهيمن على الطريق من الشمال وعلى منفذ نهر الثرثار. فجهز سعد بن أبي وقاص قوة قوامها خمسة آلاف رجل يقودها عبد اللّه بن المعتمّ وعلى مقدمته ربعي بن الأفكل العنزي، وعلى مجنِّبتيه الحارث بن حيان الذهلي وفرات بن حيان العجلي، وعلى الخيل عرفجة بن هرثمة البارقي، وعلى الساقة هانىء بن قيس، ويدل هؤلاء القواد على أن هذه القوة قوامها من بكر التي لم تذكر لها المصادر دوراً كبيراً في معارك القادسية والمدائن وجلولاء. ويقول الطبري إن القوات العربية تقدمت إلى تكريت وحاصرت الأنطاق وقواته أربعين يوماً جرت خلالها اشتباكات عنيفة وانحاز العرب الذين معه إلى المسلمين وأعانوهم على دخول القلعة والقضاء على القوة المتحصنة فيها، ثم أنفذ ابن المعتمّ إلى الشمال ربعي بن الأفكل العنزي مع عدد كبير من العرب الذين انضموا إلى المسلمين، فتقدم إلى الموصل، وكان فيها حصنان، فاستسلم من كان فيهما، وضُمَّتْ إلى الدولة الإسلامية وقام فيها ربعي بن الأفكل وعرفجة بن هرثمة يؤمِّنان سيادة الحكم العربي وحفظ الأمن[1].

أما البلاذري فيقول إن الذي فتح الموصل هو عتبة بن فرقد حين تقدَّم إليها سنة ٢٠هـ، فصالحه أهلها، وفتح المدن والقرى المجاورة لها في شرقي دجلة، ويقول أيضاً إن هرثمة بن عرفجة البارقي كان أول من اختط قاعدة للمقاتلة في الموصل وأسكنها العرب ومصّرها[2] وبذلك أصبحت الموصل قاعدة للمقاتلة العرب، يعززون سيادة الدولة في شمال العراق.

---

(١) الطبري ١/١/٢٤٧٤ ـ ٧.

(٢) فتوح البلدان ٣٣١، وانظر ياقوت ١/٨٦٣؛ الطبري ١/ ٢٤٧٤.

التقدم في وادي الفرات، وفي جنوب العراق

وكان الروم قد أرسلوا قوة إلى هيت، فوجَّه إليهم سعد بعد انتصار العرب في جلولاء، حملة يقودها عمر بن مالك بن عتبة بن نوفل (عبد مناف)، وعلى مقدمته الحارث بن زيد العامري، وعلى مجنِّبتيه ربعي بن عامر التميمي ومالك بن حبيب اليربوعي؛ وتدل انتماءاتهم على أن هذه القوة قوامها رجال من أهل الحجاز ومن تميم دحرت الروم واستولت عليها[١].

أبدى الروم مقاومة في هيت التي حصنوها بالخنادق، ولم يفلح المسلمون في اقتحامها، فحاصروهم وأنفذوا إلى قرقيسيا قوة قطعت المدد والاتصال بالروم، فاضطر الروم إلى وقف المقاومة، وسمح المسلمون للأعاجم منهم بالانسحاب إلى بلاد الشام[٢].

أقام العرب في حلوان وماسبذان والموصل وقرقيسيا حاميات عربية تصدّ كل هجوم فارسي أو رومي محتمل عليها. وصارت هذه المواضع ثغوراً تقيم فيها قوات عسكرية بعضها من الأعاجم الذين استسلموا للعرب[٣]. وتوقف العرب في هذه الثغور التي كانت في أطراف البلاد التي هيمن عليها المسلمون، ولم يأذن لهم عمر بالانسياح والتقدم إلى ما وراء ذلك[٤]. وكان المسلمون آنذاك يقومون بحركات في الأهواز وفي بلاد الشام.

وأرسل العرب قوة إلى جنوب المدائن بقيادة النعمان بن مقرن المزني فتحت كسكر، وهي مركز إقليم غني بالزراعة، يقع بين المدائن والبصرة، وتمر منه التجارات بينهما.

---

(١) الطبري ١/ ٢٤٧٦.
(٢) الطبري ١/ ٢٤٧٩ ـ ٢٤٨١.
(٣) الطبري ١/ ٢٤٦١، ٢٤٩٨.
(٤) الطبري ١/ ٢٤٩٨.

الفصل السادس

فتوح الهضبة الإيرانية

الهضبة الإيرانية

كانت حلوان آخر حدود العراق وسهوله[1]، تمتد وراءها هضبة إيران التي تختلف جغرافياً عن العراق، فهي هضبة عالية تمتد في أطرافها الشمالية والغربية سلاسل طويلة من الجبال المرتفعة وتمتد في شرقيها المفازة، وهي صحراء لوط المحلية الجرداء فتزيد من عزلة الهضبة عن البلاد الشرقية وتحدد ارتباطاتها الجغرافية بمسالك محدودة. وفي أرض هذه الهضبة بعض المرتفعات، وعدد من الوديان والينابيع والآبار والأنهار القصيرة. تقوم عليها مزارع وتجمعات سكانية من قرى ومدن متفرقة تقطنها شعوب وجماعات متعددة الأصول واللغات. ففي الشمال الغربي منها يقيم الأكراد الذين تمتد بعض عشائرهم إلى الجبال الواقعة في شرقي العراق كما يقطن في الشمال الأرمن والأذربيجانيون وبعض الترك، وفي الجنوب الغربي استقر الساجيون الذين قَدِموا من أواسط آسيا في القرن الخامس الميلادي، وكوَّنوا معظم سكان سجستان، وامتد الزط، وهم في الأصل من السند، في عدد من المراكز في أطراف الخليج العربي، كما سكن كثير من العرب القادمين من عُمان على سواحل هذا الخليج أيضاً.

---

(١) الخراج لأبي يوسف ٣٨.

ومناخ الهضبة الإيرانية جاف، قارس البرد في الشمال وخصوصاً حيث تساقط الثلوج شتاءً، وبسبب هذا المناخ وقلة المياه فإن أكثر أراضي الهضبة جرداء، قليلة المراعي إلا أن تجمعات سكانية من القرى والمدن أقيمت حول الينابيع والأنهار القصيرة المتفرقة، ولا سيما في المناطق الشمالية التي تمر فيها طرق التجارة، وكانت من بين هذه المدن مدن كبيرة نَمَتْ فيها الصناعة ونشطت الحياة الاقتصادية، وكانت مراكز إدارية للمناطق التي حولها وانتشرت بينهم العبادات الثورية بعقائدها المتعددة، وأبرزها الزرادشتية التي ظهرت في القرن السادس قبل الميلاد وتبنّاها ملوكهم ثم اضطهدها الإغريق، وعادت إلى الانتشار في زمن حكم الساسانيين الذين تبنّوها كدينٍ رسميّ، وعَنَوْا بتشييد المعابد وبيوت النيران لها.

وانتشرت بين السكان أيضاً أديان متفرعة من الزرادشتية وأهمها المانوية والمزدكية اللتان توطدتا في المناطق الجبلية النائية بخاصة[1].

ونظراً لسَعَةِ الهضبة الإيرانية ووعورة أراضيها وصعوبة المواصلات بين أجزائها فقد ظهر فيها حكام محليون سيطر كلٌّ منهم على منطقة، وأقرَّ لهم ملوك الفرس مكانتهم وجعلوهم أمراء وملوكاً على مناطقهم.

ولضمان السيطرة وتيسير الإدارة قسَّم الساسانيون الهضبة الإيرانية إلى أقاليم لكلٍّ منها مركز في مدينة واسعة، وأبرز هذه الأقاليم أذربيجان، والجبال، وطبرستان والري، وجرجان في الشمال وأصفهان في الوسط، وخراسان في الشرق، والأهواز، وفارس، وكرمان، ومكران، وسجستان في الوسط والجنوب، وعَنَوْا بربط مراكز هذه الأقاليم بالعاصمة المدائن.

أدرك الخليفة عمر بن الخطاب سعة أراضي الهضبة الإيرانية، واختلاف

---

(١) انظر عن جغرافية الهضبة الإيرانية، المجلد الأول من تاريخ كمبردج لإيران، وعن أحوالها العامة قبيل الإسلام، المجلد الثالث من الكتاب المذكور، وانظر أيضاً «إيران في عهد الساسانين» لكرستنسن (ترجمة يحيى الخشاب).

أهلها عن أهل الجزيرة والعراق في اللغة والثقافة والعقائد، فأراد أن يوقف توسع العرب عند حدود حلوان ويمنع الانسياح وراءها[1]. ويُروى أنه قال «لوددت أن بيننا وبين خراسان جبالاً من حديد وبحاراً وألف سد، أرض بعدت عنا جداً ولا حاجة لغابها»[2]. وحرص عمر على التمسك بحلوان وتأمين سيادة الدولة عليها، فأقام فيها حامية عربية من ثلاثة آلاف عليهم جرير بن عبد اللّٰه البجلي[3]، وأرسل قوة بقيادة عمر بن زيد الخيل إلى شهرزور، وأخرى بقيادة نظلة الأنصاري للسيطرة على رساتيق حلوان وأطرافها، وقيس بن مكشوح المرادي إلى ماسبذان[4].

وانصرف العرب إلى الاهتمام بتثبيت النظام والإدارة في العراق، فقاموا بتأسيس مدينة الكوفة واتخذوها قاعدة للمقاتلة العرب ومركزاً للوالي، وأرسلوا حملة إلى كسكر، ونظموا الاستقرار في الريف، وعيَّنوا ولاة لجباية الخراج[5]، وعزلوا سعد بن أبي وقاص وولّوا مكانه آخرين[6]

معركة نهاوند: استعداد الفرس

غير أن الفرس لم يكفّوا عن محاولة استعادة العراق من العرب رغم اندحاراتهم المتتابعة، فاتخذ يزدجرد مقراً له في قم وقاشان حيث جمع فيها «حرمه وحشمه وما كان معه من أمواله وخزائنه»[7]، وأخذ يجمع قوات فوجَّه «رسله إلى البلدان ليتجيش، فتحلب إليه الأعاجم من أقطار البلاد، قومس وطبرستان، وجرجان، ودنباوند، والري، واصفهان، والماهين»[8].

---

(١) الطبري ١/ ٢٦٠٩.

(٢) ابن أعثم ٢/ ٧٧؛ وانظر: الطبري ١/ ٢٦٠٩.

(٣) ابن أعثم ٢/ ٦٣.

(٤) ابن أعثم ١/ ٢٨٠.

(٥) الطبري ١/ ٢٦٣٧؛ ابن أعثم ٢/ ٢٨٠.

(٦) الطبري ١/ ٢٥٣٥.

(٧) الأخبار الطوال للدينوري.

(٨) تاريخ خليفة ١٢٠؛ الدينوري ١٣٣؛ أخبار أصبهان لأبي نعيم ١/ ١٩.

وذكر الطبري أن يزدجرد تجمَّع له ثلاثون ألفاً من أهل الجبال والباب، وستون ألفاً من الأقاليم الشرقية بين حلوان وخراسان، وستون ألفاً من الأقاليم التي بين حلوان وسجستان وفارس[1]، أما ابن أعثم فذكر أن يزدجرد جمع عشرين ألفاً من قم وقاشان، وعشرة آلاف من كل من همدان ونهاوند، وثلاثين ألفاً من أذربيجان، وعشرين ألفاً من أصفهان، وأربعين ألفاً من فارس وكرمان، وعشرين ألفاً من الري وسمنان والدامغان، ويذكر أن مجموع قوات الفرس أصبحت مائة وخمسين ألفاً[2]، ولكنه لم يذكر الثلاثين ألفاً الذين يزيدون على ما ذكره من كل إقليم. وعلى أي حال ففي هذه الأرقام مبالغة، حتى لو كانت تشمل المقاتلة والقائمين بالخدمات، ولكن يلاحظ أنه لم يكن فيها قوات من الأهواز التي كان العرب يهاجمونها، كما أنه لم يكن فيها قوات من خراسان.

وكانت معهم قوة من الفرسان عليها النوشجان[3]. ويذكر ابن أعثم أنه كان معهم سبعون فيلاً[4]، ولكن لم يذكر لها في أخباره دوراً بارزاً كالذي كان لها في معركة القادسية؛ مما قد يشكك في روايته.

تولى قيادة الجيش الفيرزان[5]، ويذكر سيف أنه كان على مجنَّبته أكرمداد وبهمن جاذويه، أما ابن أعثم فيذكر أن الفرس أمَّروا عليهم ذا الحاجب، خرّزاد بن هرمز، وسفاد بن خسرو، وفهابل (؟) بن فيروز، وشروبان بن أسفنديار[6]. وفيما عدا الفيرزان وبهمن جاذويه فإن الآخرين لم يُذكروا في المعارك السابقة، ولعلهم من القوات المحلية التي جُمِعَتْ بعد المعارك الأولى.

---

(١) الطبري ٢٦٠٨/١.

(٢) ابن أعثم ٣١/٢، ٣٣، ٣٤.

(٣) الطبري ٢٦١٨/١.

(٤) ابن أعثم ٣٢٠/٢.

(٥) الطبري ٢٦٠٢/١، ٢٦٠٩، ١٦١٨، ويقول ابن أعثم إن القائد هو ذو الحاجب (أخبار أصبهان ٢١/١).

(٦) ابن أعثم ٣٤/٢.

استعداد العرب

عرف العرب باستعدادات الفرس وقدَّروا خطرها، وأدركوا أن الفرس إذا حققوا أغراضهم فإنها ستكون «بلية على الإسلام وثلمة لا تسد»[1]. وشاور عمر الصحابة فيما يجب عمله، كما شاور الهرمزان[2] وأقرَّ تحشيد أقصى ما يمكن من القوات للقضاء على خطر الفرس، وفرض على أهل المدينة بعثاً «فيهم ابنه عبد اللّه وعدد من المهاجرين والأنصار»[3] ولم يُذكر عددهم، غير أن القوة الرئيسة كانت من أهل الكوفة وأهل البصرة، فإنهم «هم الذين يتولون حرب هؤلاء الأعاجم، وهم قد ذاقوا حربهم وجريرهم وبادروهم في غير موطن»[4]. ويروي ابن أعثم أن عمر كتب إلى عمار بن ياسر، وكان والياً على الكوفة: «انتخب منهم عشرة آلاف من أخلاط القبائل وضمهم إلى عروة بن زيد الخيل الطائي»[5] ولعل الأصح منه قول الطبري إن عمر بن الخطاب كتب إلى عبد اللّه بن عبد اللّه وهو والي الكوفة «أندبهم ولا تنتخب»[6]. ومن الطبيعي أن يكون معظم من يندبهم من أخلاط القبائل ومن الروادف الذين ازداد عددهم بعد توسع الدولة.

يروي خليفة أن عمر بن الخطاب أمر بأن يرسل ثلثي مقاتلة الكوفة والبصرة للمشاركة في دحر الفرس[7]. أما ابن أعثم فيقول إن عمر أمر في إنفاذ ثلث كل من المِصرَيْن، وإبقاء الثلث الثاني لحفظ الأمن والجباية، والثلث الثالث يبقى في المِصر[8]. وهذه الرواية أرجح لأن أهل الكوفة عندما خُطَّتْ كانوا حوالى

---

(١) ابن أعثم ٢/ ٣٥.
(٢) تاريخ خليفة ١٢٠، ابن أعثم ٢/ ٣٦.
(٣) الطبري ١/ ٢٦٠؛ أخبار إصبهان لأبي نعيم ١/ ٢١. ويروي الدينوري أن عمر استدعى ثلث قوة المسلمين من الشام وعُمان (١٣٤) ولكن الأخبار الأخرى لا تؤيد ذلك.
(٤) ابن أعثم ٢/ ٣٩.
(٥) ابن أعثم ٢/ ٦٣.
(٦) الطبري ٢/ ٢٦٣٦.
(٧) تاريخ خليفة ١٢٠.
(٨) ابن أعثم ٢/ ٣٩، ٤١، ٦٢.

ثلاثين ألفاً، علماً بأن المشاركين كافة في نهاوند كانوا ثلاثين ألفاً[1]. ويذكر البلاذري أن عمر أنفذ (ثلثي أهل الكوفة وبقي ثلثهم لحفظ البلد، وبعث من أهل البصرة بعثاً)[2]. وتؤيد الأخبار أن أهل الكوفة كانوا في نهاوند وما تلاها أكثر من أهل البصرة. وَلِيَ قيادة الجيش النعمان بن مقرن المزني، وكان قبل ذلك على كسكر[3]، وجمع قواته في المدائن[4]، وسار على مقدمته نُعيم بن مقرن، وعلى مجنَّبتيه حذيفة بن اليمان وسويد بن مقرن، وعلى المجرَّدة القعقاع وعلى الساقة مجاشع بن مسعود السلمي[5]، ويذكر ابن أعثم أن النعمان ولّى على مقدمته قيس بن هبيرة، وعدد رجالها أربعة آلاف[6].

وذكر ابن إسحاق أنه سار مع النعمان عمرو بن معديكرب الزبيدي، والأشعث بن قيس الكندي، وقيس بن مكشوح المرادي، وجرير بن عبد اللّه البجلي، وطلحة بن خويلد الأسدي، والمغيرة بن شعبة، وكلهم من رجال أهل الكوفة المشاركين في القادسية، كما سار معه عبد اللّه بن عمر، وحذيفة بن اليمان[7]، ولم يرد ذكر رجال من مقاتلة البصرة غير مجاشع، مما يدل على قلة عدد من شارك منهم بالمقارنة مع عدد المشاركين من أهل الكوفة.

وضع النعمان في طريق تقدُّمه النسير بن ثور في عجل وحنيفة، في قلعة النسير لحمايتها، فلم يشهدوا المعركة[8]، وكان الفرس قد اتخذوا لجيشهم موقعاً حصيناً اختاروه وأحاطوه بحسك الحديد[9]، فلما تقدَّم المسلمون لقوا مقاومة شديدة، واستعمل الفرس الفيلة[10] فانسحب العرب وابتعدوا عن مواقع

(١) الطبري ١/ ١٥٣٢ (عن الشعبي)، ابن أعثم ٢/ ٤٠.
(٢) فتوح البلدان ٣٠٠، أخبار أصبهان ١/ ٢٠.
(٣) فتوح البلدان ٣٠٠، ابن أعثم ٢/ ٤٠.
(٤) ابن أعثم ٢/ ٤٠.
(٥) الطبري ١/ ٢٦١٨، وانظر عن ولاية القعقاع المجرّدة: الطبري ١/ ١٥٢١.
(٦) ابن أعثم ٢/ ٤٣.
(٧) الخراج لأبي يوسف ٣٢؛ الطبري ١/ ٢٥٩٦.
(٨) الطبري ١/ ٢٦٤٨.
(٩) ابن أعثم ٤٥.
(١٠) ابن أعثم ٢/ ٤٨.

الفرس فترك هؤلاء مواقعهم، ولحقوا بالعرب[1].

ودارت معركة حامية قُتِلَ فيها النعمان بن المقرن وأُخفي خبر قتله عن المسلمين[2] الذين رجحت كفَّتهم. وتجدد القتال فشنّ الفرس هجوماً بقيادة رك أورد القاتاني، ومهربنداد ومعه فيل، وتصدى له عروة بن زيد الطائي بقوة مكوَّنة من ثلاثمائة من الفرسان فحملوا على مهربنداد ودحروه[3]، وكانت ميمنة المسلمين قد انكشفت في اليوم الأول، وانكشفت الميسرة في اليوم الثاني[4].

وفي اليوم الرابع قام العرب بهجوم عام شاركت فيه مذحج والنخع وزبيد، فانتصروا على الفرس الذين أرادوا العودة إلى مواقعهم المحصنة فأعاق انسحابهم حسك الحديد[5] الذي كانوا قد وضعوه لإعاقة تقدُّم العرب، ووقع كثير منهم في نار أوقدوها لتعطيل العرب[6]، وتمت هزيمتهم إلى مكان يبعد فرسخين من مكان المعركة[7]، ولحقهم العرب إلى مدينة نهاوند فدخلوها صلحاً[8].

أهمية المعركة

كانت معركة نهاوند آخر المعارك الكبيرة التي اندحر فيها الجيش الذي جمعه الملك الساساني، وقد هُزم فيها الفرس فلم «تقم لهم جماعة يومئذٍ»[9]. ولم يعد بمقدور الملك الساساني حَشْدُ قوة للتغلُّب على العرب فانسحب إلى اصطخر ثم إلى كرمان فخراسان، حيث قتله أحد رجالها دون أن يلقى أيَّ عون من هذه

(١) الطبري ١/٢٥٢٢، ٢٥٩٦.
(٢) فتوح البلدان ٣٠؛ ابن أعثم ٢/٥٠؛ الدينوري ١٣٦ (قتل في اليوم الثالث من المعركة).
(٣) ابن أعثم ٢/٥٢ ـ ٥٣.
(٤) أخبار أصبهان ١/٢٠.
(٥) الطبري ١/٢٦٠٣.
(٦) الطبري ١/٢٥٢٢، ٢٥٣٢.
(٧) الدينوري ١٣٦، وانظر فتوح البلدان ٣٠٤.
(٨) فتوح البلدان ٣٠٥.
(٩) الخراج لأبي يوسف ٣٢.

الأقاليم[1]، وبذلك انتهى إلى الأبد حكم الأسرة الساسانية، ولم يبقَ لها إلا ذكر ضئيل عند المتعصبين لها، ولم تجرِ أيُّ محاولة لإعادة أحد من نَسْلِهم إلى الحكم، فليس غريباً أن يطلق العرب على معركة نهاوند (فتح الفتوح)[2].

وكانت خسائر الفرس كبيرة، فيروي الشعبي أنه قُتِلَ منهم ثلاثون ألفاً في المعركة وثمانون ألفاً خلال الانسحاب، سوى من قتل في النزال، ومن الواضح أن في هذه الأرقام مبالغ فيها، ولكنها تدل على أن أكثر من نصف الجند قُضِيَ عليهم في المعركة، وحصل المسلمون على غنائم كبيرة، ويُروى أن سهم الفارس بلغ ستة آلاف، وسهم الراجل ألفين فضلاً عن كنز النخيرجان[3].

الانسحاب

قدّر عمر أهمية انتصار العرب في إزالة خطر الفرس، فزال عنه التردد في توغلهم في الهضبة الإيرانية، وأذن للناس في الانسياح في أرض العجم حتى يغلبوا يزدجرد على ما كان في يد كسرى، وطلب من عبد اللّه بن عبد اللّه بن عتبان أن ينزل المدائن فيندب الناس ولا ينتخبهم للقيام بالانسياح[4]. وبعد الانتصار في نهاوند أنفذ العرب قوات إلى أصفهان في الجنوب، وأذربيجان في الشمال، وهمدان والري في الوسط[5].

أصفهان

كانت أصفهان أكبر المدن في أواسط النهضة الإيرانية ولها أهمية اقتصادية وعسكرية، فضلاً عن أنها تتحكم في الطريق الرئيس بين المناطق التي في جوانب الهضبة الإيرانية من شمالها الغربي.

---

(1) فتوح البلدان ٣١٤؛ ابن أعثم ٢/٦٨، ٧١.
(2) فتوح البلدان ٣٠٤.
(3) فتوح البلدان ٣٠٤؛ ابن أعثم ٢/٢٩.
(4) الطبري ١/٢٥٣٤؛ أخبار أصبهان ١/٢٤.
(5) أخبار أصبهان ١/١٨.

أرسل المسلمون لفتح أصفهان في سنة ٢٠هـ قوتين تقدمت الأولى من الشمال وقوامها مقاتلة من أهل الكوفة يقودها عبد اللَّه بن عبد اللَّه بن عتبان وعلى مقدمته عبد اللَّه بن ورقاء الرياحي وعلى مجنِّبتيه عبد اللَّه بن الحارث بن زرقاء الأسدي وعصمة بن عبد اللَّه بن عبد الحارث، واشتبكت مع قوة فارسية يقودها استندار وعلى مقدمته شهربراز بن جاذويه وتمكنت من دحرها. وتقدمت القوة الثانية من مقاتلة أهل البصرة وقوامها ألفان وستمائة من الأهواز وعليها أبو موسى الأشعري وعلى مقدمته عبد اللَّه بن بُدَيْل الخزاعي، ثم نقض أهل أصفهان الصلح فيما أرسل عثمان بن عفان عليهم حملة بقيادة عبد الله بن بُدَيْل أعادت سيطرة الإسلام عليها، وتم بفتحها الاتصال بين المناطق الجنوبية والشمالية[1].

أذربيجان

أما أذربيجان فهي منطقة جبلية وعرة، تتصل بجبال أرمينية في الشمال، وبسهول شهرزور وحلوان في الجنوب، وفيها عدد غير قليل من الوديان العميقة، يجري في بعضها نهرا الزاب وتامرا (ديالي) وتطلّ سفوحها الغربية على سهول العراق والجزيرة الفراتية، وتغطي جبالها الثلوج في الشتاء وتكسو سفوحها الأشجار الصلبة وكثير من أشجار الفاكهة.

وجَّه العرب إلى أذربيجان حملتان تحركتا من حلوان، وسارت إحداهما من جهاتها الشرقية بقيادة بكير بن عبد اللَّه، وسارت الثانية من جهاتها الغربية وكانت بقيادة عتبة بن فرقد، ففتح شهرزور وصالحهم بعد قتال عنيف[2]، كما فتح الصامغان ودراباذ وأمن لهم حياتهم وتنقلهم[3]، ثم انتفضت شهرزور فغزاها سعيد بن العاص وثبت سيادة الدولة عليها.

---

(١) الطبري ١/٢٥٣٥، ٢٦٣٨؛ أخبار أصبهان ١/٢٤ ـ ٢٥.

(٢) فتوح البلدان ٣٣٣، ويروي المدائني أن حذيفة بن اليمان صالحهم سنة ٢٢ على مائة ألف (تاريخ خليفة ١٢٥).

(٣) تاريخ خليفة ١٣٨.

فتح همذان والري

توجهت القوة العربية الرئيسة في الوسط إلى فتح همذان والري وما حولهما وكانت همذان من أكبر المدن في المنطقة الغربية من الهضبة الإيرانية ومركز إقليم الجبال. وقد انسحب إليها بعض فلول الجيش الفارسي بقيادة خسروشنوم بعد انهيار مقاومة الفرس في موقعة نهاوند[١].

تقدَّم إلى همذان جيش عربي بقيادة نعيم بن مقرّن، وعلى مقدمته سويد ابن مقرّن، وعلى مجنِّبتيه ربعي بن عامر والمهلهل الطائيان[٢]، فاستسلم خسروشنوم للعرب وصالحهم[٣]. ويذكر البلاذري أن جرير بن عبد اللّه فتح همدان سنة ثلاث وعشرين وصالح أهلها، ثم ثاروا ففتحها في السنة التالية،[٤] وفتح أبو موسى الأشعري بمقاتلة أهل البصرة الدينور وماسبذان والسيروان[٥].

ثم فتح العرب دستبي وهي من مسالح همذان[٦] واتخذوها قاعدة يغزون منها الريّ[٧]، وشارك في فتحها عصمة بن عبد الله الضبي ومهلهل بن زيد الطائي وسماك بن عبيد العبسي وسماك بن مخرمة الأسدي وسماك بن خرشة الأنصاري[٨].

ثم تقدَّم المسلمون إلى الريّ وهي أكبر المدن في الأطراف الشمالية من الهضبة الإيرانية، وكان يسيطر عليها الزينبي وقد انضم إليه بعض أهل الديلم، وأهل أذربيجان والمناطق الشمالية المحاددة لبحر قزوين، وكانوا بإمرة سياوخش

---

(١) الطبري ١/٢٥٢٦، ٢٥٢٦.
(٢) الطبري ١/٢٤٩، وانظر ١/٢٣٥٣.
(٣) الطبري ١/٢٥٢٧.
(٤) فتوح البلدان ٣٠٦ ويذكر ابن أعثم أن جرير فتحها وفتح الماهين (٢/ ٦٢).
(٥) فتوح البلدان ٣٠٨.
(٦) الطبري ١/٢٦٥١.
(٧) فتوح البلدان ٣١٨.
(٨) الطبري ١/٢٦٥٩.

ابن مهران بن بهرام شوبين[١] فتوجه إليهم نعيم بن مقرّن، فصالحه الزينبي الذي أبقاه نعيم على مرزبة الريّ فاتخذ مقرّه في مدينة بناها قرب المدينة القديمة[٢]. وبعد مصالحة الزينبي تغلّب نعيم على القوات التي كانت قد تجمعت حول الريّ[٣]، وتوجَّه العرب للسيطرة على المناطق الشمالية من الريّ والمجاورة لبحر قزوين، وهي مناطق جبلية وعرة، تكسوها غابات كثيفة، وأهلها مقاتلون أشداء، فيهم كثير ممن يعتنق المزدكية، فصالح العرب أهل المصمغان ودنباوند والخوار والشِّرّز[٤].

ووجهوا إلى قومس قوة بقيادة سويد بن مقرّن ومعه سماك بن مخرمة الأسدي وعتبة بن النهاش فضموا قومس[٥]، ووصلوا إلى جرجان التي ظلت ممتنعة على العرب إلى زمن سليمان بن عبد الملك حين أرسل يزيد بن المهلب ففتحها وثبت حكم العرب فيها وأمن الطريق بين الريّ وخراسان[٦].

---

(١) الطبري ١/٢٦٥٣ ـ ٢٦٥٥.
(٢) الطبري ١/٢٦٥٣.
(٣) الطبري ٢٦٥٥.
(٤) الطبري ١/٢٦٥٦ ـ ٢٠؛ تاريخ خليفة ١٢٥؛ فتوح البلدان ٣١٧، ٣١٨.
(٥) الطبري ١/٢٦٥٦.
(٦) الطبري ١/٢٦٥٨؛ فتوح البلدان ٣٣٢.

الفصل السابع

فتوح البصرة

منطقة البصرة جزء من العراق وأرضها مستوية لا ترتفع عن سطح البحر أكثر من بضعة أمتار، تمتد أطرافها الجنوبية إلى الخليج العربي، فتتكون منها سواحله الشمالية وتتصل في جهاتها الغربية بصحراء جزيرة العرب، ولا يفصلها فاصل جغرافي. وفي أطرافها الشمالية تمتد البطائح التي اتسعت بعد انهيار منظومة الريّ وتحوُّل مجرى دجلة إلى الغرب[1]، وقد أثر هذا الاتساع في اضطراب أحوال الريّ، فانقطع دجلة عن مجراه القديم، وأخذ يصب في البطائح التي تنفذ منها مجارٍ تأخذ الماء إلى المجرى القديم من النهر فيصبُّ في الخليج، ويأخذ هذا النهر مياهاً من أنهار الأهواز: الدجيل، والكارون؛ وبذلك ظل صالحاً لملاحة السفن الكبيرة حتى الأبلّة، ولكن أقسامه العليا لم تعد صالحة للملاحة بعد انهيار منظومة الريّ وازدياد البطائح الضحلة المياه، والتي يكثر فيها القصب، فتوفر مأوى للصوص الذين كثيراً ما يعرقلون الملاحة ويتسببون في عزل منطقة البصرة عن باقي أرجاء العراق.

وتأخذ من النهر الرئيس في البصرة أنهار فرعية كثيرة لا يزيد طول أكثرها على العشرة كيلومترات، ويتفرع من كلٍّ منها نهيرات، وتتأثر مياهها بالمد

---

(١) انظر فتوح البلدان ٢٩٢/ ٢٩٤؛ الأعلاق النفيسة لابن رستة ٩٠.

والجزر، وتقوم عليها مزارع النخيل والخضر بخاصة[1]، غير أن وفرة المياه تؤدي إلى كثرة السباخ التي تعرقل الزراعة ما لم تتم معالجتها وإزالة طبقات الملح منها.

الأهمية الاقتصادية

إن موقع هذه المنطقة على الطرف الشمالي من الخليج العربي يسّر لها الهيمنة على التجارة بين العراق وبلاد الخليج والمحيط الهندي والشرق الأقصى[2]، وكانت سفن البحر تمر من الخليج ودجلة إلى الأبلّة التي كانت الميناء الرئيس في المنطقة، كما كان يمر بها أيضاً كثير من التجارات بين المناطق الوسطى من الهضبة الإيرانية وبين جزيرة العرب.

ساعدت هذه الأحوال الزراعية والتجارية على استقرار الناس في المنطقة، ولا سيما في أطراف النهر، وازدهرت فيها منذ أزمنة قديمة حضارات ومدن من أبرزها المذار والكرخ والأبلّة والفرات، وكانت كلٌّ من هذه المدن مركزاً إدارياً للمناطق الغنية التي حولها، وامتدت إليها المسيحية فكانت لها في هذه المدن، مطرانيات، وفي قراها كنائس وأديرة[3]، ووضع الفرس لحمايتها قوات عسكرية في دست ميسان عليها مزربان[4]، كما أودعوا حمايتها من الغرب إلى رجال من رؤساء القبائل العربية وذكرت المصادر العربية من هؤلاء قيس بن مسعود الشيباني الذي كان مسؤولاً عن حماية المنطقة من الغرب قبيل تقدُّم الجيوش الإسلامية إلى العراق[5].

---

(١) انظر كتابنا «خطط البصرة ومنطقتها»، الفصل الحادي عشر فما بعد. وانظر «الملاحة في المحيط الهندي» لجورج حوراني.

(٢)

(٣) انظر كتابنا «خطط البصرة ومنطقتها» وكذلك كتاب جان ماري فيه «بابل المسيحية».

(٤) الطبري ١/ ٢٥٨٥، ٢٥٨٦.

(٥) فتوح البلدان ٣٧١؛ معجم البلدان ٤/ ٦٥٨.

الحركات العربية الأولى

غير أن هذه المنطقة تأثرت بما حدث في العراق من انهيار المنظومات المائية، وتدهور الزراعة في جنوبه، واضطراب الأحوال السياسية بسبب الخلافات على العرش. فكان لكل ذلك أثر في تدني أحوال هذه المنطقة، فتدهورت الزراعة والإعمار، وضعف النشاط التجاري وتناقصت الثروة، وقلّ السكان.

ثم إن العلاقة بين الفرس والقبائل العربية المقيمة في البادية الغربية تردَّت، وخصوصاً بزوال دولة المناذرة الذين كانوا يهيمنون على القبائل ولهم مكانة متميزة عندهم. وقام رجال من هذه القبائل بالغارات على الأطراف الغربية من العراق، ومن هؤلاء الرجال قطبة بن قتادة وهو من عشيرة سدوس البكرية التي كانت ديارها في عرب منطقة البصرة، وكان يقوم بالغارات عليها، ومعه رجال من عشيرته، وربما من عشائر أخرى(١).

ولما تقدَّم خالد بن الوليد من اليمامة إلى العراق دحر القوات الفارسية التي تصدت له في كاظمة، عند الكويت الحالية. ثم تقدَّم إلى هذه المنطقة فانضم إليه قطبة مع قواته، واشتركا في الغارة على المسلحة الفارسية في الخريبة وعلى الأبلّة، وصعد إلى نهر المرأة فأغار على حصن كان فيها، ثم غادر خالد بن الوليد هذه المنطقة متوجهاً إلى منطقة الحيرة، وبقي قطبة بن قتادة يتابع الغارات على الفرس.

سيطرة عمر بن الخطاب على الحركات في منطقة البصرة

ولمّا وَلِيَ عمر بن الخطاب الخلافة اهتم بهذه المنطقة وأرسل شريح بن عامر السعدي مع قوة تعاونت مع قطبة ضد الفرس في تلك المنطقة، وعَبَرَ

---

(١) الطبري ٢٠١٦/١، ٢٣٨١ (عن المدائني)؛ فتوح البلدان ٢٤١، ٣٤٠ (عن أبي مخنف ويسميه سويد بن قطبة)، ابن سعد ٧ ـ ٥٣/١، ابن الأثير: أسد الغابة ٢٠٦/٤.

دجلة؛ ولكنه قتل في المعركة، وبقي قطبة مع قواته يتابعون أعمالهم ضد الفرس[1].

ثم أرسل الخليفة في سنة ١٤هـ إلى هذه المنطقة عتبة بن غزوان[2]، وهو صحابي من مزينة، تقدَّم إلى المنطقة مع حوالى ثلاثمائة[3]، فيهم عدد من ثقيف، وربما من عشائر الحجاز الأخرى، وعندما وصل المنطقة انضم إليه قطبة مع قواته، وصار مجموع القوات قرابة الألف[4]، فاتخذ قاعدة حركاته في الخريبة، وفتح الأبلّة وغنم منها غنائم قليلة تدل على أنها كانت في حالة من التدهور وخالية من قوة تدافع عنها، ثم عَبَرَ دجلة وأغار على «الفرات» وهي مدينة ذات أهمية، كما أغار على المناطق المجاورة، وأقام معسكراً ثابتاً للمقاتلة، حدد فيه مكاناً للمسجد الجامع، ووزع حوله القطائع للمقاتلة، وكان ذلك بدء تأسيس البصرة[5].

ثم توفي عتبة بن غزوان في طريق عودته إلى المدينة، فأرسل عمر بن الخطاب لولاية القوات الإسلامية في المنطقة المغيرة بن شعبة، وهو من ثقيف تميَّز بالفطنة والدهاء، ودحر القوات الفارسية التي كانت بإمرة مرزبان دست ميسان[6] وأمن سيطرة الدولة على الأراضي كافة في غربي دجلة إلى المذار، قرب العزير الحالية وفي خلال ذلك شارك المغيرة بن شعبة مع بعض القوات العربية من المنطقة في معركة القادسية، ثم عاد إلى البصرة[7].

(١) الطبري ١/ ٢٣٨١؛ فتوح البلدان ٢٤٢؛ أسد الغابة ٢/ ٣٩٥؛ الإصابة في معرفة الصحابة، لابن حجر ٣/ ٢٠٣.
(٢) الطبري ١/ ٢٣٧٧، ٢٠٢٦؛ فتوح البلدان ٢٤٦؛ التنبيه والإشراف للمسعودي ٣٥٧؛ مروج الذهب ٣/ ٢٢٨؛ أخبار القضاة لوكيع ١/ ٢٦٩.
(٣) ابن سعد ٧ ـ ١/ ١٣٨؛ الطبري ١/ ٢٣٧٨، ٢٣٨٤، ٢٣٨٥.
(٤) فتوح البلدان ٣٤٢، ٣٥٠؛ ابن سعد ٧ ـ ١/ ٣.
(٥) انظر عن حركات عتبة تفاصيل أوفى في كتابنا «التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة» وعن تأسيس البصرة كتابنا «خطط البصرة ومنطقتها».
(٦) فتوح البلدان ٣٤٢؛ الطبري ١/ ٢٣٨٦.
(٧) الطبري ١/ ٢٣٨٦.

ثم وَلِيَ البصرة أبو موسى الأشعري، وهو صحابي من الأشاعرة، وهم عشيرة يمانية، أسلم بعد الحديبية وعرف برخامة صوته وحرصه على قراءة القرآن الكريم، ولا بد أن القوات الإسلامية عندما وَلِيَ البصرة كان عددها قد ازداد بمن انضم إليها من رجال العشائر العربية التي ديارها قريبة من المنطقة، ولا سيما بكر وتميم.

الأهواز وفتحها

كان الفرس بعد اندحارهم في القادسية قد قرروا فتح جبهة في جنوب العراق لإشغال وإضعاف القوات الإسلامية العاملة في أواسط العراق، وتولى هذه المهمة الهرمزان الذي كان قد قاد الفرس في مقاتلة العرب في معارك ذات السلاسل والقادسية، وهو من البيوتات السبع الأرستقراطية، وكانت أسرته تهيمن على الأهواز وهو إقليم واسع يمتد إلى جبال البرز في الشرق، وأرضها سهلة منبسطة تشبه أرض منطقة البصرة، ويخترقها الدجيل وكارون وفروعهما التي تصبُّ في دجلة البصرة وتتكون عند مصابها بطائح ومستنقعات، وتكثر عندها مزارع الأرز وقصب السكر، كما تكثر في مناطقها الشرقية أشجار التوت التي يربى عليها دود القز، وتقوم صناعة المنسوجات الحريرية في عدد من مدنها الشمالية وخصوصاً السوس وتستر[1].

تتصل الأهواز بمنطقة البصرة، لا يفصلهما إلا النهر، وأرضها ومناخها متشابهان، والصلة وثيقة بين سكانها، وقد امتد إليها العرب وأهل العراق منذ أقدم الأزمنة، وأنشأوا فيها قبيل الميلاد دولة ميسان التي ظلت تهيمن على المنطقة حتى قضى عليها الساسانيون، عندئذٍ أدرك أبو موسى الأشعري الخطر الذي قد يولده عودة الهرمزان إلى الأهواز، فبادر في سنة ١٨هـ بالتقدم إليها

(١) انظر في وصف إقليم الأهواز: مسالك الممالك للأصطخري؛ أحسن التقاسيم، للمقدسي؛ بلدان الخلافة الشرقية لليسترانج؛ وانظر دراستنا «الأهواز في العهود الإسلامية الأولى»؛ وانظر: فتوح البلدان ٣٧٥، ٣٧٨؛ الطبري ١/ ٢٥٣١، ٢٥٣٦.

من أطرافها الشمالية الغربية، لأن المنطقة المحاذية لدجلة البصرة مليئة بالنهيرات والمستنقعات والسباخ التي تعيق حركات المقاتلة، وأبدت بعض مدن الأهواز مقاومة تغلَّب عليها أبو موسى، ففتح السوس ثم فتح سرق ورامهرمز[1]. وحاصر الهرمزان في تستر أشهراً اضطره بعدها إلى طلب الصلح والاستسلام[2]، وانضمت القوات التي كانت تقاتل معه إلى الجيوش العربية، فنُقِلَتْ إلى البصرة واستوطنتها[3]. وفرض لها العطاء أسوة بالعرب، ونُقِلَ الهرمزان إلى المدينة وعومل معاملة طيبة، وكان الخليفة عمر بن الخطاب يستشيره في أمر تحركات الجيوش العرب في قتال الفرس، ثم اتهم بتدبير مقتل الخليفة وقتل.

بعد أن أمن أبو موسى الأشعري ضمّ الأهواز إلى دولة الإسلام، وضع للمقاتلة العرب فيها قاعدتين، إحداهما في تستر التي تتحكم في الطرق التي تربطها بشمال الهضبة الإيرانية، والثانية في رامهرمز التي تقع على رأس السهل الساحلي الممتد في موازاة الخليج العربي.

ثم انضم أبو موسى إلى القوات العربية التي جُمِعَتْ لمعركة نهاوند، وشاركت قواته في تلك المعركة وفي فتح الدينور وأصفهان[4].

فتح إقليم فارس

ولما وَلِيَ عثمان بن عفان الخلافة عيَّن لولاية البصرة عبد الله بن عامر، وهو قرشي تصله بالخليفة قرابة، فتقدم لفتح إقليم فارس الذي ظهر فيه الساسانيون أول تأسيس دولتهم ونسبوا إليه، وعَنَوْا بتثبيت الزرادشتية بين أهله وأنشأوا كثيراً من بيوت النار في مدنه.

---

(١) تاريخ خليفة ١١١ ـ ١١٢؛ فتوح البلدان ٣٧٦ ـ ٣٧٨.

(٢) تاريخ خليفة ١١٦ ـ ١٢٠؛ فتوح البلدان ٣٧٩.

(٣) فتوح البلدان ٣٧٢ ـ ٤؛ الطبري ١/٢٥٦٢ وانظر (التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ٨٣ ـ ٨٤).

(٤) انظر فتوح البلدان ٣٦٢.

وإقليم فارس إقليم واسع يمتد على طول الساحل الشرقي من الخليج العربي، ومناخه قارس جاف وأمطاره قليلة، وفيه عدد من الينابيع والأنهار الصغيرة التي قامت عندها مزارع ومدن كان بعضها مركزاً لصناعات النسيج والأسلحة من الحديد الذي يتوافر في مناجمها[1].

وكانت الأراضي الواقعة على الخليج العربي صخرية وعرة، يتخلّلها قليل من المنخفضات التي أقيم فيها عدد من الموانىء؛ وهذه المناطق تقابل شبه جزيرة العرب، ولذلك استوطنها العرب، منذ القديم، ولما امتدت دولة الإسلام إلى البحرين قام عثمان بن أبي العاص، وكان يلي البحرين، بغزوة بحرية على سواحل فارس[2]، وأحرز انتصارات محلية ففتح سابور وأرجان ودارابجرد سنة ٢٧هـ ولكنه لم يثبت الحكم الإسلامي فيها[3].

ولما وَلِيَ عثمان بن عفان أوكل فتح إقليم فارس إلى عبد اللّه بن عامر والي البصرة، وضم إليه المقاتلة العرب في البحرين، فتقدَّم بجيشه إلى فارس وفتح جور ودارابجرد وسيراف. ثم دخل إصطخر في سنة ٢٩هـ[4] وكانت قاعدة الإقليم وأكبر معاقل الساسانيين. وقد انتفضت إصطخر عدة مرات، وظل الحكم العربي غير مستقر فيها إلى أن وَلِيَها زياد بن أبي سفيان ففرَّق أهلها، ونجح في القضاء على المتمردين فيها.

الامتداد إلى كرمان وسجستان

ثم أرسل عبد اللّه بن عامر جيشاً عليه مجاشع بن مسعود السلمي فتقدَّم إلى كرمان وضمها إلى الدولة الإسلامية[5]، وهي إقليم واسع صحراوي أجرد في غالبيته، يطل على الخليج العربي، وتمر منه الطرق البرية إلى بلاد السند.

---

(١) انظر تفاصيل أوفى في: كتاب «المسالك والممالك» للإصطخري؛ أحسن التقاسيم للمقدسي؛ بلدان الخلافة الشرقية لليسترانج؛ وانظر أيضاً مادة «فارس» في دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الجديدة.

(٢) فتوح البلدان ٣٨٥؛ معجم البلدان ١/ ٨٩٠.

(٣) تاريخ خليفة ١٣٣ ـ ١٣٤؛ فتوح البلدان ٣٨٧-٣٩٠.

(٤) تاريخ خليفة ١٣٧؛ فتوح البلدان ٣٨٨ ـ ٣٨٩.

(٥) تاريخ خليفة ١٤٠؛ فتوح البلدان ٣٩٤.

ووجَّه عبد اللّه بن عامر حملة بقيادة الربيع بن زياد الحارثي إلى سجستان وهي إقليم غني ببعض منتوجاته الزراعية، وأكثر أهله من الساكيين الذين جاؤوا من أواسط آسيا في القرن الرابع الميلادي واستقروا في ذلك الإقليم، وحاصر الربيع بن زياد الحارثي زرنج، وهي المدينة الرئيسية في سجستان، وأجبر أهلها على الاستسلام[1] وضمها إلى دولة الإسلام التي أصبحت تحادُّ بلاد السند وتتصل بها.

فتوح خراسان وبلاد ما وراء النهر

خراسان

خراسان إقليم واسع يقع في الجبهة الشمالية الشرقية من بلاد الدولة الساسانية، وكان أحد الأقسام الأربعة الكبرى الإدارية لتلك الدولة، ومناخها بارد قارس وأمطارها قليلة[2]، وفيها أنهار قليلة أهمها نهر جيحون الذي ينبع من هضبة بامير ويجري غرباً، ثم يتجه شمالاً فيكوِّن الحد الشرقي لخراسان الذي يفصلها عن بلاد ما وراء النهر، وينتهي بخوارزم حيث يصبُّ في بطائحها وفي بحيرة آرال. والنهر الرئيس الثاني في خراسان هو نهر المرغاب الذي ينبع من الباميان ويجري شمالاً فيمر بعدد من مدن خراسان بما في ذلك مروالروذ ومرو[3]. وقد استغل الخراسانيون هذا النهر ونظّموا الاستفادة منه بدقة وبراعة[4] ولكن بالرغم من ذلك، فإن هذين النهرين لم يكفيا للزراعة، ولذلك اعتمدت مدن كثيرة من مدن خراسان على الآبار والينابيع للحصول على مياه

(١) تاريخ خليفة ١٤٠؛ فتوح البلدان ٣٩١.
(٢) المقدمة: أحسن التقاسيم ٣٢٢؛ الإصطخري: المسالك والممالك ١٤٥؛ ياقوت: معجم البلدان ٢/ ١٧١.
(٣) الإصطخري ١٤٨؛ المقدسي ١١٣.
(٤) الخوارزمي: مفاتيح العلوم ٤٥.

لشرب والإرواء، وقد ساعدت هذه المياه على ازدهار الزراعة في خراسان التي شتهرت بعدد من الفواكه وكانت تصدِّر كميات كبيرة من الكشمش ونوعاً من لبطيخ الذي يعرف باسم البطيخ الخراساني والعبدلي.

والمعادن في خراسان قليلة، وأهمها الفيروز الذي يكثر في جبال نيسابور[١] وفيها مناجم بنجهير التي كانت من أكبر مناجم الفضة في العالم.

كانت خراسان تنتج القطن، وفي صدر الإسلام كثرت مصانع المنسوجات القطنية وخصوصاً مرو ونيسابور وهراة وقوهستان، وكانت هذه المنسوجات تصدَّر إلى مختلف بلاد المشرق حتى الحجاز[٢]. ويمر بخراسان الطريق التجاري البري الرئيسي بين الصين وبلاد البحر المتوسط[٣] وازدهرت على هذا الطريق مدن عديدة أهمها آمل، ومرو، ونيسابور، وطوس، كما نمت كل من مرو الروذ وسرخس وهراة وبلخ، وكانت كل من نيسابور ومرو ومروالروذ وبلخ مركز الأقسام الإدارية الأربعة فيها، ويتبع كل قسم عدد من البلدان والقرى[٤]. ونظراً لبعد خراسان عن مركز الدولة الساسانية، فقد لجأ إليها كثير من المضطهدين والمعارضين، وكان فيها عند الفتح الإسلامي عدد من اليهود والنصارى والزرادشتيين والمانويين والمزدكيين، وكانوا من حيث العموم لا يؤيدون الدولة الساسانية، ونظراً لهذا ولقربها من حدود بلاد الترك، فقد اهتم الساسانيون بها وكانوا يولّون عليها أقدر رجالهم.

وتمتد في غرب خراسان صحراء واسعة تفصلها عن بقية أقاليم المشرق، وقد وصف الإصطخري هذه الصحراء التي تسمى في المصادر العربية المفازة، فقال «وهذه المفازة من أقل مفاوز الإسلام سكاناً وقرى ومدناً على قدرها

---

(١) البيروني: الجماهر ١٧٠؛ الإصطخري ١٤٧.

(٢) انظر مقالتنا: مراكز الأنسجة المنشور في مجلة الأبحاث.

(٣) انظر عن هذا الطريق: هايد: تاريخ التجارة في العصور الوسطى (بالفرنسية وترجم بعضه إلى العربية) سليمان حزين: جزيرة العرب والشرق الأقصى (بالإنكليزية).

(٤) انظر ليسترانج: بلدان الخلافة الشرقية وعن التقسيمات الإدارية الأربعة: انظر مقالتنا «تقسيمات خراسان الإدارية» المنشورة في مجلة كلية الآداب في بغداد.

وليس يستدرك كمن مفازة فارس وخراسان إلا علم الطريق وما يعرض في أضعاف طرقها من المنازل، إذ ليس فيما عدا طرقها كثير عمارة ولا سكان، وهذه مفازة من أكثر المفاوز لصوصاً وفساداً، ومع ذلك فهي مفازة يصعب سلوكها بالخيل وإنما تقطع بالإبل، وإنما الدواب للأحمال، فلا تسلك إلا على طرق معروفة ومياه معلومة إن تجاوزوها في أعراض هذه المفاوز هلكوا»[1].

أدرك الساسانيون أهمية خراسان فكانوا يولّونها أقدر رجالهم، وأباحوا لعدد من الحكام المحليين الاستقلال الذاتي، فكان فيها عدد من الملوك ذكر الإصطخري منهم ثمانية عشر ملكاً، يحكم كل منهم منطقة، مما أدى إلى أن تكون الإدارة فيها غير قوية، ومن حيث العموم لم يكن أهل خراسان متحمسين في إسناد الحكم الساساني، ولم يساندوا يزدجرد؛ وإنما قتلوه عندما لجأ إليهم.

ما وراء النهر

البلاد الواقعة في شرقي نهر جيحون يسميها العرب (ما وراء النهر)[2] وهي سهوب فيها بعض الأراضي المتموجة تمتد شرقاً إلى صحارى قرغيز ومنغوليا وتتصل ببلاد الصين المترامية الأطراف وتمتد في جنوبها هضبة البامير وجبال كره كروم وهندكوش، وفيها مناجم الياقوت واللازورد وعدد من الأحجار الكريمة في بدخشان بخاصة، كما أن في هذه المنطقة الجنوبية تقع بنجهير ووخم وفيها أكبر مناجم الفضة في آسيا، وكانت تزود الصين في الشرق وبلاد العالم الإسلامي في الغرب بهذا المعدن الذي كان أساس العملات المتداولة فيها.

ويجري في هذه البلاد، وخصوصاً في غربها، عدد من الأنهار الصغيرة وكثير من الينابيع والمياه الجوفية التي يسّرت ازدهار الزراعة ونمو المدن

---

(١) المسالك ١٣٣.

(٢) في كتب البلدان العربية وخصوصاً «المسالك والممالك» للإصطخري و«أحسن التقاسيم» للمقدسي، و«المسالك» لابن خرداذبة تفاصيل وافية عن مدن هذه المناطق ومسالكها. أما الكتب الحديثة فمن أوسعها «بلدان الخلافة الشرقية» لليسترانج «تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي» لبارثولد، وكلاهما مترجم إلى العربية.

والقرى، ففي الطرف الشمالي منها تقع خوارزم وفيها الجرجانية وخيوة، وقد ستفاد أهلها من نهر جيحون الذي يتبطح فيها قبل أن يصبَّ في بحيرة آرال فأقاموا عليه سدوداً ومنظومات ريّ أسهمت في ازدهار الحضارة ونمو القرى والمدن كما كانت هذه البلاد مركزاً للتجارة مع بلاد الروم.

وفي الجنوب من خوارزم على شرقي نهر جيحون تقع بلاد الصغد ومن أكبر مدنها بخارى وسمرقند، وفي الأطراف الجنوبية تقع طخارستان وأبرز مدنها خلم وأندراب، وبقربها مناجم بنجهير، وفي جنوبها تقع ترمذ والصغانيان[1].

وسكان هذه المناطق الغربية القريبة من نهر جيحون هم من الصغد وكانت لهم لغة خاصة وكتابة حروفها متأثرة بالأبجدية الفينيقية، وقد انتشرت بينهم، وخصوصاً في بلخ وطخارستان، الديانة البوذية التي جاءتهم عن طريق الهنود، كما لجأ إليهم كثير من المانويين هرباً من الساسانيين وامتدت إليهم البعثات التبشيرية المسيحية من النساطرة.

الفتوح الأولى

لما أتم عبد الله بن عامر فَتْحَ فارس وسجستان في زمن خلافة عثمان تقدَّم في سنة ٣١هـ لفتح خراسان، وسلك في تقدمه الأطراف الجنوبية، فباغت بذلك أهل خراسان الذين لم يكونوا يتوقعون هجوماً من جهة هذا الحاجز الطبيعي المخيف. ومن المحتمل أنه في اختراقه هذه المفازة استعان بأدلاء من التجار العرب الذين كانوا يعرفون مسالكها.

لقي عبد اللّه بن عامر لدى وصوله خراسان مقاومة في قوهستان التي تقع على طرف المفازة ولكنه تغلَّب على هذه المقاومة، ثم توجَّه إلى نيسابور فاضطر أهلها إلى طلب الصلح. ثم تقدَّم إلى مرو وهي المدينة الرئيسة في خراسان ففتحها، وأرسل خلال ذلك عدة حملات فرعية توقفت في فتح عدد كبير من

---

(١) «تاريخ الترك في أواسط آسيا» لبارتولد، وفيه تفاصيل وافية وعليه معتمدنا في ما نورده عنها.

مدن خراسان، ومنها هراة ومروالروذ وبلخ. وبرز في هذه الحملات عدد من القواد العرب وأهمهم الأحنف بن قيس والأسود بن كلثوم العدوي(١).

ثم توقفت الفتوح على أثر مقتل عثمان وما تلاه من الأحداث التي نجمت عن الخلاف بين علي ومعاوية، وضعفت سيطرة العرب عليها.

الفتوح في زمن الأمويين

ولما صفت الخلافة لمعاوية وعاد الاستقرار إلى الدولة، اهتم الخلفاء بأمر خراسان وتثبيت الحكم العربي فيها، وكانت خراسان تتبع في إدارتها ولاة البصرة، وتعتمد على مقاتلتها: وفي سنة ٤٨هـ ولّى معاوية خراسان الربيع بن زياد الحارثي الذي كان قد فتح سجستان في خلافة عثمان، فنقل الربيع في ولايته خمسين ألفاً من المقاتلة العرب مع عيالاتهم وأوطنهم خراسان(٢). وكان لهذا أثر كبير في التطورات الإدارية والحربية والاجتماعية في خراسان التي كانت من فتوح أهل البصرة، ولذلك كانت ترسل جبايتها لتصرف على مقاتلة البصرة. أما بعد هذا الاستيطان فإن جباية خراسان أصبحت تصرف على المقاتلة المقيمين فيها ولا يرسل منها شيء إلى البصرة. ثم إن الاستقرار الثابت لعدد كبير من المقاتلة العرب مكّنهم من توطيد الأمن والاستقرار، وحماية الحدود، والقيام بالفتوح وتوسيع الدولة، وقد أشغلهم القيام بهذه المهام، فلم تنتشر فيهم الأحزاب السياسية والفِرَق التي ظهرت في العراق وغيره من أقاليم الدولة. وكان لهذه الجالية دور كبير في نشر الدين الإسلامي واللغة العربية في خراسان، فلم ينتهِ القرن الثاني الهجري إلا وكان معظم أهل خراسان مسلمين،

(١) المرجع الأكبر في فتوح العرب خراسان وما وراء النهر هو تاريخ الطبري الذي اعتمد فيما أورده عن المشرق على المدائني، وكذلك «فتوح البلدان» للبلاذري. أما المراجع الحديثة فأشملها كتاب «فتوح العرب في أواسط آسيا» لجب.

(٢) الطبري ٢/٨١؛ فتوح البلدان ٤٠٩، وانظر تفاصيل أوفى في كتابنا: «التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة»، «استيطان العرب في خراسان» المنشور في مجلة كلية الآداب ببغداد، و«امتداد العرب في صدر الإسلام».

وتخذوا الأسماء العربية الإسلامية، كما أن اللغة العربية انتشرت خصوصاً في الأوساط الدينية والعلمية، فظهر عدد كبير من كبار العلماء في مختلف الميادين الفكرية من لغة وأدب وحديث وفِقْهٍ ورياضيات. والواقع أن خراسان أصبحت منذ القرن الثالث الهجري أعظم مراكز الحركة الفكرية في العالم الإسلامي، وظهر في مدنها وقراها عدد يصعب حصره من العلماء.

استطاع الربيع بن زياد أن يستعيد السيطرة على بلخ وقوهستان بعد أن كانتا قد ثارتا وانفصلتا عن الدولة[1]، كما استطاع ابنه عبد اللَّه الذي وُلِيَ خراسان لمدة قصيرة بعد وفاة أبيه، أن يفتح آمل.

لم يكن للصغد نظام سياسي موحد يجمعهم، فكانوا متفرقين في مدنٍ كان لكلٍّ منها حاكم يسمى «خاناً»، يتبعه حرس خاص يسمَّوْن (الشاكرية) وكان لملاكي الأراضي «الدهاقين» نفوذ كبير. فكان تفرُّقهم هذا قد أعان العرب على التوغل في بلادهم.

وفي شرق الصغد كانت تقيم أقوام يطلق عليهم العرب (الترك) وهم يتميزون بلغتهم الخاصة ولهم ديانة ابتدائية تقدس الماء والسماء، ثم انتشرت بين بعضهم الديانة البوذية، واستعملوا الحروف الصغدية، وكانوا قبائل وعشائر متعددة، من أبرزها الهياطلة الذين تقدموا إلى الغرب في القرن الخامس الميلادي وقاتلوا الساسانيين، ثم استقروا في سجستان. ومن هذه الأقوام الآفار الذين امتدوا إلى سهوب روسيا الجنوبية ووصلوا إلى أوروبا الشرقية، ومنهم أيضاً الجوماش الذين امتدوا شمالاً إلى جبال أورال، والطخاريون الذين استقروا في أعالي مجرى نهر جيحون.

والترك قبائل متعددة تمتد ديارهم إلى بلاد القرغير والتتار والمغول، وقد انتشرت لغتهم بين شعوب وأقوام منوَّعة الأصول كانت تقيم في هذه المناطق، وبسبب انتشار هذه اللغة أطلق عليهم العرب جميعاً اسم (الترك).

---

(١) فتوح البلدان ٤٠٩؛ الطبري ١٥٦/٢.

وكان أكثر هؤلاء الأقوام رعاة ومقاتلين أشداء، ولكنهم متفرقون لا يجمعهم نظام سياسي يوحدهم، لذلك لم يفلحوا في تكوين دولة قوية، وكانوا مصدر خطر يهدد أمن المدن والمستوطنات التي اضطرت كل منها إلى بناء أسوار وخنادق لصد هجماتهم. وعمل الساسانيون على تأمين أخطارهم بالمجاملة، ولما تقدَّم العرب إلى بلادهم عملوا على نشر الدين الإسلامي بينهم فبدأ يسود بسرعة ويحل محل معتقداتهم القديمة الساذجة.

ثم ولّى معاوية في سنة ٥٣هـ على خراسان عبيد اللّه بن زياد، وكان شاباً متحمساً، فعبر نهر جيحون، وهاجم بيكند، وهي مدينة قرب بخارى كانت تسيطر على الطريق التجاري إلى آمل، واستطاع عبيد اللّه دحر القوات التي وقفت بوجهه، وأخذ منهم ألفين من البخارية نقلهم إلى البصرة وأوطنهم فيها[١].

وفي سنة ٥٦هـ وَلِيَ خراسان سعيد بن عثمان بن عفان فقاد حملة عبر بها نهر جيحون وانتصر على الصغد وأخذ منهم رهائن نقلهم إلى المدينة، وفتح مدينة الترمذ، وهي مدينة حصينة تسيطر على طريق التجارة في تلك المنطقة[٢].

وفي سنة ٦١هـ وَلِيَ خراسان سلم بن زياد، وجلب معه إليها عدداً من كبار القادة المسلمين، وهاجم خوارزم وأجبر أهلها أن يصالحوه على مال كثير. ثم توغل في بلاد ما وراء النهر حتى وصل سمرقند، وقضى على ثورة قام بها الصغد الذين كانوا مفككين وقد أرهقتهم الحروب مع الصينيين[٣]. وقد مكّنت هذه الفتوح سلم بن زياد من التوغل في بلاد ما وراء النهر.

غير أن العرب لم يستطيعوا استثمار فوزهم وتثبيت حكمهم في الأقاليم التي فتحوها، إذ نشبت الفتن الداخلية على أثر موت يزيد، واشتد الصراع بين الأحزاب حول الخلافة في قلب العالم الإسلامي، وأدى هذا إلى ضعف اتصال

(١) انظر تفاصيل عنهم في كتابنا: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ٨٦ ـ ٨٧.
(٢) الطبري ٢/ ١٧٩.
(٣) الطبري ٢/ ٣٩٥؛ تاريخ خليفة ١٤٥.

خراسان بالخلافة، ثم نشبت بين العرب في خراسان فتن وحروب قبلية ضعفتهم وأشغلتهم عن واجبهم في حفظ البلاد التي فتحوها، فاستغل الأمراء لمحليون الفرصة وتمردوا، فانفصلت طخارستان العليا في الجنوب، كما خسر لعرب ما فتحوه في خوارزم وأقاليم ما وراء النهر، واغتنم الترك الفرصة فقاموا بعدد من الغارات وصلوا في بعضها إلى أطراف نيسابور[1].

ولا ريب في أن الفتن والاضطرابات الداخلية التي أدت إلى تقلص أملاك العرب وإنهاك قواهم، أثارت الألم في نفوس المخلصين وبعيدي النظر، فلما استتب أمر الخلافة لعبد الملك بن مروان «كتب وجوه أهل خراسان وخيارهم إلى عبد الملك يعلمونه أنه لا تصلح خراسان بعد الفتنة إلا بِرَجُلٍ من قريش، فولّى أمية بن عبد اللّه، وهو رجل أموي، خراسان»[2].

حاول أمية أن يجمع شمل العرب ويوجههم نحو الفتح والتوسع، فولّى بكير بن وشاح طخارستان ثم ولّاه غزو ما وراء النهر، وكان بكير، وهو من قبيلة بكر، من أقوى الشخصيات العربية ومن رؤساء الفتنة فيها، ولعل أمية أراد بهذا التعيين إرضاء بكير وتوجيه الطاقات الحربية التي بتصرفه للتوسع في منطقة كانت مصدراً للأخطار التي تهدد حكم العرب. غير أن بكيراً لم يَقُمْ بما عُهِدَ إليه.

ثم قام أمية بنفسه بحملة على خوارزم، وتقدم بعدها إلى بخارى وحاصرها لكنه لم يفلح في فتحها، فتوجَّه إلى الترمذ لإخضاع موسى بن عبد اللّه بن خازم الذي كان متمرداً فيها. لكن بكيراً ثار في مرو وحاول جلب الأعاجم المسلمين إليه بأن وعدهم بتخفيف الخراج عنهم، فاضطر أمية للعودة إلى مرو وصالح بكيراً، ثم أعاد الكرّة على بخارى فلم يفلح في فتحها، فعُزِلَ وتوقفت الفتوح بعد عزله فترة من الزمن[3].

---

(١) فتوح البلدان ٤١٤.
(٢) فتوح البلدان ٤١٥.
(٣) الطبري ٢/ ١٠٢٢.

كانت خراسان مرتبطة في إدارتها بوالي العراق الذي كان مسؤولاً عن السيطرة على خراسان ونشر الأمن فيها ومتابعة التوسع. ولما وُلِيَ الحجاج العراق أدرك أهمية هذه المسؤولية فولى على خراسان المهلّب بن أبي صفرة وهو القائد الذي ظهرت كفاءته ومواهبه في مقاتلة الخوارج ومطاردتهم. والمهلّب من أزد عُمان، وهم قبيلة لم يكن عددها كبيراً في خراسان، لذلك لم تنغمس في الفتن القبلية التي استعرت في خراسان بعد موت يزيد بن معاوية، وهذا ما يشير إلى أن المهلّب عندما وَلِيَ خراسان لم تكن له علاقة سابقة بالفتن والانقسامات التي كانت فيها، وبذلك كان بمقدوره أن يحكم خراسان ويعمل على جمع شمل العرب فيها، والراجح أنه نقل معه إلى خراسان عدداً من رجال عشيرته الأزد ليكونوا له قوة وعضداً في تثبيت سلطانه.

قضى المهلّب حوالى سنتين في مرو يرتب شؤون الإدارة في خراسان، ثم تقدَّم في سنة ٨٠هـ إلى ما وراء النهر حيث قضى سنتين حاصر خلالهما كش ونسف وأرسل حملات إلى الختل ورابنجن، ثم عاد بعدما سمع بوفاة ابنه المغيرة، وتوفي بالقرب من مروالروذ وهو في طريق عودته.

ثم عيَّن الحجاج يزيد بن المهلّب فقاد حملة على خوارزم ولكنه لم يوفَّق فيها، وانشغل بثورة قام بها موسى بن عبد اللّه بن خازم في الترمذ، فقام الحجاج بعزل يزيد وتولية أخيه المفضل الذي استطاع أن ينتصر على موسى ويقتله ويقضي على ثورته.

ولاية قتيبة

ثم ولّى الحجاج قتيبة بن مسلم الباهلي على خراسان، كان من باهلة وهي قبيلة مضرية غير بارزة، لذلك لم تكن له قبيلة قوية تسنده، فكان موقفه تجاه القبائل العربية في خراسان موقفاً محايداً نسبياً، وكان يدرك مكانة الحجاج في الدولة وأهمية سلطانه على خراسان، لذلك كان يكثر من مشاورة الحجاج وينفذ أوامره. بيد أن هذا لم يمنع من إظهار مواهبه الإدارية الممتازة.

وكان الحجاج يثق بقتيبة ويسنده، وقد أدرك العرب ذلك فأطاعوا قتيبة وعاونوه على تنفيذ خططه، وبذلك استطاع أن يعيد توحيد الكتل كافة في خراسان، بما في ذلك قيس واليمن والعجم، وتمكن من أن يذكي حماستهم ويدفعهم إلى العمل على توسيع رقعة الدولة الإسلامية في مناطق نائية، وأن يدخلوا من أجل ذلك في معارك عنيفة ساعدت بدورها على إشغالهم وتكتلهم.

أدرك قتيبة أن تأمين السيطرة والتوسع في هذه المناطق يتطلب تعاون الأعاجم مع العرب لذلك عمل على جلب الأعاجم إلى جانبه، واستطاع أن يكسب ثقتهم واحترامهم حتى أصبحوا كالعشيرة له، وقد قال فيه بعض الأعاجم عند موته «والله لو كان قتيبة منا فمات فينا لجعلناه في تابوت فكنا نستفتح به إذا غزونا، وما صنع أحد قط بخراسان ما صنع قتيبة»[1].

وكانت الفتن التي فككت العرب قد خمدت بفضل جهود المهلّب وأولاده وبفضل عودة الاستقرار إلى الدولة الأموية. وعند مجيء قتيبة إلى خراسان كانت ثورة موسى بن عبد اللّه قد انتهت، وكانت الصين قد أرهقتها المنازعات الداخلية على العرش فأضعفتها وأشغلتها عن إلجاء الأمراء المعارضين إلى العرب، وكان الترك منشغلين في فتن نشبت بين أمرائهم ففككتهم وأشغلتهم عن العرب.

كان الحكم العربي في خراسان عندما وَلِيَها قتيبة مثبتاً في منطقة مرو ونيسابور وهراة وما بينهما، أما خارج ذلك فكان الحكم مضعضعاً، فخوارزم لم تخضع للعرب، وبلاد ما وراء النهر لم تستسلم تماماً، وفي الجنوب كان نيزك ملك بادغيس وبقية الأمراء في الجوزجان وطخارستان وما حول بلخ يشكلون خطراً على السيطرة الإسلامية.

بدأ قتيبة أعماله الحربية في سنة ٨٦هـ عندما تقدَّم بقوة كبيرة لإخضاع المناطق الجنوبية، ونجح في إخضاع الصغانيان وآخرون وشومان، وبلخ، وأجبر نيزك طرخان ملك بادغيس على الصلح بعد أن كان أشد مقاومي العرب.

---

(١) الطبري ٢/ ١٣٠٠.

وفي السنة التالية، تقدم قتيبة وحاصر بيكند وكانت مركزاً مهماً للتجار، وأجبرها على الصلح، غير أن أهلها ثاروا بعد ذلك، فعاد إليها قتيبة ودخلها، وظفر المسلمون فيها بغنائم كبيرة «وأصابوا في بيكند شيئاً كثيراً، وصار في أيدي المسلمين من بيكند شيئاً لم يصيبوا منه بخراسان»، ورجع قتيبة إلى مرو، وقَوِيَ المسلمون فاشتروا السلاح والخيل، وجلبت لهم الدواب، وتنافسوا في حسن الهيئة والعدة، وغالوا بالسلاح[1]. والواقع أنه كان لفتح بيكند أثر كبير، ففضلاً عن الغنائم الكبيرة التي قوَّت المسلمين وزادت من حماستهم للمساهمة في الفتوح التالية، فإنها كشفت للأعداء خطة قتيبة في التساهل مع من يستسلم، والتشدد على من يتمرد أو يعاند في المقاومة، فكان لذلك أثر في إخافتهم من مغبة المقاومة.

ثم تقدَّم قتيبة إلى بخارى وحاصرها، واستطاع في سنة ٩٠هـ فتحها، وفرض عليها جزية مائتي ألف درهم، وأن يقيم العرب في قلعتها، فلما رأى ذلك ملك سمرقند فاوض قتيبة وعقد معه صلحاً.

وكان نيزك ملك بادغيس يرافق قتيبة في هذه الحملات، فلما رأى انتصارات العرب أدرك أثرها في إضعاف آماله باستعادة نفوذه، فهرب إلى بلخ وأخذ يدعو أمراء البلاد الجبلية في جنوب خراسان للتكتل ضد العرب، غير أن قتيبة عاجلهم، فهرب عدد منهم، وخضع الباقون، ثم أُسِرَ نيزك وقُتِل. وعامل قتيبة أهل هذه البلاد معاملة طيبة، وأبقى معظم الأمراء المحليين في مراكزهم، لكنه أعاد تنظيم الإدارة، ووضع حاميات عربية في عدد من المدن الجنوبية، وعيَّن أخاه عبد الرحمن على بلخ ليشرف على إدارة هذه المنطقة، وبذلك أمن سيطرة العرب على هذه المناطق الجنوبية التي كانت من قبل مصدر خطر يثير المتاعب ويهدد الحكم الإسلامي في خراسان.

---

(١) الطبري ٢/١١٨٩؛ وكان يقال لبيكند مدينة التجار (الطبري ٢/١١٨٨).

ثم تابع قتيبة تقدُّمه في ما وراء النهر ففتح عدداً من مدنها، ووضع حامية عربية في بخارى، فبدأ الإسلام ينتشر منذ ذلك الحين، وكثرت الجوامع والمساجد فيها.

ثم أخذ قتيبة يفرض على كل مدينة يفتحها أن تقدِّم عدداً من رجالها ليقاتلوا مع العرب، وبذلك أخذ قتيبة يحصل على مورد جديد من المقاتلة يمكِّنه من توسيع رقعة الدولة وتأمين السيطرة عليها، وخصوصاً أن الإمدادات التي كانت تأتيهم من قلب الدولة تناقصت، ولم يعد بإمكان العرب المقيمين في خراسان القيام بما يتطلب منهم على الوجه الأكمل. ولعل قتيبة استهدف أيضاً الاستفادة من الطاقات العسكرية المتوافرة عند أهل هذه البلاد، وأراد استغلالها لخدمة العرب بدل أن تبقى عاطلة أو تظل مصدر خطر على الحكم العربي. والواقع أن هذه المناطق كان فيها رجال يتميزون بالقدرة على القتال والبراعة في الحرب وظلت طوال العصور الوسطى منبتاً لأقوى الجيوش التي كانت تقوم بدور حاسم في صد الأخطار عن الدولة الإسلامية، وفي قيام أو سقوط كثير من الإمارات.

وفي سنة ٩٢هـ قاد قتيبة حملة ضد رتبيل ملك زابلستان، فأعلن رتبيل ولاءه وتعهَّد بدفع جزية سنوية، وفي السنة التالية أخضع خوارزم وفرض عليها تقديم عشرة آلاف رجل يقاتلون مع المسلمين.

ثم تقدَّم قتيبة وفتح سمرقند وأقام فيها حامية عربية، واتخذها قاعدة للتوسع في أواسط آسيا وقام بعد ذلك بعدة حملات وصلت إلى الشاش وفرغانة، غير أنه لما توفي الحجاج في سنة ٩٥هـ عاد قتيبة إلى مرو حيث بدأت العصبيات القبلية تظهر من جديد.

وفي سنة ٩٦هـ توفي الوليد بن عبد الملك ووَلِيَ الخلافة من بعده أخوه سليمان، فخاف قتيبة من أن ينتقم سليمان منه، فسار إلى سمرقند وأخذ معه أهله وعياله «وحمل مع الناس عيالهم وهو يريد أن يحرز عياله في سمرقند خوفاً

من سليمان»[1]، ويرجع هذا الخوف إلى أن الوليد كان يريد عزل سليمان عن ولاية العهد، فأيَّده قتيبة، ولكن محاولة الوليد لم تنجح، فلما وَلِيَ سليمان خَشِيَ أن ينتقم منه، ولجأ إلى سمرقند حيث أعلن العصيان على سليمان، ولكن المقاتلة العرب لم يؤيدوه وأجمعوا على قتاله، فهاجموه وقتلوه مع جماعة من إخوته وأهل بيته.

توقفت الفتوح بعد مقتل قتيبة أكثر من ربع قرن، وفقد العرب بعض أملاكهم في أواسط آسيا. فقد ولّى سليمان بن عبد الملك على خراسان بعد قتيبة، يزيد بن المهلَّب الذي قاد حملة فتح بها جرجان التي تقع على الطرف الجنوبي الشرقي من بحر قزوين وتهيمن على الطريق البري الشمالي الرئيسي المؤدي إلى خراسان، وبفتح جرجان فتح هذا الطريق وأصبح العرب يسلكونه إلى خراسان بدل الطريق الجنوبي الذي يقرب من المفازة والذي كان محفوفاً بالمخاطر[2].

تطور الأحوال بعد مقتل قتيبة

ولما وَلِيَ عمر بن عبد العزيز الخلافة أمر بإيقاف التوسع في مختلف الجبهات، وركز جهده في معالجة الأحوال الداخلية التي كانت تؤثر في الدولة، وعمل على إرضاء الموالي وإزالة تذمرهم، وأوقف أخذ الجزية ممن يسلم[3]، وأنشأ الخانات والربط[4].

غير أن الحكم العربي في ما وراء النهر تعرَّض للأخطار، فقد حدثت هناك عدة ثورات انفصالية لم يستطع العرب التغلب عليها في المدينة، ولكنهم استعادوا نشاطهم ونجحوا، خلال ولاية سعيد الحرشي، في إعادة السيطرة على إقليم الصغد الذي كان مركز المقاومة ضد العرب.

---

(١) الطبري ٢/ ١٢٧٦.
(٢) الطبري ٢/ ١٣٣٠؛ فتوح البلدان ٢٣٤ ـ ٢٣٥.
(٣) الطبري ٢/ ١٣٥٤؛ فتوح البلدان ٤٢٥.
(٤) الطبري ٢/ ١٣٦٤.

ثم حاول العرب في عهد خلافة هشام بن عبد الملك التوسع في أواسط آسيا، لكن الترك قاوموهم واضطروهم إلى الانسحاب، فاتخذ العرب منذ ذلك الوقت موقف الدفاع، بعدما فقدوا بعض أراضيهم في ما وراء النهر، فتشجع عدد من الأمراء المحليين وانتفضوا على العرب، إلا أن العرب ظلوا محتفظين بمعاقلهم الرئيسة في سمرقند وبخارى وبيكند.

ثم وَلِيَ أسد بن عبد اللّه القسري خراسان، فاهتم بتنظيم الإدارة وإزالة أسباب الفرقة بين العرب، وأعاد تنظيم الإدارة المالية، ورفع الجزية عن عدد كبير ممن أسلم، فقد كانت من قبله تؤخذ من بعضهم جزية مضاعفة عند إسلامه[1]، وأعاد إعمار بلخ واتخذها قاعدة إدارية، وأسكنها قوة كبيرة من العرب، الذين لا يزال أحفادهم حتى اليوم مقيمين في تلك المناطق محتفظين بلسانهم العربي، واستطاع أسد أن يثبت سلطان العرب في الأطراف الجنوبية من خراسان، ويقضي على مقاومة كثير من الأمراء المحليين.

ثم وَلِيَ خراسان نصر بن سيار، وهو من أبرز رجال العرب المقيمين في خراسان، وكانت له شخصية بارزة وخبرة في أحوال خراسان والعرب فيها، غير أن الخلافات التي حدثت في بلاد الشام بين الأمويين حول الخلافة أشغلتهم، ونشط معارضو الأمويين في العراق، وامتد نشاطهم إلى خراسان، فنشط الحزب العباسي واستغل الانقسامات القبلية ووسعها فازدادت قوَّته وسيطر على مرو، ولم يستطع الأمويون السيطرة على خراسان، فتحركت منها الجيوش المؤيدة للعباسيين، وتقدمت إلى العراق، ثم أنهت الخلافة الأموية.

---

(١) الطبري ٢/ ١٦٨٨.

الفصل الثامن

بلاد الشام عند الفتح الإسلامي

الأرض

تكوّن بلاد الشام، وهي ما نسمّيه اليوم سوريا ولبنان وفلسطين والأردن، الجناح الغربي من الهلال الخصيب، وتحدها من الشمال جبال طوروس التي تفصلها عن هضبة آسيا الصغرى، وتتصل أطرافها الشرقية ببادية الشام المكملة لصحراء جزيرة العرب، ولا يفصلهما أي عارض جغرافي.

يحدُّ بلاد الشام من الغرب البحر الأبيض المتوسط الذي يمتد على طول سواحله الشرقية سهل ضيق خصب فيه كثير من المدن التي كانت مرافىء للملاحة، ومراكز للتجارة والصناعة. وقد كوَّنت معظم هذه المدن علاقات ملاحية وتجارية مع مختلف البلاد الواقعة على شواطىء البحر الأبيض المتوسط كافة في أوروبا وإفريقية.

تخترق بلاد الشام من الشمال إلى الجنوب سلسلة جبال لبنان وهي موازية لساحل البحر الأبيض وقريبة منه، وتفصل السهول الساحلية عن المناطق الداخلية وتعرقل المواصلات بينهما.

أما القسم الداخلي من بلاد الشام فأراضيه متموجة، وفيه سهول واسعة أهمها مرج راهط، وسهل البقاع والغوطة وسهول وادي الأردن. ويجري في

هذه المنطقة عدد من الأنهار، وأهمها نهر العاصي في الشمال، ونهر بردى في الوسط، ونهر الأردن في الجنوب. كما تغزر فيها الأمطار الشتوية، فتوفر المياه للزراعة التي ازدهرت منذ القديم، وخصوصاً أشجار الفاكهة والزيتون والكروم والخضروات.

المدن والصناعات والحياة الحضرية

ظهر في هذه السهول منذ أقدم الأزمنة عدد غير قليل من المدن مثل حلب وحماه وحمص ودمشق وبعلبك وبصرى، وصارت هذه المدن مراكز لصناعات مهمة كالمنسوجات والأصباغ والزجاج والزيت والخمور والأسلحة، وكانت هذه المصنوعات في غالبيتها تصدَّر إلى البلاد الأخرى، ومنها جزيرة العرب والحجاز الذي كان يستورد منها بصورة خاصة الزيوت والخمور ومختلف أنواع السيوف ومنها المشرفية والدمشقية والصفائح البصرية. وقد أدى هذا إلى نمو الحياة الحضرية وقوة الطبقة الوسطى في بلاد الشام، وإلى ظهور نظام إداري محكم تكوَّن نتيجة خبرات طويلة واستقر في هذه المدن التي أصبحت كل منها تتمتع باستقلال ذاتي كبير في إدارتها. ويبدو أن الضرائب المفروضة عليهم لم تكن كبيرة، فكانوا مرفهين اقتصادياً. ويلاحظ أن العرب عند فتحهم بلاد الشام عقدوا مع المدن معاهدات صلح تسري أحكام كل منها على المدينة المصالحة وما حولها، أما في العراق فلم تذكر مثل هذه المعاهدات مع المدن، باستثناء ما عقدوه مع أهل الحيرة وبانقيا وألّيس.

استولى الرومان على بلاد الشام وضموها إلى دولتهم في القرن الأول قبل الميلاد وأقاموا في بعض مدنها حاميات عسكرية، ولكنهم لم يفلحوا في تغيير أحوال أهلها، فظل أهلها من العرب محتفظين بلغتهم وعاداتهم وتقاليدهم، واستمروا يزاولون نشاطهم الاقتصادي في الزراعة والصناعة والتجارة، وأفادهم موقعهم الجغرافي فلم يتعرضوا لهجمات البرابرة، ولم تقلقهم الفتن والثورات

التي أضعفت روما. ولما ظهر الدين المسيحي اعتنقه معظم أهل الشام[١].

ولما انقسمت الدولة الرومانية إلى قسمين أصبحت بلاد الشام من أقاليم القسم الشرقي الذي كانت عاصمته القسطنطينية، ولكنهم ظلوا محتفظين بنشاطهم الاقتصادي وبلغتهم وثقافتهم السامية وانتشرت بينهم من المسيحية مذاهب تخالف المذاهب التي اعتنقها أهل القسطنطينية.

ولم يتعرض القسم الشرقي إلى غزوات الجرمان الذين قضوا على القسم الغربي من الامبراطورية الرومانية. وكان في الأطراف الغربية من القسم الشرقي البلقان والسلاف الذين يعكرون صفو الأمن في أملاكها في أوروبا بخاصة، ولكنهم لم يهددوا كيانها. أما أطرافها الشمالية فكان البحر الأسود ولم يشكّل سكان أطرافه الشمالية أخطاراً جدية على الدولة. وفي أطرافها الشرقية سلاسل جبلية شاهقة ومعقدة، فقدت قدرتها على تهديد الدولة بعد انقراض دولة الصدق[٢].

وكان الخطر الأكبر الذي يهددها من الفرس الذين كانوا يطمحون إلى مدِّ دولتهم إلى البحر الأبيض المتوسط؛ وقاموا بغزوات متقطعة كان آخرها ما حدث في أوائل سني البعثة، حيث استولوا على بلاد الشام ومصر، وتوغلت جيوشهم إلى أن قربت من القسطنطينية، لكن هرقل قضى على تقدُّمهم، وأجبرهم على الانسحاب[٣].

وقسم الرومان إدارة بلاد الشام إلى ثلاثة أقسام: أهل المدن والريف والأعراب.

---

(١) انظر كتاب «المدينة الإغريقية» لجونس، ترجمة إحسان عباس، وهو فصل عن مدن بلاد الشام من كتاب أوسع.

(٢) لا تزال دراسات بيورف عن تطورات الأحوال في أواخر الدولة الرومانية، وفي الدولة البيزنطية من أوسع الدراسات رغم قدمها.

(٣) انظر إيران في عهد الساسانيين لكرستنسن، ترجمة يحيى الخشاب.

تتصل بلاد الشام ببادية الشام وبأطراف الحجاز الشمالية ولا يفصلها أيٌّ من الحواجز الطبيعية، من سلاسل جبال أو أودية أو أنهار، لذلك فإن حدود الدولة كانت تمتد إلى مناطق تسكنها الجماعات التابعة للروم، فالحدود مرتبطة بالناس وممتدة إلى حيث امتدوا ومن هنا كانت هذه الحدود غير ثابتة المعالم.

وكان أكثر بلاد الشام أهل الشام عرب في أرومتهم غير أن تطور الأحوال جعلت السكان أهل مدن وريف، فأما المدن فإنها ورثت النظم الإغريقية والرومانية التي تتحدد فيها المدن بموجب القوانين، وتكون لها امتيازات ونظم تسير عليها في إدارتها؛ وقد أبقى المسلمون بعد توسع دولتهم ما كان للمدن من نظم، وفي هذا يذكر البلاذري «قال أبو يوسف إذا كان في البلاد سنّة أعجمية فليس للإمام أن يغيِّرها، وقال الشافعي بل يغيِّرها إذا كانت ضارة»[(١)]. والراجح أن المقصود بالسنّة هنا النُّظُم التي كانت تسير عليها المجتمعات المحلية، وأن القيد الذي رآه الشافعي عليها هو في حالة إضرارها بالناس أو بالدولة.

ويقول ابن عساكر «لا خلاف بين الأئمة من سلف هذه الأمة أن كل بلد صولح أهله على الخراج المعلوم أنه لا يجوز تغيير ما استقر عليه من الرسوم»[(٢)].

وكانت القيود التي يُروى أن عمر بن الخطاب فرضها على أهل المدن تتعلق بالألبسة وبعض السلوك، وإنشاء الكنائس وكل ما يتحدى عبادات المسلمين، وما يتعلق بملكيات الأراضي، ولم يَرِدْ ذكر في أيٍّ منها إلى طلب تبديل للنُّظم، لهذا يمكن القول بأن المدن احتفظت بنظمها القديمة في تنظيماتها الإدارية، وأن التغيير الذي حدث فيها يرجع إلى التطورات السلمية الوئيدة التي حدثت فيها. ولعل من أبرز الاختلاف بين فتوح العراق وفتوح الشام هو أن العرب تعاملوا في بلاد الشام مع مدن وعقدوا مع كلٍّ منها معاهدات منفردة، وإن كانت نصوص الكثير منها متشابهة.

---

(١) فتوح البلدان ٤٤٧.

(٢) تاريخ دمشق ١/ ٥٧٥.

كوَّنت كل مدينة وحدة يعزّزها النظام الإداري المستقر على أسس التقاليد القانونية. ولا ريب في أن قوام الحياة فيها على التجارة والأنشطة المعاشية، وكذلك على ما فيها من متطلبات إدارية وفكرية تميِّزها من الريف والبداوة. وأهل هذه المدن حضريون، غير مدربين عسكرياً، ولم تذكر في أيٍّ منها حاميات أقيمت أيام السلم. ولا بد أن أصول هؤلاء السكان قديمة ومرتبطة عرقياً بأهل جزيرة العرب، لكن ذلك لم يمنع وجود جاليات أجنبية أقيمت فيها بصورة دائمة أو مؤقتة لتمارس نشاطها التجاري والمالي في الأغلب، غير أن السمة الحضرية هي البارزة.

كما أن توجهاتهم الثقافية تختلف عن الدول الحاكمة التي يشيع فيها استعمال اللغة الإغريقية ولم تذكر المصادر تركيب سكان أيٍّ مدينة في بلاد الشام والجزيرة ما عدا بعلبك التي ذكرت معاهدتها مع أبي عبيدة أن أهلها عرب وروم وفرس[(١)].

تفسر هذه الأوضاع كثيراً من مجريات حوادث فتح بلاد الشام، فالمعارك الرئيسة جرت في الأراضي الواسعة خارج المدن، وبعيدة من بعضها. والمدن التي ظهرت فيها مقاومة محدودة هي دمشق وقيسارية وحمص وبعض مدن الجزيرة، وقد اعتمد العرب في مقاومتهم هذه على القوات التي جلبت إليها من مناطق أخرى بسبب ظروف القتال، أما الأهالي فلا تدل الأخبار على مشاركتهم في القتال، وكانوا أوثق صلة برجال الدين الذين فاوض كثير منهم العرب على الاستسلام. وذكر البلاذري أن العرب حاربوا بصرى، وأن أهلها صالحوا العرب، وعلى مثل صلحها صالح أهل مآب[(٢)] وحوران والبثنية وعُمان[(٣)]، كما صالحوا أهل طبرية[(٤)]، وفتحوا بيسان، وسوسية، وأفيق، وجرش وبيت راس،

---

(١) انظر نص المعاهدة في كتاب «الوثائق السياسية في زمن الرسول (ص) والخلافة الراشدة» لمحمد حميد الله ٥.
(٢) فتوح البلدان ١١٤.
(٣) فتوح البلدان ١٢٥.
(٤) فتوح البلدان ١١٥.

والقدس والجولان وعكا وصور وصفور[1] ونابلس وبيت جبرين وإيليا[2] وحماه وشيزر وقيسارية. ويروي الأزدي أن أهل فحل قالوا للمسلمين عن الروم إن هؤلاء قد غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا[3] وقال أهل حاضر قنَّسرين، نحن عرب وقد حشرنا مع الروم ولم يكن من رأينا حربكم[4].

أما أهل الريف فلا بد أن غالبيتهم، إن لم يكونوا كلّهم، من أهل جزيرة العرب، غير أن استقرارهم وعملهم في الأرض باعد بين نُظُم حياتهم ونُظُم العشائر العربية التي كان أكثر مساكنها في الأطراف الخارجية لبلاد الشام، ونُظُمهم أقرب إلى نُظُم أهل البدو، وعلاقاتهم بأهل البادية تتوقف على مدى قدرة السلطة المركزية على ضبطهم فإذا ضعفت هذه السلطة ازدادت تجاوزاتهم على أهل الريف بخاصة، وإذا كانت السلطة المركزية مهيمنة فتقل التجاوزات، وكثيراً ما يستقر أهل البادية ويعملون في الزراعة فتتحول حياتهم بشكل تدريجي.

أما الأطراف الشرقية والجنوبية من بلاد الشام فكانت متصلة بالصحراء، ومع أن فيها كثيراً من الآبار فإنها أقل من أن تكفي لازدهار زراعي واسع، لذلك قلت فيها المزارع والقرى وكان أكثر أهلها أعراباً تتسم حياتهم بما للبداوية من خصائص. وأبرز هذه العشائر هي لخم وجذام وغسان وكان أكثرهم يدين بالنصرانية لذلك كثيراً ما كانوا يسمونهم العرب المتنصّرة.

عشائر بلاد الشام

لما كانت بلاد الشام متصلة في أطرافها الغربية بشمالي الحجاز وببادية الشام، فإنها أصبحت مفتوحة على جزيرة العرب التي تمدهم بالسكان منذ أقدم الأزمنة، واستقر كثير منهم في المناطق الزراعية والمدن فطوَّروا بعض نُظُمهم

(١) فتوح البلدان ١١٥.
(٢) فتوح البلدان ١٣٧.
(٣) فتوح البلدان ١٤٠.
(٤) الأزدي ١١١.

وحضارتهم تبعاً للمتطلبات الجديدة، ولكنهم احتفظوا بمظاهر العروبة في أسمائهم وأسماء مدنهم ولغتهم وما يتصل بها من ثقافة. أما البادية فيحتفظ أهلها بالنُّظم البدوية وكانوا يحيون حياة عشائر الجزيرة ويعتمدون في معاشهم على منتوجات مواشيهم، وما تنتجه الأرض من شحيح الخيرات. وقد يكوّنون علاقات مع المدن القريبة منهم، وخصوصاً مع جماعاتهم التي تستوطن الريف والمدن، وقد يغيرون على أهل الريف، وخصوصاً عند ضعف هيمنة الدولة، وقد سمَّتهم المصادر السريانية «طياية» أو الطائيين وسمَّتهم المصادرُ الرومانيةَ المشركين[1].

وأبرز العشائر العربية في أطراف بلاد الشام عند مجيء الإسلام كانت طي وتنوخ في الشمال عند قنّسرين وحلب، والضجاعم وسليح في أطراف حماه، وكلب في الأطراف الغربية بين تدمر وحوران والغوطة حتى بصرى، وبلقين في حوران والبثنية، ولخم بين الرملة والحفار في جنوب فلسطين، وجذام بين البلقاء والأردن وتمتد إلى جبل حسمي على طريق إيلة، وهو بين فزارة وجذام، وبليّ في أطراف خليج العقبة وعذرة بين الحجر ووادي القرى[2].

عملت الدول التي حكمت بلاد الشام على إقامة علاقات طيبة مع العرب من أهل البادية في أطراف الشام، وذلك لتأمين السلام في أطراف بلادها، وللإفادة منهم في صد الأخطار التي قد تهددها من هجمات أعدائها ولا سيما الفرس، وكانت تعمل على استرضاء رؤساء هذه العشائر، فساند البيزنطيون الغساسنة في إقامة دولة هيمنت على العشائر المقيمة في بلاد الشام. والواقع أن الغساسنة شاركوا معهم في مقاتلة الفرس، ولا بد أن هذه المساندة أضعفتهم إبان سيطرة الفرس على بلاد الشام عندما غزوها لدى ظهور الإسلام، فلما استعاد الروم البلاد لم يعيدوا للغساسنة دولتهم، ولكنهم احتفظوا بعلاقات طيبة معهم.

---

(١) انظر كتاب «أديسا» لسيجال، و«ملاحظات حول بعض حوادث العلاقات بين العرب والروم» لفازلييف. و«مدن سوريا الجنوبية بين العرب والروم، وطريق التجارة العالمية» لرودي باري.

(٢) انظر دوسو: العرب في بلاد الشام قبل الإسلام (الترجمة العربية)، عبد الله الوهبي، شمال الحجاز.

وانتشرت بين عرب الشام النصرانية التي كانت دين دولة الروم، لكن أكثرهم اعتنق اليعقوبية وهو مذهب يخالف معتقد الحكام الروم، وكان هذا من عوامل ضعف الصلة بينهم وبين الروم.

ثم إن النصرانية لم تتغلغل في نفوس القبائل العربية، فكان أكثرها نصرانياً بالاسم والظاهر، ولذلك لم يكن للدين أثر قوي في توثيق روابطهم مع الروم، وكذلك لم يكونوا متحمسين في تأييد الروم ضد العرب المسلمين، وإنما انحاز كثير منهم إلى العرب المسلمين وقاتلوا الروم[١].

تطلق المصادر العربية على عشائر بلاد الشام التي اعتنقت النصرانية «المستعربة»[٢] و«عرب الروم»[٣] و«عرب الضاحية» و«العرب المتنصرة»[٤]. وكانت مواقفهم العامة متطورة تبعاً للأحوال، فهم لم يمتنعوا في البداية من إبداء بعض التعاون مع الروم، غير أنهم بدأوا يتخلَّوْن عنهم ويميلون إلى المسلمين ثم قاتلوا مع المسلمين، وهذه المواقف العامة لم يكن يلتزم بها الأفراد كافة، كما أن أخبارها مقصورة على إسهامهم في قتال المسلمين فحسب؛ وكانت أبرز العشائر في أطراف الحجاز الشمالية عذرة وسعد هذيم وبليّ والقين.

وأول احتكاك للرسول (ص) بهذه العشائر حدث في السنة السادسة للهجرة لما بدأ يرسل السرايا إلى العشائر القاطنة في الأطراف الشمالية من الحجاز، لأن أفراداً منها اعتدوا على رسله أو على تجارات المسلمين، وفي الوقت نفسه قدمت الرسول (ص) أفراد من هذه العشائر. ويمكن القول إن سلطة الإسلام في آخر حياة الرسول (ص) كانت مثبتة على عشائر قضاعة، بما فيها بليّ وسعد هذيم وعذرة وكلها كانت تقطن الحجاز، وفي أطراف دولة الروم ولكنها ليست في الدولة.

---

(١) انظر مقال عبد القادر خريسات في وقائع المؤتمر الثاني لبلاد الشام.

(٢) انظر مثلاً الطبري ١/ ٦١١، ٦١٧؛ فتوح البلدان ٨١٦٧؛ ابن أعثم ١/ ١١٢، ١٣٢.

(٣) الطبري ١/ ٢٠١٨.

(٤) انظر ابن عساكر ١/ ٥٣١؛ ابن أعثم ١/ ١٢٤، ١٨٦، ٢٤٤.

قاتل بعض العرب المتنصّرة مع الروم في غزوة مؤتة التي كانت حملة موجهة ضد الروم، وقام بتنظيم صدهم ثيودور حاكم فلسطين وعاونه في مقاتلة المسلمين بعض العرب المستعمربة «من لخم وجذام وبلقين وبهراء وبلي وكان قائدهم مالك بن رافلة»[1]، ووقع فيها كثير من القتلى من بني ثعلبة من حدس[2].

ولم تتصل القبائل العربية المتنصّرة التي ديارها في الأطراف الشمالية من البادية بالإسلام. وذكر أنهم ساندوا أكيدر حاكم دومة في قتال المسلمين عندما أرادوا ضمها إلى دولتهم[3].

ولما تقدَّم خالد بن سعيد بجيشه المتوجه إلى الأطراف الجنوبية الشرقية من الأردن ضرب الروم البعوث على عرب الضاحية بالشام وجمعوا منهم جيشاً من بهراء وكلب وسليح وتنوخ وجذام وغسان، واجتمعوا دون زيزاء بثلاث ففرّقهم خالد[4].

لم يَرِدْ ذكر مقاومة لهؤلاء المتنصّرة لجيش عمرو بن العاص عندما توغل في فلسطين إلى أطراف غزة، ويروي ابن الأعثم أن أهل البلاد من نصارى العرب قد وعدوا الروم وضمنوا لهم المعاونة، وشارك هؤلاء المتنصّرة في القتال، غير أن أنباط الشام، وهم فلاحون، قاتلوا مع المسلمين الروم في معركة فحل، وكانوا أمْيَلَ إلى المسلمين لبرِّهم بهم وصلتهم إياهم، فكانوا فيوجاً للمسلمين وجواسيس[5]. ويدل هذا الموقف السلبي لأهل المدن على أن الجيوش العربية لم تلقَ مقاومة من كل العرب المتنصّرة.

تضعضعت ثقة المتنصّرة بالروم بعد أجنادين فانضم عدد منهم إلى العرب في

---

(١) الطبري ١/١٦١٢.
(٢) الطبري ١/١٦١٨.
(٣) الطبري ١/٢٠٦٥.
(٤) الطبري ١/٢٠٨١؛ ابن عساكر ١/٤٥١.
(٥) ابن أعثم ١/٩٨؛ تاريخ الأزدي ١١٠.

معركة فحل[١]. وشاركوا في اليرموك فكان في ميمنة المسلمين عشائر اليمن «قضاعة ولخم وجذام»[٢]. وأسلم كثير من المتنصرة وانضموا إلى المسلمين ومن أبرزهم أبو النمس زيد بن الأسود، وكان لهم شرف بالشام[٣].

جبلة بن الأيهم

الشخصية البارزة الوحيدة التي يتردد ذكرها عن المتنصّرة المؤيدين للروم هو جبلة بن الأيهم الغساني، وأول ذكر له في حوادث حصار المسلمين دومة الجندل حيث جاء «في طوائف من غسان وتنوخ» لمعاونة حاكمها الأكيدر ضد المسلمين، وقاتل جبلة عياضاً فيها[٤]، ولم يذكر أنه كان آنذاك ملكاً، مما يدل على أن دولة الغساسنة أزالها الفرس عند غزوهم بلاد الشام، ولم يُعِدها الروم لكن العلاقة ظلت طيبة بين الغساسنة والروم.

وذكر ابن أعثم أنه قبيل معركة اليرموك أقام «جبلة بن الأيهم في الغوطة من أرض دمشق في أربعين ألف من العرب المتنصّرة»[٥] ولكن لم يذكر له دوراً في المعارك الأولى قبل معركة اليرموك التي ذكرت المصادر دوره فيها، فذكر ابن إسحاق أن «أمداد اليرموك من المستعربة لخم وجذام وبلقين وبلى وعاملة وقضاعة إثنا عشر ألفاً عليهم جبلة»[٦]، وأكثر هذه العشائر من بلاد فلسطين التي لم يمتد إليها سلطان الغساسنة، وقد يرجع هذا إلى أن هرقل جلبه إليه دون أن يعيد له سلطانه، وجعله على المقدمة[٧].

---

(١) الأزدي: فتوح الشام ١١١، ١٣٤.
(٢) ابن أعثم ١/٢٢٥؛ الأزدي ٢٢٦ ـ ٧.
(٣) الأنساب لابن الكلبي ٢/٣٦١.
(٤) الطبري ١/٢٠٦٥ ويذكر خليفة أنه «يقال إن الرسول (ص) كتب له كتاباً، ويقال إنه كتب للحارث بن عمرو» (٦٣).
(٥) ابن أعثم ١/١٢٤.
(٦) الطبري ١/٢٠٤٧؛ ابن عساكر ١/٥٣١.
(٧) فتوح البلدان ١٣٤.

ثم تخلّى جبلة عن الروم بعد اندحارهم في اليرموك، وانضم إلى المسلمين[(١)]، وقَدِمَ إلى المدينة مع خمسمائة من قومه، وذهب إلى الحج، ثم استاء من قرار عمر أن يقتصَّ منه لِلَطْمِهِ مسلماً، فعاد إلى الشام وتنصَّر، وانسحب مع هرقل إلى بلاد الروم[(٢)]، ويروي البلاذري أنه انسحب معه ثلاثون ألفاً علماً بأن المنسحبين الملتحقين بهرقل كانوا من غسان وتنوخ وأياد، ولاحقهم المسلمون فقتلوا منهم مقتلة عظيمة[(٣)].

(١) ابن أعثم ١/ ١٧٠، ٢٤٠، ٣٠٢.
(٢) الأغاني ١٥/ ١٦٢ ويذكر رواية أخرى أنه كان مع ألف من قومه.
(٣) فتوح البلدان ١٦٢.

الفصل التاسع

توجه أهل مكة والرسول (ص) نحو الشمال

الصلات بين الشام والحجاز

كانت لبلاد الشام صلة وثيقة بالحجاز، بحكم اتصالهما الجغرافي وطبيعة البلاد بينهما، فأراضيهما متموجة تخترقها سلاسل جبال السراة التي تمتد من الشمال إلى الجنوب دون أن تكوِّن حاجزاً بينهما. إلا أن الروم الذين كانوا يحكمون بلاد الشام لم يحاولوا الاستيلاء على بلاد الحجاز، بل حرصوا على إقامة علاقات ودية مع العشائر العربية في أطراف دولتهم والحفاظ على علاقات طيبة مع العشائر المقيمة في شمال الحجاز.

وكانت لمكة صلات قديمة ببلاد الشام، فقد نشأ قصيّ عند أخواله بني بلى في أطراف الشام[1]. وكان هاشم أول من مدّ التجارة المكية إلى الشام وأخذ الإيلاف، ولا بد أن عمله كان تعزيزاً لعلاقة كانت قائمة عملياً قبله. ولمّا خاصم عبد المطلب ثقيفاً لجأ معهم إلى كاهن بالشام يقال له عمرو بن مسلمة

---

(١) المنمق لمحمد بو حبيب ٣٥، ٢٦٣.

العذري[1] وكانت لعبد المطلب تجارة مع الشام حيث ذهب إليها شريكه عمرو بن ربيعة[2].

وكان للرسول (ص) وأسرته نصيب كبير في هذه التجارة، فقد كان هاشم جد الرسول (ص) أول من أخذ الإيلاف، ودفن في غزة في آخر سفراته. وكان عبد الله، والد الرسول (ص) يسافر إلى الشام للتجارة. كما أن السفرتين الوحيدتين اللتين ذكرتهم كتب سيرة الرسول (ص) كانتا إلى بلاد الشام! وصل فيهما إلى بصرى، أولاهما مع عمه أبي طالب عندما كان صغيراً ولقي فيها بحيرا الراهب الذي تنبأ له بالنبوّة، والثانية عندما كان في سن الخامسة والعشرين فسافر في تجارة للسيدة خديجة التي تزوجها بعد سفرته وأنجبت له أولاداً، وكانت أول من آمن به وشجعه.

وكانت علاقة الروم بمكة علاقة خاصة وودية، فلم يعزقلوا التجارة معها، فكانت رحلة الصيف لقوافل أهل مكة تسير إلى بلاد الشام، وكانت القافلة من الأنباط تأتي من بلاد الشام بالحنطة والدرمك والزيت والقطنيات إلى المدينة، كما كان بعض يهود المدينة يجلبون السلع من بلاد الشام، ولعلهم كانوا يصدِّرون بعض منتوجات المنطقة، ولا سيما الذهب الذي يُسَكّ منه الدينار وهو العملة الأساسية في بلاد الروم وفي التجارة العالمية[3].

وللإسلام موقف طيب من المسيحية التي كان يعتنقها أهل الشام منذ بدء الدعوة الإسلامية في مكة. فقد نزلت كثير من الآيات في ذكر عيسى ومريم والإنجيل وأشادت بهم. وأشارت إحدى الآيات إلى حسن موقف النصارى من الإسلام حيث قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ﴾ [المائدة/ ٨٢]. ولما انتصر الساسانيون على الروم واحتلوا بلاد الشام وفلسطين ومصر

---

(١) المنمق ٩٩.

(٢) المنمق ٣٥٩، ٣٢٩.

(٣) انظر تفاصيل أوسع في كتاب كرون «تجارة مكة عند ظهور الإسلام». وانظر: محمود إبراهيم «العاصمة التجارية والإسلام».

نزلت آية تظهر عطف المسلمين على الروم وتتنبأ لهم بالانتصار حيث قال تعالى: ﴿الٓمٓ ① غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ② فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ③﴾، [الروم]، ونزلت آيات تؤيد نبوة عيسى وتذكر أنه جاء «من روح اللّه» و«كلمة اللّه ألقاها في مريم»، وكانت هجرة المسلمين الأولى إلى الحبشة التي تؤمن بالنصرانية.

ولمّا هاجر الرسول (ص) إلى المدينة أخذ يهاجم القوافل المكية الذاهبة إلى بلاد الشام، فتعرقلت تجارة أهل مكة وضعفت، غير أن الرسول (ص) كان في السنوات الأولى من الهجرة منشغلاً في مقارعة قريش فلم يركز اهتمامه على تنظيم علاقاته مع بلاد الشام، أو يحاول أن يحل محل أهل مكة في هذه التجارة، واكتفى في البداية بإنشاء علاقات ودية مع القبائل العربية القاطنة في شمال الحجاز وعلى أطراف بلاد الشام. وكشف حصار المشركين للمدينة، في موقعة الخندق، الخطر الذي يمكن أن تولّده العشائر القاطنة في شمال المدينة على قاعدة المسلمين فيها.

ولمّا أظهرت قريش عدم تمكنها من القضاء على الإسلام، وبخاصة بعد فشلها في غزوة الأحزاب، وضعف روحها القتالية، وضمن الرسول (ص) بمعاهدة صلح الحديبية عدم هجوم مشركي قريش على الإسلام وقاعدته على المدينة، تقدَّم بجيش إلى الشمال واستطاع إخضاع المستعمرات اليهودية في خيبر وفدك ووادي القرى، وكان لانتصاره هذا أهمية كبيرة، لأن خيبر وفدك أول مستعمرتين لليهود يستولي عليهما الرسول (ص)، وهما منطقة خصبة غنية وفرت للمسلمين مورداً كبيراً، وسيطرة على مصدر غنيّ كان يموّن القبائل الأخرى بكثير من حاجاتهم الغذائية. ثم إن خيبر كانت منطقة حصينة فيها كثير من الأطم والحصون الدفاعية، وكانت معقلاً لليهود المناوئين للرسول (ص)، وكان لأهلها نفوذ على بقية اليهود وخصوصاً في شمال الحجاز[1]، وأدى استسلامها إلى توقف نشاط اليهود العدائي للرسول، فتخلص من دسائسهم.

(١) انظر مقالنا «أراضي المغانم وأحكام الرسول (ص) فيها» المنشور في مجلة «المنارة».

وكان أهل خيبر قد تحالفوا مع غطفان وطي، فكوَّنوا بهذا الحلف حاجزاً أمام تقدُّم الرسول إلى الشمال، فلما استسلمت خيبر انهار هذا الحلف والحاجز الذي كوَّنه وبذلك امتدت سيطرة الإسلام إلى شمال الحجاز وقرَّبت المسلمين من حدود بلاد الشام والمناطق الواقعة في شمال الحجاز قرب حدود بلاد صحراوية جرداء قليلة المياه، وفيها عدد من الحرات أهمها حرة ليلى وحرة الرجلاء، وسكانها القليلون قبائل بدوية أبرزها فزارة وعذرة وبلى وجذام وكانت خاضعة لنفوذ دولة الغساسنة العربية، فلما زالت تلك الدولة أصبحت كل قبيلة تتَّبع السياسة التي يقررها رؤساؤها دون تنسيق أو استمرارية، غير أنهم لم يخضعوا للبيزنطيين أو يدينوا لدولتهم بالولاء، فلما امتد سلطان الإسلام بعد فتح خيبر إلى تلك المناطق سارع عدد منهم إلى اعتناق الإسلام وإظهار ولائهم لدولته، غير أن بعض هذه القبائل ظل خارج دولة الإسلام.

وقد اعتدى بعض من لم يسلم من بني عذرة على رُسُلٍ كان النبيّ (ص) قد أوفدهم إلى بلاد الشام، فأرسل حملة بقيادة زيد بن حارثة لتأديب هذه القبائل والسيطرة عليها، ولعله استهدف أيضاً استطلاع القوات البيزنطية في تلك المناطق. واشتبكت هذه الحملة مع قوات عربية موالية للروم عند مؤتة، فقتل قائدها واثنان وَلِيا القيادة بعد مقتله، فضلاً عن عدد من المسلمين، فقام خالد بن الوليد وكان مشاركاً فيها بسحب القوات الإسلامية.

واكتفى الرسول (ص) بعد فتح مكة بإرسال حملات إلى أطراف بلاد الشام، دون جهات أخرى، وكانت أبرز حملاته إلى دومة الجندل ومؤتة وتبوك. فأما حملته على دومة الجندل فكانت في ذي القعدة من السنة الخامسة، وهي واحة فيها نخل وزروع، ولم تكن خاضعة للروم، وكانت تُعقد فيها في النصف الأول من ربيع الأول سوق مشهورة عند العرب يتبادل السيطرة عليها الغساسنة والعباديون ويعشرون تجارات الناس فيها، وكانت السيطرة فيها بعد الهجرة لأكيدر بن عبد الملك العبادي[1]. وبلغ الرسول (ص) أن أكيدر ظلم تجار

(١) المحبر ١١٤.

المسلمين ولكنه لم ينشب معهم قتالاً[(١)]. ثم أرسل في السنة السادسة سرية قوامها سبعمائة رجل بإمرة عبد الرحمن بن عوف. وتلاها بسرية بإمرة زيد بن حارثة إلى حسمي وراء وادي القرى ثأراً لقافلة اعتدى عليها رجال من جذام.

وفي السنة الثامنة للهجرة، أنفذ بعد عمرة القضاء سرية إلى ذات أطلاح وهي من بلاد الشام في ديار قضاعة[(٢)]. وتلتها في جمادى حملة قوامها ثلاثمائة رجل، ثم عززهم بمائتين من أهل الشرف من المهاجرين والأنصار فيهم أبو بكر وعمر، وكانت الحملة بإمرة عمرو بن العاص وسُمّيت ذات السلاسل[(٣)].

وفي جمادى من السنة الثامنة أنفذ الرسول (ص) حملة قوامها ثلاثة آلاف رجل أكثرهم من المهاجرين والأنصار، وأعلن الرسول (ص) عن الاستعدادات لها، وعيَّن لها قائدين هما زيد بن حارثة المقرب إليه، وجعفر بن أبي طالب، ابن عمه ليتولى القيادة إذا أصيب زيد وشيَّعهم إلى خارج المدينة، ووصلت الحملة إلى مؤتة قرب معان، وهي من أرض البلقاء من مشارف الشام جنوب شرق البحر الميت، فاهتم هرقل بأمر الحملة، وكان مقيماً في مآب، فجمع جموعاً من الروم والعرب المستعربة[(٤)]. واشتبكت القوات الإسلامية مع قوة بلي يقودها مالك بن رافلة الغساني وفي طليعته شرحبيل بن عمرو الغساني، وكان القتال ضارياً قتل فيه زيد بن حارثة ثم جعفر بن أبي طالب، فتولى القيادة خالد بن الوليد وسحب الجيش الإسلامي.[(٥)] إن هذه المعركة نبهت الروم إلى قوة الإسلام، فزاد اهتمامهم بتوثيق صلاتهم بالقبائل التي في أطراف دولتهم ممن يقيمون في شمال الحجاز.

وغزوة مؤتة تظهر اهتمام الرسول (ص) بالتوسع نحو الشمال. والواقع أن

---

(١) ابن هشام ٣/٢٥٢؛ مغازي الواقدي ٢/٥٦١؛ المحبر ١١٦.
(٢) مغازي الواقدي ٧٥٦.
(٣) الطبري ١/١٦٣٠.
(٤) الطبري ١/١٦١٠.
(٥) الواقدي ٧٦٠؛ ابن سعد ٢/١٤٨؛ الطبري ١/١٦١٠ ـ ٤؛ تاريخ دمشق ١/٣٨٨.

عدم نجاح الغزوة ومقتل قوادها، لم يؤديا إلى تعديل الرسول (ص) سياسته، فقد جهز الرسول حملة أخرى إلى الشمال قادها بنفسه، وقد تم ذلك في أواخر السنة التاسعة في فصل الصيف الحار مما أثار تذمر بعض المسلمين من الحر وصعوبة الحصول على وسائل النقل والتجهيزات وقد سمِّي هذا الجيش (جيش العسرة).

وبالرغم من كل ذلك فقد أصرَّ الرسول على إنقاذ الحملة، وأعلن عن وجهتها خلافاً لعادته في التكتم في وجهة حملاته، ولعل إعلانه هذا لاعتقاده بخلو المدينة من جواسيس للروم بعد أن طهَّرها من العناصر المريبة، أو ربما أراد الرسول بهذا الإعلان أن يظهر أن نتائج غزوة مؤتة لم تؤثر عليه.

تقدمت الحملة إلى الشمال متبعة الطريق التجاري القديم بين الحجاز وبلاد الشام حتى وصلت تبوك، وأقام الرسول في طريقه عدة مساجد، ثم عاد دون أن يشتبك بقتال حامٍ أو يقوم بعمل حاسم واستغرقت هذه الحملة أكثر من شهر.

وتابع الرسول اهتمامه بالجبهة الشمالية، فجهَّز حملة أخرى ولّى قيادتها أسامة بن زيد الذي قتل أبوه في غزوة مؤتة، وكان اختار الرسول (ص) أسامة رغم حداثة سنة إكراماً لأبيه. غير أن الرسول (ص) توفي قبل أن تغادر الحملة المدينة، فتأخر إرسالها. فلما تم انتخاب أبي بكر أنفذ تلك الحملة رغم اعتراض بعض الصحابة على تولّي أسامة قيادة الحملة، ورغم الأخطار التي كانت تهدّد آنذاك المدينة. وكان أبو بكر يعتبر إنفاذ تلك الحملة جزءاً من سياسته الأساسية في عدم تغيير أي قرار اتخذه الرسول. وقد تقدَّم أسامة بحملته نحو الحدود الشمالية إلى آبل الزيت وقضى مدة شهرين في تلك الأطراف دون أن يقوم بعمل حاسم يستحق الذكر. والواقع أن أهمية هذه الحملة ترجع إلى تقرير الرسول إرسالها وإصرار أبي بكر على إنفاذها في تلك الظروف المتوترة وليس إلى الإنجازات الحربية التي قامت بها[1].

---

(١) انظر تفاصيل أوفى في كتابنا «الدولة في عهد الرسول (ص)».

موقف قريش والعرب من الفتوح في جبهة بلاد الشام

لما وَلِيَ أبو بكر الخلافة بعد وفاة الرسول (ص) تابع سياسة الرسول (ص) في التوسع نحو الشمال. وكان أهل مكة أول من استجاب لدعوة أبي بكر في النهوض والانضمام إلى الجيوش التي أنفذها إلى بلاد الشام، ومما يدل على سعة استجابتهم أن عدد من ذكر استشهادهم من قريش في المعارك الأولى في فتوح بلاد الشام يفوق عدد من استشهد من العشائر الأخرى. وتجدر الإشارة إلى أن أبا بكر جعل قيادة هذه الجيوش لرجال من مختلف عشائر مكة كان قد أسلم أكثرهم بعد الحديبية، وهم خالد بن سعيد بن العاص (وهو من المسلمين الأوائل)، ويزيد بن أبي سفيان (أمية) وعكرمة بن أبي جهل، وخالد بن الوليد (مخزوم)، وعمرو بن العاص (سهم)، وأبو عبيدة بن الجراح (فهر)، وشرحبيل بن حسنة (حليف جمح)[1].

وظلت لأهل قريش مكانة متقدمة في بلاد الشام بعد الفتح فإذا «كان اللقاء تقدم ربع قريش من أهل دمشق حتى يكونوا عند راية الأمير والجماعة، ثم ربع كندة عن يمينهم»[2] وكان أهل الشام يسمّون من استقر بالشام من أهل الحجاز (الجالية)[3].

وانضمت إلى الجيوش الإسلامية أعداد من قبائل كعب، وأسلم وغفار ومزينة، ومن عشائر قضاعة القاطنة في أطراف الحجاز الشمالية المتاخمة لحدود الروم مثل بهراء، وكلب، وسليح وتنوخ[4].

استجاب لدعوة أبي بكر جماعات من أهل اليمن ومنهم ذو الكلاع «نهض في قومه من ساعته، وعسكر معه جموع كثيرة من أهل اليمن، ثم جاءت

---

(١) ابن أعثم ١/١٧، ١١٩.
(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ١/٢٦٢.
(٣) الأغاني ٩/٢٢٨؛ أنساب الأشراف ٥/٢٠٢.
(٤) ابن أعثم ١/١٠٤.

نساؤها وأولادها»[1]. «وأقبلت خثعم بنسائهم وأولادهم، وهم دون الألف وفوق التسعمائة، عليهم ابن ذي السهم[2]». كما جاء قيس بن هبيرة المرادي ومعه جمع كبير من مذحج[3]، وحمزة بن مالك الهمداني في ألفي رجل. ويذكر ابن أعثم ممن انتدب لأبي بكر همدان ومراد والأزد[4]، وكان أبو بكر كتب إلى أهل اليمن مع أنس بن مالك في ربيع الآخر للسنة الثانية عشرة[5] ولعله بعد أن تصدى الروم للعرب

موقف العرب في أطراف بلاد الشام من التحرّكات الإسلامية

يروي البلاذري أن أبا بكر عندما اختار القواد للجيوش التي أنفذها إلى بلاد الشام أمرهم أن يستنفروا من يمرون عليه من القبائل ممن لم يرتد[6]. ومن المعلوم أن العشائر التي كانت ديارها في شمال الحجاز شملت طي، وأسد، وفزارة، وغطفان (عبس وذبيان) وعشائر قضاعة وما تشمله من سعد هذيم وعذرة وبلي. وكانت هذه العشائر كافة قد انضمت إلى دولة الإسلام في أواخر حياة الرسول (ص)، ولم يَرِدْ لرجالها ذكر في أخبار الفتوح الأولى في الشام، مما يدل على ضعف إسهامهم في حركات تلك الجبهة.

أما طي فكانت أبرز منازلها في جبل طي عند حائل، ولم يَرِدْ ذكر لعلاقاتها بحكام بلاد الشام أو بغسّان. ويلاحظ أن المصادر السريانية تطلق على أعراب البوادي اسم «طياية» الذي أطلقه الساسانيون والصينيون على العرب،[7] وتدل هذه التسمية على أن طي كانت أكبر العشائر المتصلة بمناطق استيطان السريان ودولهم. وعند ظهور الإسلام، كانت لِطَي منازل في حاضر طي التي تقع قرب

(١) الأزدي ٧؛ ابن عساكر ٢/ ٤٥٢.
(٢) الأزدي ٢٥.
(٣) الأزدي ٧.
(٤) ابن أعثم ١/ ١٠٤.
(٥) ابن عساكر ١/ ٢٤٥.
(٦) فتوح البلدان ١٠٦.
(٧) سيجال أديسا ٢٥.

قنّسرين، ويروي البلاذري عن هشام بن عمار الدمشقي عن عبادة بن أنس «كان حاضر طي قديماً نزلوه بعد حرب الفساد التي كانت بينهم حين نزلوا الجبلين من نزل منهم وتفرّق باقوهم في البلاد، فلما ورد أبو عبيدة عليهم أسلم بعضهم وصالح كثير منهم على الجزية ثم أسلموا بعد ذلك بيسير الزمن وشذ عن جماعتهم»[1]. ويقول اليعقوبي «وبإزاء مدينة قنّسرين مدينة يقال لها حاضر طي بها منازل طي»[2].

كانت جذام ولخم العشيرتين الرئيسيتين في الأطراف الجنوبية من بلاد الشام، وكانت ديار جذام في أطراف حسمى[3].

لم تذكر المصادر مقاومة هذه العشائر القوات الإسلامية عند تقدُّمها، والواقع أن أول معركة خاضها العرب في جنوب بلاد الشام كانت مع قوات من الروم، ولم تذكر المصادر أن العرب قاتلوا فيها مع الروم، وإنما يذكر البلاذري عن أبي حفصة الدمشقي أن العرب لم يقاتلوا قبيل ذلك من الحجاز، ولم يمرّوا بشيء من الأرض فيما بين الحجاز، وموضع هذه الواقعة إلا غلبوا عليه بغير حرب وصار في أيديهم[4].

عندما تقدَّم العرب إلى أطراف بلاد الشام لم يلقوا مقاومة من أهلها فتوغل عمرو بن العاص في فلسطين حتى وصل أطراف غزة كما أن يزيد بن أبي سفيان غلب على جميع أرض البلقاء دون مقاومة تذكر[5].

يذكر الأزدي في كلامه عن موقعة فحل «وجاءت لخم وجذام وعاملة والقين وفصائل من قضاعة فدخلوا مع المسلمين فكثر عددهم وصاروا معهم في

---

(١) فتوح البلدان ١٤٤؛ معجم البلدان لياقوت ٢/ ١٨٥؛ بغية الطلب لابن النديم ١/ ٦٧٩.
(٢) البلدان ٣٢٤؛ بغية الطلب ١/ ١٧٩.
(٣) معجم ما استعجم، البكري ٢٣٥؛ معجم البلدان ١/ ٤٠٧؛ موزيل: شمال الحجاز ١٣٤.
(٤) فتوح البلدان ١٠٨.
(٥) الأزدي: فتوح الشام ٢٣٩؛ ابن أعثم ٢/ ١٠٠.

عسكرهم وأخذ أهل البلد من النصارى يراسلون المسلمين»[١]. ويقول أيضاً إنه بعد تفجُّر المياه في فحل انضم إليهم أهل القرى والرساتيق[٢]. ويذكر أن أبا عبيدة كتب إلى عمر بن الخطاب على أثر الموقعة يخبره أنه سارع إليهم أهل البلد ومن كان على دينهم من العرب[٣]، وأن الروم انسحبوا إلى الحصون وأقام المسلمون على الحصون وقد غلبوا على سواد الأردن وعلى ما فيها[٤].

وفي اليرموك حارب العرب المتنصّرة مع المسلمين، وكانت لخم وجذام وغسان وقضاعة وعاملة في الميسرة[٥].

أما العشائر المقيمة في أقصى الأطراف الشمالية للحجاز فهي عذرة وسعد هذيم وبلي وعاملة وكلها أسلمت متأخرة، ولم تشارك في حركات الردة والانشقاق بعد وفاة الرسول (ص) فاحتفظت بولائها للإسلام ودولته، وكان على صدقاتها الوليد بن عقبة وعمرو بن العاص الذي وَلِيَ قيادة أحد الجيوش الثلاثة التي أنفذها أبو بكر إلى بلاد الشام، ويُروى أنه كان معه عندما خرج من المدينة ثلاثة آلاف، ثم صار له سبعة آلاف، أي إنه انضم إليه بعد خروجه من المدينة أربعة آلاف. ولا بد أن كثيراً من هؤلاء كانوا من العشائر الثلاث المقيمة في أطراف الحجاز الشمالية، غير أنه لا توجد إشارة إلى دور بارز لهم ولرجالهم في أخبار فتوح بلاد الشام.

---

(١) الأزدي ٩٧.
(٢) الأزدي ٩٨.
(٣) الأزدي ١١٠؛ ابن أعثم ٢/ ١٨٥.
(٤) الأزدي ١٢١.
(٥) الأزدي ٢٢٦ ـ ٧؛ ابن أعثم ١/ ٢٢٥.

الفصل العاشر

المصادر وتتابع الحوادث

المصادر

إن المعلومات التي وصلتنا عن فتوح الشام جاءت من روايات عربية لرواة عاشوا في أواخر القرن الأول أو في القرن الثاني للهجرة، ودوَّنها مؤلفون من أهل القرن الثالث الهجري فيما بعد.

أما المصادر السريانية التي ذكرت أخبار فتوح الشام فهي متأخرة نسبياً، ومعلوماتها مقتضبة تطابق ما أوردته الكتب العربية، مما يدل على اقتباسها منها، وأبرز هذه المصادر هي كتاب ثيوفانس (٢٠٤هـ ـ ٨١٩م) ومعلوماته واسعة، ولكنها لا تخرج عما ذكره المؤلفون العرب. وذكر كل من الياس النصيبي ومؤلف إسباني مجهول، وميخائيل السوري معلومات مقتضبة لا تضيف شيئاً إلى ما في الكتب الأخرى.

أما العرب فإن الأولين منهم لم يؤلفوا كتباً، وإنما رووا أخباراً نقلها عنهم عدد ممن تلاهم. وأبرز هؤلاء الرواة: محمد بن مسلم المشهور باسم ابن شهاب الزهري (ت ١٢٤) ومحمد بن إسحاق المطلبي (ت ١٥٠)، ومحمد بن عمر الواقدي (ت ٢٠٧)، وسيف بن عمر التميمي (ت ١٧٠ أو ١٩٠)، وأبو

مخنف لوط بن يحيى (ت ١٥٧)، وعلي بن محمد المدائني (ت ٢٢٥)[1]، والوليد بن مسلم؛ والثلاثة الأولون من أهل الحجاز، وللأول صلة وثيقة ببلاط الأمويين في الشام. أما الاثنان الآخران فهم من أهل العراق، والسابع من أهل الشام.

أما الكتب التي وصلتنا وفيها معلومات عن فتوح الشام فأقدمها «فتوح الشام» لمحمد بن عبد اللّه الأزدي البصري (ت ٢٣١) وكتاب «التاريخ» لخليفة بن خياط (ت ٢٤٠)، و«فتوح البلدان» للبلاذري (ت ٢٧٩)، وتاريخ أبي زرعة الدمشقي (ت ٣٨٠)، وتاريخ اليعقوبي (ت ٢٨٤)، و«الأخبار الطوال» لأبي حنيفة الدينوري (ت ٢٨٢)، وتاريخ الرسل والملوك لمحمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠)، وتاريخ ابن أعثم (ت ٣١٤)، وفيما عدا اليعقوبي والدينوري وابن أعثم فإن هذه الكتب ذكرت معظم الرواة الذين اقتُبِسَت منهم المعلومات. فأما خليفة بن خياط فقد أكثر من الإشارة إلى ما رواه عن ابن إسحاق، وأما البلاذري فقد ذكر ممن روى عنهم في معظم ما رواه وقد أكثر من الرواية عن الواقدي والمدائني كما نقل عن رواة من أهل الشام ذكر أسماء بعضهم، واكتفى بالإشارة عن بعضهم الآخر بأنهم من أهل البلاد التي روى أخبار فتوحها.

أما الطبري فقد عُنِيَ بذكر رواتهم ومن أخذوا منهم، ونقل روايات مقتضبة عن الزهري وابن إسحاق والواقدي، وأفاض في النقل عن سيف بن عمر والمدائني.

كانت هذه الكتب المعين الأكبر لكتب تالية بحثت فتوح بلاد الشام ومن أبرزها تاريخ دمشق لابن عساكر (ت ٥٧٠) و«الكامل في التاريخ» لعز الدين بن الأثير، و«البداية والنهاية» لابن كثير، و«العبر» لعبد الرحمن بن خلدون، و«بغية

---

(١) انظر عنهم: فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، م ١، ج ٢، عبد العزيز الدوري، «نشأة علم التاريخ عند العرب».

لطلب» لابن العديم. ولكتاب ابن عساكر مكانة متميزة لاستيعابه مادة المصادر الأولى المطبوعة والمفقودة، ونقلها تبعاً للحوادث أو المسهمين فيها. فمادته غنية مستوعبة وتعليقاته لا تثمن ولا غنى عنها.

وتجدر الإشارة إلى ما ذكرته كتب النسب، لا سيما كتابَيِ «الأنساب» لهشام ابن محمد الكلبي، و«نسب قريش» لمصعب الزبيري، ففي كل منهما معلومات عن رجال شاركوا في الفتوح وعن علاقاتهم النسبية والمعارك التي شاركوا فيها واستشهدوا. ولكن ثمة تباين في تواريخ المعارك وتسلسلها الزمني وفي أسماء القادة، وفي عدد من التفاصيل الأخرى.

وقد عُنِيَ عدد من الباحثين المحدثين بدراسة فتح العرب للشام، وأبرز هؤلاء دي غويه في دراسته «مذكرة عن فتح بلاد الشام» وميدنكوف عن «معركة أجنادين» التي اعتمدها العميد طه الهاشمي في دراسته لتلك المعركة ونشرها في مجلة المجمع العلمي العراقي، وكايتاني في كتابه الواسع «حوليات الإسلام» الذي دوّن فيه أحداث «الفتوح الإسلامية» مرتبة على السنين؛ كما بحث في كتابه «دراسات في تاريخ الإسلام» دوافع الفتوح، ولكتاب دونر «الفتوح الإسلامية» مكانة متميزة لشموله وغزارة مادته، واهتمامه بتوضيح بعض الجوانب التي لم يُعنَ بها من قبله.

وبحث عدد من العرب في الفتوح، نذكر منهم جورج مرعي حداد في رسالته فتح العرب لبلاد الشام وقد اعتمد على دي غويه؛ كما بحث هذه الفتوح أحمد كمال عادل في كتاب خاص هو حلقة من سلسلة كتبه القيِّمة في فتوح العراق وبلاد الشام.

وخصَّ المجلد الثاني من وقائع المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام بأحوال هذه البلاد عند الفتح الإسلامي، وعرض المشاركون في الندوة أبحاثاً قيِّمة عن جوانب متعددة لأحوال البلاد خلال هذا الفتح.

ونُشِرَتْ عدة أبحاث عن الحروب الإسلامية البيزنطية، ومن أبرزها كتاب «النزاع بين العرب والروم» لعبد الهادي شقير.

أما فتح مصر فلا يزال أوسع كتاب حديث معتمد هو كتاب ألفرد بتلر «فتح العرب مصر» الذي كان معتمد كتاب «عمرو بن العاص» لحسن إبراهيم حسن. أما الكتب القديمة فأقدمها وأوسعها كتاب «فتوح مصر وإفريقية» لابن عبد الحكم، و«الولاة والقضاة» للكندي، و«الخطط المقريزية».

أما بلاد شمال إفريقية والمغرب، فمن أقيم الكتب الحديثة عنها «فتح العرب للمغرب» لحسين مؤنس، و«تاريخ المغرب» لسعد زغلول اللذين اعتمدا على مؤلفات أهل المغرب القدماء، وعلى عدد من الدراسات الحديثة، وعليهما كان اعتمادنا.

أما الأندلس فمن أقيم الكتب الحديثة عنها كتابا «إسبانيا الإسلامية» لبروفنسال، و«فتح العرب للأندلس» لحسين مؤنس، وعليهما كان اعتمادنا.

السمات الخاصة للحركات العسكرية والمعارك في بلاد الشام

قاتل العرب في فتوح العراق وبلاد الشام قوات عسكرية لها تاريخ طويل في الحروب لكثرة ما خاضت من معارك كبيرة أكسبتها خبرات واسعة، واستقرت فيها تقاليد، كانت هذه القوات تابعة لدولتين تضم كلٌّ منهما بلاداً واسعة تمدها بالرجال والأموال، وكان قتال العرب المسلمين لكلٍّ من هاتين القوتين جديداً عليهم ولم تكن لهم قبله خبرات واسعة فيها؛ والمعارك التي خاضها العرب ضد الفرس قبل الإسلام كانت معارك محدودة في زمانها ومكانها ونطاقها، ولم تكن من السعة والتكرر، بما يكفي إكساب العرب خبرة في معالجتها، وهذا ينطبق بمقياس أضيق على علاقاتهم بالروم.

غير أن العرب لم يكونوا جاهلين كلياً بالقوات العسكرية لكلٍّ من الدولتين الفارسية والرومية، حيث إن عدداً من العرب شارك في القتال مع جيوش كلٍّ منهما، كما أن الصلات السلمية بين العرب وهاتين الدولتين يسّرت لهم فرصة الاطلاع على أحوالهما الجغرافية والإدارية والمادية، وعلى التعرف إلى نُظُمِهما العسكرية وقواتهما، وربما إلى كثير من تقاليدهما.

ويختلف مجرى تسلسل معارك الفتح في العراق عنه في بلاد الشام حيث إن الفتوح في العراق مهدت لها حركات قطبة بن قتادة والمثنى بن حارثة التي وإن لم تصطدم بقوات عسكرية فارسية كبيرة إلا أنها قدَّمت حوافز إضافية، ونبَّهت الفرس إلى خطر تقدُّم العرب وإن لم يتخذوا تجاهه في المراحل الأولى أعمالاً حاسمة.

واتخذت سلسلة المعارك التي خاضها العرب المسلمون في جبهة العراق خطوطاً مستقيمة جرت عليها هذه المعارك، فكانت حركات خالد بن الوليد سلسلة من المعارك جرت من الجنوب إلى الشمال، مبتدئة بكاظمة، فالأبلة، فالولجة، فألّيس، فالحيرة، فالأنبار، فعين التمر، فالمثنى. أما حركات سعد بن أبي وقاص فقد سلكت خطاً مستقيماً من الغرب إلى الشرق مبتدئة بالقادسية والحيرة التي كانت منطقة البدء الأساسية، ثم سارت إلى المدائن فجلولاء فنهاوند، وتفرَّع منها فرع إلى كسكر وفرعان رئيسان نحو الشمال سلك أحدهما وادي دجلة إلى تكريت بالموصل، وسلك الثاني شهرزور والجبال فأذربيجان.

ومثل هذه الخطوط المستقيمة اتّبعت بعد نهاوند حيث سلك خط إلى الري فجرجان، والثاني إلى أصفهان. وسلكت فتوح البصرة، فيما عدا الأهواز، مثل هذا الخط إلى إقليم فارس فخراسان التي خاض العرب للاستيلاء عليها معارك متعددة ومتناثرة للاستيلاء على من قاوم العرب من مدنها. ولم يعد للفرس بعد اندحارهم في نهاوند قوة ذات سلطة عليا توجِّه مقاومة العرب.

وعمدت الخلافة إلى أن يقاتل الجيش في جبهة العراق مجموعة موحدة بإمرة قائد واحد منذ أن أرسل خالد بن الوليد، فابن عبيد، فجرير البجيلي، فسعد بن أبي وقاص، ثم عبد الله بن عامر ومن تلاه في ولاية خراسان. وكانت مهمة الجيش الإسلامي ملاحقة جيش الفرس ومقاتلته وفيما عدا ألّيس والأنبار وبهرسير، فإنه لم يقاتل حصوناً، ولم تفرِّقه وتشعِّب تكتله مقاومات مدن، فالفرس لم يستغلوا المدن في مقاومة تقدُّم الجيش العربي.

أما جبهة بلاد الشام فكان الوضع فيها مختلفاً، حيث أرسل العرب منذ

البداية عدة قواد يقاتل كلٌ منهم في جبهة خاصة مع الجند الذين بإمرته، وبذلك كانت قواتهم في البداية متفرقة، وحتى عندما اقتضت الظروف تجميع قواتهم، فإن القيادة ظلت متفرقة وغير موحدة إلى زمن خلافة عمر بن الخطاب، أي بعد أكثر من سنتين خاضوا خلالها عدة معارك كبيرة، وقد اختلف الرواة القدماء في تحديد أعمال القادة المسلمين، رغم اتفاقهم على أسمائهم، إلى أن وَلِيَ عمر بن الخطاب الخلافة فوحَّد القيادة.

ولم تكن خطوط تقدُّم العرب في جبهة بلاد الشام مستقيمة أو مطّردة، ولعل من أبرز أسباب ذلك أن المدن في بلاد الشام كانت متعددة. ولكلٍّ منها كيان متميز، وأكثرها كان محصناً بأسوار منيعة، وكانت تخترق البلاد سلاسل جبلية تمتد من الشمال إلى الجنوب فتيسر للعرب التقدم في السهول التي بينها، ولكنها تعيق تقدُّمهم من الشرق إلى الغرب، فضلاً عن السواحل الطويلة للبحر المتوسط ووجود الأسطول البيزنطي مما يجعل الحركات تحدث في أماكن متعددة، ويزيد في إرباك القوات العربية الإسلامية ويحملها على عدم التمسك بالسير في خطوط مستقيمة. وكان هذا من أسباب اختلاف الرواة في وصف التسلسل الزمني للمعارك وتقدير أهمية كلٍّ منها.

ثم إن الامبراطور هرقل، وهو القائد الأعلى للروم، كان يتميز بالمفاجآت والاهتمام بالالتفاف ومفاجأة خصومه بضربهم من الوراء، وهذا ما فعله عندما تقدَّم من تونس إلى اليونان فالقسطنطينية، في حملته التي قادها بنفسه وهدد فيها عاصمة الفرس فأجبرهم على الانسحاب من أطراف القسطنطينية ومن مصر عندما توجهوا إليها.

غير أن القوات الإسلامية في جبهة العراق تابعت تقدُّمها إلى أواسط آسيا بعد تضعضع الحكم الساساني بسقوط العاصمة طيسفون القريبة من حدوده الغربية. أما البيزنطيون فكانت عاصمتهم القسطنطينية في الشمال بعيدة عن جبهة القتال، يفصلها عن بلاد الشام سلاسل جبال طوروس الوعرة، ووراءها هضبة الأناضول الواسعة والمعقدة أحوالها الجغرافية، إضافة إلى أن الروم كانوا

يهيمنون على شرق أوروبا ويستفيدون من رجالها في متابعة قتال العرب؛ ولهم أسطول يسيطر على البحر المتوسط؛ مما أوقف العرب في تقدُّمهم إلا في شمال إفريقية حيث سارت حركاتهم بخطوط مستقيمة عموماً حتى أوصلتهم جبال البيرانيس ولم يكن للأسطول البيزنطي دور في عرقلة تقدُّمهم؛ واقتصر دوره على تهديد غير حاسم لموانىء بلاد الشام والجزر القريبة منه.

الفصل الحادي عشر

المقاتلة العرب في جبهة بلاد الشام

كان أول عمل قام به أبو بكر بعد تولّيه الخلافة هو إنفاذ حملة أسامة بن زيد في أحوال كانت فيه الدولة الإسلامية تواجه أزمات خطيرة، وقد قام بذلك بالرغم من حاجة الدولة إلى مقاتلة تكون قريبة من الخليفة وتحت تصرفه، ومعارضة بعض الأنصار لاختيار أسامة[١]، وهذا الإنفاذ يظهر عزم أبي بكر على متابعة سياسة الرسول (ص) دون تبديلها مهما كانت الأحوال. وكان جيش أسامة مكوَّناً من العشائر الحجازية التي بقيت متمسكة بالإسلام ودولته، ومن أهل المدينة، بعد أن أبقى عدداً منهم ليكونوا كالمسالح للمدينة[٢]، ولم يذكر عدد هذا الجيش.

توجَّه أسامة مع قواته إلى بلاد قضاعة في الشمال حيث قضى أربعين يوماً أخضع خلالها بعض من انشق على الدولة[٣]، ووصل إلى آبل[٤] بعد أن أمن سيطرة الدولة على قضاعة.

ثم ولّى أبو بكر عمرو بن العاص والوليد بن عقبة صدقات قضاعة وكتب إليهما «أن استخلفا على أعمالكما وأندبا من يليكما فقَدِمَ اليهما بشر كثير،

(١) الطبري ١/١٨٤٩.
(٢) الطبري ١/١٨٤٨.
(٣) الطبري ١/١٨٥١، ١٨٧١.
(٤) الطبري ١/١٨٧٢.

وانتظرا أمر أبي بكر»[١]، ومن الواضح أن الذين انتدبوا هم رجال من عشائر قضاعة الموالية للإسلام، وهي سعد هذيم وعذرة ومن لفها من جذام وحدس[٢].

وكان أبو بكر يفكر في توجيه القوات الإسلامية إلى بلاد الروم، ويروي أبو زرعة أنه قال «فواللَّه لقرية من قرى الشام يفتحها اللَّه على المسلمين أحب إلي من رستاق عظيم من رساتيق العدو»[٣]. وينقل ابن عساكر أن أبا بكر «حدث نفسه بأن يغزو الروم فلم يطلع عليه أحداً، وأن شرحبيل بن حسنة أدرك بحدسه ما يجول ببال أبي بكر ففاتحه وشجعه وقال إن فيها الزرع والقرى والحصون شنوا الغارة على أعداء اللَّه»[٤]. ويُروى أيضاً أن أبا بكر عندما أعلن فكرته أيده جماعة من المهاجرين والأنصار، وأن عمر بن الخطاب قال له «تبعث الخيل فتغير في قواصي أرضهم ثم ترجع إليك»[٥].

واهتمام أبي بكر في التوجه نحو الشمال هو متابعة لأعمال الرسول (ص) في سنواته الأخيرة، وإذا لم يكن أبو بكر قد أسهم في وضع خطط الرسول (ص) فهو قد تفهَّم دوافعها ومراميها، غير أن توزيع القوات التي أرسلها على عدة قواد لتتوجه إلى عدة جهات يدل على أن غرضها في أول الأمر هو القيام بغارات في عدة جهات تكشف قوات العدو ودفاعاتهم فتضعفهم وتيسِّر القضاء عليهم وخصوصاً أن آثار حركات الانشقاق والردة لم يتمَّ اجتثاثها بعد. وعبَّر عن ذلك سيف بن عمر بقوله إن أبا بكر عندما بعث أبا عبيدة ويزيداً أمر كلاً منهما بالغارة وألا يتوغلوا حتى لا يكون وراءهم أحد من

(١) الطبري ١/٢٠٨٣؛ تاريخ دمشق لابن عساكر ١/٤٥٢.
(٢) الطبري ١/٢٠٨٢؛ ابن عساكر ١/٤٥٢.
(٣) تاريخ أبي زرعة ١٧٢.
(٤) ابن عساكر ١/٤٤١.
(٥) ابن عساكر ١/٤٤٥.

عدوّهم[1]، وكان يدرك أن الروم ستشغلهم «فأحب أن يصعد المصعد ويصوب المصوب لئلا يتواكلوا»[2].

ويذكر الطبري أن أبا بكر كتب إلى الوليد بن عقبة، وكان يلي صدقات قضاعة بالأردن وأيّده،[3] غير أنه لم يذكر للوليد وقواته حركات أو دوراً بارزاً في الفتوح، وإنما لحق بخالد بن سعيد.

كانت أولى القوات العربية التي توجهت إلى الشام هي التي سارت مع القواد العرب الأولين الذين أنفذهم أبو بكر، وهم عمرو بن العاص والوليد بن عقبة اللذان ولّاهما على صدقات العشائر التي ديارها أطراف بلاد الشام، ثم كتب إلى عمرو بن العاص «إني قد استعملتك على من مررت به من بلي وعذرة وسائر قضاعة ومن سقط هناك من العرب فأبدأهم على البر والجهاد، فمن تبعك منهم فأهّله وزوّده، ورافق بينهم واجعل كل قبيلة على حدتها ومنزلتها»[4]؛ ويذكر ابن عساكر أن عَمْراً كان في طريقه من المدينة إلى الشام يدعو الأعراب الذين يمرُّ بهم إلى الانضمام إليه فانضم إليه عدد كبير فبلغ الشام في جيش من الفين[5].

ويذكر أيضاً أن عمرو بن العاص عندما تحرك إلى بلاد الشام قدم «امامه مقدمة عليهم سعيد بن الحارث السهمي، ودفع لواءه إلى الحجاج بن الحارث السهمي، وكان جند عمرو الذين خرجوا معه من المدينة ثلاثة آلاف، فيهم ناس كثير من المهاجرين والأنصار، وخرج أبو بكر الصديق يمشي إلى حيث راحلة عمرو بن العاص»[6] وقد تم جمع هذه القوات بالندب[7].

---

(١) الطبري ١/٢١١١.
(٢) الطبري ٢/١٠٨٦.
(٣) الطبري ١/٢٠٨٤.
(٤) الطبري ١/٢١٠٨؛ ابن عساكر ١/٤٥٢.
(٥) الأزدي ٢٥١؛ ويذكر ابن عساكر ١/٤٤٦ أن الجيش بلغ ثلاثة آلاف.
(٦) ابن سعد ٣ ـ ٢/٢٠٠؛ تاريخ دمشق لابن عساكر ١/٤٤٦.
(٧) الطبري ١/٢٠٨٣؛ تاريخ دمشق لابن عساكر ١/٤٤٦، ٤٥٢.

يتبين من هذه النصوص أن عماد القوة التي سارت مع عمرو بن العاص هي عشائر بلي وعذرة ومن بقربها، وانضم إليها «ناس كثير من المهاجرين والأنصار» من أهل المدينة، ورتبوا تبعاً لانتمائهم القبلي «وكل قبيلة على حدتها ومنزلتها» وبلغ عددهم ثلاثة آلاف، وكان للسهميين مكانة خاصة في القيادة، ولعل تركيب جيش الوليد بن عقبة الذي لم ترد عنه تفاصيل كان يشبه جيش عمرو بن العاص.

وكتب أبو بكر إلى عمرو بن العاص أيضاً «إني قد استعملتك على من مررت به من بلي وعذرة وسائر قضاعة وقد سقط هناك من العرب فادعه على البر والجهاد واجعل كل قبيلة على حدتها ومنزلتها». وكتب إليه «قد أحببت أن أفزعك لما هو خير لك في حياتك ومعادك منه».

ويقول أيضاً إن عمرو بن العاص خرج من المدينة، وخرج إليه سهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، وابن أخيه عكرمة بن أبي جهل وهؤلاء الثلاثة في ثلاثة آلاف فارس من قومهم ومواليهم[1]. وخرج إليه أبو الأعور السلمي، وحصن بن يزيد ابن عمه في ألف وسبعمائة فارس، وخرج إليه الضمادة بن قيس الفهري في ثلاثمائة فارس، وعمير بن صداء المرادي في مائتي فارس، فصار عمرو بن العاص في قريب من ثلاثمائة فارس[2].

ويذكر الطبري أن عمرو بن العاص بعد أن جمع قوات من قضاعة أمدَّه أبو بكر بمن انتدب له[3].

ذكر الطبري أنه بعد استقرار سلطة الدولة في جزيرة العرب «كتب أبو بكر إلى عمال الردة فإن أحب من أدخلتم في أموركم إلى من لم يرتد، ومن كان

(١) ابن أعثم ١/١٢٣.
(٢) فتوح البلدان ١٠٧.
(٣) تاريخ خليفة ٨٥؛ الطبري ١/٢٠٨٩ (عن ابن إسحاق).

ممن لم يرتد فاجمعوا على ذلك، فاتخذوا منها صنائع، وائذنوا لمن شاء في الانصراف، ولا تستعينوا بمرتد في جهاد عدو»[1].

كانت دعوة أبي بكر دعوة عامة، غير أن لها وقعاً خاصاً في الحجاز واليمن، لأن العشائر المرتدة فيهما كانت قليلة؛ وكان الأذواء والمتنفذون الذين يسيطرون على غالبية مناطق اليمن قد اتصل رجال منهم بالرسول (ص) ولم يشاركوا في حركات الردة والانشقاق، ولا بد أنهم كانوا أكثر استعداداً للاستجابة إلى دعوة أبي بكر والتعاون معه. وكانت هذه الدعوة تهيّيء لهم مجالاً لاستغلال طاقاتهم وإمكانياتهم العسكرية التي كانت تستنفد محلياً دون نتائج حاسمة، في حين أن دعوة أبي بكر تيسِّر لهم مجال استغلالها تحت ظل دولة واسعة فتكون ضمن حركة شاملة تتوجَّه إلى خارج الجزيرة، ولا بد أن بعضهم كانت له خبرات في التعامل مع القوات الأجنبية من خلال حروبهم مع الأحباش والفرس، وكانت طموحاتهم أوسع مع بلاد الشام حيث كانت لهم صلات تجارية قديمة.

ويذكر الأهدل أن أبا بكر كتب إلى أهل اليمن في جهاد الروم يذكر لهم الجهاد ويقول «وقد استنفرنا من قِبَلنا من المسلمين إلى جهاد الروم، وقد سارعوا إلى ذلك وعسكروا، وخرجوا وحسنت في ذلك نيَّتهم، وعظمت في الخير حسبتهم، فسارعوا عباد اللّه إلى فريضة ربكم وإلى إحدى الحسنيين: إما الشهادة وإما الفتح والغنيمة»[2].

ويذكر البلاذري أن أبا بكر كتب إلى أهل مكة والطائف واليمن وجميع العرب بنجد والحجاز يستنفرهم للجهاد ويرغبهم فيه وفي غنائم الروم فسارع الناس إليه من بين محتسب وطامع، وأتوا المدينة من كل أوب[3].

ويذكر الطبري أنه «قَدِمَ على أبي بكر أوائل مستنفري اليمن ومن بين مكة واليمن، وفيهم ذو الكلاع، وقَدِمَ عليه عكرمة قافلاً وغازياً فيمن كان معه من

---

(١) الطبري ١/٢٠١٧.

(٢) الوثائق السياسية ١٣٠٢ نقلاً عن أبي حسان في تقريب صحيح ابن حبان.

(٣) فتوح البلدان ١٠٦.

تهامة وعُمان والبحرين والسرو، فكتب لهم أبو بكر إلى أمراء الصدقات أن يبدلوا من استبدل، فكلهم استبدل فسُمّي جيش البدال[1].

يدل سياق كلام سيف أن جيش البدّال كان من العشائر التي شارك رجالها في قتال المرتدة مع عكرمة، وأن رجاله لم يشاركوا في القتال الثاني، وإنما أبدلوا بمن لم يشارك فيها من عشائرهم.

أما عمرو بن العاص فسار معه ثلاثة آلاف، ثم تابع أبو بكر إمداده وغيره من القواد حتى صار معه سبعة آلاف وخمسمائة[2].

والجدير بالذكر أن البلاذري يقول «كان كل أمير في بدء الأمر على ثلاثة آلاف رجل، فلم يزل أبو بكر يتبعهم الإمداد حتى صار مع كل أمير سبعة آلاف وخمس مائة، ثم تتام جمعهم بعد ذلك أربعة وعشرين ألفاً»[3].

ويقول ابن سعد إن أول الأمراء الذين خرجوا إلى الشام خرجوا من سبعة آلاف وهم جمهور من انتدب له، ومن جنده سهيل بن عمرو وأتباعه من أهل مكة وكان من جيشه أبو إمامة الباهلي، وكان أبو بكر يخير الناس للالتحاق بمن يحبون، ووجّه يزيد إلى البلقاء واجتمع إلى أبي بكر أناس فأمر عليهم معاوية وأمره باللحاق بيزيد[4].

ويروي سيف بن عمر أنه قَدِمَ على أبي بكر إثر هزيمة خالد بن سعيد في زيزاء أوائل مستنفره من بين مكة واليمن وفيهم ذو الكلاع، وقَدِمَ عليه عكرمة

---

(١) ابن عساكر ١/ ٤٥١، وقد يكون للبدال علاقة بالأبدال الذين يذكر ابن منظور أنهم قوم من الصالحين بهم يقيم إليه الأرض أربعون في الشام وثلاثون من سائر البلاد، ولا يموت منهم أحد إلا قام مكانه آخر ولذلك سموا الأبدال ابن شميل عن علي الابدال بالشام والنجباء بمصر والعصائب في العراق والإبدال خيارى ابن السكيت، يسمى المبرزون في الصلاح أبدالاً لأنهم أبدلوا من السلف الصالح (لسان العرب ١٣/ ٥٠)، وانظر ابن حنبل ١/ ١١٢، ٥/ ٣٢٢، ٦/ ٢١٦.

(٢) الطبري ١/ ٢٠٨٢، ٢٠٨٣، ٢٠٨٤.

(٣) فتوح البلدان ١٠٧، ويذكر ابن أعثم أنه صار مع عمرو خمسة آلاف ١٢٤.

(٤) الطبري ١/ ٢٠٨٤، ٢٠٨٥.

قافلاً وفانياً فيمن كان معه من تهامة وعُمان والبحرين والسرو. وعند ذلك اهتاج أبو بكر للشام وعناه أمره[1].

ويروي الوليد بن مسلم أنه بعد القضاء على خطر حركات الردة جاءت أبا بكر وفود العرب مجتمعة على الإيمان بالله والإقرار بتوحيده والعمل بفرائضه وجهاده فدعاهم إلى جهاد قيصر وكسرى فأجابه إلى ذلك جماعة من المهاجرين والأنصار ومهاجرة الفتح وأمداد أهل العالية واليمن، فاجتمع له منهم أربعة وعشرون ألفاً، ووَلِيَ عليهم الأمراء، فمضوا لما وجَّههم إليه[2].

وكان أبو بكر كلما قَدِمَ عليه وفد من العرب وجَّههم إلى بلاد الشام[3].

ويقول ابن أعثم أنه «انتدب إلى أبي بكر خلق كثير من همدان وأسلم وعقار ومزينة ومراد والأزد وجميع القبائل»[4]. «وجعل الناس يجتمعون إلى هاشم بن عتبة بن أبي وقاص حتى صار له قريب من ثلاثة آلاف، وكان منهم قيس بن جبر»[5].

ويقول أيضاً إن أبا بكر أنفذ سعيد بن هذيم في سبعمائة ومعه بلال، ثم سار سعيد بن عامر في ألفي رجل ولحق بأبي عبيدة بن الجراح[6].

يقول البلاذري «كان كل أمير في بدء الأمر على ثلاثة آلاف رجل[7]، حتى تتام جمعهم بعد ذلك أربعة وعشرين ألفاً»[8].

ويذكر ابن أعثم أن عمر أمدَّ المقاتلة من الشام بثلاثة آلاف فارس عليهم سويد بن الصامت[9]، وأن سعيد بن رفاعة الحِمْيري قَدِمَ المدينة مع

---

(١) ابن عساكر ١/ ٤٥١.
(٢) ابن عساكر ١/ ٤٥٠؛ فتوح البلدان ١٠٧.
(٣) ابن أعثم ١/ ١١٩.
(٤) ابن أعثم ١٠٤.
(٥) ابن أعثم ١/ ١١٤، ١١٦.
(٦) ابن أعثم ١١٩.
(٧) ابن أعثم ١٢٣.
(٨) ابن أعثم ١/ ١٢٣.
(٩) ابن أعثم ١/ ١٢٢.

قومه من حِمْيَر فسيَّره عمر إلى قتال الروم[1]، والراجح أن ذلك كان قبل اليرموك.

القادة

تطلبت الأعداد الكبيرة التي تقدمت للمشاركة في الحركات العسكرية والفتوح أن تنظم لها قيادات. وذكرت المصادر معلومات وافية عن القادة الأولين الذين ولَّاهم أبو بكر في تنظيمه الأول، وهي تتفق على أن هؤلاء القادة كانوا خالد بن سعيد بن العاص، وعمرو بن العاص، ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة، وأبا عبيدة بن الجراح وعكرمة بن أبي جهل، ثم انضم إليهم خالد بن الوليد قادماً من العراق، غير أن المصادر تقدِّم معلومات متباينة عن زمن تعيين كلٍّ منهم والجهة التي أوكل إليه التقدم إليها، وعدد القوات التي كانت بإمرة كلٍّ منهم ولم يكن فيهم من قاد جيشاً للقضاء على الردة غير عكرمة. ولم يولِّ قائداً عاماً.

(١) ابن أعثم ١/١٤٩.

الفصل الثاني عشر

القواد والمعارك الأولى

القادة الأولون

يذكر الزهري، وسعيد بن المسيب والواقدي وأبو زرعة أن أبا بكر «بعث خالداً (ابن الوليد) على جيشه قبل العراق، وبعث إلى الشام ثلاثة أمراء: خالد بن سعيد بن العاص على جند، وعمرو بن العاص على جند، وشرحبيل بن حسنة على جند فلم يزل عمر بأبي بكر حتى عاد يزيد بن أبي سفيان على جند»[1]. وينقل موسى بن عقبة رواية الزهري هذه ويضيف «ثم نزع خالد بن سعيد، وأمر على جنده يزيد بن أبي سفيان، فأدركه بذي المروة»[2].

ويقول ابن شبة إن أول لواء عقده أبو بكر لواء خالد بن سعيد بن العاص[3]. ويقول الوليد بن مسلم تعليقاً على رواية الزهري إن «الأثبت هو أن يزيد وَلِيَ القيادة قبل أن يسير الجيش إلى الشام»[4].

وذكر ابن إسحاق أن أبا بكر ولّى كلاً من عمرو بن العاص وأبي عبيدة وشرحبيل بن حسنة.

---

(١) ابن عساكر ١/٤٤٨، وانظر ١/٤٤١؛ ابن أعثم ١/١١٢؛ فتوح البلدان ١٠٧.

(٢) ابن عساكر ١/٤٥٣ ـ ٤.

(٣) الطبري ١/٢٠٧٩ وعن ابن شبة، ابن سعد ٣ ـ ٢/١٦٨.

(٤) ابن عساكر ١/٤٥٣ ـ ٤.

وذكر سعيد بن المسيب والواقدي أن أبا بكر عقد لثلاثة قواد: عمرو بن العاص، ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة[١].

وذكر المدائني أن أبا بكر أنفذ يزيداً وشرحبيل وأبا عبيدة[٢].

وذكر ابن أعثم أن الأمراء كانوا معاذ بن جبل، وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان[٣]. ولم يذكر غيره ولاية معاذ. ويقول سيف بن عمر إن أبا بكر اتبع يزيداً شرحبيل بن حسنة ثم أبا عبيدة[٤].

تتفق هذه الروايات على أن أوائل من ولّوا قيادة الجيوش في جبهة بلاد الشام هم خالد بن سعيد، وعمرو بن العاص، ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة، ولكنها تختلف في تحديد زمن ولايتهم ودور كل منهم، فيقول ابن إسحاق أن أبا بكر حجّ سنة ١٢ ثم أرسل البعوث[٥]، وأنه استشار أصحابه في ربيع الأول، واستنفر أهل اليمن في ربيع الآخر[٦].

ويروي البلاذري أن أبا بكر «كان عقد هذه الألوية يوم الخميس لمستهل صفر سنة ١٣، وذلك بعد مقام الجيوش معسكرين بالجرف المحرم كله، وأبو عبيدة يصلي بالناس»[٧].

إن خالد بن سعيد بن العاص كان أبوه من المسلمين الأوائل، وممن هاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية[٨]، وظل فيها إلى أن عاد مع أصحابه بعد صلح الحديبية وكان خالد من كتّاب الرسول (ص)، وكتب له معظم الكتب التي

(١) ابن عساكر ١/٤٠٥، ٤٤٧، وانظر فتوح البلدان ٣٧.
(٢) الطبري ١/٢٠٤٧.
(٣) ابن أعثم ١/١٠٢.
(٤) الطبري ١/٢٠٨٥.
(٥) الطبري ١/٢٠٧٨.
(٦) تاريخ خليفة ٨٧ (عن ابن إسحاق)؛ تاريخ الأزدي ٩٠؛ ابن عساكر ١/٤٤٥.
(٧) فتوح البلدان ١٢٨؛ الطبري ١/٢٠٧٨.
(٨) تاريخ خليفة ٦٢؛ ابن سعد ٣ ـ ١/١٣٩؛ بغية المستفيد ٩.

وجهها الرسول (ص) إلى أهل اليمن، ثم ولّاه الرسول (ص) صدقات مراد وزبيد ومذحج في اليمن،[1] كما ولّى أخوته: أباناً على البحرين، وعَمْراً على تيماء ووادي القرى وخيبر وقرى عربية، والحكم على السوق[2]. ولما توفي الرسول (ص) عاد إلى المدينة، وتلكأ في مبايعة أبي بكر الذي ولّاه قيادة جيش توجّه إلى تيماء وكتب له أني قد استعملتك على من مررت به من بلي وعذرة وسائر قضاعة ومن سقط هناك من سائر العرب، فاندبهم إلى الجهاد ورغبهم فيه فمن سقط منهم فاحمله وزوّده ورافق بينهم واجعل كل قبيلة على حدة. وعمل على ضم القبائل العربية حول تيماء إلى جيش الإسلام، وكان عمر معارضاً لتوليته على أن فيه ضعفاً[3]، وكان «أول الأمراء الذين خرجوا إلى الشام»[4]. وكان ممن معه سهيل بن يزيد بن عمرو وأشباهه من أهل مكة[5]. وأدرك الروم خطره فوجهوا إليه قوة بقيادة باهان تغلبت عليه في زيزاء عند آبل الزيت فانهزم إلى ذي المروة[6] داخل الحجاز، على ستين ميلاً من المدينة، وظل مقيماً فيها مع جنده إلى أن أمره أبو بكر بالعودة والانضمام إلى الجيوش الإسلامية، وقتل في أجنادين مع أخيه أبان[7].

أما عمرو بن العاص السهمي فهو من دهاة العرب، أسلم بعد صلح الحديبية، وأرسله الرسول (ص) إلى عُمان لإسناد حاكمها الجلندى الذي أعلن انضمامه إلى الإسلام ودولته، ثم عاد إلى المدينة فولّاه الرسول (ص) صدقات قضاعة القاطنة في الأطراف الشمالية الغربية من بلاد الشام.

---

(1) فتوح البلدان ١١٨.
(2) ابن سعد ٣ ـ ٢/٦٦٨؛ الطبري ١/٢٠٧٢ عن ابن شبة.
(3) ابن عساكر ٣٤/٥١.
(4) الطبري ١/٢٠٨٤.
(5) ابن سعد ٣ ـ ٢/١٧٠؛ ابن عساكر ١/٣٤٣.
(6) ابن سعد ١ ـ ٢/٦٦؛ ابن عساكر ١/٤٤٨، ٤٥٤.
(7) ابن عساكر ٣٤/٣٥٩.

فأما شرحبيل بن حسنة فأصله من كندة، سكن مكة حليفاً لبني جمح، وهاجر مع إخوته إلى الحبشة في الهجرة الثانية، وعاد منها مع جعفر بن أبي طالب بعد صلح الحديبية[١] ولم يذكر له دور ملحوظ في زمن الرسول (ص) سوى أنه ممن شهد كتاب صلح يوحنا بن رؤبة صاحب قضاء[٢].

ويذكر سيف بن عمر أن أبا بكر أتبع يزيد شرحبيل بن حسنة ثم أبا عبيدة[٣]، غير أنه لم يذكر له دور في أخبار الحوادث الأولى، وترد أخباره في معركة اليرموك، وما تلاها من حوادث.

أما يزيد بن أبي سفيان فهو ممن أسلم بعد الفتح، ابن زعيم قريش، وأخو أم حبيبة زوجة الرسول (ص) إلا أنه لم يذكر له دور في حياة الرسول (ص) وفي حركات القضاء على الردة، وولّاه أبو بكر أحد الجيوش الثلاثة التي أنفذها إلى بلاد الشام وأمره على جند عظيم وهم جمهور من انتدب له، وفي جنده سهيل بن عمرو. . وكثير من أهل مكة، وقد وجِّه إلى دمشق وتحرك إلى تبوك فالبلقاء، وكان جيشه ممن أصبح في ذي المروة سبعة آلاف، وكان في الأصل ثلاثمائة، ثم أمدَّه بألف. ولم يذكر لجيشه حركات بارزة في أوائل تقدُّمه، مما يدل على أنه لم يلقَ مقاومة، غير أنه لما تكاثرت الجيوش كان على ربع من أرباعها[٤] وشارك في فتح بصرى[٥] وفي معركة مرج الصفر[٦] وفتح دمشق الأول، ثم أُرسل بعدها إلى دمشق[٧] وكان له دور بارز فيها، وكذلك كان قائداً لأحد الأرباع[٨] وفي معركة اليرموك[٩]، وفي فتح دمشق الثاني، ثم وُليَ دمشق بعد وفاة أبي عبيدة.

---

(١) ابن سعد ٤ ـ ١/ ١٣٠.
(٢) ابن عساكر ١/ ٤٢٠ ـ الطبري ١/ ٢٠٩٢، ٢٠٩٤.
(٣) الطبري ١/ ٢٠٨٥.
(٤) ابن عساكر ١/ ٤٥٤، ٣٥٩.
(٥) ابن عساكر ١/ ٤٧١.
(٦) ابن عساكر ١/ ٤٨١.
(٧) ابن عساكر ١/ ٤٨٥.
(٨) ابن عساكر ١/ ٤٥٧.
(٩) ابن عساكر ١/ ٢٥٣.

أما أبو عبيدة بن الجراح فهو من المسلمين الأولين، ومن الصحابة المهاجرين؛ شارك في معظم غزوات الرسول (ص) وقاد بعض السرايا؛ وكان واحداً من المهاجرين الثلاثة الذين حضروا اجتماع السقيفة، ورشحوه للخلافة فلم يوافق، وتم انتخاب أبي بكر الذي كان يوليه ثقة كبيرة، وأبقاه إلى جانبه فلم يولِّه قيادة أيٍّ من الجيوش الإسلامية التي قضت على حركات الردة والانشقاق، ثم أنفذه في زمن لم تحدده المصادر فسار إلى التبوكية، فالجابية، ويدل عدم ذكر المصادر لتواجده في المعارك الأولى على أنه أنفذ بعد القادة الأولين، ولعله أنفذ بعد معركة أجنادين وأول ذكر لدور بارز له كان في معركة اليرموك حيث ولّاه عمر القيادة العليا للجيوش الإسلامية[1].

أما عكرمة فهو ابن أبي جهل زعيم مشركي قريش المناوئين للإسلام ثم قتل في معركة بدر؛ ولما فتح الرسول (ص) مكة هرب عكرمة إلى الجنوب، ثم عفا عنه الرسول (ص) استجابة لالتماس أمه، ولما وَلِيَ أبو بكر الخلافة أنفذه للقضاء على ردة أهل عُمان وحضرموت؛ فأنجز مهمته بنجاح بعد جهود كبيرة[2]. ثم أنفذ لنجدة زياد بن لبيد البياضي في حضرموت ثم عاد إلى المدينة قافلاً، وغازياً فيمن كان معه من أهل تهامة وعُمان والبحرين والسرو، فأمر أبو بكر باستبدالهم، وسُمِّيَ جيشهم جيش البدال[3]، ثم أنفذه أبو بكر بعد هزيمة خالد بن سعيد[4].

ومن القواد البارزين في جبهة بلاد الشام خالد بن الوليد، قام بانتصارات عظيمة في القضاء على معظم حركات الردة والانشقاق في الجزيرة، ثم قام بحركات ناجحة في غرب العراق، ثم طلب منه أبو بكر أن يلتحق ببلاد الشام وينضمّ إلى قادتها، فسار مسرعاً قاطعاً الصحراء في مسالك صعبة اختلفت الروايات في وصفها، وشارك منذ وصوله جبهة بلاد الشام بدور متميز في المعارك كافة، فاستحق بجدارة أن يعتبر أعظم قائد أنجبه الإسلام.

---

(١) فتوح البلدان ١٦٢، الطبري ١/٢٠١٣.

(٢) الطبري ١/١٩٧٧، ١٩٨٠، ٢٠٠٧.

(٣) الطبري ١/٢٠٠١.

(٤) ابن عساكر ١/٥٤٨ ـ ٤٥١.

الفصل الثالث عشر

الحركات الأولى ومعاركها

تتفق الروايات على أن أول جيش إسلامي أنفذه أبو بكر بعد جيش أسامة هو الذي وَلِيَه خالد بن سعيد بن العاص «وكان لواؤه أول لواء عقده أبو بكر»[1]. وكان أبو بكر قد عيَّن خالداً على تيماء وأمره أن لا يبرحها وأن يدعو من حوله بالانضمام إليه، فجمع جموعاً كثيرة[2]، ويُروى أنه كان معه سهيل بن يزيد بن عمرو وأشباهه من أهل مكة. فوجَّه إليه الروم قوة بقيادة باهان تغلبت عليه في زيزاء عند آبل الزيت فانهزم إلى ذي المروة داخل الحجاز[3]، وهي على ستين ميلاً من المدينة[4].

ولما بدأت استجابة العرب لدعوة أبي بكر، اجتمع إليه «أربعة وعشرون ألفاً من المهاجرين والأنصار ومهاجرة الفتح أمداد أهل اليمن، فعقد الألوية للأمراء الذين اختارهم للقيادة، وكان عقد هذه الأولوية يوم الخميس لمستهل صفر سنة ١٣ بعد مقام الجيوش معسكرين بالجرف المحرم كله، وأبو عبيدة يصلي بالناس»[5].

---

(١) ابن سعد ٣ ـ ٢/١٦٨؛ الطبري ١/٢٠٧٩ عن ابن شبة؛ ابن عساكر ١/٤٤٨ عن ابن إسحاق.

(٢) الطبري ١/٢٠٨٠؛ ابن عساكر ١/٤٥١.

(٣) الطبري ١/٢٠٨٥.

(٤) ابن سعد ٣ ـ ٢/١٧٠؛ ابن عساكر ١/٣٤٣، ٤٥٤.

(٥) فتوح البلدان ١٠٦، ١٠٧.

ويذكر سيف بن عمر أن خالد بن سعيد عندما هزمه باهان في تيماء قَدِمَ وافداً من عند خالد بن الوليد بن عقبة على بعض قضاعة، مما يشير إلى تأخر إسهامه في الحركات الأولى من فتوح الشام،[1] وإلى أن إسناده يدل على أن ميدان حركاته كان في الجهات الشرقية، ويذكر ابن عساكر أنه حضر فتح بصرى،[2] ومعركة أجنادين واليرموك،[3] حيث كان على أحد أرباع الجيش،[4] وكان من شهود فتح دمشق.

ذكر سيف بن عمر أنه بعد هزيمة خالد بن سعيد في زيزاء «اتخذ أبو بكر أبا عبيدة بن الجراح، ويزيد بن أبي سفيان، وأوكل كلاً منهما بالغارة وألا يوغلوا حتى لا يكون وراءهم أحد من عدوِّهم»[5]، وذكر أيضاً أن أبا بكر استعمل يزيد بن أبي سفيان وأبا عبيدة بن الجراح على من اجتمع إليه، وأمره على حمص،[6] ويذكر أن أبا عبيدة كان معه سبعة آلاف،[7] ويذكر ابن أعثم أن أبا عبيدة سلك الطريق من المدينة إلى وادي القرى، فالأقرع من بلاد الحجر، فالمنار، فالأخضر، فجنينة، فتبوك[8]، غير أن أبا عبيدة بن الجراح لم يذكر في أخبار المعارك الأولى، وأول ذكر له كان في معركة اليرموك، مما قد يدل على أنه لم يكن من أول القواد الذين أنفذوا في أولى الحملات.

يقول سيف بن عمر إن أبا بكر اتبع يزيداً شرحبيل بن حسنة، ثم أبا عبيدة ممداً له،[9] وذكرت بعض الروايات أن الأمراء على الشام كانوا ثلاثة: عمرو بن العاص، ويزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل بن حسنة.[10] وذكر المدائني أن

---

(١) ابن عساكر ١/ ٤٧٠.
(٢) ابن عساكر ١/ ٤٧٩؛ الأزدي ٣٧٢.
(٣) الأزدي ١٨٨، ٢٠٦؛ ابن عساكر ١/ ٤٤٠.
(٤) الأزدي ١٨٨؛ ابن عساكر ١/ ٤٤٠.
(٥) الطبري ١/ ٢١١١.
(٦) الطبري ١/ ٢٠٨٤.
(٧) الطبري ١/ ٢١٠٧.
(٨) ابن أعثم ١/ ٨٥؛ وانظر في وصف جغرافية المنطقة «شمال الحجاز لعبد الله الوهبي».
(٩) الطبري ١/ ٢٠٨٥.
(١٠) ابن أعثم ١/ ١١٢ ـ ٣؛ ابن عساكر ١/ ٤٤١.

«شرحبيل كان في سبعة آلاف»[1]، ولكنه لم يذكر العشائر التي ينتسب إليها جيشه ويذكر سيف أن شرحبيل نزل الأردن[2]؛ ولم تذكر الأخبار دوراً بارزاً لشرحبيل في حوادث المعارك الأولى، وإنما ذكرت أنه كان في اليرموك على الميمنة[3].

وفي وجهات هؤلاء ذكر ابن إسحاق أن عمرو بن العاص وجّه إلى فلسطين، وأن يزيداً وأبا عبيدة وجِّها إلى البلقاء[4]، وذكر ابن إسحاق أن شرحبيل وجِّه إلى البلقاء[5]، وذكر المدائني أن يزيداً وجِّه إلى البلقاء، وشرحبيل إلى بصرى، وأبا عبيدة إلى الجابية، ثم أمدَّهم بعمرو فنزل وادي العرابة[6].

وذكر البلاذري أن عمرو بن العاص وجِّه إلى فلسطين، وشرحبيل إلى الأردن، ويزيداً إلى دمشق، وأن عمرو بن العاص سلك طريق إيلة إلى فلسطين أما يزيد وشرحبيل فقد وجِّها إلى تبوك[7].

وفي رواية البلاذري أن شرحبيل وجِّه إلى الأردن ففتحها عنوة ما خلا طبرية، وأن يزيداً وجِّه إلى الأردن ودمشق، وعَمْراً إلى فلسطين.

ويذكر أن أبا بكر استعمل أبا عبيدة بن الجراح على من اجتمع إليه وأمّره على حمص، وأنه كان في سبعة آلاف، ولم تُذكر العشائر التي تنتسب إليها مقاتلته.

يذكر الطبري أن أبا عبيدة سلك طريقه، ويدل سياق الكلام على أنه سلك طريق المُعْرِقة الذي سلكه عمرو ويقول ابن أعثم إن أبا عبيدة سلك الطريق من

---

(١) الطبري ١/٢١٠٧.
(٢) الطبري ١/٢٠٩٢، ٢٠٩٤، ٢١٠٥.
(٣) الطبري ١/٢٠٩٣، ٢٠٩٤.
(٤) تاريخ خليفة ٨٧؛ سير أعلام النبلاء ١/٣٧٦.
(٥) ابن عساكر ١/٤٤٩.
(٦) الطبري ١/١/٢١١١.
(٧) الطبري ١/٢٠٨٤.

المدينة، فوادي القرى، فالأقرع من بلاد الحجر فالمنار، فجنينة فتبوك[1]. ويقول الطبري إن أبا عبيدة كان في اليرموك في القلب[2].

يقول سيف إن شرحبيل بن حسنة قدم فندب معه الناس ثم استعمله أبو بكر على الوليد فقدم شرحبيل على خالد ففصل بصحابه إلا القليل.[3] ويقول أيضاً إن أبا بكر اتبع يزيداً شرحبيل بن حسنة، ثم أبا عبيدة ممداً له، وهذا يظهر أن شرحبيل أرسل قبل أبي عبيدة، ومما يؤيد هذا أن عدداً من الروايات ذكرت أن الأمراء على الشام كانوا ثلاثة: عمرو بن العاص، ويزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل بن حسنة، ويذكر أن شرحبيل أرسل ردءًا لخالد بن سعيد[4].

ويذكر المدائني أن شرحبيل كان في سبعة آلاف، ولكنه لم يذكر العشائر التي ينتسب إليها الرجال في جيشه.[5] ويذكر سيف أن شرحبيل سلك طريقه[6]، ولعله يقصد طريق التبوكية الذي سلكه يزيد، وأن شرحبيل نزل الأردن ويقال بصرى،[7] وكان شرحبيل في اليرموك على الميمنة[8].

ويذكر ابن إسحاق أن شرحبيل ويزيداً وأبا عبيدة سلكوا التبوكية[9]. ويذكر ابن أعثم أن أبا عبيدة سار من المدينة فوادي القرى فالأقرع فالمنار فالجنينة فتبوك، وتوجَّه إلى الجابية[10].

---

(١) الطبري ١/ ٢١٠٧.
(٢) الطبري ١/ ٢٠٨٥.
(٣) ابن أعثم ١/ ١٥٠.
(٤) الطبري ١/ ٢٠٩٣.
(٥) الطبري ١/ ٢٠٨٥.
(٦) ابن عساكر ١/ ٤٤٧؛ ابن أعثم ١/ ١٠٢ ـ ٣.
(٧) الطبري ١/ ٢١٠٧.
(٨) الطبري ١/ ٢٠٩٣، ٢٠٩٤.
(٩) الطبري ١/ ٢١٠٨.
(١٠) ابن أعثم ١/ ١٥٠.

تقدم القوات العربية إلى فلسطين

كان عمرو بن العاص من أسبق القواد في التقدم إلى جبهة بلاد الشام، ولا بدّ أنه كان من القوة التي قادها عدد من رجال قضاعة، إذ إن أبا بكر كان قد كتب له «إني قد استعملتك على من مررت به من بلي وعذرة وسائر قضاعة، ومن سقط هناك من العرب، فابدأهم على البر والجهاد، فمن تبعك منهم فأهّله وزوّده، ورافق بينهم، واجعل كل قبيلة على حدتها ومنزلتها»[1]. وذكر أيضاً أن عمرو بن العاص عندما تحرك إلى بلاد الشام قدّم أمامه مقدمة عليهم سعيد بن الحارث السهمي، ودفع لواءه إلى الحجاج بن الحارث السهمي، وكان جند عمرو الذين خرجوا معه من المدينة ثلاثة آلاف، فيهم ناس كثير من المهاجرين والأنصار، وقد تم جمع هذه القوات بالندب.

ويتبين من هذا أن عماد القوة التي سارت مع عمرو بن العاص هي عشائر بلي وعذرة ومن بقربهما، وانضم اليها كثير من المهاجرين والأنصار من أهل المدينة، رتبوا تبعاً لانتمائهم القبلي «كل قبيلة على حدتها ومنزلتها وللسهميين مكانة خاصة في القيادة. وعددهم ثلاثة آلاف، ثم أردفوا قوات أخرى، لعل كثيراً منها من أهل اليمن، فأصبحوا سبعة آلاف وخمسمائة[2].

سلك عمرو بن العاص في تقدُّمه طريق المُعْرِقة، وهو الذي كان يسلكه الحاج المصري فيما بعد، وهو طريق يمر بأرض قليلة المدن والسكان، وليست فيها حاميات رومية، فمؤخرته مؤمنة ووصل إلى أيلة، وهي ميناء العقبة الحالي، وتقع على رأس الخليج المسمّى بها حالياً، وكانت ميناء رئيساً وعليها والٍ، ولم تكن بها حامية رومية فاستسلمت للعرب.

ثم توجّه منها إلى غزة، وهي آخر ميناء كبير في الأطراف الغربية من

(١) ابن سعد ٣ ـ ٢/ ٢٠٠؛ ابن عساكر ١/ ٣٤٢.

(٢) ابن أعثم ١/ ١٢٣؛ ابن عساكر ١/ ٤٥٢، ٤٤٦، وانظر تاريخ خليفة ٨٢.

فلسطين وكانت إحدى المحطات الثلاث الكبرى للتجارة المكية قبل الإسلام[1]، وفيها دفن هاشم جد الرسول (ص)، واشتبك في طريق تقدُّمه مع قوة تبلغ ثلاثة آلاف عليها بطريق (حاكم) ودحرها في معركة عند الداثن، على بعد اثنين وأربعين ميلاً منها، فاضطر البطريق إلى طلب الصلح[2]. ويقول البلاذري نقلاً عن الواقدي إن أبا عبيدة وشرحبيل شاركا في هذه المعركة.[3] ولقد نبّه انتصار عمرو بن العاص في الداثن الرومَ إلى خطر تقدُّم العرب الذي يهدد فلسطين والقدس.

معركة وادي العرابة

أدرك عمرو بن العاص قوة الروم الجديدة فلم يشتبك معهم في قتال ثانٍ، وانسحب إلى وادي العرابة قرب البحر الميت[4]، وطلب من أبي بكر إمداده بقوات[5].

وأدرك الروم قوة العرب واندفاعهم وعملوا على صدها، فانتقل هرقل من القسطنطينية إلى حمص وحشد جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل عليهم ستة قواد من الروم،[6] على رأسهم أخوه تيودور، ويسميه العرب ثادرق؛ وقرر الالتفاف على القوات العربية من الجنوب، واختار لعسكره وادي العرابة، وهي رقعة من الأرض بين الرملة ووادي جبرين قريبة من نهر اليرموك، ويجري عندها وادي السمط وهو وادٍ عريض تسيطر عليه خربة يرموث الواقعة فوق رابية متموجة تنحدر نحو الوادي، وحصنوا منطقة نزولهم وحفروا الخنادق حولها، وهذه

(١) انظر كتاب «تجارة مكة» لكرون ١١٩ ـ ٢٠.
(٢) ابن عساكر ١/٤٦١ (عن الوليد بن مسلم).
(٣) فتوح البلدان ١٠٨ عن الواقدي.
(٤) تاريخ خليفة ١٠٨؛ الطبري ١/٢١٢٥.
(٥) فتوح البلدان ١٠٨.
(٦) فتوح البلدان ١٠٨؛ ابن عساكر ١/٤٦١؛ تاريخ الأزدي ٧٧.

المنطقة تهيمن على ملتقى الطرق الممتدة بين جبرين من جهة وكل من غزة، وبيت المقدس واللطرون؛ ووضع الروم قوة في ثنية جلق في جنوب الجابية على الطريق بين دمشق وأذرعات لتأمين مؤونة قواتهم، إذا أدهمتهم قوات شرحبيل ويزيد بن أبي سفيان. ويروي أبو مخنف أن الروم في العربة كانوا ثلاثة آلاف عليهم ستة قواد من الروم.

أدرك العرب خط تحركات جيش الروم، وكانت لهم فيها قوات يزيد بن أبي سفيان، وهي لا تكفي لدحر الروم؛ وأنفذوا أبا أمامة الباهلي فأوقع بهم وقتل أحد قادتهم،[1] لكن إنجازه لم يكن حاسماً، فجمعوا قواتهم التي بإمرة يزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل، وعمرو بن العاص وأبي عبيدة بن الجراح؛ واشتبكوا مع الروم في معركة انتصروا فيها عليهم وقتلوا أحد قادتهم؛ ولم تذكر المصادر من قتل من العرب فيها، مما يدل على أنها لم تكن كبيرة أو حاسمة، وترجع أهميتها إلى أنها أول معركة واسعة مع جيش أنفذه هرقل.

قدوم خالد وقواته

قَدِمَ خالد بن الوليد بعد أن أمره أبو بكر بترك حركاته في جبهة العراق، والتوجه إلى بلاد الشام، فقطع مع قواته بادية سالكاً مسالك صحراوية خطرة، وردت عنها عدة روايات[2]، وكان أول ما قام به عند وصوله الغارة على غسان في مرج راهط، فدان له أهلها[3] وكانت غارته في ١٩ صفر سنة ١٣، ثم اقترب من دمشق فصالحه بِطْريقها على ماله، وتابع مسيرته إلى بصرى وهي في أدنى بلاد الشام[4]. وكانت لها أهمية خاصة لتجار قريش فكانوا يقصدونها لتجاراتهم وإليها سافر الرسول (ص) مرتين قبل الإسلام؛ فهاجمها خالد

(١) فتوح البلدان ١٠٨.
(٢) انظر: «الفتوح الإسلامية» لدونر؛ وانظر لألواموزيل.
(٣) فتوح البلدان ١٢٦؛ الطبري ١/٢١٠٣، ٢١٧٢.
(٤) الطبري ١/١١٠٧.

وفتحها، ويسَّر فَتْحَها السيطرة على حوران وأذرعات[1] والبثنية المشهورة بالحنطة التي تنتجها، وقَدِمَ عليه في بصرى يزيد بن أبي سفيان، وأبو عبيدة، وشرحبيل. ثم تقدَّم مسنداً لعمرو بن العاص[2] وشارك في المعارك التالية كافة وانتصر فيها.

وصالح أبو عبيدة، مآب من أرض البلقاء كصلح بصرى[3].

معركة أجنادين

لما انتصر العرب في وادي العربة وبصرى وحوران أصبحوا مهيمنين على معظم فلسطين والأردن والأطراف الجنوبية من بلاد الشام دون أن يقاومهم أهل البلاد وإنما أظهروا تعاطفاً معهم؛ وأدرك الروم الخطر الذي يهدد سلطانهم فعملوا على صده، وأرسلوا قوات تجمعت في أجنادين من كورة جبرين على بعد خمسة وعشرين كيلومتراً جنوب شرقي بيت المقدس، بينها وبين الرملة وجرش وبيت جبرين[4]. وهي تقع عند خربة يرموث قرب اليرموك، وفيها ملتقى الطرق بين بيت جبرين وبيت المقدس وغزة واللطرون والرملة، وأرضها متموجة غير وعرة تصلح لتجمُّع قوات كبيرة وتسهل فيها حركة الخيالة. وتقع خربة يرموث فوق رابية تنحدر نحو وادي السمط العريض الذي يمتد جنوبها مكوِّناً خطاً دفاعياً. وتمتد في أطرافها الجنوبية روابٍ تسمى الجنابتين اتخذ عليها العرب مواقعهم في المعركة؛ وهي جنوب الطريق الموصل بين بيت المقدس وقيسارية[5].

تحرك جيش الروم من حمص يقوده ثيودور، أخو الامبراطور، وتسمّيه

---

(١) فتوح البلدان ١١٠، وانظر عن حوران ١١٢ ـ ٣.
(٢) الطبري ١/ ٢١٢٥.
(٣) فتوح البلدان ١٢٥.
(٤) معجم البلدان ١/ ٣٧٥؛ تاريخ خليفة ٥٧؛ الأزدي ٢١٨؛ سير أعلام النبلاء ١/ ١٨.
(٥) انظر المقال القيِّم عن أجنادين للعميد طه الهاشمي المنشور في مجلة المجتمع العلمي العراقي، انظر: تاريخ خليفة ٨٧؛ فتوح البلدان ١٧؛ ابن عساكر ١/ ٤٤٧.

المصادر العربية تذارق[1]. وضع الروم قوة في ثنية جلق جنوب الجابية على الطريق بين دمشق وأذرعات لمراقبة القوات الإسلامية. ويبدو أنهم كانوا يستهدفون حماية بيت المقدس.

أما العرب فتقدموا من وادي العربة، وتجنَّبوا المدن المحصنة وعسكروا في الجنابتين، وهي الهضبة الجنوبية عند وادي السمط، لا أن الروم سبقوهم في احتلال الروابي الشمالية[2].

تتفق الروايات على أن الالتحام بين العرب والروم حدث في جمادى الأولى سنة ١٣، وهو يصادف تموز، غير أنها تختلف في تحديد يوم حدوث المعركة[3]، وكانت المعركة حامية وذكرت المصادر أسماء عدد كثير ممن استشهد من المسلمين فيها، ويُروى أن عدد القوات الإسلامية كان حوالى العشرين ألفاً. وكانت قيادة الجيوش العربية لعمرو بن العاص، وعلى الميمنة معاذ بن جبل، وعلى الميسرة سعيد بن جذيم، وعلى جناح الميمنة يزيد بن أبي سفيان، وعلى جناح الميسرة شرحبيل بن حسنة[4].

وقد أسفرت المعركة عن اندحار قوات الروم، فانسحبت فلولهم إلى قيسارية وغزة ودمشق.

كانت معركة أجنادين أولى المعارك الكبيرة التي انتصر فيها العرب على الروم، وشارك فيها معظم القوات الإسلامية، التي تبلغ قرابة عشرين ألفاً.

---

(١) تاريخ خليفة ٨٧ عن إسحاق.

(٢) تاريخ خليفة ٨٧؛ فتوح البلدان ١١٢؛ ابن عساكر ١/٤٤٧.

(٣) ابن إسحاق (تاريخ خليفة ٨٧)، والواقدي (تاريخ الأزدي ٤٦)، تاريخ اليعقوبي ٢/١١٣؛ تاريخ الإسلام للذهبي ١/١٧٥.

(٤) ابن عساكر ١/٤٧٩ (عن ابن إسحاق)؛ الطبري ١/٢١٢٦؛ الأزدي ٢٦١، وانظر دراسات طه الهاشمي، وبحث دي غويه عن فتح العرب للشام.

معركة فحل:

أظهر انتصار العرب في أجنادين قوَّتهم وعزمهم على توسع دولتهم وإزاحة الروم، بعد أن أمن سيطرتهم على فلسطين والأردن، ويسَّر تقدُّمهم إلى دمشق. وكان لهذه المعركة وقع مؤثر في هرقل، فيروي البلاذري أنه عندما وصل اليه خبر اندحار الروم في أجنادين «نخب قلبه، وسقط في يده وارتعب، فانتقل من حمص إلى أنطاكية، واستنفر الأرمن فلم يستجيبوا له لتأخره في دفع رواتبهم، كما استنفر عرب الجزيرة وبعث إليهم رجلاً من خاصته وثقاته».[1] ويدل استنفار الأرمن وأهل الجزيرة على ضعف أمله في الاعتماد على المستعربة من عرب جنوب بلاد الشام، فأراد الاعتماد على قوات من شمال بلاد الشام، ولم تذكر المصادر أفراداً أو جماعات من العرب كانوا مع الروم في معركة فحل[2].

يذكر سيف بن عمر أن قائد الروم سقلار بن مخراف، يليه في القيادة نسطورس. ويرى دي غويه أن نسطورس تحريف أنستاسيوس، وأن سقلار هو تحريف كابيلاروس، وهو لقب رئيس التشريفات.

ذكر البلاذري أنه قتل من الروم في معركة فحل قائدهم «وزهاء عشرة آلاف معه، وتفرَّق الباقون في مدن الشام، ولحق بعضهم بهرقل»[3]، وقد يكون في هذا الرقم مبالغة، إلا أنه يشير إلى العدد الكبير الذي حشده الروم في المعركة، وربما كان عددهم حوالى العشرين ألفاً.

ووردت روايات مختلفة عن قائد القوات العربية في معركة فحل، فَرَوَى ابن

---

(١) فتوح البلدان ١١٤.

(٢) تاريخ خليفة ٨٨، فتوح البلدان ١١٥، ١١٨؛ تاريخ دمشق لابن عساكر ١/٤٧٨ ـ ٤٨١ (عن موسى بن عقبة). ويذكر خليفة أنها حدثت في ٢٨ ذي الحجة (ابن عساكر ١/ ٤٨٠)، أما ابن إسحاق فيذكر أنها حدثت في جمادي الأولى، تاريخ خليفة ٨٨؛ ابن عساكر ١/ ٤٨١.

(٣) فتوح البلدان ١١٤.

عساكر أن الروم عندما تقدموا إلى فحل لحقهم عمرو بن العاص[١]، وفي هذا إشارة إلى أن عمرو بن العاص كان قائد القوات. وفي رواية أن القائد العربي كان أبا عبيدة، وعلى الجناح عمرو بن العاص وعلى الخيالة ضرار وعلى المقدمة خالد بن الوليد[٢].

وذكر ابن إسحاق أن الأمير في فحل كان خالد بن الوليد[٣].

وفي رواية أنه كان على الناس شرحبيل بن حسنة، وعلى المقدمة خالد وعلى المجنَّبتين أبو عبيدة وعمرو بن العاص، وعلى الخيل ضرار وعلى الرجل عياض، وفي رواية أن أبا عبيدة سرَّح القادة: أبا الأعور السلمي، وعمرو بن يزيد الجرشي، وعامر بن حثمة، وعمرو بن كليب اليحصبي، وعمارة بن مخش. وقيادة أبي عبيدة للمعركة تعني أنها حدثت بعد اليرموك، وهو ما يشك فيه.

وذكر البلاذري أن وقعة فحل كانت لليلتين بقيتا من ذي القعدة وأمير الناس أبو عبيدة بن الجراح، وقد كان عمر بن الخطاب كتب إليه بولايته الشام وإمرة الأمراء، ويذكر في رواية أخرى أن خالد بن الوليد كان أمير الناس في الحرب. كما يذكر أن الذي تولى العقد مع أهل فحل أبو عبيدة بن الجراح، وقال تولّاه شرحبيل بن حسنة[٤]. ويذكر ابن أعثم أن خالد بن الوليد كان في الميمنة ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل في الميسرة، كما يذكر أن قيس بن هبيرة وهاشم بن عتبة شاركا في المعركة[٥].

ويروي سيف بن عمر «كان على الناس شرحبيل بن حسنة، فبعث خالداً على المقدمة، وأبا عبيدة وعَمْراً على مجنَّبتيه، وعلى الخيل ضراراً، وعلى الرجل عياضاً»[٦]. ويقول في مكان آخر، سرح أبو عبيدة إلى فحل القادة: أبا

(١) ابن أعثم ١/ ١٨٠؛ ابن عساكر ١/ ٤٤٧، ٤٨١.
(٢) تاريخ خليفة ٨٨؛ الطبري ١/ ٢١٤١؛ تاريخ الإسلام للذهبي ٢/ ٤٧٧.
(٣) تاريخ خليفة ٨٨؛ تاريخ الإسلام للذهبي ١/ ١٧٦.
(٤) فتوح البلدان ١١٤.
(٥) الطبري ١/ ٢١٥٧؛ ابن عساكر ١/ ٤٨٦؛ ابن أعثم ١/ ١٨٠؛ الطبري ١/ ٢١٤٦.
(٦) الطبري ١/ ٢١٥١؛ ابن عساكر ١/ ٥١٤.

الأعور السلمي، وعمرو بن يزيد الجرشي وعامر بن حثمة، وعمرو بن كليب، وعمارة بن مخش قائد الناس ومع كل رجل خمسة قواد.

إن مشاركة كل القواد العرب البارزين في موقعة فحل يدل على أن كافة القوات العربية المتيسرة في جبهة بلاد الشام، شاركت فيها، وخصوصاً أن المصادر لم تذكر أن العرب خلَّفوا منها حاميات في المناطق التي هيمنوا عليها، والراجح أن قواتهم كانت تبلغ حوالى العشرين ألفاً، ويشير تعداد الانتسابات القبلية للقادة الذين ذكر سيف بن عمر مشاركتهم فيها إلى أنهم كانوا من عشائر متعددة، وأن العشائر التي انتسب إليها من ذكرت المصادر استشهادهم فيها يشير إلى كثرة أهل مكة ومهاجرتها في هذه المعركة.

نشبت المعركة في فحل قرب بيسان ولا يزال موقعها يسمى حتى اليوم خربة فحل، وهي منطقة تكثر فيها المياه، وقد كسر الروم بعضها إبان المعركة فأوحلت الأرض، ومن هذا سُمِّيَتْ في قول سيف بن عمر موقعة فحل، أو ذات الردغة، أو بيسان[١]. والردغة الماء والطين والوحل[٢].

يروي أبو مخنف[٣] وسيف بن عمر أن فحل جرت بعد فتح دمشق، غير أن عامة الرواة من أهل الشام، وأهل الحجاز يذكرون أنها جرت بعد ثلاثة أشهر من انتصارهم في أجنادين أي في شهر ذي القعدة من سنة ١٣[٤]؛ ويذكر ابن عساكر أن أبا عبيدة بعث ذا الكلاع بين دمشق وحمص درءاً، وبعث حكيماً ومسروقاً وعلى الخيل عياضاً، وعلى الرجالة شرحبيلاً، والأمير يزيد[٥]. لم يَرِدْ وصف لأحداث معركة فحل، غير أن كثرة من ذكر استشهادهم فيها يدل على ضراوة المعركة، وأنها حدثت قبل اليرموك التي تحطم فيها جيش الروم، ولم

---

(١) ابن عساكر ١/٤٨٦.
(٢) لسان العرب ١/٣٠٨.
(٣) ابن عساكر ١/٤٨٥.
(٤) ابن عساكر ١/ ٤٨٠ عن الواقدي، وانظر في كتاب ابن عساكر ١/٤٧٨ عن الزهري، الوليد بن مسلم ١/٤٦١؛ أبو معشر ١/ ٤٨٠؛ ابن إسحاق ١/ ٤٨٠ وكذلك تاريخ خليفة ٨٨.
(٥) ابن عساكر ١/٣٥.

يذكر قتلى من بطارقة الروم. انتهت المعركة بانتصار المسلمين، وعلى أثرها تقدَّم العرب إلى مدينة فحل «وكان أهلها قد تحصنوا فحاصرهم المسلمون ومن كان على دينهم من العرب المتنصرة»[١]، ثم استسلموا وقالوا إن الروم «قد غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا»، وهذا يظهر أن انتصار العرب الكبير كان له وقع كبير على أهل المنطقة، لدفعهم إلى تخليهم عن الروم، وإلى توجههم إلى العرب. ويقول البلاذري أنه باستسلام أهل فحل «أسلمت الأردن وجميع مدنه بما فيها بيسان، وسوسية، وأفيق، وجرش، والقدس والجولان»[٢].

معركة مرج الصُّفَّر

بعد انتصار المسلمين في فحل وهيمنتهم على مدن الأردن توجهوا نحو دمشق التي كانت هدفهم الرئيس، ويُروى أن عمر بن الخطاب كتب إلى قواده «إبدأوا بدمشق، وانهدوا إليها، فإنها حصن الشام وبيت مملكتهم، واشغلوا عنكم أهل فحل بخيل تكون بإزائهم في نحورهم من أهل فلسطين وأهل حمص[٣] وكان المسلمون عشرين ألفاً[٤].

وكان على الميمنة معاذ بن جبل، وعلى الميسرة هاشم بن عتبة، وعلى الفرسان سعيد بن عمرو بن نفيل وعلى المشاة أبو عبيدة.

وفي تقدُّمهم إلى دمشق اشتبكوا مع قوة رومية في مرج الصُّفَّر وهو سهل واسع يقع على بعد ٣٨ كيلومتراً جنوب دمشق، بين الكسوة وغباغب[٥]، قرب الجابية، وشمال جبل حوران.

---

(١) فتوح البلدان ١١٤؛ الأزدي ١١١؛ ابن أعثم ١/ ١٨٠.
(٢) فتوح البلدان ١١٤.
(٣) تاريخ الإسلام للذهبي ٢/١٧٦؛ ابن عساكر ١/ ٥١٤.
(٤) ابن أعثم ١/ ١٣.
(٥) معجم البلدان ٤/ ٣٨٧٣؛ تاريخ أبي زرعة ١/ ١، وانظر دوسو «طوبوغرافية سوريا» ٣٢٢ تعليق صلاح الدين المنجد في هامش ابن عساكر ١/ ٤٨٨، ولاة دمشق لابن طولون ٩١؛ ابن زرعة ١١٧؛ ابن عساكر ١/ ٤٧٨.

يذكر البلاذري أنه في وقعة مرج الصُّفَّر جرح من المسلمين زهاء أربعة آلاف[1]، وقد يكون في هذا الرقم مبالغة، إلا أنه يشير إلى ضراوة المعركة وكثرة عدد من وقع فيها، خصوصاً وأن قرابة عشرين ألفاً شاركوا فيها.

ذكر ابن إسحق[2] وأبو مخنف[3] أن وقعة مرج الصُّفَّر حدثت بعد عشرين ليلة من وقعة أجنادين، أي قبل موقعة فحل، وفي رواية أنها نشبت في أول المحرم[4]. وذكر الأزدي وأبو مخنف وابن إسحق أن الموقعة حدثت بعد أجنادين بعشرين يوماً أي ١٨ جمادى الآخرة[5].

وبانتصار العرب في مرج الصُّفَّر أصبح الطريق مفتوحاً إلى دمشق فحاصروها ودام حصارها أربعة أشهر؛ وكان على العرب يزيد بن أبي سفيان ومعه جند من أهل اليمن ذكر منهم بشر بن غزية وسهم بن المسافر بن هزمة وشافع بن عبد الله بن شافع، وبعث يزيد دحية بن خليفة الكلبي إلى تدمر، وأبا الزهراء القشيري إلى البثنية وحوران فصالحوا المسلمين[6].

---

(١) فتوح البلدان ١١٧.
(٢) ابن عساكر ١/٤٨١.
(٣) فتوح البلدان ١١٧.
(٤) فتوح البلدان ١١٧؛ ابن عساكر ١/٤٨١ عن ابن إسحاق والواقدي ١٠٨؛ اليعقوبي ٢/١١٩.
(٥) الأزدي ٨٣؛ ابن إسحاق في تاريخ خليفة ١٨٨؛ ابن عساكر ١/٤٨١؛ ابن أعثم ١٦١. ويضع الأزدي مرج الصُّفَّر بين فحل وأجنادين، الأزدي ١٧٩.
(٦) ابن عساكر ١/٥١٧.

الفصل الرابع عشر

معركة اليرموك

قوات الروم

ارتاع هرقل مما أحرزه العرب من انتصارات متعددة كبيرة، على مناطق واسعة ومدن رئيسة، وخصوصاً بعد فقدانه عدداً كبيراً من القوات التي كان يعتمد عليها في الحفاظ على بلاد الشام وتعاطف أهل البلاد معهم وانحرافهم عن الروم؛ فقرر حشد جيش كبير يؤمِّن انتصاراً حاسماً على العرب. وأدرك عبث الاعتماد على العرب من أهل البلاد، باستثناء جبلة بن الأيهم والقوات التي استطاع جمعها من المستعربة من لخم وجذام وبلقين وعاملة وقضاعة وغسان، وهم من الأعراب الموالين للروم، وكان عددهم اثني عشر ألفاً وضعهم هرقل في المقدمة[1]؛ فيما اتخذ هرقل مقامه في أنطاكية[2].

اعتمد هرقل في حشد الجيش على مقاتلة من أهل الجزيرة الفراتية، وأرمينية والقسطنطينية بالإضافة إلى ما تبقى له من قوات في بلاد الشام[3]. فيذكر ابن

---

(١) فتوح البلدان ١٣٤؛ ابن عساكر ١/ ٥٣١.

(٢) ابن عساكر ١/٥٣٨؛ فتوح البلدان ١٣٤.

(٣) فتوح البلدان ١٣٤؛ ابن أعثم ١/ ٢٢٠؛ ابن عساكر ١/ ٥٣٢.

عساكر أنه جاءه «من روم قنسرين وأهل الجزيرة وغيرهم بشر كثير[١] وجاءه من أرمينية إثنا عشر ألفاً عليهم جرجس»[٢].

وقد ذكرت المصادر العربية أرقاماً متباينة عن عدد جيش الروم فذكر ابن الكلبي أنهم كانوا ثلاثمائة ألف[٣]. وذكر الطبري أنهم كانوا ٢٤٠ ألفاً، وفي روايات أخرى أنهم كانوا ١٢٠ ألفاً من أرمينية[٤]. وفي رواية أنهم ٨٠ ألفاً. وفي رواية أن الرجالة كانوا ثمانين ألفاً، نصفهم مقترنون بالسلاسل، والخيالة ثمانون ألفاً[٥]، يقرن كل عشرة بسلسلة من حديد[٦]. ويروي ابن عساكر أنه تهافت في المعركة مائة وعشرون ألفاً منهم ثمانون ألفاً بالسلاسل[٧]. وفي رواية أن المقيدين بالسلاسل أربعون ألفاً، وأربعون ألفاً مربَّطون بالعمائم[٨]. ويقول البلاذري أنهم كانوا عشرين ألفاً من أرمينية والجزيرة[٩]. ومن الواضح أن في الأرقام الأولى مبالغة ظاهرة، إلا أنها تشير إلى كثرة عددهم؛ وهو أكبر من أيِّ عدد حشدوه في معاركهم السابقة والتالية.

ووردت في أسماء القائد روايات متباينة؛ فذكر خليفة وابن أعثم أن القائد باهان، وهو رجل من أهل فارس تنصَّر ولحق بالروم، ويقول ابن عساكر إنه أرمني[١٠]، ويقول ابن الكلبي إنه القائد السقلار[١١]. ويروي ابن عساكر أن

---

(١) ابن عساكر ١/٥٤١.
(٢) ابن عساكر ١/٥٤١.
(٣) تاريخ خليفة ١٠٠.
(٤) ابن عساكر ١/٥٣١.
(٥) الطبري ١/٢١٨٨، ٢١٩٨؛ ابن عساكر ١/٥٤٩.
(٦) ابن أعثم ٢/٢٦٠؛ ابن عساكر ١/٥٤٩.
(٧) الطبري ١/٢٠٨١؛ ابن عساكر ١/٥٣٤.
(٨) ابن عساكر ١/٤٤٩.
(٩) فتوح البلدان ١٣٢، ١٣٤.
(١٠) تاريخ خليفة ١٠٠؛ ابن أعثم ١/١٢٠؛ الذهبي ١/١٢، ويقول ابن عساكر إنه أرمني ٩/١٣٢.
(١١) الذهبي ١/٢ عن ابن الكلبي.

القيادة لباهان والسقلار[١]. وهو لقب لصاحب الخزانة (سكلاريوس). ويذكر سيف أن القيادة العامة كانت لتذاريق، أخي الامبراطور، وعلى مقدمته جرجة، وأن على مجنَّبتيه باهان والدرّاقص، وعلى الحرب الفيقار[٢].

عدد القوات العربية

علم العرب باستعدادات الروم، وأدركوا خطورتها، فسحبوا قواتهم كافة، وجمعوها للاشتراك في المعركة، ووردت عن عدد المشاركين فيها عدة روايات. فروى سيف بن عمر أنه توافى إلى اليرموك مع الأمراء والجنود الأربعة سبعة وعشرون ألفاً، وثلاثة آلاف من فلال خالد بن سعيد أمر عليهم أبو بكر معاوية وشرحبيل، وعشرة آلاف من أمداد أهل العراق مع خالد بن الوليد، سوى ستة آلاف ثبتوا مع عكرمة ردءاً بعد خالد بن سعيد؛ وكانوا جميعاً ستة وأربعين ألفاً[٣].

وذكر ابن أعثم أن المسلمين كانوا أربعين ألفاً[٤]؛ وروى في مكان آخر أنه كان «المسلمون سبعة وعشرين ألفاً ممن كان مقيماً إلى أن قَدِمَ عليهم خالد في التسعة آلاف، فصاروا ستة وثلاثين ألفاً»[٥]. وذكر الطبري أن قوات المسلمين ثلاثون ألفاً منهم ثلاث آلاف من بقايا جيش خالد بن سعيد، وستة آلاف ممن كانوا مع عكرمة، وعشرة آلاف ممن جاؤوا من العراق مع خالد بن الوليد[٦]. وذكر أيضاً في مكان آخر أن جميع فِرَقِ المسلمين واحدٌ وعشرون ألفاً سوى عكرمة من ستة آلاف[٧]. وفي رواية أخرى للطبري أنهم كانوا ثمانية وعشرين

(١) ابن عساكر ١/٥٢٩.
(٢) الطبري ١/٢٠٨٧؛ ابن عساكر ١/٥٤٩.
(٣) الطبري ١/٢٠٩١.
(٤) ابن أعثم ١/١٤٧.
(٥) ابن عساكر ١/٥٤٨.
(٦) الطبري ١/٢٠٩٠ ـ ١.
(٧) ابن عساكر ١/٥٤٨.
(٨) الطبري ١/٢٠٨٧.

ألفاً[٨] بمن فيهم جيش عكرمة.

وذكر البلاذري[١] أن عدد المسلمين كان أربعة وعشرين ألفاً. وذكر الوليد بن مسلم أن أبا بكر جهز الجيوش إلى الشام فاجتمع له أربعة وعشرون ألفاً من المهاجرين والأنصار ومسلحة الفتح وإمداد أهل اليمن والعالية[٢]. ولم يدخل في هذا قوات خالد والإمدادات التالية، ولا عدد من قُتِلَ في المعارك الأولى.

ووردت عن عدد جيش خالد الذي شارك في معركة اليرموك عدة روايات. فذكر البلاذري أن جيش خالد بن الوليد الذي قَدِمَ به من العراق كان ثمانمائة رجل، ويقال ستمائة، ويقال خمسمائة[٣]. وهذا العدد قليل يخالف روايات أخرى، ولا تؤيده إنجازات هذه القوات. فقد ذكر ابن زرعة أن جيش خالد الذي قَدِمَ الشام كان ثلاثة آلاف[٤]. وذكر سيف بن عمر أن خالد بن الوليد فتح بصرى فيمن معه من جند العراق في تسعة آلاف[٥]، وذكر في مكان آخر أن أصحاب هاشم بن عتبة الذي عاد من جيش خالد إلى العراق كانوا في عشرة آلاف، إلا من أصيب فيهم فأتموهم بأناس ممن لم يكن فيهم، وفيهم قيس والاشاعر[٦]، ويذكر في مكان آخر أنهم كانوا ستة آلاف، خمسة آلاف من ربيعة، ومضر، وألف من أفناء اليمن والحجاز[٧]. ويجدر بنا أن نذكر أن أهل العراق كوَّنوا أربعة من الأربعين كردوساً من اليرموك.

ويذكر ابن أعثم أن أصحاب خالد الذين قَدِمَ بهم من الحجاز واليمامة كانوا سبعة آلاف[٨].

---

(١) فتوح البلدان ١٣٤.
(٢) ابن عساكر ١/٤٥٣.
(٣) فتوح البلدان ١٤٧.
(٤) تاريخ ابن زرعة ١٧٢؛ ابن عساكر ١/٤٩٨.
(٥) الطبري ١/٢١١٥.
(٦) الطبري ١/٢١٠٤؛ ابن عساكر ١/٥٥، ٥١٩.
(٧) الطبري ١/٢٩٠٥.
(٨) ابن أعثم ١/١٣٤.

ولا يبعد أن الذين ذكروا عدد المسلمين في اليرموك أربعة وعشرين ألفاً لم يُدخلوا في حسابهم القوة التي عادت إلى العراق ويذكر الطبري أن قتلى المسلمين في اليرموك بلغ ثلاثة آلاف.

والجدير بالذكر أن يونس بن ميسرة يذكر «نزل المسلمون الجابية وهم أربعة وعشرون ألفاً، وأن الطاعون أفنى منهم عشرين ألفاً وبقي أربعة آلاف»[1] والشطر الأول عن الخبر يؤيد أن المسلمين، بمن فيهم جيش خالد، كانوا ثلاثين ألفاً.

غير أن هذه الأرقام لا تدخل في الحساب عدد القتلى في اليرموك وعددهم حوالى الثلاثة آلاف، ولعلّهم عوضوا بهجرات تالية. ولا ريب في أن هذه الأرقام هي عدد المقاتلة من الرجال، ولا يدخل فيها النساء والأطفال. وقد أشارت المصادر إلى تواجدهم ودورهم في اليرموك، كما أن كثيراً من المهاجرات قد حضرن يومئذٍ مع أزواجهن وأبنائهن[2]، وكان لهن دور ملحوظ في منع الرجال من الانهزام عندما يشد عليهم الروم[3].

تنظيم الجيش الإسلامي

في المصادر العربية عن تركيب وتنظيم الجيش الإسلامي الذي شارك في معركة اليرموك معلومات توازي في سعتها وتفاصيلها ما حدث عن معركة القادسية؛ وتنفرد بالإشارة إلى تنظيمات لم تذكر في القادسية. غير أنها لا تستوعب وصف كثير من التنظيمات والتنسيق بينها. فقد ذكرت أسماء كثير من العشائر دون أن تشير إلى عدد أفراد كل عشيرة. وذكرت عدداً من الأفراد

(١) ابن عساكر ١/٢٥٨.
(٢) ابن عساكر ١/٥٣٧.
(٣) الطبري ١/١١٠٠؛ ابن أعثم ١/١٠٠، ١٤٥، ١٥٣.

البارزين، وهم على كثرة من ذكروا لا بد أنهم بعض، وليس كل المشاركين، ولعلها عكست في ذكرهم الأحوال التالية ومن صارت له مكانة ودور فيها، وأغفلت ذكر أسماء كان لأصحابها دور بارز في المعركة ثم تناقص دورهم في الأحداث التالية.

الكراديس

تردد ذكر الكراديس، وذكر التقسيم المشهور إلى ميمنة وميسرة وقلب، ومقدمة ومؤخرة ومجنَّبات، كما تردد ذكر الرجالة والخيل، والأرباع. كما ذكرت الرايات والألوية، وذكرت الكراديس لأول مرة، ولم تذكر بعدها إلا في زمن مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين. ولم يوضح العرب خصائصها وميزاتها وآثارها في تحقيق النصر، وسبب عدم أخذ العرب بها طوال الخلافة الأموية إلى زمن مروان. ولم يَرِدْ ذكر لأخذ العرب بها إلا في معركة القادسية.

يروي سيف عن يزيد بن أسيد الغساني عن خالد وعبادة أنه في وقعة اليرموك «خرج خالد في تعبئة لم تُعِّبها العرب قبل ذلك، فخرج في ستة وثلاثين كردوساً وقال.. ليس من التعبية تعبية أكثر في رأي العين من الكراديس. فجعل القلب كراديس وأقام فيها أبا عبيدة، وجعل الميمنة كراديس وعليها عمرو بن العاص وفيها شرحبيل بن حسنة؛ وجعل الميسرة كراديس وعليها يزيد بن أبي سفيان.

وذكر أنه كان على كردوس من كراديس أهل العراق القعقاع بن عمرو، وعلى كردوس مذعور بن عديّ، وعياض بن غنم على كردوس، وهاشم بن عتبة على كردوس، وزياد بن حنظلة على كردوس، وخالد في كردوس، وعلى فالّة خالد بن سعيد دحية بن خليفة على كردوس، وامرؤ القيس على كردوس، ويزيد بن يحنّس على كردوس، وأبو عبيدة على كردوس، وعكرمة على كردوس، وسهيل على كردوس، وعبد الرحمن بن خالد على كردوس، وهو

يومئذٍ، ابن ثماني عشرة سنة، وحبيب بن مسلمة على كردوس، وصفوان بن أمية على كردوس، وسعيد بن خالد على كردوس، وأبو الأعور بن سفيان على كردوس وابن ذي الخمار على كردوس.

وفي الميمنة عمارة بن مُخشيّ بن خويلد على كردوس، وشرحبيل على كردوس، ومعه خالد بن سعيد، وعبد الله بن قيس على كردوس؛ وعمرو بن عبسة على كردوس، والسمط بن الأسود على كردوس، وذو الكلاع على كردوس، ومعاوية بن حُدَيْج على آخر، وجندب بن عمرو بن حُمَمة على كردوس، وعمرو بن فلان على كردوس، ولقيط بن عبد القيس بن بجرة، حليف لبني ظفر من بني فزارة على كردوس.

وفي الميسرة يزيد بن أبي سفيان على كردوس، والزبير على كردوس وحَوْشب ذو ظُليم على كردوس، وقيس بن عمرو (مبذول) حليف لبني النجار على كردوس، وعصمة بن عبد اللّه (حليف لبني النجار من بني أسد) على كردوس، وعتبة بن ربيعة بن بهز، (حليف لبني عصمة) على كردوس، وجارية بن عبد الله الأشجعي، حليف لبني سلمة على كردوس، وقباث على كردوس.

وكان القاضي أبو الدرداء، وكان القاصَّ أبو سفيان بن حرب، وكان على الطلائع قباث بن أشيَم، وكان على الأقباض عبد الله بن مسعود، وكان القارىء المقداد[1] وذكر الذهبي أن سهيل بن عمرو كان على كردوس[2]، وأن صفوان بن أمية كان على كردوس»[3].

لم ينص الطبري على كراديس القلب، والراجح أنهم أو بضمنهم كراديس أهل العراق، وهي الثمانية عشر الأولى، وسقطت منها كلمة القلب خطأ من النساخ. أما كراديس كلٌ من الميمنة والميسرة فكانت عشرة.

(١) الطبري ١/٢٠٩٢ ـ ٥؛ ابن عساكر ١/٥٢٤.
(٢) تاريخ الإسلام للذهبي ٢/١٥.
(٣) سير أعلام النبلاء ٢/٥٦٣.

اقتصر الطبري على ذكر رؤساء الكراديس، ولم يُشِر إلى عشائر كل كردوس أو إلى عدد رجاله.

ولم يذكر الانتماءات القبلية لعدد من رؤساء الكراديس، ولعل كل كردوس كان يبلغ حوالى ألف مقاتل لأن المقاتلة المسلمين كانوا يزيدون على الثلاثين ألفاً غير أن مصادر أخرى أشارت إلى عدد من العشائر ومكانها.

كانت كلٌّ من كراديس الميمنة والميسرة تضم عشائر متعددة، كما أن كثيراً من العشائر وبخاصة اليمانية والمكية والحجازية، موزعة على كراديس في الميمنة والميسرة والقلب، ومن قريش، واليمن.

وفي الميمنة خليط من قريش (١)، والحجاز (٢)، وهمدان (١)، وكندة (٢)، وحمير (١)، ودوس (١) وقضاعة (١).

وفي الميسرة من رؤساء الكراديس: قريش (٢)، والأنصار (٣)، وليث (١)، وأشجع (١)، وأسد (١)، وعك (١)، وحمير (١).

وينتمي رؤساء الكراديس الذين ذكرهم سيف إلى عشائر متعددة، كثير منهم من عشائر مكة، فمن بني أمية خالد بن سعيد، وسعيد بن خالد ويزيد بن أبي سفيان، ومن مخزوم عبد الرحمن بن خالد وعكرمة بن أبي جهل ومن جمح صفوان بن أمية، ومن زهرة هاشم بن عتبة، ومن سهم عمرو بن العاص، ومن فهر أبو عبيدة بن الجراح وعياض بن غنم.

وليس في رؤساء الكراديس أنصار، وإنما فيهم أربعة من حلفائهم: جارية بن عبد الله الأشجعي حليف سلمة وعتبة بن ربيعة حليف العصمة، وقيس بن عمرو حليف النجار، ولقيط بن عبد القيس الفزاري حليف ظفر.

ومن عشائر الحجاز أبو الأعور وعمرو بن عتبة (من سليم)، وضرار بن الأزور (من أسد بن خزيمة)، ومن ضبة عصمة بن عبد الله ودحية بن خليفة (كلب). أما عشائر اليمن فمنهم السمط بن الأسود، ومعاوية بن حديج (من

كندة) وحوشب ذو ظليم، وابن ذي الخمار (من حمير) ولم تُحقق هوية امرىء القيس، وعبد الله بن قيس، وقباث بن مخشي بن خويلد، ويزيد بن يحنس. إن هذا الجرد يظهر أن أكثر رؤساء الكراديس هم من قريش، ومن حلفاء الأنصار، ومن أهل الحجاز ثم من حمير وكندة وهي تتطابق مع الإشارات الأخرى للعشائر التي شاركت في اليرموك والتي ذكرتها بعض المصادر.

ذكرت المصادر عدداً من البارزين الذين شاركوا في معركة اليرموك، ولم يذكروا من أصحاب الكراديس، فذكر البلاذري منهم عبد الله بن الزبير بن عبد الملك، وعمرو بن سعيد بن العاص، وطليب بن عمير بن وهب، وجندب بن عمرو الدَّوسي، وسعيد والحارث والحجاج أولاد الحارث (سهم) والحارث بن هشام بن المغيرة[1].

وذكر ابن عساكر عبد الله بن قرط (ثمالة الأزد، وشرك بن عبد الرحمن، وسفيان بن عوف الغامدي (الأزد)؛ والحارث بن هشام، وعلقمة)[2].

وذكر الذهبي في «سير أعلام النبلاء» كلاً من (١) قيس بن مكشوح، (٢) الأشعث، (٣) زيد بن ثابت، (٤) عمير بن سليط، (٥) الأشتر، (٦)، سويد بن غفلة الجعفي، (٧) وأبو عثمان الفهري[3].

كانت الكراديس تقسيمات فرعية لأخرى أعلى منها وأشمل؛ هي الأرباع والقلب والميمنة والميسرة؛ ولم يذكر سيف كراديس للطليعة أو المؤخرة.

ذكرت المصادر معلومات عن قواد الميمنة والميسرة والقلب فذكر سيف أن أبا عبيدة، كان في القلب، وعمرو بن العاص في الميمنة ويزيد بن أبي سفيان في الميسرة، وذكر ابن أعثم أن يزيد بن أبي سفيان كان على الميمنة، وقيس بن هبيرة المرادي على الميسرة[4]. وروى ابن عساكر عن قدماء من أهل الشام أن

---

(١) فتوح البلدان ١٣٦.
(٢) انظر: ٣٤٠، ٤١٦، ٤٢٠، ٤٢٤، ٥٥٤، ٥٤٦.
(٣) انظر: ٢/ ٥٢٠، ٢٤٦، ٤٢٧، ٢٢٠؛ ٤/ ٣٤، ٦٩، ١٣٦.
(٤) ابن أعثم ١/ ٢٥٤.

شرحبيل كان في وسط من الناس إلى جنب سعيد بن زيد، وأن قيس بن هبيرة كان في الميسرة[1]. وذكر الطبري أن عكرمة والقعقاع كانا على مجنَّبتي القلب[2]. وذكر ابن سعد أن قباث بن أشيم (كنانة) كان على مجنَّبة أبي عبيدة يوم اليرموك[3].

ومما يتصل بهذا رواية سعيد بن عبد العزيز عن قدماء أهل الشام وغيرهم أن الروم عندما زحفوا على المسلمين «خرج أبو عبيدة وقد جعل على ميمنته معاذ بن جبل[4]، وعلى ميسرته قباث بن أسامة الكناني، وعلى الرجالة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص[5]، وعلى الخيل خالد بن الوليد[6]. وذكر سيف بن عمر أن العرب عند أول اجتماعهم في اليرموك كان عليهم عمرو بن العاص وعلقمة، ويزيد بن أبي سفيان، وأبو عبيدة بن الجراح، وشرحبيل بن حسنة، بالإضافة إلى فلاّل خالد بن سعيد وعليهم معاوية وشرحبيل، وأمداد أهل العراق مع خالد بن الوليد، وستة آلاف ثبتوا مع خالد وذكر «كان قتالهم على تساند، كل جند وأميره، لا يجمعهم أحد، حتى قَدِمَ عليه خالد بن الوليد، وكان عسكر أبي عبيدة باليرموك مجاوراً لعسكر عمرو بن العاص، وعسكر شرحبيل مجاوراً لعسكر يزيد بن أبي سفيان»[7].

ويذكر ابن أعثم أن أبا عبيدة حصن النساء بالتل «وأقبل يعبؤهم». وقد ابتدأ المسلمون القتال بعد أن عبأهم ميمنة وميسرة وقلباً وجناحين[8]. وذكر أن أبا عبيدة «جعل العسكر ثلاثة صفوف: صفٌّ فيه الرماة، وصفٌّ فيه أصحاب

---

(١) ابن عساكر ١/٥٤٢، ٥٤٣.
(٢) الطبري ١/٢٠٩٦.
(٣) ابن عساكر ١/٥٤٠، ٤٩٠ (قباث على الميسرة).
(٤) ابن عساكر ١/٥٣٥.
(٥) ابن عساكر ١/٥٣٥، ٥٣٧، ٥٤٠.
(٦) ابن عساكر ١/٥٢٦.
(٧) ابن عساكر ١/٤٣٥.
(٨) ابن أعثم ١/٢٥٤ ـ ٢٥٥.

السيوف والجحف، وصفٌّ فيه الرماح والخيل والعدة. وقسم الخيالة ثلاثة صفوف، وقدَّم عليهم ثلاثة من فرسان المسلمين أحدهم قباث بن حرملة العامري، والآخر نبلة بن سيف اليربوعي، والثالث القعقاع بن عمرو التميمي. وكان على الدارجة شرحبيل بن حسنة، وعلى الميمنة يزيد بن أبي سفيان، وعلى جناح الميسرة قيس بن هبيرة المرادي[(١)].

وذكر ابن عساكر أن خالداً قسم خيله قسمين، رأس أحدهما وجعل قيس بن هبيرة على القسم الآخر؛ وكان في القلب سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وإلى جنبه شرحبيل بن حسنة في ربعه[(٢)]، أما أبو عبيدة فكان وراء سعيد بن زيد ردءًا له وللمسلمين[(٣)].

لم يَرِدْ في وصف سيف الكراديس ذكر الجناحين، وأصناف السلاح، وبخاصة الخيالة، والأرباع والدارجة. ولا بد أن تطور مجرى المعركة تطلَّب تعديلاً في التنظيمات التي لم تكن شاملة رغم سعتها.

وورد في الأخبار ذكر الرايات، فذكر ابن أعثم أن أبا عبيدة في أول المعركة «قدم أصحاب الرايات، وكانت راية المهاجرين صفراء وفيها بياض وخضرة وسواد وسائر القبائل راياتهم مختلفة الألوان» و«وقف أبو عبيدة في القلب تحت رايته، وكان خالد بن الوليد تحت رايته العقاب وكانت سوداء»[(٤)].

لم يَرِدْ في أخبار معركة اليرموك ذكر للألوية التي كان استعمالها معروفاً عند العرب قبل اليرموك، فيذكر البلاذري أن «أبا بكر أمر الأمراء أن يعقدوا لكل قبيلة لواء يكرمهم[(٥)]؛ فكان للمشركين في أُحُد لواء قتل عليه سبعة[(٦)]، وكان

---

(١) ابن أعثم ٢٥٨.
(٢) ابن عساكر ١/٥٤٢.
(٣) ابن عساكر ١/٥٤٣.
(٤) ابن أعثم ١/٢٥٤.
(٥) فتوح البلدان ١٠٧.
(٦) ابن حنبل ١/٢٨٨.

للرسول (ص) يوم دخل مكة لواء أبيض[1] يحمله قيس بن سعد[2]. وفي وقعة صفين عقد معاوية ألوية القبائل وأعطاها قوماً منهم بأعيانهم، جعلهم رؤساء وحمل لواءه لعبد الرحمن بن خالد بن الوليد[3]. كما أن علياً عقد الألوية، وأمّر الأمراء[4].

أما الرايات فقد تردد ذكرها في وقعة صفين، وكانت رايات أهل العراق سوداء وحمراء ودكناء وبيضاء ومصفّرة وموردة، والألوية مضروبة دكناء وسوداء[5].

قدم الرواة والمؤرخون معلومات واسعة، فيها كثير من التعارض والتناقض، عن تنظيمات الجيش الإسلامي في معركة اليرموك، وعدد من المسهمين فيها، مقتصرين في كثير منهم على ذكر أسمائهم دون نسبتهم القبلية، ولم يقدموا معلومات شاملة عن أسماء العشائر كافة المسهمة فيها. ومن المعلومات القليلة التي قدَّموها في هذا النطاق ما ذكره الطبري أنه شهد اليرموك ألف من أصحاب رسول اللّه (ص) فيهم نحو من مائة من أهل بدر[6]. وذكر ابن أعثم في يوم كانت الأزد في القلب، وحمير وهمدان ومذحج وخولان وخثعم وكنانة وقضاعة ولخم وجذام في الميسرة، ولم يكن فيهم تميم ولا ربيعة لأنهم كانوا في العراق مع سعد بن أبي وقاص[7].

وذكر أن ميمنة المسلمين كان فيها الأزد ومذحج وحضرموت وزبيد الذين كان عليهم الحجاج بن عبد يغوث، وهم خمسمائة رجل وأنهم حملوا على الروم وحملت معهم حمير وحضرموت وخولان. وذكر ابن عساكر «خرج الناس

---

(١) انظر فصول الجهاد في ابن ماجة ٦٤؛ النسائي ٦٩؛ الترمذي ٩/٩.
(٢) البخاري، الجهاد ٢٢١.
(٣) وقعة صفين لنصر بن مزاحم ٢٨٨.
(٤) كذلك ٢١٦.
(٥) كذلك ٣٣٢.
(٦) الطبري ١/١/٢١٩٥.
(٧) ابن أعثم ١/٢٥٤ ـ ٣.

على راياتهم وفيها أشراف رجال من العرب فيها الأزد، وهم ثلث الناس، وفيها حمير وهمدان ومذحج وخولان وخثعم، وفيها كنانة وقضاعة ولخم وجذام وكندة وحضرموت، وليس فيها أسد ولا تميم، ولا ربيعة، ولم تكن دارهم، إنما كانت دارهم عراقية[1]. وذكر أيضاً أن ميمنة المسلمين كان فيها الأزد ومذحج وحضرموت وحمير وخولان وزبيد أيضاً، وهم خمسمائة رجل[2]. وكانت كنانة وقيس وخثعم وجذام وقضاعة وعاملة وعشائر فيما بين ميسرة المسلمين إلى القلب[3] وفي القلب سعيد بن زيد بن عمرو بن قيس ووراءه أبو عبيدة وإلى جنبه شرحبيل بن حسنة.

ميدان المعركة

تابع هرقل سياسته التي اتَّبعها في المعارك التي خاضها جيش الروم باختياره تحشيد جنده في أرض متموجة تتيسر فيها حركة الرجالة والخيالة، وتتوافر فيها المياه، وتكون في مؤخرة جيش خصمه ليجبره على الانسحاب، ويختار لجنده المواقع المسيطرة التي تساعد على انتصاره؛ وهو يختار المناطق العراء. وكان هذا ما فعله في أجنادين وفحل واليرموك، وهو بهذا الاختيار يفاجىء خصمه ويدفعه إلى تفريق قواته وتوزيعها على مناطق متعددة دون أن يكون واثقاً من المكان الذي سيجري فيه القتال؛ ولم يكن يعتمد على اختيار المدن لمقاتلة خصمه. والواقع أن المعارك الأولى كافة التي خاضها العرب ضد الروم، لم تكن في المدن إلا بعد انهيار جيش الروم في اليرموك.

اختار هرقل لتحشيد قواته في المعركة التي اعتزم أن تكون حاسمة سهلاً جنوبي بصرى في الغور، وكان في غرب هذا المكان بحيرة طبرية التي يخرج من جنوبها نهر الأردن ويصبُّ في البحر الميت. ويخترق ميدان المعركة نهر

---

(١) ابن عساكر ١/ ٥٣٥.
(٢) ابن عساكر ١/ ٣٩.
(٣) ابن عساكر ١/ ٥٣٥، ٥٣٧، ٥١٩، وانظر أحمد كمال عادل ٤٨٢.

اليرموك الذي يجري من الشرق ويصبُّ في نهر الأردن. وفي الجهات الغربية من هذه المنطقة يقع مجرى الواقوصة والرقادة. وهو يجري من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي مكوِّناً منحدرات عميقة ويلتقي حيث حَشْد الرجالة المسلسلين للصمود بوجه أيِّ محاولة للالتفاف. وكان قلب قواته من الخيالة في نَشْزٍ مرتفع من الأرض، تسنده من الغرب الواقوصة والرقادة، وجناحهم الأيسر وظهرهم مكشوف لفضاء ييسِّر حركة الخيالة وإمدادهم أو انسحابهم[1].

علم العرب باستعدادات الروم، وقدَّروا خطورتها، وأدركوا أن المعركة القادمة ستكون حاسمة؛ فكتبوا إلى الخليفة بقوة الروم وتقدُّمهم؛ وسحبوا قواتهم كافة، فأخلوا البلاد التي كانوا قد توغلوا فيها شمالاً من حمص ودمشق، ولا بد أنهم جمعوا ما كان لهم من قوات في فلسطين والأردن، وتجمعوا في الجابية، بين الرقادة ومرج الجولان[2].

نشب القتال يوم الاثنين الخامس من رجب سنة ١٥[3] وحشد المسلمون قواتهم جنوب اليرموك. وبدأ الروم القتال برشقهم المسلمين بالنبال تلاه هجوم ميسرتهم على ميمنة القوات الإسلامية، وأكثرهم من لخم وجذام والأزد، وعليهم عمرو بن العاص وشرحبيل، وأفلحوا في ضعضتها، ولكنهم لم يشتتوها، إذ أنجدتهم قوات من القلب، فأفلحت في صد هجوم الروم[4]؛ وقام النساء بدور في إيقاف التراجع[5].

وفي اليوم الثاني من القتال تابعت ميسرة الروم مهاجمة قوات ميمنة

---

(١) من أشمل الدراسات الحديثة ما قام به أحمد كمال عادل في كتابه وعليه معتمدنا في غرضنا الموجز لمجريات حوادث المعركة ودراسة أحمد سويدان في كتابه جديرة بالتقدير.

(٢) ابن أعثم ١/ ١٣٢؛ ابن عساكر ١/ ٥٣٢.

(٣) تاريخ خليفة ١٠٠؛ فتوح البلدان ١٣٦ (عن ابن الكلبي)؛ الطبري ١/ ١٥٥، ١٧٣؛ ابن أعثم ٢٦٠؛ تاريخ الإسلام للذهبي ٢/ ١٠. ويذكر سيف أن المعركة نشبت في جمادى الآخرة من سنة ١٣ (الطبري ١/ ٢٠٩١).

(٤) مختصر تاريخ ابن عساكر ٤/ ٥٢.

المسلمين، ونشب قتال ضارٍ صمد فيه المسلمون، وقتل القبقلار قائد الروم، وقام الرماة الأرمن بدور في القتال، وصمد أصحاب السلاسل.

وفي اليوم الثالث قامت خيالة المسلمين في القلب، وعليهم خالد بن الوليد بهجوم نشب فيه قتال حامٍ استطاع خالد أن يدحر خيالة الروم بعد قتال ضارٍ، وتشتتت خيالة الروم، وداس بعضها المشاة المسلسلون، فوقعت فيهم خسائر كبيرة، من قتلى أو غرقى في الرقادة، وقل من استطاع منهم الهرب؛ وكان النصر تاماً للعرب، ولم يبقَ في الميدان غير جثث القتلى. وبذلك انهار جيش الروم؛ ولما سمح هرقل بالهزيمة انتقل إلى أنطاكية، وأصبح الطريق أمام القوات العربية مفتوحاً للتقدم إلى دمشق ثم إلى شمال بلاد الشام.

الفصل الخامس عشر

فتح دمشق وشمالي بلاد الشام

دمشق وأهميتها

دمشق من أكبر المدن العربية وأقدمها في المنطقة، تقع في أرض مستوية تحيطها الجبال والمرتفعات من جوانبها الشرقية والغربية، ويتصل بأطرافها الشرقية سهل الغوطة المتصل بالبادية، وتتوافر فيه المياه التي تروي المزارع وأشجار الفاكهة والخضر، ويخترقها نهر بردى وفروعه التي توفر الماء للسكان والمزارع.

ودمشق من أكبر مراكز الصناعة والتجارة في المنطقة، فهي مركز لكثير من المنتوجات الصناعية من النسيج والأسلحة والصناعات الخشبية، فضلاً عن أنها كانت من أكبر المراكز الحضرية والفكرية؛ وهي ملتقى الطرق التجارية بين مدن شمال وجنوب بلاد الشام، وبينها وبين بعلبك وسهل البقاع وموانىء أواسط الساحل الشرقي من البحر المتوسط بما فيها بيروت والمدن الساحلية الأخرى.

وكان يحيطها سور حصين، عرضه عشرون قدماً وارتفاعه خمسة أمتار، مبني بالحجارة المربعة، وفيه شرفات وأبراج بارزة مربعة بين الواحد والآخر منها خمسون قدماً، عليها أبنية ومساكن للحراس، ويحيط السور خندق عرضه بين عشرة أقدام وخمسة عشر قدماً.

وللسور سبعة مداخل عليها أبواب ثقيلة مصفحة بالحديد، أكبرها الباب الشرقي الذي يقود إلى هيكل روماني قديم، وفي الجانب الغربي باب الجابية، وفي الجنوب باب كيسان، وهناك أيضاً باب توما، وباب الفراديس. وفي وسط دمشق ساحة واسعة يسميها العرب المقسلاط[1].

هاجم العرب دمشق وأخضعوها ثلاث مرات، وكان هذا سبب بعض الإرباك والخلط عن أخبار فتحها. ومن المؤكد أن أول هجوم عليها قام به خالد بن الوليد في طريق قدومه من العراق، فوجَّه بعد اجتيازه مرج راهط بسر بن أبي أرطاة وحبيب بن مسلمة فأغارا على بعض قراها. وتقدَّم بقواته إلى الباب الشرقي، ويقال بأنه نزل باب الجابية، ولم يحاصر دمشق وإنما تابع سيره إلى بصرى حيث اجتمع مع القوات الإسلامية العاملة في بلاد الشام[2].

ولما دحر العرب الروم في معركة أجنادين وفحل تابعوا تقدُّمهم فدخلوا دمشق، وأرسلوا قوة دخلت حمص، وكانت للروم قوات في شمالي بلاد الشام، فعمل هرقل على استخدامها لإقصاء العرب عما ظفروا به من البلاد؛ ودفع قوات بقيادة أخيه تيودور، ويسميه العرب تذارق، تدَّعي المصادر أنها تبلغ تسعين ألفاً نحو ثنية جلق، ووجّه جرجة ابن تيودور بقوة مقابل يزيد بن أبي سفيان، والداقش نحو شرحبيل، والقيقان بن نسطورس، نحو أبي عبيدة[3]. ويروي الأزدي أن هرقل أرسل إلى دمشق نحو خمسة آلاف من أهل القوة والشدة من أهل دمشق وجمعاً كبيراً من أهل حمص، فباتت قوَّتهم أكثر من عشرة آلاف تصدت لها القوات الإسلامية، وكان خالد بن الوليد في الميمنة، ومعاذ بن جبل وهاشم بن عتبة في الميسرة، وعلى الخيل سعيد بن زيد بن

---

(١) فتوح البلدان ١١٢، ١٢٥، وانظر في وصف دمشق كتابَيْ سوفاجيه، وصلاح المنجد، وبقي سور دمشق قائماً إلى أن هدمه عبد الله بن علي أول ولاة بني العباس على دمشق. (فتوح البلدان ١٢٥).

(٢) فتوح البلدان ١٠٩، ١٢٠؛ معجم البلدان ١/ ٤٣١.

(٣) الطبري ١/ ٢٠٨٧؛ ابن عساكر ١/ ٥٣٢.

عمرو بن نفيل، وعلى الرجالة أبو عبيدة، فهاجمتهم أجنحة المسلمين وقتلت منهم نحو خمسمائة وأسرت مثل هذا العدد فخلت دمشق ممن يدافع عنها، وعقد أهلها مع المسلمين صلحاً[١]، وأنفذ أبو عبيدة قوة إلى حمص، فطلب أهلها الصلح على ما يؤدونه.

وقام هرقل بتجهيز قوة كبيرة سلكت سهل البقاع وتقدَّمت إلى اليرموك فأحسَّ العرب بخطر تطويقهم، وسحبوا قواتهم من حمص وأخلوا دمشق، وجمعوا قواتهم استعداداً لمعركة اليرموك الكبرى.

ولما أحرز العرب انتصارهم الساحق في اليرموك تابعوا تقدُّمهم إلى دمشق وكان حاكمها توماس زوج ابنة هرقل، وقائد الحامية أثادير[٢].

يروي ابن أعثم أن القوات الإسلامية التي حاصرت دمشق وفتحتها كانت سبعة وثلاثين ألفاً، وأنه كان مع عمرو بن العاص أربعة آلاف ومع معاوية بن حديج ثلاثة آلاف[٣]، وهذه أرقام فيها مبالغة.

لم تكن لهرقل قوات تستطيع صدَّ المسلمين، فاعتمد في الدفاع عنها على أسوارها، فالقوات الإسلامية من رجالة وخيالة كانت مدربة على القتال البري في الأراضي المكشوفة، ولم تكن مدربة على القتال من خلف الأسوار، كما لم تكن لديها المعدات اللازمة لهدمها والتغلب عليها.

توزعت القوات الإسلامية في حصار دمشق على أبواب أسوارها، فكان أبو عبيدة مع قواته على باب الجابية، وخالد بن الوليد على باب الشرقي الصغير ويزيد بن أبي سفيان على باب توما، وشرحبيل بن حسنة على باب الفراديس. وبعد حصار دام أكثر من أربعة أشهر استطاعوا تسلُّق السور وفتح خالد بن

---

(١) تاريخ الأزدي ١٨٣ ـ ٨٤.

(٢) يقول ابن إسحاق إن قائد الحامية كان باهان، الطبري ١/٢١٤٢؛ ابن عساكر ١/٤٨٥؛ تاريخ الإسلام للذهبي ٢/٢.

(٣) فتوح البلدان ١٢٢، ١٢٣؛ الأموال لأبي عبيد ١٧٧؛ تاريخ اليعقوبي ٢/٥٦؛ ابن أعثم ١/١٣٩؛ ابن عساكر ١/٥١٢ ويذكر البلاذري أن عمرو بن العاص كان على باب توما.

الوليد وأبو عبيدة أبوابها، وتغلبوا على المدافعين عنها[1]، والتقت قواتهما في المقسلاط عند موضع النحّاسين[2]، واستسلمت القوات المدافعة عنها، وهيمن العرب عليها. وأثار استسلام دمشق نقاشاً عند الفقهاء. فذكر بعضهم، ومنهم ابن سلام، أن أهل دمشق صولحوا، وارتأى آخرون أنها فتحت عنوة[3]. وفي أي حال فإن استسلام دمشق اعتبر صلحاً.

أمَّن ضم العرب دمشق لدولتهم قاعدة اقتصادية حضارية وفكرية متميزة الأهمية. وقد أضعف اندحار الروم قدراتهم العسكرية، ولكنه لم يجتثها، فبقيت لهم قوات تهدد استقرار حكم العرب في دمشق، وأدرك أبو عبيدة ذلك فلم يتوانَ عن العمل على إزالة مصادر أي خطر من الروم؛ فخلف في دمشق سويد بن كلثوم بن قيس القرشي مع جماعة من بني محارب بن فهر من خمسمائة رجل[4]. ويذكر ابن عساكر «أن يزيد بن أبي سفيان بقي معه في دمشق عدد من قواد أهل اليمن منهم أعثم بن بشر بن غزية وعامر بن هرمة ومشافع بن عبد الله بن مشافع»[5]. ولم يذكر ابن عساكر عدد القوات العربية التي بقيت في دمشق. وتدل إشارته إلى أن من ذكرهم من قواد أهل اليمن أن أكثر الباقين في دمشق كانوا من أهل اليمن.

فتح بعلبك

كان أول ما فعله العرب بعد فتح دمشق ضم بعلبك إلى دولة الإسلام، فإن هذه المدينة هي أهم قاعدة في وادي البقاع، وكان الروم يرسلون قواتهم من طريقها لإقصاء العرب وقطع خط الرجعة عليهم.

---

(١) الطبري ١/٢١٤٦، ٢١٥٠؛ تاريخ خليفة ٩٤.
(٢) فتوح البلدان ١٣، ١٤١.
(٣) الأموال لأبي عبيد، ١٥، ١٧٧؛ ابن عساكر ١/٥٢٠، ٥٣٧. ويروي الكلبي أن خالداً دخلها صلحاً. تاريخ خليفة ١٩٤.
(٤) تاريخ الأزدي ١٤٨.
(٥) ابن عساكر ١/٥١٧؛ وانظر: الطريق إلى دمشق لأحمد عادل كمال ١٩١.

يروي الأزدي أن أبا عبيدة خرج من دمشق إلى بعلبك، فَقَدِمَ خالد عليهم فصاروا ألفاً وخمسمائة[1]. ويذكر أن خالداً حاصر بعلبك وأرسل نحو خمسين كان منهم ملحان بن زياد الطائي وبنان بن حازم القيسي ودحية الكلبي»[2].

انتهى حصار بعلبك بصلح وقَّعه أبو عبيدة وفيه أن أبا عبيدة أمن أهل بعلبك «رومها وفرسها وعربها، على أموالهم وأنفسهم ودورهم داخل المدينة وخارجها» وأباح للروم البقاء بضعة أشهر يغادرون بعدها إلى حيث شاؤوا وأن لتجارهم أن يسافروا إلى حيث شاؤوا من بلاد الدولة الإسلامية[3]. وهذه الأمور تشير إلى السمة السكانية لأهل بعلبك المكوَّنين من عرب، وفرس، وروم، وأنه لم يقصِ منها إلا الروم.

فتح حمص

كانت حمص من أكبر المدن في شمالي بلاد الشام. وكثيراً ما كان هرقل ينزلها ويقيم فيها. وقد فتحها العرب مرتين، أولاهما قبل معركة اليرموك. فلما أرسل هرقل قواته إلى اليرموك لإجبار العرب على الانسحاب من بلاد الشام، وأدرك العرب خطر محاولة هرقل، انسحبوا مما سيطروا عليه وعملوا على جمع قواتهم لمقابلة قوات هرقل؛ وأعاد العرب لأهل حمص ما كانوا قد جبوه منهم.

وبعد أن انتصر العرب في اليرموك، وفتحوا دمشق وبعلبك لم يتأخروا في إنفاذ قواتهم لفتح حمص؛ وفي المصادر معلومات واسعة متفرقة عن فتح حمص؛ وليس واضحاً في كثير منها ما يتصل بالفتح الأول أو الفتح الثاني النهائي. والراجح أن أكثر التفاصيل التي ذكرتها المصادر تتعلق بالفتح الثاني.

يروي ابن عساكر أنه بعد فتح دمشق كتب الخليفة عمر إلى أبي عبيدة

---

(١) تاريخ الأزدي ١٤٨.

(٢) تاريخ الأزدي ١٤٤؛ وانظر: أحمد عادل كمال ٣٨/٩.

(٣) فتوح البلدان ١٢٩ ـ ١٣٠؛ وانظر: الوثائق السياسية ١٥٣ لمحمد حميد الله.

قائلاً: «انطلق أنت وخالد إلى حمص، ودع شرحبيل وعمرو. . . بالأردن»[١]. ويقول البلاذري إن العرب بعد استيلائهم على بعلبك تقدموا منها إلى حمص من طريق وادي البقاع ودحروا قوات الروم[٢].

أبدى أهل حمص مقاومة في جوسية؛ ويذكر الأزدي أن خالد بن الوليد قاتل أهل حمص في جوسية «معه ميسرة بن مسروق العبسي ورجل من حمير اسمه جبل». وكان من رجال جيشه ملحان بن زياد الطائي، وعبد الله بن قرظ، وصفوان بن المعطل، كل منهم صاحب رأيه، وقد انتهى إلى حمص أول يوم حاصرها المسلمون تسع رايات، كانت لطي منها رايتان، وكانوا في المقدمة من فرسان خالد وكانت أول راية دخلت حمص ودارت حول مدينتها راية ميسرة بن مسروق العبسي. وكانت لأبي أمامة راية، ولأبي محرز راية. وكان من قوات العرب فارس من آل ذي الكلاع؛ وبعث خالد لمطاردة الحمصيين ميسرة بن مسروق العبسي، ورجل من حمير اسمه شرحبيل[٣].

ويروى «قال عبد الله بن قرظ دفع إليَّ عمر هذا الكتاب وقال إذا قَدِمْتَ على المسلمين فسِرْ في صفوفهم، وقِفْ على أهل كل راية منهم». وكان معاذ في الميمنة، وقباث بن أشيم في الميسرة، وكانت فيها كنانة وقيس[٤].

ويذكر الأزدي «كان أبو بكر بعث سعيد بن عامر على سبعمائة رجل، فيهم بلال بن أبي رباح وعبد الله بن قرظ»[٥]. ولا بد أن هذه القوة شاركت في فتح حمص الأول، ولعلها شاركت في الفتح الثاني. ويروي البلاذري أن السمط الكندي فتح حمص وقسَّم على أهلها المنازل[٦]. وقد يدل هذا على أن السمط أُسند إليه عمل إداري وتنظيمي بعد فتحها.

---

(١) ابن عساكر ١/ ٥١٤.
(٢) فتوح البلدان ص١٣٧.
(٣) الأزدي ١/ ١٤٤؛ وانظر أحمد عادل كمال ٣٣٢، ٣٩٣.
(٤) أحمد عادل كمال ٤٢٧، ٤٣٣.
(٥) تاريخ خليفة ٩٩ عن ابن إسحاق، ويذكر أن الفتح كان سنة ١٨؛ ابن سعد ٣ ـ ٨/ ٩٥؛ تاريخ الأزدي ١٨٥.
(٦) فتوح البلدان ٢٢٩.

وذكر ابن عساكر أن هرقل أرسل قوة لصدِّ المسلمين عن حمص، وكان في هذه القوة على الميمنة قناطير صاحب أرمينيا[1]، والزمنجار صاحب الميسرة[2]. وعلى المقدمة جرجة، وعلى المجنِّبتين باهان والدراقص. وأن باهان قتل بالجولان[3]، وانضم جرجة إلى المسلمين[4]، ويذكر الطبري أن تذارق أخا هرقل قُتِل[5]. ويرى الجنرال أكرم أن «هرقل أرسل قناطير إلى طريق بيروت، وجرجة إلى شمال شرقي حمص، وبرجان إلى ساحل حلب وحمص، وجبلة بين حلب وحمص، والروم بقيادة وردان حاكم حمص يعاونه القبقلار[6].

ويقول دونر تقدم أبو عبيدة إلى حمص وبشير بن كعب، وذو الكلاع بين دمشق وحمص؛ وأن هرقل أرسل توذرا البطريق وشناس الرومي، وقوة مع تيودور، فطاردها خالد ولما اندحر الروم وقتل تيودور، وانسحب هرقل إلى الرها؛ تقدَّم أبو عبيدة وخالد إلى حمص ودخلوها وأخضعوا ما حولها[7].

(١) الطبري ١/ ٢٥٩٤.
(٢) ابن عساكر ٥٣٩.
(٣) ابن عساكر ١/ ٥٣٤.
(٤) الطبري ١/ ٢٠٩٧؛ ابن عساكر ١/ ٥٤٩.
(٥) الطبري ١/ ٢٥٣٤.
(٦) خالد بن الوليد للجنرال أكرم.
(٧) دونر، الفتوح الإسلامية ١٣٧.

الفصل السادس عشر

إكمال فتح بلاد الشام

كان فتح دمشق حدثاً بالغ الأهمية للعرب، نظراً لِسَعَة المدينة وأهميتها الحضارية والعسكرية، وقد تم الفتح بعد التغلب على مقاومة حاميتها ولم تصلها خلال الحصار نجدة من هرقل لأنه لم تعد عنده قوات كافية لفكِّ الحصار عنها.

غير أن فتح دمشق لا يكفي لتأمين استقرار الحكم العربي ما لم يتابع السيطرة على المناطق التي حولها والتي قد يتخذها الروم قواعد لاستعادة ما فقدوه. وكانت الصورة واضحة للتقدم إلى الشمال حيث كان هرقل لا يزال مقيماً في أنطاكية يتحين الفرص لإعادة الهجوم على العرب. وكان العرب المتنصِّرة قد ازدادت شكوكهم بقوة الروم وهزت عواطفهم انتصارات العرب الذين تربطهم بهم صلات اللغة وما يتصل بها من ثقافة، وكان لاعتناقهم المذهب اليعقوبي المخالف للأرثوذكسية التي يعتنقها الروم أثر في زيادة إضعاف هيمنة الروم، وكان أهل الأراضي من الفلاحين والزراع مجرَّدين من القوة وقد أرهقتهم الضرائب التي لا بد أن أعباءها ازدادت للصرف على الجند. ولم يصادف العرب في تقدُّمهم بعد فتح دمشق، جيشاً يقاومهم، واقتصرت المقاومة على عدد من المدن التي اعتمدت في مقاومتها على حصانة مواقعها وأسوارها والعدد القليل المتعصب للروم من سكانها والذين أجلوا بعد الفتح، أما غالبية

السكان فلم يبدوا مقاومة فعالة، وبقوا بعد الفتح في مدنهم وتعاونوا مع العرب.

لذلك سارع أبو عبيدة إلى ضمّ الأقسام الشمالية من بلاد الشام، فترك يزيد بن أبي سفيان يتولى إدارة دمشق، وتقدَّم إلى بعلبك وهي أكبر مدن سهل البقاع الخصب ولها أهمية حضارية وتجارية، وتمر بها طرق التجارة بين دمشق وسواحل البحر الجنوبية وقد سلكتها جيوش هرقل عندما تقدمت إلى اليرموك، فالسيطرة عليها تؤمن الجناح الغربي لدمشق. وكان سكانها من ذوي الأصول العربية، وفيها جاليات رومية وفارسية، فاضطر أهلها إلى الاستسلام وطلبوا الصلح، وعقد لهم أبو عبيدة معاهدة أمن فيها أهلها وتجاراتهم وأمهل الروم مدة شهرين ليغادروها بعدها[١].

ثم تقدَّم المسلمون إلى حمص، وهي المدينة الرئيسة بعد أنطاكية في شمال بلاد الشام، وكانت مركز تحشد جيشه الذي كان يرسله لمقاومة العرب.

ويقول الواقدي إن أبا عبيدة وجَّه إليها السمط بن الأسود الكندي فأجبر أهلها على طلب الصلح، ثم قَدِمَها أبو عبيدة فثبت الصلح، ثم صالح أهل حماه وشيزر والمعرة وأفامية، وبذلك أمن سيطرة العرب على المنطقة وأقام فيها جنداً، فأصبحت من أبرز أمصار بلاد الشام، وأرسل منها حملات أخضعت الموانىء القريبة منها على البحر المتوسط[٢].

---

(١) فتوح البلدان ١٢٩ ـ ١٢٠؛ تاريخ خليفة ٩٩ (ينسب الفتح إلى خالد).

(٢) فتوح البلدان ١٣٤؛ تاريخ خليفة ٩٩.

متابعة العرب تقدُّمهم في شمال بلاد الشام

إن ضم العرب حمص إلى دولتهم حرم الروم من قاعدة كبيرة كانوا يرتكزون عليها في السيطرة على شمال بلاد الشام، كما أنه أوصل العرب إلى منطقة في أحوالها بعض الاختلاف عن أواسط وجنوب بلاد الشام، حيث إنها أبعد من جزيرة العرب وأقرب إلى بلاد الروم، ولم تكن قد وصلتها الجيوش العربية من قبل، كما أن هرقل كان يقيم فيها إبان تقدُّم الجيوش العربية، وفي بواديها عشائر من تنوخ وسليح ليست لها صلة قوية بعشائر جزيرة العرب، بالإضافة إلى قربها من الموانىء الكبيرة في إنطاكية وطرابلس. ثم إن تقدُّم الجيوش العربية إليها حدث متأخراً وتالياً لتقدمهم في بلاد واسعة من الأردن وفلسطين وجنوب وأواسط بلاد الشام، مما كان يتطلب إقامة حاميات في المراكز الرئيسة للبلاد التي ضمت إلى العرب، لذلك لم يكن بإمكان العرب أن يرسلوا إليها قوات كبيرة كالتي وجَّهوها إلى مدن فلسطين والأردن ودمشق.

غير أن كل هذه الأحوال لم تَحُلْ دون وجوب ومتابعة تقدُّم العرب بسرعة لإكمال ضم بلاد الشام إلى دولة العرب قبل أن يجمع الروم قوات لتثبيت أقدامهم فيها وتهديد دولة العرب في بلاد الشام.

ولما أتم أبو عبيدة السيطرة على حمص تقدَّم وعلى مقدمته خالد بن الوليد إلى قنسرين، فقاومه أهلها ثم طلبوا الصلح، فصالحهم على مثل صلح حمص، وغلب المسلمون على أرضها وقراها[١].

ثم سار أبو عبيدة وعلى مقدمته عياض بن غنم الفهري إلى حلب، فأبدى أهلها مقاومة، ثم طلبوا من عياض الصلح والأمان على أنفسهم وأموالهم وسور مدينتهم وكنائسهم وحصنها، ويُروى أن أهل حلب أخلوا المدينة عند تقدُّم جيوش المسلمين، وانتقلوا إلى أنطاكية، ثم عادوا بعد أن أمن أبو عبيدة صلحهم[٢].

---

(١) فتوح البلدان ١٤٣؛ تاريخ خليفة ١١٥ (يذكر أن عمرو بن العاص صالح حلب ومنبج وإنطاكية وقنسرين في سنة ١٦، ولعل اسم عمرو ذكر خطأ).

(٢) فتوح البلدان ١٤٥ ـ ٦.

وفي طريق تقدُّم المسلمين إلى حلب عرض أبو عبيدة على تنوخ، وكانت تقيم في أطراف قنسرين، الإسلام فأسلم بعضهم وأقام بنو سليح على النصرانية وفعل مثل هذا بحاضر طي وحاضر حلب فتمسكوا بالنصرانية فعرض عليهم الجزية[١] وفتحوا معرة مصرين وخناصرة وقورس[٢].

الموانىء الشمالية

ولما أتم أبو عبيدة بن الجراح السيطرة على حمص وحماه وما بينهما أنفذ عبادة بن الصامت الأنصاري إلى اللاذقية ففتحها عنوة بعد قتال قوم من نصاراها، فطلبوا منه الأمان وعادوا إلى أرضهم فقوطعوا على خراج يؤدونه قلّوا أو كثروا[٣]. ثم تقدم عبادة بن الصامت ففتح جبلة، وكانت حصناً للروم، فجلا أهلها عنها ثم أعاد بناءها معاوية[٤]. وقد تقدم عبادة إلى أنطرسوس وفتحها بعد أن جلا عنها أهلها، وقد أعاد معاوية بناء حصن جبلة وانطرسوس واللاذقية وحصنها وشحنها بالمقاتلة[٥].

وبعد أن أتم أبو عبيدة السيطرة على حلب تقدَّم إلى أنطاكية، وكانت أكبر المدن في شمال بلاد الشام ولها تاريخ طويل وقد لجأ إليها عدد كبير من أهل جند قنّسرين المؤيدين للروم، وأجبر أهلها على الصلح، وجلا بعضهم ثم نقضوا الصلح، فوجَّه إليهم أبو عبيدة عياض بن غنم وحبيب بن مسلمة ففتحاها على الصلح الأول ووضع فيها مرابطة من المسلمين[٦].

---

(١) فتوح البلدان ١٤٤.
(٢) فتوح البلدان ١٤٨.
(٣) فتوح البلدان ١٣١ ـ ٢.
(٤) فتوح البلدان ١٣٢.
(٥) فتوح البلدان ١٣٣. ونشير إلى أن كتاب «طوبوغرافية سوريا» لدوسو لا يزال أوسع كتاب في وصف مواضع هذه الأماكن، وأن الجزء الأول من كتاب «بغية الطلب» لابن العديم فيه معلومات غنية أخذ كثيراً منها عن البلاذري، وأضاف إليها معلومات من مصادر أخرى.
(٦) فتوح البلدان ١٣٦. وانظر عن أنطاكية كتاب «أنطاكية» لدوني نقله إلى العربية إبراهيم نصحي وانظر «أنطاكية مدينة الله» لأسد رستم.

ثم سار أبو عبيدة إلى قورس وكانت كالمسلحة لأنطاكية، وأرسل إليها قوة بقيادة عياض بن غنم فأجبر أهلها على قبول الصلح[1] وبعد أن أتم أبو عبيدة السيطرة على الموانىء الساحلية توجَّه لإخضاع المناطق الشرقية، فوجَّه عياض بن غنم إلى منبج ثم دلوك ورعبان فصالحهم على مثل صلح أنطاكية[2].

ثم تقدَّم أبو عبيدة إلى بالس، وأرسل منها جيشاً بقيادة حبيب بن مسلمة إلى قاصرين فصالحوه، وجلا أكثرهم إلى بلاد الروم ووصل إلى الفرات، فوقف عنده وعاد إلى فلسطين. ورتب أبو عبيدة ببالس جماعة من المقاتلة وأسكنها قوماً من العرب الذين كانوا بالشام فأسلموا بعد قدوم المسلمين الشام، وقوماً من قيس نزعوا من البوادي بعد البعوث[3].

وقد أبدت أنطاكية مقاومة تغلَّب عليها العرب، وفتحوها، ثم ثارت فأعاد العرب فتحها، ووضعوا فيها قوة من المقاتلة، وتابعوا تعزيز هذه القوة لتمنع تقدُّم الروم من هذه الجهة التي كانت ثغرة يمكن أن ينفذوا منها إلى بلاد الشام، بالإضافة إلى أن الأسطول البيزنطي قد يتخذها قاعدة لحركات تهدد سيطرة المسلمين على السواحل.

وأرسل أبو عبيدة حملة فتحت قورس وأقام العرب فيها حامية، كما غزا المصيصة التي صارت فيما بعد من أعظم الثغور الإسلامية.

وأرسل أبو عبيدة قوة عليها عبادة بن الصامت فتحت اللاذقية وجبلة وأنطرسوس ثم تقدَّم أبو عبيدة إلى بالس، وكان فيها الجسر الرئيس على الفرات، ففتحها ووضع فيها حامية من المقاتلة العرب وممن أسلم من عرب الشام.

---

(1) فتوح البلدان ١٤٨.
(2) فتوح البلدان ١٤٩.
(3) فتوح البلدان ١٤٩ ـ ١٥٠.

فتح الأردن وفلسطين

كانت الأردن وفلسطين أقرب بلاد الشام إلى الجزيرة العربية، لذلك بدأت بها القوات العربية عندما أنفذها أبو بكر الصديق وتوغل عمرو بن العاص آنذاك إلى أطراف غزة، وانتصر على قرية رومية في الداثن ثم انسحب إلى وادي العربة دون أن يفتح أيَّ مدينة ويقضي على سلطة الروم فيها، وكانت لتلك الحركات المبكرة أهمية في إظهار قوة العرب وعزمهم على مد دولتهم إلى هذه البلاد، وزادت من معرفة العرب بقوات الروم وتوزيعها، وكان لحسن معاملة العرب أثر كبير في زيادة إضعاف ثقة الفلاحين من أهل البلاد بالروم، وانضمّ إلى جيوشهم الكثير من العشائر المتفرقة التي كانت من قبل تقاتل مع الروم مثل لخم وجذام.

ولم يتابع العرب تثبيت سلطاتهم في فلسطين والأردن في هذه المرحلة وإنما ركزوا جهودهم على القضاء على جيوش الروم التي كانت تتجمع في المدن المحصنة أو في ميادين القتال لمقاومة العرب. وقد أدرك الروم أهمية موقع هذه البلاد فجمعوا فيها الجيوش واختاروا فيها ميادين القتال في أجنادين وفحل واليرموك، حيث إن سيطرتهم على هذه المنطقة تقطع على العرب أيَّ تقدُّم إلى الشمال.

وبعد أن أحرز العرب انتصارهم الحاسم في معركة اليرموك بادروا إلى إنفاذ قوات لتثبيت حكمهم فيها وكانوا يدركون الأهمية الروحية والتجارية والعسكرية لهذه البلاد، إذ إن فيها بيت المقدس، وهو ثاني القبلتين وإليه أسرى الرسول (ص) وكانت علاقاتهم التجارية بمدنها، وخصوصاً غزة وبصرى علاقات قديمة، ومنها كانت تأتي قافلة الأنباط بالمنتوجات إلى المدينة بعد الهجرة. ثم إن هذه البلاد كانت لها سواحل طويلة على البحر المتوسط، وفيها موانىء للتجارة وللأسطول ويمكن أن يستفيد منها الروم إذا بقيت في أيديهم، بإنزال قوات تهدد مؤخرة العرب وتقطع صلتهم بالجزيرة إضافة إلى صلتها البرية بأواسط بلاد الشام.

وعندما وَلِيَ عمر بن الخطاب الخلافة جعل أبا عبيدة بن الجراح أميراً على الشام، وقد توجه أبو عبيدة لتصفية الروم في أواسط وشمال الشام، ولم يغفل الأردن وفلسطين «فافتتح الأردن، وقاومت طبرية ثم استسلمت بعد حصار أيام، وأمن أهلها على أنفسهم وأموالهم وأولادهم وكنائسهم ومنازلهم إلا ما جلوا عنه وخلوه، ثم ثاروا واجتمع إليهم قوم من الروم، فاستعاد فتحها كما فتح بيسان وسوسية وأفيق وجرش وبيت راس وقدس والجولان وجميع مدن الأردن وحصونها بغير قتال»[1]، وبذلك أمن سيطرة العرب على سواد الأردن وجميع أرضه كما فتح عكا وفتح صور وصفورية.

ثم وجَّه لفتح بقية القرى قواداً، فوجَّه العاص ففتح غزة وسبسطية ونابلس وعمواس وبيت جبرين ويافا ورفح واعطوا أهلها الأمان على أنفسهم وأموالهم ومنازلهم، وعلى أن الجزية على رقابهم والخراج على أرضهم[2]. أما بيت المقدس فإن سعيد بن عبد العزيز يذكر أن عمرو بن العاص حاصرها فطلب أهلها الأمان والصلح على مثل ما صولح عليه أهل مدن الشام على أن يكون المتولي للعقد لهم عمرو بن الخطاب نفسه سنة ١٦[3]. ويذكر الطبري أن علقمة بن حكيم وأبا أيوب هما اللذان حاصرا بيت المقدس، أما الليث فيقول إن عمر بن الخطاب عندما كان بالجابية بعث خالد بن ثابت الفهمي إلى بيت المقدس في جيش، فقاتلهم.

ويذكر الأوزاعي أن بيت المقدس حوصرت بعد أن تم فتح قِنَّسرين وكُوَرِها سنة ١٦ ، فصالحوا على أن يَقْدِم عمر فينفِّذ ذلك ويكتب لهم

---

(١) فتوح البلدان ١١٥؛ تاريخ خليفة ١٩٩؛ تاريخ ابن عساكر ١/٤٨٥، ويقول الطبري إن هذه الفتوح تمت بعد فتح حمص ١/٢٣٩٧.

(٢) فتوح البلدان ١٣٧.

(٣) تاريخ خليفة ١٠٥ عن ابن إسحاق، ويذكر أن الذي فتحها أبو عبيدة وعلى مقدمته خالد بن الوليد.

به[1]. ويذكر الطبري أن عمر جاء لتنظيم إدارة المنطقة وكان العرب يحاصرون إيلياء وهي القدس، فصالحوا عمر على الجزية وفتحوها له[2]. وذكر أن في كتاب صلحهم أن يخرج الروم، ولا يسكنها اليهود[3]، وجعل على إيليا علقمة بن مُجَزِّز[4]، وأبدت الرملة مقاومة استسلمت بعدها. وتم ذلك سنة ١٩ بعد فتح قنَّسرين.

وأبدت بعض المدن الساحلية مقاومة لكثرة من فيها من الروم، والإمدادات التي يرجَّح أن هرقل أرسلها من طريق البحر، وكان أبو عبيدة، قد وجَّه إليها عمرو بن العاص ثم أمدَّه بمعاوية ففتحوا المدن الساحلية[5] وحرموا الروم من الموانىء التي يغير منها أسطولهم؛ وإن كانت سيادتهم عليها معرَّضة لغارات أسطول الروم.

تقدَّم عمرو بن العاص بعد فتح بيت المقدس إلى قيسارية، فأبدت مقاومة عنيدة لعدة سنوات، ويذكر البلاذري ما يشير إلى أنها كانت أكبر المدن الساحلية فيقول إنه كان فيها ثلاثمائة سوق قائمة، ويحرس سورها مائة ألف، وفيها من المرتزقة سبعمائة ألف، ومن اليهود مائتا ألف، ومن السامرة ثلاثون ألفاً[6]؛ وفي هذه الأرقام مبالغة واضحة، ولكنها تدل على سعتها، ولا بد أن أسطول الروم عاونها في المقاومة التي دامت عدة سنين انتهت في شوال سنة ١٩؛ باستسلامها لمعاوية الذي أرسله يزيد للمشاركة في فتحها[7]، وباستسلامها للعرب الذين أخذوا من المقاومين فيها سبياً نقلوهم إلى المدينة ووزعوهم على

(١) فتوح البلدان ١٤١؛ تاريخ خليفة ٨١٢؛ تاريخ ابن عساكر ١/٥٥٣.
(٢) الطبري ١/٢٤٠٣.
(٣) الطبري ١/٢٤٠٥ ـ ٦.
(٤) الطبري ١/٢٤٠٧.
(٥) فتوح البلدان ١٣٨.
(٦) فتوح البلدان ١٣٩.
(٧) فتوح البلدان ١٣٩، ١٤١.

أهلها؛ وهي مع عين التمر المدينتان الوحيدتان اللتان ذكرت المصادر نَقْلَ سَبْيٍ منهما إلى المدينة.

وبفتح قيسارية كمل ضم فلسطين إلى الدولة العربية، ولم يتوانَ العرب عن إرسال قوة بقيادة عمرو بن العاص لفتح مصر، وهذا ما سنتحدث عنه في فصل خاص.

الفصل السابع عشر

تنظيم الإدارة

لم يلاقِ العرب بعد انتصارهم الحاسم في اليرموك جيشاً رومياً كبيراً يشتبكون معه في ميدان مكشوف، فقد اقتصرت المقاومة التي لاقوها على المدن والموانىء المتفرقة التي كان كثير منها محصناً بأسوار وحصون، وقد استسلمت هذه المدن كافة بعد حصار قصير، ومقاومة ضعيفة، وعُقِدَ مع أكثرها صلح شملت أحكامه المدينة وربما الأرض التي حولها، ولم يُذكر في أيٍّ من هذه المدن قائد بارز، قاوم العرب، فكان الصلح مع أهل المدينة دون الإشارة إلى ممثليها في ذلك الصلح. وبنود الصلح في المعاهدات التي رويت لنا نصوصها مقتضبة، يؤمن فيها القائد العربي الذي حاصرها أهلها على أنفسهم وأموالهم ومنازلهم وكنائسهم. وقد قبل أكثر السكان في كل مدينة الصلح، وجلا عن عدد منها من لم يرضَ البقاء في ظل حكم العرب. وثارت بعض المدن بعد صلحها، ولكنها أُخضعت وبقيت عليها أحكام صلحها، ولم يقتل العرب مقاتلة منها أو يسبوا من أهلها، ما عدا قيسارية التي أبدت مقاومة امتدت سنوات، وكانت فيها حامية كبيرة، وسبى المسلمون منها أربعة آلاف.

تطلبت هذه الأحوال الجديدة زيادة الاهتمام بمعالجة الشؤون الإدارية إلى جانب شؤون القتال، وقد تابعها القواد الأولون، وهم أبو عبيدة بن الجراح، وخالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص، وبرز كلٌّ من عياض بن

غنم وحبيب بن مسلمة، وكلاهما من فهر وهي عشيرة أبي عبيدة بن الجراح[1].

ولا ريب في أن بروز الفهريين في حركات بلاد الشام يرجع بعضه إلى صلتهم النسبية بأبي عبيدة بن الجراح ومواهبهم وليس إلى قوة عشيرتهم وعددها في بلاد الشام.

وتتجلى أهمية الخبرة الإدارية في هذه المدة في استسلام المدن بمعاهدات الصلح التي وإن كانت قصيرة إلا أنها تقر نظاماً إدارياً مستقراً يراعي أوضاع المدن ومتطلبات الإدارة العربية، وهي وإن كانت تراعي التقاليد المستقرة في المدن، إلا أنها تتطلب معالجة آثار جلاء عدد من السكان الذين لا بد أنهم كانوا من مؤيدي الروم، ولعل أكثرهم من رجال الإدارة.

إن عدم إشارة معاهدات الصلح مع مدن بلاد الشام إلى نظمها الإدارية يدل على أن العرب لم يلغوا تلك النظم التي لا بد أنها تأثرت بجلاء من جلا من المدن، علماً بأن دراسة تفاصيل إدارة مدن الشام إبان الفتوح لم يتمَّ استيعابه بعد[2].

إن الامتداد السريع للدولة في بلاد الشام، وانهيار مقاومة جيوش هرقل التي تتجلى في مغادرته بلاد الشام وإخرابه الأراضي في أطرافها الشمالية، وما نقل عن توديعه بلاد الشام، طمأن العرب على استقرار حكمهم في بلاد الشام والحاجة إلى إقامة تنظيمات يتطلبها هذا الاستقرار وحملت الخليفة عمر بن الخطاب على أن يَقْدِمَ إلى الجابية في السنة السادسة عشرة لبحث هذه التنظيمات وإقرارها. ولا ريب في أن اهتمامه تركز على ما يتصل بالإدارة العليا في بلاد الشام، ووضع الأسس العامة لتنظيم شؤون المقاتلة العرب من حيث استقرارهم ومعيشتهم.

---

(١) الأنساب لابن حزم ١٧٦ ـ ٧.

(٢) انظر: جونس «المدينة الإغريقية».

مؤتمر الجابية

تقع الجابية في جنوب شرقي دمشق على بعد حوالي ثلاثين كيلومتراً منها، وهي في طرف الصحراء، وكانت مقام أمراء الغساسنة[1]، ثم ضعفت مكانتها بعد زوال إمارتهم، فلم يَرِدْ لها ذكر في أخبار معارك فتوح بلاد الشام سوى ما ذكر أن خالد بن الوليد أتاها وبها أبو عبيدة في جماعة من المسلمين[2].

برز اسم الجابية في الأحداث عندما قَدِمَها الخليفة عمر بن الخطاب واختارها مكاناً يثبت فيه التنظيمات التي اعتزم وضعها لبلاد الشام، ولعله اختارها لما تتميز به من صلة قديمة بدولة عربية، وهي بمعزل عن المؤثرات الأعجمية أو البعيدة عن روح الجو العربي القريب من الصحراء والذي يحرص عليه عمر بن الخطاب.

أجمل ابن عساكر ما قام به عمر في الجابية فقال «دفع إليه أمراء الأجناد ما اجتمع عندهم من الأموال، فجنّد الأجناد، ومصّر الأمصار، ثم فرض الأعطية والأرزاق»[3]. ويروي سيف بن عمر أن عمر بن الخطاب في الجابية «قسم الأرزاق، وسمى الشواتي والصوائف، وسد فروج الشام ومسالحها، وأخذ يدور بها، وسمّى ذلك في كل كورة»[4]. ويروي أيضاً أنه قال عند عودته إلى المدينة «قسطنا بينكم فيئكم ومنازلكم، وأبلغنا ما لديكم، فجنَّدنا لكم الجنود، وهيَّأنا لكم الفروج، وبوَّأناكم ووسَّعنا عليكم ما بلغ فيئُكم وما قاتلتم عليه من شامكم، وسمَّيْنا لكم أطماعكم، وأمرنا لكم بأعطياتكم، وأرزاقكم ومغانمكم»[5].

ويتبين من هذا أن القرارات التي اتخذها عمر بن الخطاب كانت واسعة،

---

(١) ياقوت ٢/٤٠٣، وانظر مادة «جابية» في دائرة المعارف الإسلامية.
(٢) فتوح البلدان ١١١؛ ابن عساكر ١/٤٦٠.
(٣) ابن عساكر ١/٥٥٢.
(٤) الطبري ١/٢٥٢٣.
(٥) الطبري ١/٢٥٢٤.

فشملت تأمين حكم بلاد الشام، وتنظيم إدارتها، وتأمين متطلبات الجند المسلمين.

قَدِمَ عمر الجابية بعد أن بان انهيار مقاومة الروم في بلاد الشام، وظهر ثبات حكم العرب فيها، غير أنه كانت في ذلك بعض الثغرات، ومنها أن بيت المقدس لم تكن قد فتحت، كما أن الجزيرة الفراتية كانت لا تزال بيد الروم، وقد تكون مبعث خطر على سيطرة العرب على بلاد الشام، وأدرك عمر ذلك فأنفذ من الجابية جيشاً فتح بيت المقدس، وجاء الخليفة بنفسه إليها فأبرم صلحها(١)، وعزّز مكانتها القدسية المتميزة. ثم إنه أنفذ خالد بن الوليد وعياض بن غنم لفتح الجزيرة الفراتية(٢)، وبذلك أمن السيطرة التامة على بلاد الشام، وهذا ما عبَّر عنه سيف بقوله إنه «سد فروج الشام ومسالحها وأخذ يدور بها».

ويذكر سيف أن عمر بن الخطاب «استعمل عبد الله بن قيس على السواحل من كل كورة، وعزل شرحبيل، واستعمل معاوية، وأمر أبا عبيدة وخالداً تحته»(٣).

ويذكر أيضاً أن عمر بن الخطاب،

«جعل على حمص أبا عبيدة، وخالداً تحت يديه على قنّسرين

وعلى دمشق يزيد بن أبي سفيان

وعلى الأردن معاوية (بن أبي سفيان)

وعلى فلسطين علقمة بن مجزّز

وعلى الأهراء عمرو بن قيس

---

(١) فتوح البلدان ١٣٨؛ الأموال لأبي عبيد ١٥٣؛ ابن عساكر ١/ ٢٥٢.
(٢) الطبري ١/ ٢٥٢٦.
(٣) الطبري ١/ ٢٥٢٣.

وعلى السواحل عبد الله بن قيس

وعلى كل عمل عاملاً

فقامت مسالح الشام ومصر والعراق على ذلك إلى اليوم لم تجز أمة إلى أخرى عملها بعد إلا أن يقتحموا عليهم بعد كفر منهم، وقَدِموا مسالحهم بعد ذلك، فاعتدل ذلك في سنة ١٧»[١].

يتجلى من هذا النص أن التقسيمات التي أقرَّها عمر في الجابية هي حمص، ودمشق والأردن، وفلسطين وهي التقسيمات التي كان قد وضعها الروم من قبل، كما أن عمر جعل السواحل وحدة إدارية قائمة بذاتها، وجعل الأهراء عملاً قائماً بذاته، ولعل المقصود به الإشراف على ما يجبى من مواد عينية ثم توزيعها على المقاتلة.

حسم عمر بن الخطاب علاقة المقاتلة بأراضي بلاد الشام، فقرر بعد نقاش ألا توزع هذه الأراضي على المقاتلة العرب[٢]. ونظم الأرزاق، فأقرَّ تخصيص مقدار من الخبز والزيت أو الودك يوزع على المقاتلة وعيالاتهم بما يكفيهم. ويُروى أنه أراد ألا يعطي لخماً وجذام الرزق على أساس قرب ديارهم من ميادين المعارك، ولكنه عدل عن ذلك وقرر إعطاءهم أُسوة بغيرهم[٣].

ثم إنه «قسم المواريث، فورَّث بعض الورثة من بعض، ثم أخرجها إلى الأحياء من ورثة كل إمرىء منهم»[٤].

وظلت الجابية مركز تجمُّع الجند وتوزيع العطاء إلى أن جعلت دابق مركزاً للتجمع في زمن معاوية بن أبي سفيان لقربها من الثغور[٥].

---

(١) الطبري ١/٢٥٢٦.

(٢) ابن عساكر ١/٥٥٢.

(٣) الأموال لأبي عبيد ٥٨، ٥٩، ٢٤٧؛ ابن عساكر ١/٢٥٦.

(٤) الطبري ١/٢٥٢٤.

(٥) بغية الوعاة ٥٤ (مخطوطة أياصوفيا) عن الوليد بن مسلم.

الفصل الثامن عشر

فتوح الجزيرة الفراتية

الجزيرة الفراتية

الجزيرة الفراتية إقليم واسع يقع جنوب جبال طوروس الوعرة التي تفصلها عن هضبة الأناضول. وهي تمتد شرقاً إلى عقدة الجبال الوعرة التي كان الأرمن يسيطرون عليها فسُمِّيَتْ أرمينية؛ أما في الغرب والجنوب فهي متصلة ببلاد الشام والعراق لا يفصلها عنهما حاجز جغرافي معرقل[1].

وأرض الجزيرة الفراتية متموجة، فيها بعض الجبال وعدد من المرتفعات؛ ويخترقها نهر الفرات ورافداه الخابور والبليخ وفروعهما المتعددة، وتتوافر فيها المياه الجوفية التي تغذي عدداً كبيراً من العيون والآبار المنبثة في أرجائها، وساعدت على ازدهار زراعة الحبوب وأنواع من أشجار الفاكهة والكروم والزيتون، ونمى فيها عدد كبير من المستوطنات والقرى والمدن التي كان بعضها، وبخاصة حران والرها، مراكز فكرية أنمت دراسات في الرياضيات والفلسفة والعلوم الدينية، وكانت موئلاً لفرق دينية متعددة استغل معتنقوها موقع البلاد المنعزل على حدود دول كبيرة، فلجأوا إليها، وأفادوا من تسامح حكامها

---

(١) انظر عن الجزيرة الفراتية كتاب «العلائق الخطيرة» لابن شداد و«بغية الطلب لابن شداد»، و«الجزيرة العليا القديمة وما حولها» لديلمان. وانظر «الجزيرة الفراتية» لمحمد المشهداني، و«الثغور الإسلامية» لفتحي رضوان.

في نشر أفكارهم، غير أنه حدثت بين هذه الفرق خلافات كان بعضها عنيفاً، ومن حيث العموم كان اليعاقبة أكثر الفرق أتباعاً.

ويسَّر موقفها الجغرافي مرور التجارات بها، بين الشرق والغرب، غير أنه عرضها لتخريبات العساكر التي تمر بها في الحروب المتكررة بين دولتَيْ فارس والروم؛ وجعل أهلها لا يميلون إلى أيٍّ من هاتين الدولتين، وخصوصاً أنهما لا يساندان اليعقوبية التي يعتنقها معظم السكان.

والجزيرة الفراتية مفتوحة لبلاد الشام والعراق، وجزيرة العرب؛ وسكانها من أرومة عربية العرق، ولغتهم السريانية وثيقة الصلة بالعربية في كثير من مفرداتها وقواعدها؛ وكثيراً ما كانت تأتيها عشائر من جزيرة العرب فتستقر في بواديها، ومن أكبر هذه العشائر عشيرة طي، كما أن كثيراً منهم استقر في المدن، وكانت حمص عندما قدم بومبي يحكمها عرب[١]، واستطاع أحد رجالهم «أبجر» أن يقيم دولة مستقلة ظلت تحكم المنطقة من مقرِّها في حران قرابة ثلاثة قرون إلى سنة ٢١٤م حيث قضى الرومان على دولتهم وشجعوا الإغريق على سكناها[٢].

ولما استقر الحكم العربي في بلاد الشام والعراق كان لا بدَّ للعرب أن يتقدموا لضم الجزيرة الفراتية إلى دولتهم. لأن تركها بيد أعدائهم يكون مصدر خطر لدولتهم الجديدة، لذلك لم يتوانوا منذ وقت مبكر في إنفاذ الجيوش لإقصاء حكامها الروم، وضمِّها إلى دولتهم.

وكان هرقل بعد اندحاره الساحق في اليرموك قد زادت ريبته بالأرمن وأهل الجزيرة الفراتية، فأخلى مناطق الجزيرة الفراتية وشمال بلاد الشام، وقسمها على الأهالي عند انسحابه[٣]، وركز دفاعاته على جبال طوروس الوعرة ذات المناخ البارد، وحصَّن عندها قواعد لم تكن محصنة من قبل ومنح ولاتها

(١) «العرب في سوريا قبل الإسلام» لدوسو ١١.
(٢) «المدينة الإغريقية» فصل من كتاب «أراضي الأقاليم الرومانية الشرقية»، ترجمة إحسان عباس.
(٣) انظر ميخائيل السوري ٢/ ٤٢٤.

سلطات عسكرية، وأقطع الجند فيها الأراضي، وهو ما يسمّى نظام الجنود Themes، وجعل أرمينية تحت إدارة عسكرية؛ غير أن هذه التنظيمات والتحصينات لم تُعِقْ العرب من اختراقها والتقدم إلى الجزيرة الفراتية، وإنفاذ غزوات سنوية يتوغل بعضها بعيداً في الداخل[١].

تتفق المصادر على أن أبا عبيدة بعد فتحه حلب أنفذ في منتصف شعبان من سنة حملته لضم البلدان في شرق بلاد الشام والجزيرة الفراتية إلى الدولة الإسلامية؛ وجعل عياض بن غنم على قيادة هذه القوة التي كان قوامها خمسمائة رجل[٢]، وعلى مقدمته ميسرة بن مسروق العبسي، وعلى ميمنته سعيد بن عامر بن حذيم الجمحي، وعلى ميسرته صفوان بن المعطل السلمي، ثم أمده بألف عليهم بسر بن أرطأة[٣].

وكانت أحوال الجزيرة الفراتية تختلف عما كانت عليه في المناطق التي كانوا قد تقدموا إليها؛ إذ لم تكن في الجزيرة الفراتية قوات عسكرية رومية تصد تقدُّم العرب، ولم يكن للروم مؤيدون أقوياء من أهل البلاد، فانشغلت القوات العربية في حصار وفتح البلدان المتعددة، مما لم يلقوه في تقدُّمهم الأول في الأردن وفلسطين؛ إضافة إلى أن هذه الحركات كانت متصلة بأطراف العراق الشمالية.

وتقدمت قوات عياض إلى الرقة فصالحه بِطْريقها على أن يؤمن جميع أهلها على أنفسهم وذراريهم وأموالهم ومدينتهم[٤]؛ ثم سار إلى حران فأبدت مقاومة؛ ولكنها لم تعطل تقدُّمه، فتركها وتقدَّم إلى الرها[٥]. وكانت المدينة الرئيسية في الإقليم و«الباب الأعظم الذي يخرج منه إلى أرض الروم، فنزل عليها

---

(١) انظر «انتهاء الفتوح» لهملر.
(٢) ابن أعثم ١/ ١٢٥، ويقول البلاذري إن قوام الحملة خمسة آلاف رجل.
(٣) فتوح البلدان ١٧١؛ ابن أعثم ١/ ٢٥.
(٤) فتوح البلدان ١٧٢؛ ابن أعثم ٢/ ١٢٦.
(٥) فتوح البلدان ١٧٣؛ الخراج لأبي يوسف ٤٠.

وحاصرها، فعرض بِطْريقها الاستسلام، وعقد معه معاهدة أمن فيها أهالي الرها على أنفسهم وذراريهم وأموالهم ومواشيهم وطواحينهم، وأن عليهم إصلاح الجسور وهداية الضال». ويقول أبو يوسف[١] إن أحكام هذا الاتفاق تسري على المدينة؛ ولم تُشِرْ إلى أهل القرى والرساتيق الذين شملتهم ضمنياً أحكام هذا الاتفاق.

وكانت معاهدة الرها الأنموذج الذي صولحت عليه المدن التي تابع عياض فتحها[٢]، وعاد بعد فتح الرها إلى حران ففتحها[٣]، وفتح نصيبين ودخل إلى خلاط وبدليس وسنجار، وفتح حران وسروج وراس كيفا وتل موير وميّافارقين وسميساما وكفرنوتا وماردين وبازبدي وباقردى[٤].

ولما توفي عياض سنة ٢٠ ولّى عمر الجزيرة سعيد بن عامر، ثم توفي سعيد فولّى عمر فتوح الجزيرة عمير بن سعد ففتح رأس العين وسنجار وقرقيسا وعانات والحصون التي على الفرات. ولم يتجاوزها في فتوحه لأن قوة من العراق تقدمت بقيادة عمار بن ياسر ففتحت الناووس وآلوسة[٥]. وقام عمير بن سعيد ببناء المساجد في الرقة والرها، وعدد من المواضع في ديار مضر وديار ربيعة.

وفي زمن خلافة عثمان كانت الجزيرة تابعة في إدارتها لمعاوية بن أبي سفيان، وكان الوالي على بلاد الشام، فاهتم بتوطين العرب الجزيرة وأنزل بني تميم الرابية، وأنزل المازحين والمديبر أخلاطاً من قيس وأسد وعنزة، وفعل ذلك في جميع نواحي ديارها، ورتبت ربيعة من ديارها؛ وألزم المدن والقرى

---

(١) الخراج لأبي يوسف ٤٠؛ ابن أعثم ٣٢٩/١.
(٢) فتوح البلدان ١٧١.
(٣) فتوح البلدان ١٧٣.
(٤) ابن أعثم ١٣٣/١.
(٥) فتوح البلدان ١٧٤، ١٧٨.

والمسالح من يقوم بحفظها ويذبّ عنها من أهل العطاء، ثم جعلهم مع عماله[1].

ثم ولّى الجزيرة حبيب بن مسلمة وكان ممن قاتل مع عياض[2] وكان معه أربعة آلاف فارس وألفا راجل[3]. ثم أردفه بعشرة آلاف من أهل الكوفة عليهم سلمان بن ربيعة الباهلي الذي فتح شمشاط وقاليقلا، ثم فتح البيلقان وبلنجر وتقدّم إلى جرزان وما حولها فحاصرها[4].

---

(١) فتوح البلدان ١٧٦.
(٢) ابن أعثم ٢/١٠٨.
(٣) ابن أعثم ٢/١١١.
(٤) فتوح البلدان ١٨٤.

الفصل التاسع عشر

موقف الروم والعرب من فتوح بلاد الشام

استطاع العرب بسيطرتهم على الجزيرة الفراتية وأرمينية أن يؤمنوا الحدود الشرقية لبلاد الشام فضلاً عن تأمينهم الحدود الشمالية للعراق، كما استطاعوا بعد إنشاء أسطولهم وانتصارهم في معركة ذات الصواري أن يؤهلوا شواطىء بلاد الشام فضلاً عن مصر، وساعدهم جلاء كثير من مؤيدي الروم ومقاتلتهم عن بلاد الشام إلى تخلُّصهم من العناصر غير الموالية، وإلى جعل أهل الشام أكثر تكتلاً وتماسكاً مع الدولة العربية الجديدة.

أدرك عمر صعوبة ملاحقة الروم وإزالة دولتهم وخصوصاً أن عاصمتهم القسطنطينية كانت نائية عن بلاد الشام ويحميها البحر، وكانت الجيوش الإسلامية موزعة تقاتل في جبهات العراق والجزيرة الفراتية ومصر، ولم يكن بالإمكان جمعها لتقاتل في منطقة واحدة من أجل القضاء على الروم، لذلك قرر الاكتفاء ببلاد الشام والجزيرة الفراتية.

وكانت قوات عربية في تقدُّمها المبكر لمطاردة الروم قد أوغلت في بلادهم، فيروي البلاذري «أول من قطع الدرب وهو درب بغراس قال بعضهم قطعه ميسرة بن مسروق العبسي، وجَّهه أبو عبيدة بن الجراح، فلقي جمعاً للروم ومعهم مستعربة من غسان وتنوخ وأياد يريدون اللحاق بهرقل فأوقع بهم وقتل منهم مقتلة عظيمة.. وقال بعضهم إن أول من قطع الدرب عمر بن سعد

الأنصاري حين توجَّه في أمر جبلة». ويذكر في رواية أخرى عن أبي الخطاب الأزدي أن أول من أدرب أبو عبيدة، وبلغ في غزواته زندة[1]. وهذه غزوة لم يتلها موقف جدي للعرب لأن عمر منعهم من التوغل وقال «الوددت أن الدرب حجرة بيننا وبين الروم، فلنا ما دونه ولهم ما دوننا»[2]. اتخذ الروم خطاً دفاعياً من جبال طوروس التي تمتد من رأس البحر المتوسط إلى شمال الجزيرة الفراتية وهي سلاسل وعرة ليس فيها إلا مسالك محدودة أو دروب تقيد حركات الجيوش ومسيرها وتحصرها في دروب محدودة مما يسَّر الدفاع عنها.

وفي هذا يقول البلاذري «كانت ثغور المسلمين الشامية (الشمالية الغربية) أيام عمر وعثمان وما بعد ذلك أنطاكية وغيرها من المدن التي سمّاها الرشيد «العواصم».. «وكان فيما بين الإسكندرون وطرسوس حصون ومسالح للروم كالحصون والمسالح التي يمر بها المسلمون اليوم.. وقد قيل إن هرقل أدخل أهل هذه المدن معه عند انتقاله من أنطاكية لئلا يسير المسلمون في عمارة ما بين أنطاكية وبلاد الروم»[3]. وذكر أن «معاوية لما غزا عمورية وجد الحصون فيما بين أنطاكية وطرسوس خالية». وقيل إن معاوية «غزا سنة إحدى وثلاثين من ناحية المصيصة... فلما خرج جعل لا يمرّ بحصن فيما بينه وبين انطاكية إلّا هدمه»[4].

يتبيّن مما تقدَّم أن الروم اتخذوا خطاً دفاعياً من جبال طوروس التي تمتد من رأس البحر المتوسط إلى شمال الجزيرة الفراتية؛ وهي سلاسل وعرة ليس فيها إلا مسالك محدودة «دروب» تقيد حركات الجيوش وتحصرها في هذه الدروب مما ييسر الدفاع عنها. وكانت طرسوس في أقصى الحدود الشمالية للدولة. وكانت المدن التي على أطرافها معرضة لهجوم الروم، فعمل العرب على تحصينها.

---

(١) فتوح البلدان ١٦٣.
(٢) فتوح البلدان ١٦٣.
(٣) فتوح البلدان ١٦٢.
(٤) فتوح البلدان ١٦٣.

موقف الروم

إن المعارك التي خاضها الروم لإيقاف تقدُّم العرب في بلاد الشام ومصر أفقدهم عدداً كبيراً من مقاتلتهم، كما أن اندحارهم وانسحابهم أفقدهم بلاداً غنية في مواردها، وعدداً كبيراً من الموانىء للسفن التجارية والحربية، وكانت للأسطول أهمية كبيرة في دولتهم لأنه يؤمن المواصلات والسيطرة على الأقاليم العديدة التي كانوا يهيمنون عليها في أطراف البحر المتوسط.

وأدرك هرقل بعد وصول الجيوش العربية حمص أن قواته أصبحت من الضعف لدرجة تجعل محاولة القيام بصدِّهم واسترجاع ما ظفروا به عبثاً، ولذلك غادر قاعدته أنطاكية وقال (سلام عليك يا سوريا سلام لا لقاء بعده)(١). وهذا يعبِّر عن تقديره الصائب لعدم جدوى أيِّ محاولة جديدة لاستعادة بلاد الشام والقضاء على الدولة العربية.

غير أن اندحار الروم لم يقضِ على كل بلاد دولتهم، فقد بقيت لهم أقاليم كثيرة في آسيا الصغرى وفي أوروبا وشمال إفريقية، كما كانوا يهيمنون على جزر البحر المتوسط. ومع أن تقدُّم العرب إلى شمال بلاد الشام كان سريعاً وظافراً، إلا أنه تعطل بسبب طاعون عمواس الذي اجتاح البلاد سنة ١٨ وأفنى عدداً من مقاتلتهم، وقضى على عدد من أبرز قوادهم، ورافقه قحط عام في الجزيرة العربية عام الرمادة، فتوقف زحفهم، واستغل هرقل الفرصة فعمل على إخلاء الأراضي الواقعة في جنوب طوروس، وهدم حصونها ومزارعها ليعرقل تقدُّم العرب(٢).

جلاء الموالين للروم

غير أن بقاء دولة الروم بعاصمتها القسطنطينية والأراضي الواسعة التي تهيمن عليها في هضبة الأناضول والبلقان شجع عدداً من الموالين لهم في بلاد الشام

(١) فتوح البلدان ٣٩.
(٢) فتوح البلدان ١٦٢ ـ ٣.

على الاحتفاظ بولائهم لها؛ ودفع كثيراً من هؤلاء الموالين إلى الهجرة من البلاد التي أصبحت في ظل السيادة الإسلامية، فأجلوا عنها، وذكر البلاذري أخبار عدد ممن أجلوا من بلاد الشام إثر سيطرة العرب، وممن ذكرهم جبلة بن الأيهم الذي دخل بلاد الروم مرتداً في ثلاثين ألفاً[1]، وأن الجراجمة همّوا باللحاق بالروم إذ خافوا على أنفسهم[2]، وكان الجلاء من بعض المدن الداخلية ومنها دمشق إذ إنه «لما فتحت لحق بشر كثير من أهلها بهرقل وهو بأنطاكية»[3]. وأشار البلاذري إلى جلاء بعض أهل طبرية وإخلائهم بيوتهم[4]، وذكر أن الروم أخربت عسقلان وأجلت أهلها عنها في أيام ابن الزبير[5]. ولما قَدِمَ أبو عبيدة حلب لم يصادف بها أحداً إذ إن أهلها انتقلوا إلى أنطاكية، ثم صالحهم فعادوا إليها[6]، وأن أهل بالس جلا أكثرهم إلى بلاد الروم وأرض الجزيرة[7]، وجلا خلق من أهل رأس العين[8]، وأهل مرعش[9]. كما خرجت الروم من مدينة الحدث وأجلت عنها أهلها، كما فعلت بملطية[10] وجلا كثير من أهل قاليقلا فلحقوا ببلاد الروم[11].

كان أكثر الجلاء في أهل المدن الساحلية، فلما فتح العرب صيدا وعرقة وجبيل وبيروت وهي سواحل.. جلا كثير من أهلها[12]، وهرب أهل طرابلس[13]، كما أن بلدة وهي على فرسخين من جبلة خربت وجلا عنها

(١) فتوح البلدان ١٣٥.
(٢) فتوح البلدان ١٥٨.
(٣) فتوح البلدان ١٢٢.
(٤) فتوح البلدان ١١٥.
(٥) فتوح البلدان ١٤٢.
(٦) فتوح البلدان ١٤٦.
(٧) فتوح البلدان ١٤٩.
(٨) فتوح البلدان ١٧٦.
(٩) فتوح البلدان ١٨٥.
(١٠) فتوح البلدان ١٨٩.
(١١) فتوح البلدان ١٩٦.
(١٢) فتوح البلدان ١٢٥
(١٣) فتوح البلدان ١٢٦.

أهلها[1] وكانت أنطرسوس حصناً ثم جلا عنه أهله[2]، وجلا بعض أهل أنطاكية[3].

وكان فيما بين الإسكندرونة وطرسوس حصون ومسالح للروم ربما أخلاها أهلها وهربوا إلى بلاد الروم خوفاً، وربما نقل إليها من مقاتلة الروم من تشحن به، وقد قيل إن هرقل نقل أهل هذه المدن معه عند انتقاله من أنطاكية لئلا يسير المسلمون من عمارةٍ ما بين أنطاكية وبلاد الروم، وأن هرقل نقل أهل هذه الحصون، وشعّثها، فكان المسلمون إذا غزوا لم يجدوا بها أحداً.

وانتقل أهل ملطية عنها في أيام عبد الله بن الزبير، وخرجت الروم فشعثتها ثم تركتها، فنزلها قوم من النصارى من الأرمن والنبط[4]، وأرسل أبو عبيدة بن الجراح وهو بمنبج خالد بن الوليد إلى ناحية مرعش ففتح حصنها على أن جلا أهله ثم أخربه[5].

لم تذكر هوية من جلا سوى الذين صحبوا جبلة بن الأيهم، وهم من عشيرته غسان، وربما فيهم من مؤيديه من إياد. غير أن الهجرة لم تشمل كل العشيرة، فقد بقي عدد غير قليل من غسان وإياد، وأشغل بعضهم مناصب إدارية كبيرة، مما يدل على أن من بقي قطع صلته بمن هاجر، وأنه أخلص الخدمة للدولة العربية، ولعل كثيراً منهم أسلموا.

وكان الجلاء واسعاً في أوائل الفتح، حيث لم تتضح بعد قوة الدولة وسياستها الاستقرارية المعتدلة، ثم تناقص، إن لم ينعدم فيما بعد، عندما تبيّنت سياسة الحكومة الجديدة، وتبيّنت المصالح الواسعة التي تؤمنها الدولة بين بلاد

(1) فتوح البلدان ١٣٢.
(2) فتوح البلدان ١٣٢.
(3) فتوح البلدان ١٤٦.
(4) فتوح البلدان ١٨٤.
(5) فتوح البلدان ١٨٧.

الشام والأقاليم الأخرى بما فيها مصر وشمال إفريقية والحجاز، وفُتِحَتْ أبواب جديدة للصلة مع العراق وأقاليم المشرق بعد أن كانت معرقلة بسبب سوء العلاقة بين الساسانيين والروم. ولا بد أن أكثر من جلا هم من الجاليات الإغريقية من رجال الجيش والإدارة، وربما عدد من رجال الدين والتجار وأصحاب الأعمال، ومن المشكوك فيه أن أملاكهم كانت نصف المدن التي قوسم أهلها على أنصاف منازلهم وكنائسهم ولا بد أن بعضهم عاد، كما فعل أهل حلب وبعض تغلب.

توطين العرب وإعمارهم الأراضي

تخلَّص العرب بجلاء مؤيدي الروم عن البلاد الإسلامية من عناصر قد يخلُّ بقاؤها بالأمن والاستقرار، ولكنه كان يفقد الدولة الإسلامية لكثير من الخبرات في الإدارة والحياة الحضرية والفكرية أو يؤثر في تدهور الأحوال العمرانية وبخاصة الزراعة وإعمار الأرض، وقد أدرك العرب هذه الأخطار فعملوا على معالجتها بما ينفع العرب ويؤمن الإعمار. وأورد البلاذري معلومات وافية عما اتخذوه من تدابير للحفاظ على إعمار البلاد؛ وفي هذا يقول البلاذري «وكان المسلمون كلما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند ساحل رتبوا فيها قدر من يحتاج لها اليه من المسلمين فإن حدث في شيء منها حدث من قبل العدو سربوا إليها الأمداد، فلما استخلف عثمان بن عفان (رض) كتب إلى معاوية يأمره بتحصين السواحل وشحنتها وإقطاع من ينزل إياها القطائع ففعل». وأمر عثمان معاوية «أن يعد في السواحل إذا غزا أو أغزى جيوشاً سوى من فيها من الرتب، وأن يقطع الرتب أرضين ويعطيهم ما جلا عنه أهله من المنازل ويبني المساجد ويكبر ما كان ابتنى منها قبل خلافته.. ثم إن الناس بعد انتقلوا إلى السواحل من كل ناحية.

وفي أنطاكية وضع معاوية روابط «ثم إن عثمان كتب إليه يأمره أن يلزمها

قوماً وأن يقطع قطائع ففعل»[1] ولما جلا أهل قاليقلا بعث معاوية إليها ألفي رجل وأقطعهم بها القطائع[2]، وأقطع الوليد بن عبد الملك جنداً بأنطاكية أرض سلوقية عند الساحل[3]، ولما جلا بعض أهل رأس العين «اعتمل المسلمون أراضيهم وازدرعوها بإقطاع، ثم لما ولّي معاوية الشام والجزيرة لعثمان بن عفان أمره أن ينزل العرب بمواضع نائية عن المدن والقرى ويأذن لهم في اعتمال الأراضي التي لا حقَّ فيها لأحد فأنزل بني تميم الرابية، وأنزل المازحين والمديبر أخلاطاً من قيس وأسد وغيرهم، وفعل ذلك في جميع نواحي ديار مضر ورتب ربيعة في ديارها على ذلك[4]. وقد اعتبر المسلمون من أراضي العشر «ما جلا عنه أهله فأقطعه المسلمون فأحيوه وكان مواتاً لا حقَّ فيه لأحد فأحيوه بإذن الولاة»[5].

أما حكم أراضي المدن فذكر البلاذري أن بعضهم صولحوا على أنصاف منازلهم وكنائسهم، ومنها دمشق[6]، وطبرية[7]، والرملة[8]، غير أن معظم المدن لم يحدد فيها مقدار ما أخذه المسلمون، وإنما ذكر أن المدن، ومن ذلك دمشق التي لما فتحت لحق بشر كثير من أهلها بهرقل وهو بأنطاكية فكثرت فضول منازلهم فنزلها المسلمون[9]، ولما هرب أهل صيدا وعرقة وجبيل وبيروت رمَّها معاوية، وشحنها بالمقاتلة وأعطاهم القطائع[10].

---

(١) فتوح البلدان ١٢٧.
(٢) فتوح البلدان ١٤٦.
(٣) فتوح البلدان ١٩٦.
(٤) فتوح البلدان ١٧٧.
(٥) فتوح البلدان ١٥١ (عن مكحول).
(٦) فتوح البلدان ١٢٢ (عن الهيثم بن عدي).
(٧) فتوح البلدان ١١٥ (عن الهيثم بن عدي).
(٨) فتوح البلدان ١٤٦.
(٩) فتوح البلدان ١٢٢.
(١٠) فتوح البلدان ١٢٦ ـ ١٢٧.

ولما هرب أهل طرابلس أسكنها معاوية جماعة كبيرة من اليهود[1]، وأمر عثمان معاوية أن يقطع الرتب أرضين ويعطيهم ما جلا عنه أهله من منازل[2]، وقسم السمط حمص «خططاً بين المسلمين حين نزلوها وأسكنهم كل مرفوض جلا أهله أو ساحة متروكة»[3]، ولما فتح المسلمون أنطرسوس بناها معاوية ومصَّرها وأقطع بها القطائع، وكذلك بمرقية وبلنياس[4]، وشحن معاوية اللاذقية وجبلة وأنطرسوس وحصنها وأمضى أمرها على ما أمضى عليه أمر السواحل[5].

وأعاد معاوية فتح قيسارية وأسكنها الروابط ووكَّل بها الحفظة[6]، وأقطع أرض سلوقية عند الساحل قرب إنطاكية[7]، وكان أبو عبيدة أسكن بالس «قوماً من العرب الذين كانوا بالشام فأسلموا بعد قدوم المسلمين الشام وقوماً لم يكونوا من البعوث نزعوا من البوادي من قيس، وأسكن قاصرين قوماً»[8].

وفي سنة ٨٤ غزا الصائفة عبد الله بن عبد الملك بن مروان، وأتى المصيصة فبنى حصنها على أساسه القديم ووضع بها سكاناً من الجند فيهم ثلاثمائة رجل من ذوي البأس والنجدة المعروفين، ولم يكن المسلمون سكنوها قبل ذلك، وبنى فيها مسجداً فوق تل الحصن[9].

وجدد هشام حصن المثقب، وحصن قطرغاش، وحصن مورة، وبغراس، وبوقا[10]، ورتب معاوية في ملطية رابطة من المسلمين، وشحنها بجماعة من

---

(١) فتوح البلدان ١٢٦.
(٢) فتوح البلدان ١٢٧.
(٣) فتوح البلدان ١٣٢.
(٤) فتوح البلدان ١٣٢.
(٥) فتوح البلدان ١٣٣.
(٦) فتوح البلدان ١٤١.
(٧) فتوح البلدان ١٤٦.
(٨) فتوح البلدان ١٤٩.
(٩) فتوح البلدان ١٦٤.
(١٠) فتوح البلدان ١٦٥.

أهل الشام والجزيرة وغيرها، ثم انتقل أهلها عنها في أيام ابن الزبير وشعثها الروم، فنزلها بعدهم قوم من النصارى من الأرمن والنبط[١].

وبنى معاوية مدينة مرعش وأسكنها جنداً، ثم انتقل عنها أهلها عندما كثرت غارات الروم عليها بعد موت يزيد بن معاوية، ثم أعاد العباس بن الوليد بن عبد الملك تعميرها وتحصينها ونقل الناس إليها وبنى مسجداً جامعاً، وكان يقطع في كل عام على أهل قنسرين بعثاً إليها[٢].

وأسكن معاوية قاليقلا ألفي رجل وأقطعهم القطائع وجعلهم مرابطة بها[٣]، وأسكن مسلمة بن عبد الملك مدينة الباب والأبواب أربعة وعشرين ألفاً من أهل الشام على العطاء[٤]، وبنى يزيد بن أسيد أرجيل الصغرى ومدينة أرجيل الكبرى وأنزلهما أهل فلسطين[٥].

وكانت دولة الروم تواجه عدداً من المشاكل، ذلك أن ولاء أهل المناطق الشرقية منها، وأكثرهم من الأرمن، ظل ولاءً غير مضمون لها، كما أن حدودها الغربية ظلت معرَّضة لهجمات السلاف، يضاف إلى ذلك أن المشاكل الناجمة عن اختلاف العقائد المذهبية كانت مصدر قلق واضطراب فيها. ولكن كل ذلك لم يصل حد تعرُّضها للانهيار، فظلت قائمة تكوِّن مصدر أكبر خطر يهدد دولة الإسلام ولا سيما الأقاليم الواقعة على أطراف البحر المتوسط من دولة الإسلام، وخصوصاً بأسطولها الذي كان يجوب البحار. ومع أن كثيراً من الموالين لدولة الروم في هذه الأقاليم تركوا مواطنهم وانسحبوا مع الروم فأفقدوا هذه الأقاليم عناصر كان يمكن الإفادة منها في إعمار البلاد، وأخلّوا بنظمها، إلا أن عدداً من هؤلاء الموالين ظلوا مقيمين في دولة الإسلام يُحْدِثون المشاكل

---

(١) فتوح البلدان ١٨٤.
(٢) فتوح البلدان ١٨٥.
(٣) فتوح البلدان ١٩٦.
(٤) فتوح البلدان ٢٠٦.
(٥) فتوح البلدان ٢٠٨.

لها، ومن أبرز ما قاموا به الثورات التي أحدثوها في الاسكندرية والاضطراب الذي أحدثه الجراجمة في بلاد الشام.

غير أن اندحار الروم لم يقضِ على كل دولتهم، فالتقدم السريع الظافر للجيوش العربية تعطل بسبب طاعون عمواس الذي اجتاح البلاد في السنة الثامنة عشرة للهجرة وأفنى عدداً كبيراً من مقاتلتهم وقضى على عدد من أبرز قوادهم، ورافقه قحط عام في الجزيرة العربية في ما يسمى عام الرمادة، فتوقف زحفهم، واستغل هرقل الفرصة فأخلى الأراضي التي في الأطراف الشمالية من بلاد الشام، وأخربها لكي يعرقل أيَّ محاولة يقوم بها العرب لمتابعة تقدُّمهم وملاحقة الروم في آسيا الصغرى[١].

واتخذ له خطاً دفاعياً صمد الروم عنده في جبال طوروس وهي سلاسل جبلية تمتد من رأس البحر المتوسط إلى شمال الجزيرة الفراتية، وهي وعرة ليس فيها إلا مسالك محدودة تحدد سير الجيوش وحركاتها وتحصرها في دروب محددة مما ييسر الدفاع عنها.

والمنطقة التي وراء هذه الجبال أراضيها متموجة فقيرة بالمنتوجات ومناخها قارس، ويكثر فيها سقوط الثلج شتاء، وأهلها أخلاط من الأرمن والروم، والعرب قليلون فيها، ومدنها متفرقة. وكل هذا يزيد في صعوبة فتحها والسيطرة عليها؛ وقد ظلت سليمة لبعدها عن ميادين القتال مع العرب، وانضاف إليهم أعداد من مؤيدي الروم الذين جلوا عن بلاد الشام والجزيرة الفراتية؛ فزادوا من قواتها وأصبحت دولة الروم أكثر انسجاماً وأشد تماسكاً.

ولم يفقد الروم الأمل في الاحتفاظ بها، فأعادوا تنظيمها لتقف بوجه تقدُّم الجيوش العربية وشحنوها بالرجال، وجعلوا لها أنظمة إدارية تيسر الدفاع عنها، فكان حكامها من القادة العسكريين وأُعطيَ الجند المقاتلة فيها إقطاعات من

---

(١) فتوح البلدان ١٦٢ ـ ٣.

الأرض ليزرعوها ويستقروا فيها، وليكون دفاعهم مزدوجاً لحماية الدولة وحماية أراضيهم الخاصة.

وكان للروم في البحر أسطول فَقَدَ قواعده في بلاد الشام ومصر، وخسر بلاداً كانت تموِّل الأسطول بالأخشاب التي تُصنع منها سفنه، وكذلك الصناع وربما المقاتلة، ولكنه لم يشتبك في قتال مع العرب فاحتفظ بقوَّته، وعزز قدرة الروم على مناوشة العرب حتى بعد أن أنشأ العرب أسطولاً لهم.

ولا يخفى أن القسطنطينية، وهي قاعدة ملكهم، ظلت سليمة ونائية عن حدود بلاد الدولة وبإمكانها أن تكون قاعدة لتنظيم المقاومة وإعداد الحملات التي تهدد المسلمين، وكان معظم أهلها يعتنقون المذهب الأرثوذكسي، ويقدرون الثقافة الإغريقية التي كانت تتبناها الدولة، ولذلك ظلت مصدر خطر يهدد حكم العرب وبلاد الشام بخاصة التي كان فيها مقام الخلفاء الأمويين.

ولا ريب في أن توسع العرب أفقد الروم ولايات غنية بمواردها ورجالها وموانيها، ولكنه خلَّصهم من كثير من المشاكل التي كانت تواجهها في هذه الولايات التي يختلف أهلها عن سكان إقليم آسيا الصغرى والقسطنطينية، وهم من أرومة العرب، ولهم عقائد مذهبية تختلف عن المذاهب السائدة في القسطنطينية والتي تبناها أباطرة الدولة البيزنطية.

إن تقلص بلاد دولة الروم بعد توسع المسلمين كان له أثر في زيادة التناسق فيها، وقد تطلَّب إعادة تنظيم إدارتها وزيادة الاهتمام بأحوال المناطق القريبة من حدود الدولة العربية الجديدة كيما تصمد بوجه تقدُّم العرب.

غير أن دولة الروم لم تتخلص من مشاكلها كافة، ذلك أن ولاء أهل المناطق الشرقية منها، وأكثرهم من الأرمن، ظل ولاءً غير مضمون لها، كما أن حدودها الغربية ظلت معرَّضة لهجمات السلاف والبلغار، يضاف إلى ذلك أن المشاكل الناجمة عن اختلاف العقائد المذهبية كانت مصدر قلق واضطراب فيها. ولكن كل ذلك لم يصل حد تعرُّضها للانهيار، فظلت قائمة تكوّن مصدر

أكبر خطر يهدد دولة الإسلام ولا سيما الأقاليم الواقعة على أطراف البحر المتوسط من دولة الإسلام، وخصوصاً بأسطولها الذي كان يجوب البحار.

موقف الدولة الإسلامية

كانت أخطار الروم تشمل أقاليم الدولة الإسلامية الواقعة على البحر المتوسط، وتتطلب معالجتها تعاوناً وتنسيقاً شاملاً في هذه الأقاليم التي كان يدير كلاً منها والٍ ذو سلطات واسعة، ولكن خضوع هؤلاء الولاة إلى خليفة واحد وإدراكهم للمصلحة العامة لدولة الإسلام كانا يدفعانهم إلى التعاون مع بعضهم من أجل تحقيق هذه المصلحة العامة، وقد ازداد توثق التعاون بعد أن صفت الخلافة للأمويين فكان خلفاؤهم المرجع الأعلى في هذا التنسيق الذي حرصوا عليه لمواجهة الروم. ويتجلى هذا التعاون بأوضح مظاهره في استخدام الأسطول الحربي.

وكانت بلاد الشام أكثر الأقاليم تعرضاً لأخطار بلاد الروم ليس من تهديد لأسطول سواحلها فحسب، وإنما أيضاً لطول الحدود البرية بينهما، ثم إنه رغم غنى مصر وثروتها ومكانتها المتميزة في صنع السفن، إلا أن بلاد الشام كانت لقربها من بلاد الروم أكثر تعرضاً للخطر، ووضعها أحرج خصوصاً منذ أن أصبحت في زمن الأمويين قاعدة الخلافة.

أدرك معاوية الأخطار التي تأتي من دولة الروم واهتم بمعالجتها منذ أن جمعت له ولاية بلاد الشام، وتابع الخلفاء الأمويين من بعده هذا الاهتمام الذي تطلب الحفاظ على جيش تلقى على عاتقه مهمات القتال المستمر إضافة إلى إعداد أسطول قوي يعزز الجيش وينقل المقاتلة إلى ميادين القتال خصوصاً في الجزر، ويحميها من تقدُّم الروم، وهذا يعني الاهتمام بالقوات البرية والبحرية والتنسيق بينهما لتحقيق الهدف الأعلى الموحد.

والواجب الرئيس في القتال يقع على القوات البرية، وقد تطلَّب هذا في

بلاد الشام تنظيماً عسكرياً خاصاً في إقامة الحصون وتوزيع القوات والاهتمام بها، وتكليف هذه القوات بالاشتراك في الحملات المتتالية للشواتي والصوائف، وتجهيزها، أي إبقائها مدة طويلة في جبهات القتال بعيداً عن قواعدها ومقام أهلها.

وكان الجند في زمن خلافة عمر وعثمان يجتمعون بالجابية لقبض العطاء وإقامة البعوث من أرض دمشق حتى نقلهم معاوية إلى معسكر دابق التي أصبحت مجمعاً لعساكر الإسلام في كل صائفة من زمن معاوية بن أبي سفيان، فإذا تكامل العساكر وقبضوا عطاءهم ساروا حينذاك إلى جهاد العدو، واستمر ذلك في أيام بني أمية، ولا سيما في أيام سليمان بن عبد الملك، فإنه أقام بدابق سنتين وسيَّر أخاه مسلمة لغزو القسطنطينية(١) وكانت الطوالع في كل عام بين ألف وخمسمائة وألفين(٢)، وكان الجند يغزون بنسائهم في المراكب(٣). أما المراكب فكانت الكبيرة منها تحمل ثلاثة آلاف(٤).

تنظيم الدفاع عن سواحل بلاد الشام

إن المدن الواقعة على ساحل البحر المتوسط لها أوضاع جغرافية خاصة أثَّرت في سَيْرِ فتح العرب لها والحفاظ عليها، فكلها تقع في سهول ساحلية ضيقة، وتمتد وراءها سلاسل جبال لبنان الوعرة، مما يحصر تقدُّم العرب في مسالك محدودة ويعرقل حرية الحركة في جيوشهم، كما أن هذه المدن كانت مفتوحة من جهة الغرب على البحر المتوسط الذي تتواجد فيه سفن أسطول الروم التي لها حرية الحركة في توجهاته، فكانت تيسر لهذه المدن إمدادات عسكرية ووسائل للانسحاب منها. ومع أن الحركات البحرية تتعطل في الشتاء

---

(١) بغية الطلب لابن العديم ٩٦٩٧؛ تاريخ دمشق لابن عساكر ٢/١١٩ وانظر الطبري ٢/١٣١٥، ١٣٤٠، ١٣٦١.

(٢) فتوح البلدان ٤/١.

(٣) فتوح مصر لابن عبد الحكم ١٩٦.

(٤) المصدر نفسه، ٨٢.

إلا أن طول مدة الدفء يوفر لها وقتاً واسعاً قد تفاجىء فيه العرب وتهدد سيطرتهم ما لم تتخذ تدابير خاصة لمواجهتها. وكان أبو عبيدة بعد فتحه حمص وحماه أنفذ عبادة بن الصامت إلى اللاذقية ففتحها بعد أن جلا عنها، ثم تقدم أبو عبيدة ففتح أنطاكية.

فتح العرب سريعاً بعض المدن الساحلية، فيروي البلاذري أن يزيد بن أبي سفيان فتح صيدا وعرقة، وجبيل وعلى مقدمته أخوه معاوية، ففتحها فتحاً يسيراً وجلا كثير من أهلها»[1]. «وفتح أبو عبيدة اللاذقية وجبلة وأنطرسوس على يدي عبادة بن الصامت»[2]، ولا بد أن ذلك تم قبل سنة ١٨ التي توفي فيها يزيد بن أبي سفيان وأبو عبيدة بطاعون عمواس. وفي هذا الوقت فتح شرحبيل بن حسنة عكا وصور وصفورية[3]، غير أن بعض هذه المدن الساحلية أبدت مقاومة لا بد أنها تمت بمعونة من الأسطول الرومي، وقد تأخر فتح قيسارية، ولم تفتح إلا في شوال سنة ١٩[4].

أما طرابلس فإن يزيد بن أبي سفيان لم يكن يطمع فيها لحصانتها[5]، وتأخر فتحها إلى أن جمعت الشام لمعاوية فوجَّه في زمن خلافة عثمان، سفيان بن حبيب الأزدي إليها وحاصرها «وبنى على أميال منها حصناً سُمِّيَ حصن سفيان، وقطع المادة عن أهلها من البحر وغيره، وحاصرهم، فلما اشتد عليهم الحصار اجتمعوا في أحد الحصون الثلاثة وكتبوا إلى ملك الروم يسألونه أن يمدهم أو يبعث إليهم بمراكب يهربون فيها إلى ما قبله، فوجَّه إليهم بمراكب كثيرة فركبوها ليلاً وهربوا»[6] وبذلك تيسَّر لسفيان فتحها.

---

(١) فتوح البلدان ١٢٥.
(٢) فتوح البلدان ١٣٣.
(٣) فتوح البلدان ١١٥.
(٤) فتوح البلدان ١٣٩.
(٥) فتوح البلدان ١٢٧.
(٦) فتوح البلدان ١٢٦.

ثم استعاد الروم بعض مدن السواحل في آخر خلافة عمر بن الخطاب أو أول خلافة عثمان بن عفان[1]، غير أن معاوية استعادها منهم، وكان مما استعادوه عسقلان، التي كان عمرو بن العاص قد فتحها ثم تمرّد أهلها وأمدهم الروم، ففتحها معاوية مجدداً وأسكنها الروابط ووكل بها الحفظة[2].

وللدفاع عن المدن الساحلية أمر عمر بن الخطاب «في مرمة حصونها وترتيب المقاتلة فيها وإقامة الحرس على مناظرها، واتخاذ المواقيد لها» و«كان المسلمون كلما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند ساحل رتبوا فيها قدر من يحتاج لها من المسلمين، فإن حدث في شيء منها حدث من قبل العدو سربوا إليها الأمداد»[3].

وتابع عثمان بن عفان سياسة عمر في ذلك، فلما استخلف «كتب إلى معاوية يأمره بتحصين السواحل وشحنتها وإقطاع من ينزله إياها القطائع ففعل»، ولم تتعطل هذه التدابير بعد بناء الأسطول، فقد أمر عثمان معاوية «أن يعد في السواحل إذا غزا أو أغزى جيوشاً سوى من فيها من الرتب، وأن يقطع الرتب أرضين ويعطيهم ما جلا عنه أهله من المنازل، ويبني المساجد ويكبر ما كان ابتنى منها قبل خلافته.. ثم إن الناس بعد انتقلوا إلى السواحل من كل ناحية»[4].

ولما استعاد معاوية في زمن خلافة عثمان مدن السواحل من الروم «رمّها وشحنها بالمقاتلة وأعطاهم القطائع»[5] ولما فتح طرابلس كان يوجه في كل عام إليها «جماعة كثيفة من الجند يشحنها بهم ويوليها عاملاً، فإذا انغلق البحر قفل

(١) فتوح البلدان ١٢٥.
(٢) فتوح البلدان ١٤٢.
(٣) فتوح البلدان ١٢٦.
(٤) فتوح البلدان ١٢٦.
(٥) فتوح البلدان ١٢٥، ١٢٧.

وبقي العامل في جمعية منهم يسيرة، فلم يزل الأمر فيها جارياً على ذلك حتى وَلِيَ عبد الملك»، غير أن الروم استرجعوها في زمن عبد الملك، ثم استعادها الوليد منهم[1].

وكانت اللاذقية وجبلة وأنطرسوس بعد أن فتحها أبو عبيدة «يوكل بها حفظة إلى انغلاق البحر، فلما كانت شحنة معاوية السواحل وتحصينه إياها شحنها وحصنها وأمضى أمرها على ما أمضى عليه أمر السواحل»[2]، وكذلك فعل بمرقية وبلنياس»[3].

رمّ معاوية عكا عندما تحرك منها لغزو قبرص سنة ٣٤، ورمّ صور، ثم خربت فجددها عبد الملك[4]. ونقل معاوية قوماً من فرس بعلبك وحمص وأنطاكية إلى سواحل الأردن: صور وعكا وغيرها سنة اثنتين وأربعين[5]، ونقل «من أساورة البصرة والكوفة وفرس بعلبك وحمص إلى أنطاكية في هذه السنة أو قبلها أو بعدها»[6]. وكانت الروم قد خرجت من الساحل فأناخت على أنطاكية[7].

وفي سنة تسع وأربعين أو سنة خمسين نقل معاوية إلى السواحل قوماً من زط البصرة والسيابجة وأنزل بعضهم أنطاكية، وفي أنطاكية محلة تعرف بالزط، كما أن ببوقا، وهي من عمل أنطاكية، قوم من أولادهم، ثم نقل الوليد بن عبد الملك إلى أنطاكية قوماً من السند، ممن حملهم محمد بن القاسم إلى الحجاج فبعث بهم الحجاج إلى الشام[8].

(١) فتوح البلدان ١٢٦ ـ ٧.
(٢) فتوح البلدان ١٣٣.
(٣) فتوح البلدان ١٣٢.
(٤) فتوح البلدان ١١٦.
(٥) فتوح البلدان ١٢٩.
(٦) فتوح البلدان ١٤٣، ١٦١.
(٧) فتوح البلدان ١٤٧.
(٨) فتوح البلدان ١٦١.

وفي فتنة ابن الزبير (حوالى ٦٥هـ) أخربت الروم عسقلان وقيسارية وأجلت أهلها عنها، فلما وَلِيَ عبد الملك حصَّنهما وشحنهما بالرجال[١].

وفي سنة ٨٩ أغار الروم على الاسكندرون، ثم أغاروا في سنة مائة على اللاذقية فطردهم العرب، وأمر عمر بن عبد العزيز ببناء اللاذقية وتحصينها، وزاد يزيد بن عبد الملك في شحنتها[٢].

(١) فتوح البلدان ١٤٢.

(٢) فتوح البلدان ١٣٢.

الفصل العشرون

نشأة البحرية العربية

اقتصر دفاع العرب عن بلاد الشام في عهد الخليفة عمر بن الخطاب على التنظيمات والحركات البرية، وكان المقاتلة العرب منشغلين في المعارك والفتوح المتتابعة، فلم يكن لديهم الوقت الكافي لإنشاء الأسطول والتدرب على القتال البحري، كما أنهم لم يستطيعوا الركون إلى الملاحين القدماء في الأقاليم التي ضموها حديثاً إلى دولتهم، لاحتمال ميل هؤلاء إلى الروم، فضلاً عن أن القوات البرية ظفرت بنجاحات باهرة جعلتها أهلاً للثقة والاهتمام. وكان معاوية يدرك الأخطار التي تهدد بلاد الشام من جراء عدم وجود أسطول بحري عند المسلمين، فحاول إقناع الخليفة عمر بن الخطاب بالموافقة على إنشاء أسطول إسلامي، ولكن عمر أصرّ على عدم الموافقة لأنه رأى في ذلك مجازفة غير مأمونة العواقب[1].

لم تكن الملاحة مجهولة عند العرب، فمن المعروف أنهم أسهموا فيها منذ أقدم الأزمنة، واحتكر ملاحوهم من أهل اليمن وعُمان الملاحة في المحيط الهندي ونقل السلع من البلاد الواقعة في أطرافه وفي الشرق الأقصى، كما أن

---

(١) انظر فتوح البلدان ١٢٦/١٥١؛ تاريخ خليفة ١٣٥؛ الطبري ١/ ٢٨٢٠، ٢٨٢٥؛ الخطط للمقريزي ٢/ ١٩٠.

الفينيقيين كانوا من أكبر ملاحي البحر المتوسط قبل أن يقضي الرومان على نفوذهم، ولا بد أن كثيراً من أهل مدن بلاد الشام الواقعة على سواحل البحر المتوسط كانوا يعملون في صناعة السفن والملاحة، ومثل هذا كان يعمله كثير من المصريين، ومما يسّر لهم ذلك توافر الأخشاب في مصر ولبنان لصناعة السفن، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تذكر البحر والسفن، مما يدل على أنه حتى أهل الحجاز الذين كانت بلادهم مركز الخلافة ومنهم الخلفاء وكثير من القادة وموجهي السياسة العليا للدولة، كانوا على معرفة بأمر الملاحة والسفن.

ولما وَلِيَ عثمان بن عفان الخلافة كان مقتنعاً بأهمية السفن فأباح إنشاء الأساطيل، فأنشئت أربعة أساطيل كان الأول منها في النيل غرضه فيما يظهر الملاحة فيه، والثاني في القلزم، أي السويس والغرض منه نقل المواد الغذائية، وخصوصاً الحنطة، إلى الحجاز، فهذان الأسطولان غرضهما تجاري سلمي ولم يقم أيٌّ منهما بعمل حربي. وأنشىء أسطول ثالث في الفسطاط حيث أقيمت دار لصناعة السفن في جزيرة الروضة على النيل، ولعل هذا الأسطول كان معداً لإسناد القتال في البحر المتوسط، وكان يصنع من أخشاب الغابات الموجودة في مصر، ويقوم بعمله صناع من المصريين يعملون عادة ستة أشهر في السنة بموجب عقود مع الولاة العرب[1].

والأسطول الإسلامي الرابع هو الذي أنشأه معاوية، فقد أمر بجمع الصناع النجارين فجمعوا إدارتهم في السواحل، وكانت تصنع السفن من أخشاب الغابات، ودار صناعتها في عكا، ثم نقلت إلى صور في زمن الخليفة هشام بن عبد الملك، وظلت قاعدة الاسطول حتى العصر العباسي حيث أمر المتوكل في سنة ٢٤٧ بترتيب المراكب بعكا وجميع السواحل وشحنها بالمقاتلة[2].

---

(١) انظر تفاصيل وافية في كتاب «التنظيم البحري الإسلامي في شرق المتوسط» لعلي محمود فهمي.

(٢) فتوح البلدان ١١٦، وانظر عن عكا تاريخ دمشق لابن عساكر ٢/ ٣٠.

تطلَّب بناء الأسطول واستكمال عدته بعض الوقت، وفي سنة ٢٨هـ أصبح قوياً لدرجة مكنت معاوية في تلك السنة من القيام بحملة على قبرص، قادها بنفسه بعد أن أتم إعدادها وحافظ على سريتها ولم يجبر أحداً على الاشتراك فيها، وإنما ترك باب التطوع والاختيار مفتوحاً لمن يريد الانضمام إليها، ومع هذا فقد تطوع للاشتراك فيها عدد من بارزي الصحابة، ومنهم أبو الدرداء وصحب معاوية عدد ممن شاركوا فيها زوجاتهم(١).

ولقبرص أهمية كبيرة، فهي جزيرة واسعة قريبة من سواحل بلاد الشام، تصلح أن تكون قاعدة يهدد الروم منها هذه السواحل، فسيطرة العرب عليها يبعد عنهم خطر الروم، ويؤمن هيمنتهم على شرق البحر المتوسط والتحكم في ساحل إنطاكية وجنوب الأناضول، وييسر لهم تهديد حركات سفن الروم الحربية والتجارية في تلك المنطقة.

كانت غزوة قبرص أول غزوة بحرية، «لم يركب المسلمون بحر الروم قبلها، وتحرك معاوية من عكا سنة ٢٧هـ، ومعه مراكب كثيرة»، ودخل قبرص دون مقاومة، وعقد مع أهلها صلحاً يؤدون بموجبه للمسلمين سبعة آلاف ومائتي دينار في كل عام، وصالحهم الروم قبل ذلك، فهم يؤدون فرجَيْن، واشترطوا ألا يمنعهم المسلمون أداء الصلح إلى الروم، واشترط عليهم المسلمون ألا يقاتلوا عنهم من أرادهم من ورائهم، وأن يؤذنوا المسلمين سير عدوهم من الروم، فكان المسلمون إذا ركبوا البحر لم يعرضوا لهم ولم ينصرهم أهل قبرص ولم ينصروا عليهم(٢)، أي إنهم يقفون على الحياد.

غير أن أهل قبرص لم يحافظوا على شروط الصلح، ففي سنة ٣٢هـ، أعانوا الروم على الغزو في البحر بمراكب أعطوهم إياها، فغزاهم معاوية سنة ٣٣ في خمسمائة مركب، ففتح قبرص عنوة، فقتل وسبى ثم أقرَّهم على صلحهم، وبعث إليها باثني عشر ألفاً كلهم أهل ديوان، فبنوا فيها المساجد،

(١) فتوح البلدان ١٥٣؛ الطبري ٢٨٢٦/١.
(٢) فتوح البلدان ١٥٢.

ونقل إليها جماعة من بعلبك، وبنى بها مدينة، وأقاموا يعطون الأعطية إلى أن توفي معاوية[1].

ظلت الحامية العربية في قبرص إلى أن وَلِيَ يزيد «فأقفل ذلك البعث وأمر بهدم المدينة»، ويُروى أنه فعل ذلك لقاء مبلغ من المال أخذه من الروم، «فلما قفلوا هدم أهل قبرص مدينتهم ومساجدها»[2].

غير أن قبرص ظلت تدفع الجزية للمسلمين، ثم زادها عليهم عبد الملك فجعلها ألف دينار، ثم أرجعها عمر بن عبد العزيز إلى سبعمائة، وردَّها هشام إلى ألف. وفي أوائل الدولة العباسية اتخذوا مواقف مشبوهة فأراد العباسيون معاقبتهم، وأثار ذلك جدلاً عند الفقهاء[3].

أدرك الروم خطر تنامي القوة البحرية الإسلامية على سلطانهم في البحر المتوسط، بعد أن فقدوا بلاد الشام ومصر وكثيراً من أقاليم شمال إفريقية، فجمعوا أسطولاً ضخماً تذكر المصادر العربية أنه يبلغ ألف سفينة، وقد يكون في هذا الرقم مبالغة، إلا أنه لا يقل بأيِّ حال عن خمسمائة سفينة، وتقدموا فيه عازمين على تحطيم الأسطول العربي واستعادة سيادتهم في شرق البحر المتوسط.

أما العرب فقرروا بدورهم العمل على الاحتفاظ بسيادتهم فأرسلوا في سنة ٣٤هـ أسطولاً قوامه مائتا سفينة بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح والي مصر، لاقى الأسطول الرومي قرب سواحل الأناضول الجنوبية ونشبت معركة تسمى «ذات الصواري» لكثرة السفن التي اشتبكت فيها، وتقاربت سفن الفريقين من بعضها، فكان المقاتلون يقاتلون بالنبل والحجارة، ثم ربط العرب مراكبهم بمراكب الروم بالسلاسل، وأنشبوا القتال على ظهر السفن، وكأنه قتال على البر فانتصر العرب انتصاراً تاماً، وعطبوا أكثر مراكب الروم وقتلوا رجالها، وفرَّ

---

(١) فتوح البلدان ١٥٢، ١٥٣؛ الطبري ١/٢٩٠٧، ٢٩٢٦.
(٢) فتوح البلدان ١٥٢ ـ ١٥٣.
(٣) فتوح البلدان ١٥٤؛ الأموال لأبي عبيد ١٧١ ـ ١٧٥.

الامبراطور قسطنطين، وكان قائد الروم فيها والي صقلية حيث توفي على أثرها[1].

كان اندحار الروم في موقعة ذات الصواري عميق الأثر، فلم يقوموا بعده بعمل لاستعادة سيادتهم في شرق البحر المتوسط، وتوقفوا عن غزو المدن الإسلامية على ساحله، وقد تلاه انشغال الدولة بمشاكل داخلية.

كان انتصار العرب في ذات الصواري انتصاراً كبيراً، غير أنهم لم يستغلوه بسبب الانقسامات التي حدثت بينهم بعد مقتل عثمان وما تلاه من نزاع بين علي ومعاوية فعقد معاوية صلحاً مع الروم على أن يؤدي إليهم مالاً[2].

تابع معاوية بعد أن صفت له الخلافة الاهتمام بأمر البحر وتأمين سيطرة الإسلام فيه، وقام قائده جنادة بن أبي أمية الأزدي بفتح رودس سنة ٥٢، ثم فتح جزيرة أرواد سنة ٥٤ وأسكنهما المسلمين، كما فتح هذا القائد إقريطش (كريت)[3]، وغزا معاوية بن حديج صقلية لأول مرة[4].

غير أن الأسطول البيزنطي لم يُقْض عليه، ففي سنة ٥٣ غزا الروم البرلس في مصر، واستشهد علقمة بن يزيد في جمع كثير من الناس[5].

واستخدم معاوية في غزو البحر المقاتلة من أهل اليمن، ولعله فعل ذلك للإفادة من خبراتهم في الملاحة والقتال في البحر، ويبدو أنه كان يوفر لهم عطاء أكبر مما كان يوفره لمقاتلة البر، ثم اشترك في قتال البحر مقاتلة من مضر، فيروي ابن عساكر: «كان معاوية يغزي اليمن في البحر ويغزيهما (اليمن

---

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم ١٩٠؛ ولاة مصر للكندي ١٣؛ التنبيه والإشراف للمسعودي ١٣٥.

(٢) فتوح البلدان ١٥٨.

(٣) فتوح البلدان ٢٣٥. وينقل الطبري عن الواقدي أن رودس فتحت سنة ١٥٣ (/١) وأرواد سنة ٥٤ (/١) وأن جنادة شتى سنة ٥٦ (/١) وأنه غزا البحر في سنتي ٥٨ (/١) و٥٩ (/١) وأنه هدم مدينة رودس سنة ٦٠ (/١).

(٤) فتوح البلدان ٢٣٤.

(٥) الولاة للكندي ٣٨.

ومضر) في البر» وأنه قال لمسكين الدارمي «أنا أغزيكم في البحر لأنه أرفق من البر وأقل مؤنة وأنا أعاقب بينكم في البر والبحر»[1]. ولعل هذا هو المبرر لأن يكون قائد البحر في زمنه جنادة بن عوف الأزدي[2]، وكان مقرباً من معاوية حتى إنه أراد استلحاقه أخاً كما فعل بزياد والي العراق، ولكن جنادة أبى ذلك[3].

ولما وَلِيَ يزيد الخلافة أوقف غزو البحر، كما أوقف الشواتي، وسحب الحاميات الإسلامية من الجزر التي فتحوها في شرق البحر المتوسط، وجعل الاعتماد الرئيس على القوات البرية التي أفلحت في نشر دولة الإسلام على أقاليم شرق وجنوب وغرب البحر المتوسط كافة، فحرمت أساطيل الروم من قواعدها في تلك الأقاليم، علماً بأن المسلمين أقاموا في الأندلس وإفريقية دور صناعة وأسطولاً[4] فيما بعد، ومن الطبيعي أن هذا لا يمتد إلى الملاحة البحرية التي ظلت نشطة وأكثرها بيد العرب.

مقاتلة الروم وحصار القسطنطينية

أدرك معاوية أن الخطر على أمن بلاد الشام وأقاليم البحر المتوسط التي ضمها العرب إلى دولتهم سيظل قائماً ما دامت الدولة البيزنطية قائمة، وأن عماد هذه الدولة هو عاصمتها القسطنطينية، فالسبيل الوحيد لقطع دابرها والقضاء عليها هو الاستيلاء على تلك العاصمة. ويروي خليفة بن خياط أنه في سنة ٣٢ «غزا معاوية المضيق من القسطنطينية»[5] وهذه المحاولة، إن صحَّت، فهي تعبِّر عن إدراك معاوية أهمية القسطنطينية. ولم تذكر المصادر تفاصيل عن هذه الغزوة التي حدثت بعد إنشاء المسلمين أسطولهم الحربي، كما أن خليفة لم يذكر الطريق الذي سلكه معاوية في الغزو، ولعله سلك طريق البر فيها ولم يستعن

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ٢/ ٣٠.
(٢) تاريخ خليفة ١٥٩.
(٣) الأنساب لابن حزم ٣٨٦.
(٤) تاريخ الإسلام للذهبي ٢/ ١٢٠.
(٥) تاريخ خليفة ١٤٣.

بالأسطول الإسلامي، كما أن هذه الحركة لم تكن كبيرة، ولم تظفر بنجاح، فلم يتردد ذكرها في المصادر، ولم يدخلها المسعودي في عداد محاولات العرب فتح القسطنطينية.

ثم انشغل معاوية والدولة الإسلامية بالنزاعات الداخلية بعد مقتل عثمان فاستغل الروم ذلك، وحاولوا تهديد الدولة، فاضطر معاوية إلى موادعتهم ودفع مبلغ من المال لهم للكفّ عن محاولاتهم[1]، فلما صفت له الخلافة عاد إلى الاهتمام بأمر الروم وقتالهم والعمل على اجتثاث خطرهم.

ويروي الواقدي أنه في سنة ٤٣، غزا بسر بن أبي أرطاة الروم وشتّى في أرضهم حتى بلغ القسطنطينية. وذكرت المصادر غزو بسر أرض الروم[2] غير أنهم لم يذكروا وصوله القسطنطينية أو ظفره بنجاح كبير.

حصار القسطنطينية الأول

وأول حملة كبيرة لفتح القسطنطينية هي التي أنفذها معاوية بن أبي سفيان في سنة ٥٠هـ، ومهد لها بحملات تتابعت أربع سنوات على آسيا الصغرى، وكانت «شواتي» يقيم في كل منها الجيش في الشتاء، ثم تقدَّم الجيش البري الكبير على رأسه يزيد بن معاوية، يسانده أسطول بحري قوي، وشارك في الحملة عدد من الصحابة، من أبرزهم أبو أيوب الأنصاري، الذي كان الرسول (ص) قد نزل داره في أول الهجرة[3].

---

(١) تاريخ خليفة ١٨٩؛ فتوح البلدان ١٦١؛ أنساب الأشراف ٥/٢٩٩؛ تاريخ اليعقوبي ٢/٣١٣؛ مروج الذهب ١/٣٦٣.

(٢) الطبري ٢/٢٧؛ تاريخ خليفة ١٩٠؛ تاريخ اليعقوبي ٢/٢١٣.

(٣) الطبري ٢/٨٦؛ تاريخ خليفة ١٩٦؛ أنساب الأشراف ٤ ـ ١/٧٠، ٤ ـ ٢/٣؛ نسب قريش لمصعب الزبيري ١٣٠؛ المحاسن والمساوىء للبيهقي ١٤.
وعن مقاتلة الروم وحصار القسطنطينية أبحاث كثيرة من أبرزها: كتاب عبد الهادي شعيرة «النزاع بين العرب والروم» (بالفرنسية) وبحث كانارد «حملات العرب على القسطنطينية» المنشور في المجلة الآسيوية ١٩٢٦، وكتاب إبراهيم العدوي «القوات البحرية الإسلامية».

تقدَّم الجيش مخترقاً آسيا الصغرى حتى وصل القسطنطينية فحاصرها سنة ٥٣ تحمَّل فيها العاصمة كثيراً من الشدائد غير أنها صمدت، وأضرمت النار الإغريقية بسفن المسلمين فأدركوا عدم جدوى الحصار وانسحبوا.

حصار القسطنطينية الكبير

أدرك الوليد بن عبد الملك أن الصوائف والشواتي تقتصر على مناطق الحدود، وتستنزف كثيراً من الجهود والأموال والرجال، وأن الخطر البيزنطي سيبقى ماثلاً ما لم يتم الاستيلاء على القسطنطينية واجتثاث الروم، فأعدَّ حملة تتكون، فيما يقال من مائتي ألف جندي وخمسة آلاف سفينة، وأودع قيادتها لأخيه مسلمة بن عبد الملك يعاونه عبد الله البطال الذي كان من أشجع الفرسان المسلمين. غير أن الوليد توفي قبل إنفاذ الحملة، ووَلِيَ الخلافة بعده سليمان الذي كان من أول أعماله إنفاذ الحملة.

تقدمت الحملة سنة ٩٧ في أواسط آسيا الصغرى، وفتحت عمورية حيث كان أهل تلك المنطقة مستائين من حكم الامبراطور البيزنطي، ثم توجهت إلى القسطنطينية فوصلتها، وعبرت بعض القوات العربية البر الأوروبي فأكملت تطويق العاصمة وحاصرتها حصاراً شديداً، وكان يعززها أسطول كبير بقيادة عمر بن هبيرة[١]. غير أن أهل القسطنطينية صمدوا لهذا الحصار، وولوا عرشهم ليو الإيسوري وهو قائد ماهر كان قد شارك في عدد من الحروب ضد العرب، وكان يعرف العربية، ويعرف أساليب العرب في القتال، فاستطاع أن يصمد وأن يبث الحماس في قلوب سكان العاصمة المحاصرة، ثم اتصل بالجُزر وحرضهم على الهجوم على العرب، غير أن العرب لم يستطيعوا أن يفتحوا ثغرة في أسوار القسطنطينية، وتدمر الكثير من سفنهم بفعل النار الإغريقية وهي قذائف نارية لا تنطفىء بالماء؛ كما تأثر جيشهم ببرد الشتاء القاسي وبنقص الأغذية

---

(١) الطبري ١٢/١٣٠٦، ٥/١٣؛ تاريخ خليفة ٢١٩؛ تاريخ اليعقوبي ٢/٤٣٤٢، وانظر عن الأسطول: الطبري ٢/١٣٠٦؛ التنبيه والإشراف ١٤١.

وخصوصاً أن معظم الفلاحين في المنطقة هربوا وتركوا أراضيهم دون زرع. وكانت قواعد الجيش العربي بعيدة جداً، ثم تعرَّض هذا الجيش للوباء. فأدرك المسلمون حينذاك عدم إمكان تحقيق غرضهم في فتح القسطنطينية بعد أن قضوا في حصارها سنتين، فلما وَلِيَ عمر بن عبد العزيز الخلافة أمر بسحب الجيش ووجَّه خيلاً وطعاماً لتيسير انسحاب المسلمين[١].

خلدت هذه الحملة اسم مسلمة وعبد الله البطال، ووضعت مسلمة في مصاف أعظم القواد الذين أنجبهم الإسلام. إلا أنها لم تحقق غرضها في فتح القسطنطينية، فكانت هذه الحملة آخر محاولة جدية يقوم بها العرب لفتح القسطنطينية وإزالة دولة الروم، كما أنها كانت آخر محاولة يقوم بها الأمويون للتوغل في آسيا الصغرى، وقد اتخذ العرب منذ ذلك الوقت موقفاً دفاعياً بشكل عام.

---

(١) تاريخ خليفة ٢٢٦؛ الطبري ٢/ ١٣٤١.

الفصل الحادي والعشرون

الدفاع البري عن الشام

بعد أن دمّر العرب الجيش البيزنطي في اليرموك وفتحوا بلاد الشام وجهوا قواتهم شرقاً نحو الجزيرة الفراتية وأرمينية، ولكنهم توقفوا عند أطراف جبال طوروس ولم يحاولوا تجاوزها. واغتنم الروم هذه الفرصة فأخربوا كثيراً من الحصون التي في تلك المنطقة وأجلوا أهلها لكي يحرموا العرب من الإفادة منها وتحصنوا في مرتفعات طوروس، وبذلك كانوا يطلّون على شمال بلاد الشام، ويكوّنون مصدر خطر على الحكم الإسلامي علماً بأن هذه المنطقة تمر بها أقصر الطرق بين القسطنطينية وبلاد الشام.

يقول البلاذري «ثغور المسلمين الشامية أيام عمر وعثمان (رض) وما بعد ذلك أنطاكية وغيرها من المدن التي سمّاها الرشيد العواصم»[1]، ويقول أيضاً إن الرشيد «أفرد منبج ودلوك ورعبان وقورس وأنطاكية وتيزين وسمّاها العواصم»[2]. ويذكر عن البلدان الثلاثة الأولى أن أبا عبيدة فتحها وأنه ولّى «كل كورة فتحها عاملاً وضم إليه جماعة من المسلمين وشحن النواحي المخوفة»[3]، كما يذكر أن المسلمين كانوا «كلما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند ساحل رتبوا فيها قدر من يحتاج لها إليه من المسلمين، فإن حدث في شيء

(١) فتوح البلدان ١٦٢.
(٢) فتوح البلدان ١٣١، وانظر ياقوت ٣/ ٧٤٢.
(٣) فتوح البلدان ٣١٥.

منها حدث من قبل العدو سربوا إليها الأمداد، فلما استخلف عثمان بن عفان (رض) كتب إلى معاوية بتحصين السواحل وشحنها وإقطاع من ينزله إياها القطائع ففعل»[1]. ويذكر أيضاً أن أبا عبيدة «افتتح اللاذقية وجبلة وأنطرطوس على يدي عبادة بن الصامت، وكان يوكل بها حفظة إلى انغلاق البحر، فلما كانت شحنة معاوية السواحل وتحصينه إياها شحنها وحصَّنها وأمضى أمرها على ما أمضى عليه أمر السواحل»[2].

يظهر من هذا أن المنطقة الخطرة «الثغور» كانت محصورة بين أنطاكية ومنبج، وأن هاتين المدينتين هما الركيزتان، ومن الطبيعي أن أنطاكية كانت أعظم خطراً وأكبر أهمية لأنها كانت، بعد دمشق، أكبر مدينة في بلاد الشام، ومن أعظم معاقل المسيحية والثقافة الإغريقية، وكانت من أكبر موانىء البحر المتوسط الذي يهيمن عليه الأسطول البيزنطي. ولما أحرز العرب انتصاراتهم الأولى في بلاد الشام اتخذها هرقل قاعدة له لإدارة الحرب مع المسلمين[3]، ولما فتحت دمشق لحق به فيها عدد من أهل دمشق[4]، فلما تقدَّم العرب وفتحوا حلب غادرها إلى القسطنطينية[5].

وقد أبدت أنطاكية مقاومة للعرب، ولكن أبا عبيدة تغلَّب على المقاومة وفتحها وجلا بعض أهلها[6]، ثم ثارت من جديد فأعاد فتحها[7] ورتب فيها جماعة من شجعان المسلمين فكانوا رابطة فيها[8] فلما وَلِيَ عثمان الخلافة أقام

(١) فتوح البلدان ١٢٧.
(٢) فتوح البلدان ١٣٣.
(٣) فتوح البلدان ١١٣.
(٤) فتوح البلدان ١٣٢.
(٥) فتوح البلدان ١٣٦.
(٦) فتوح البلدان ١٤٦، ١٤٨.
(٧) فتوح البلدان ١٤٦، ١٥٨.
(٨) فتوح البلدان ١٤٦.

فيها حامية وأقطعهم قطائع[١]، ولما استقرت الخلافة لمعاوية نقل إليها سنة ٤٢ «جماعة من الفرس وأهل بعلبك وحمص والمصرين»[٢] وفي سنة ٤٩ نقل إلى السواحل قوماً من زط البصرة والسيابجة وأنزل بعضهم أنطاكية[٣] غير أنه نقل بعض فرسها إلى سواحل الأردن وعكا[٤].

يقول البلاذري: «كان فيما بين الاسكندرونة وطرسوس حصون ومسالح للروم. . فربما أخلاها أهلها وهربوا إلى بلاد الروم خوفاً، وربما نقل إليهم من مقاتلة الروم من تشحن به، وقد قيل إن هرقل أدخل أهل هذه المدن معه عند انتقاله من أنطاكية لئلا يسير المسلمون في عمارة ما بين أنطاكية وبلاد الروم»[٥] فلما غزا أبو عبيدة الصائفة فمرّ بالمصيصة وطرسوس. . جلا أهلها وأهل الحصون التي تليها»، فلما غزا معاوية غزوة عمورية في سنة خمس وعشرين وجد الحصون فيما بين أنطاكية وطرسوس خالية، فوقف عندها جماعة من أهل الشام والجزيرة وقنسرين حتى انصرف من غزاته. . واستمر ولاة الطوائف يعملون مثل عمله[٦]، ففي سنة ٣١ غزا معاوية من ناحية المصيصة «فلما خرج جعل لا يمر بحصن فيما بينه وبين أنطاكية إلا هدمه»[٧]. ومن الواضح أن هذه تدابير دفاعية لحرمان الروم من قواعد يغيرون منها على المسلمين أو يراقبوهم.

كانت أنطاكية القاعدة العسكرية الرئيسة، فتحصينها يؤمن سد الثغرة التي يمكن أن ينفذ منها الروم إلى بلاد الشام، ويلاحظ أن الأسطول البيزنطي كان في السنوات الأولى التي تلت الفتح. المصدر الرئيس المباشر للخطر الذي يهدد هذه البلاد، وأن معاوية منذ أن وَلِيَ الشام حصَّن عدداً من مدن السواحل

(١) فتوح البلدان ١٤٧.
(٢) فتوح البلدان ١٤٧.
(٣) فتوح البلدان ١٦١.
(٤) فتوح البلدان ١٦١.
(٥) فتوح البلدان ١٦٢.
(٦) فتوح البلدان ١٦٤.
(٧) فتوح البلدان ١٦٤.

وشحنها. ومن الطبيعي أن العامل الأكبر في تأمين سيطرة العرب على أنطاكية هو سيطرتهم على البحر بعد إنشائهم الأسطول وانتصارهم في ذات الصواري. غير أن الروم عملوا على خلق المشاكل في منطقتها بتحريضهم الجراجمة على القيام ببعض الاضطرابات مما أقلق الإدارة الإسلامية ولكنها استطاعت أخيراً أن تتغلب عليهم.

وبالقرب من أنطاكية عدد من الأماكن التي لها علاقة بحركات الجيوش. وأقرب هذه الأماكن هي قورس وكانت «كالمسلحة لأنطاكية، يأتيها في كل عام طالعة من جند أنطاكية ومقاتلتها، ثم حوَّل إليها ربع من أرباع أنطاكية وقطعت الطوالع عنها»[1].

أما الجناح الشرقي من الثغور التي كانت في السنين الأولى من الفتح الإسلامي فكانت تقع أمام الجزيرة وعلى جانبي الفرات، وأهلها عموماً غير مؤيدين للروم، ولذلك لم يلتحق بهم من أهلها إلا القليل، كما كانت فيها أراضٍ زراعية واسعة وهي أبعد من ثغور الجناح الغربي عن القسطنطينية وقواعد الهلّنستيين غير أنها كانت المنفذ الذي يستطيع الروم إذا اخترقوه أن يفصلوا بلاد الشام عن الجزيرة، ويهددوا العراق بخاصة، ولذلك كان أكثر تعرضاً لهجمات الروم وخصوصاً في أوائل العصر العباسي.

واهتم العرب بتعزيز مواقعهم في هذه البلاد، ولما فتح أبو عبيدة بالس وكان أكثر أهلها قد جلوا إلى بلاد الروم، رتب بها «جماعة من المقاتلة وأسكنها قوماً من العرب الذين كانوا بالشام فأسلموا بعد قدوم المسلمين الشام، وقوماً لم يكونوا من البعوث، نزعوا من البوادي من قيس، وأسكن قاصرين قوماً ثم رفضوها أو أعقابهم»[2].

«ثم لما ولي معاوية الشام والجزيرة لعثمان بن عفان (رض) أمره أن ينزل العرب بمواضع نائية عن المدن والقرى، ويأذن لهم في اعتمال الأرضين التي

(١) فتوح البلدان ١٤٨.
(٢) فتوح البلدان ١٥٠.

لا حق فيها لأحد، فأنزل بني تميم الرابية، وأنزل المازحين والمديبر أخلاطاً من قيس وأسد وغيرهم، وفعل ذلك في جميع نواحي ديار مضر، ورتب ربيعة في ديارها على ذلك، وألزم المدن والقرى والمسالح من يقوم بحفظها ويذبّ عنها من أهل العطاء ثم جعلها مع عماله»[(١)].

وكانت منبج ذات موقع جغرافي متميز، فهي تقع على الفرات، ويمر منها الطريق بين بلاد الجزيرة وبلاد الشام، وقد جدد جسرها في خلافة عثمان، وكانت تسلكه الصوائف[(٢)].

ولما توسعت الدولة في أوائل خلافة عثمان وفتحت ملطية «رتب فيها معاوية رابطة من المسلمين مع عاملها، وقَدِمَها معاوية وهو يريد دخول الروم فشحنها بجماعة من أهل الشام والجزيرة وغيرهما. فكانت طريق الصوائف، ثم ان أهلها انتقلوا عنها في أيام عبد الله بن الزبير، وخرجت الروم فشعثتها ثم تركتها، فنزلها قوم من النصارى من الأرمن والنبط»، وقد عمر المسلمون على أثر ذلك طرندة، غير أن عمر بن عبد العزيز أعاد إعمار ملطية[(٣)].

ثم فتح العرب مرعش في ولاية أبي عبيدة بن الجراح وغزا منها سفيان بن عوف بلاد الروم، ثم أسكنها معاوية «جنداً، فلما كان موت يزيد بن معاوية كثرت غارات الروم عليهم فانتقلوا عنها «غير أن عمارتها جددت فيما بعد فكانت من أهم ثغور المسلمين»[(٤)].

وفتح حبيب بن مسلمة حصن الحدث، وكان معاوية يتعهده بعد ذلك ثم هدمه الروم في خلافة مروان وأجلوا عنه أهله[(٥)]. وأسكن معاوية قاليقلا ألفي رجل وأقطعهم بها القطائع وجعلهم مرابطة[(٦)].

---

(١) فتوح البلدان ١٤٩.
(٢) فتوح البلدان ١٤٩.
(٣) فتوح البلدان ١٨٤.
(٤) فتوح البلدان ١٨٧.
(٥) فتوح البلدان ١٨٨، ياقوت ٢/٢١٨ ـ ٩.
(٦) فتوح البلدان ١٩٧.

وقد ساعد تحصين المواقع التي تقع على المنافذ الرئيسة بين دولتي الروم والعرب على تقوية الدفاع عن الدولة الإسلامية، واقتصر نشاط الروم في هذه المنطقة على الإغارة على هذه الحصون وتدميرها، ولم يقوموا بحركات واسعة تتغلغل في داخل البلاد الإسلامية، مما يظهر شعورهم بالعجز عن ذلك.

أما العرب فقد تابعوا نشاطهم الحربي، فكانوا يرسلون حملات سنوية للإغارة على أطراف بلاد الروم، وكان عماد هذه الحملات الجيش العربي المقيم في بلاد الشام، ويعتبر الاشتراك فيها مصدراً للفخر وجهاداً مبروراً فضلاً عن الغنائم التي كثيراً ما تظفر بها هذه الحملات. واهتم الخلفاء بهذه الحملات فكانوا يختارون لقيادتها قواداً يتميزون بالشجاعة والمهارة والخبرة، وكثيراً ما اختاروا لقيادتها رجالاً من أولاد الخلفاء أو أقاربهم، مثل يزيد بن معاوية ومسلمة بن عبد الملك وعبد الله بن عبد الملك. وقد قاد بعض الخلفاء بأنفسهم بعض هذه الحملات.

وأغلب هذه الحملات كانت تنفذ في الصيف، فتسمى الصوائف، ولكنها كانت تنفذ أحياناً في الشتاء فتسمى الشواتي، غير أن الشواتي كانت قليلة نسبياً بسبب صعوبات المناخ والثلوج التي تكوّن أخطاراً إضافية عليها.

كانت هذه الحملات تخرج من القواعد الرئيسة في أنطاكية وملطية وتتوغل في الأطراف الواقعة قرب حدود الدولة، غير أن بعض الحملات توغلت في أعماق الأناضول، ففي سنة ٢٥ قاد معاوية بن أبي سفيان حملة توغلت حتى وصلت عمورية[١].

وأظهرت هذه الحملات قوة العرب الهجومية ونشاطهم وحماستهم في قتال الروم، وساعدت على بقاء الروح القتالية، وأتاحت المجال لتدرب الجيش، كما أنها كانت مصدراً لإقلاق الروم. غير أن هذه الحملات لم تكن ذات أثر مصيري حاسم ما دامت لا تستهدف القسطنطينية ذاتها. وقد أدرك الخلفاء

---

(١) فتوح البلدان ١٦٣.

الأمويون ذلك، وقاموا بحملتين كبيرتين استهدفت كلٌّ منهما فتح القسطنطينية والقضاء على دولة الروم.

الصوائف والشواتي

إن انسحاب جيش يزيد من حصار القسطنطينية لم يوقف معاوية عن متابعة إنفاذ الشواتي إلى بلاد الروم طوال السنوات الست التالية من خلافته. وذكرت المصادر العربية أسماء قادة الحملات ولكنها لم تذكر وجهاتها.

وظلت البحرية الإسلامية نشطة في هذه الفترة. ففي سنة ٥٣هـ فتح المسلمون رودس ونزلوها «وزرعوا واتخذوا أموالاً ومواشي يرعونها حولها، فإذا أمسوا أدخلوها الحصن ولهم ناطور يحذرهم ما في البحر ممن يريدهم بكبير، فكانوا على حذر منهم، وكانوا أشد شيء على الروم، فيعرضونهم في البحر فيقطعون سفنهم، وكان معاوية يدرّ لهم الأرزاق والعطاء، وكان العدو قد خافهم»[١].

وفي السنة التالية، أي سنة ٥٤هـ فتح المسلمون جزيرة أرواد، وأقاموا فيها[٢].

وفي سنة ٦٠ دخل المسلمون رودس وهدموا مدينتها وحمل أهل مصر إلى رودس الطعام[٣].

ولما وَلِيَ يزيد الخلافة أمر بسحب الحاميات الإسلامية من الجزر التي احتلوها، بما في ذلك رودس، وأرواد وقبرص[٤]، ولعله كان مدفوعاً إلى ذلك بإدراكه قوة الروم وقدرة عاصمتهم على الصمود وإحساسه بالمشاكل المتوقعة من بيعته.

---

(١) الطبري ٢/١٥٧، تاريخ خليفة ٢١٤.
(٢) الطبري ٢/١٦٣.
(٣) الطبري ٢/١٩٦، تاريخ خليفة ٢١٨.
(٤) الطبري ٢/١٥٧، ١٦٣.

واستغل الروم الانقسامات التي حدثت في الدولة الإسلامية على أثر وفاة يزيد، وحاولوا استعادة بعض الأراضي من الدولة الإسلامية، فأعادوا تنظيم بلادهم، ووضعوا على أطراف حدودهم مع الإسلام حاميات قوية منحوا أفرادها الإقطاعات وزودوا قوادها بسلطات عسكرية وإدارية لتمكينهم من الصمود وحماية الحدود. وقامت أساطيلهم بمهاجمة عدد من المدن الساحلية العربية كعسقلان وصور وأنطاكية وحرضوا الخزر على الهجوم على أرمينية، والبربر على الثورة في شمال إفريقية، كما حرضوا الجراجمة على التمرد وتهديد الأمن في الشام.

ولما وَلِيَ عبد الملك بن مروان الخلافة كانت تواجهه تحديات واسعة من الثوار والمدعين بالخلافة، فاضطر إلى موادعة الروم وتعهَّد بأن يدفع لهم ألف دينار أسبوعياً[١] لدرء خطرهم، كما صالح الجراجمة بأن أغراهم بالمال[٢]، وبذلك تفرَّغ لمواجهة خصومه ومعارضيه في العراق والحجاز بخاصة، وقد أفلح في التغلب عليهم والقضاء على الانقسامات، وأعاد إلى الدولة وحدتها في ظل خلافته[٣].

واهتم عبد الملك بأمر الروم، فجعل الجزيرة الفراتية وأرمينية ولاية إدارية واحدة، ونقل إليهما القبائل القيسية من الشام[٤]، وولّى عليها أخاه محمد بن مروان الذي عمل على تثبيت وتوسيع سلطان العرب في أرمينية، فازدادت أهمية هذه المناطق وأصبحت فيها قواعد المسلمين في هجماتهم على بلاد الروم، وتتابعت حملاتهم السنوية، فغزوا سمسطية (٧٣) ومرعش (٧٥، ٧٦) وأزقلة (٧٨) ومرج الشحم (٧٩) وقاليقلا (٨١) وحصن سنان (٨٥) والمصيصة (٨٤)، وكانت انطاكية أبرز القواعد التي توجهت منها حملات المسلمين.

---

(١) فتوح البلدان ١٥٩، ١٦١؛ أنساب الأشراف ٥/٢٩٩، ٣٣٩.
(٢) الطبري ٢/٧٩٦؛ فتوح البلدان ١٥٨ ـ ١٦١.
(٣) انظر عبد الأمير دكسن: الخلافة الأموية.
(٤) انظر عن الجزيرة الفراتية «فتوح البلدان»، العلائق الخطيرة لابن شداد، ج ٣، محمد المشهداني: الجزيرة الفراتية، كانارد «الحمدانيون» (بالفرنسية).

ولما وَلِيَ الوليد بن عبد الملك تابع سياسة أبيه في توجيه الحملات السنوية من تلك المناطق، ففي سنة ٨٩ تمّ فتح هرقلة، والبدندون، وفي سنة ٩٣ غزيت سمسطية، وفي غضون ذلك وسع العرب سيطرتهم على الأطراف الشمالية من أرمينية في شرق الأناضول.

وفي سنة ٨٣ بنى عبد الله بن عبد الملك طرندة بالقرب من ملطية وجعلها قاعدة لإخضاع أرمينية[١] وفي السنة التالية بنى عبد الله حصن المصيصة وشحنه بالرجال[٢].

وفي زمن الوليد كذلك فتح مسلمة حصن طوانة الواقعة عند جبال طوروس، فقطع صلة الروم بالجراجمة، كما حصّن أنطاكية وقوّى سورها ونقل إليها جواميس من العراق لتخفيف أخطار الأسود التي كانت تهدد المارة بينها وبين المصيصة[٣] وشحن أرض سلوقية، وأقطع جندها الإقطاعات[٤].

أسندت قيادة الحملات الإسلامية إلى قادة بارزين وُلِّيَ بعضهم أكثر من حملة، ومن أولهم بسر بن أبي أرطاة الذي قاد ستَّ حملات (ما بين ٤٣ و٥٢) وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد وقاد ثلاث حملات (٤٤، ٤٦، ٤٨) ومالك بن عبد الله الخثعمي وقاد أربع حملات (٤٦، ٥٤، ٥٨، ٦٠).

وقاد ثلاث حملات كلٌّ من سفيان بن عوف الأزدي (٥٠، ٥٢، ٥٥) وفضالة بن عبيد (٤٩، ٥٠، ٥١).

وقاد حملتين كلٌّ من عبد الله بن قيس الفزاري (٥٥، ٥٧) وأبي عبد الرحمن القيني (٤٧، ٤٨).

---

(١) فتوح البلدان ١٨٤.
(٢) فتوح البلدان ١٦٤.
(٣) فتوح البلدان ١٦٦.
(٤) فتوح البلدان ١٤٧.

وقاد حملة واحدة كلٌّ من معاوية بن صبيح (٤٥) وعبد الله بن كرز البجلي (٤٩) ومحمد بن عبد الرحمن (٥١) ومحمد بن عبد الله الثقفي (٥٢) وعبد الرحمن بن أم الحكم (٥٣) ومحمد بن مالك (٥٤) ومالك بن عمرو (٥٥) وعمرو بن محرز (٥٥) وعياض بن الحارث (٥٦) وعمرو بن يزيد الجهني (٥٨) وعمرو بن مرة الجهني (٥٩).

وقاد يزيد بن معاوية حملة على القسطنطينية (٥٠) ثم قام المسلمون بحملتهم الكبرى على القسطنطينية بقيادة مسلمة بن عبد الملك في زمن خلافة سليمان. إلا أنها لم تحقق غرضها في فتح القسطنطينية، فكانت هذه الحملة آخر محاولة جدية يقوم بها العرب لفتح القسطنطينية وإزالة دولة الروم، كما أنها كانت آخر محاولة يقوم بها الأمويون للتوغل في آسيا الصغرى، وقد اتخذ العرب منذ ذلك الوقت موقفاً دفاعياً بشكل عام.

وكان الموقف الدفاعي واضحاً عندما وَلِيَ عمر بن عبد العزيز الخلافة وتم انسحاب القوات العربية في زمنه، فإن هذا الخليفة أوقف التوسع في الجبهات كافة وسحب القوات الإسلامية المتوغلة في أواسط آسيا وفي شمال إسبانيا، أما على جبهة الثغور الشامية فقد حاول هدم المصيصة[١]، وهي الحصن الأمامي للقوات الإسلامية في طرف البحر المتوسط، كما أخرب طرندة، وهي الثغر المتقدم في منطقة الفرات الأعلى، واكتفى بتعمير ملطية[٢]. وقد قام الروم في زمنه ببعض الهجمات على أرمينية وسواحل بلاد الشام، ولكن هذه الهجمات كانت محدودة الأثر ولم تغيِّر من اتجاهاته السياسية الجديدة، وهي إيقاف التوسع والعمل على نشر الإسلام ومعالجة المشاكل الداخلية والعمل على انسجام شعوب الدولة العربية.

ولما توفي عمر بن عبد العزيز تجددت الحروب بين العرب والروم، وقام العرب بتقوية بعض الحصون الدفاعية، فجدد هشام حصون المثقب والمورد

(١) فتوح البلدان ١٦٥، ١٦٦.
(٢) فتوح البلدان ١٨٥.

وبوقا[١]، وتقدَّم بنفسه لاستنقاذ ملطية عندما هاجمها الروم[٢]، وعبر الوليد بن يزيد الجسر الذي بين أضنة والمصيصة[٣]، كما أعاد بناء حصن زبطرة[٤].

ولما وَلِيَ مروان بن محمد الخلافة انشغل بإخماد الثورات التي قامت ضده فاستغل الروم ذلك وحاصروا مرعش وأجبروا أهلها على الجلاء[٥]، كما هدموا حصون الحدث[٦]، وزبطرة[٧]. ولكن مروان استطاع استعادة مرعش وتجديد أسوارها.

غير أن هجمات الروم تجددت على حدود الدولة العربية، مستفيدة من فرصة انشغال العرب بالاضطرابات الداخلية التي حدثت نتيجة انقسام البيت الأموي في الشام، والانتفاضات المتعددة التي حدثت في مختلف أنحاء الدولة وخصوصاً في خراسان حيث أعلن العباسيون ثورتهم التي توسعت وتقدمت حتى أدت أخيراً إلى زوال الدولة الأموية.

---

(١) فتوح البلدان ١٦٥ ـ ١٦٦.
(٢) فتوح البلدان ١٧٩.
(٣) فتوح البلدان ١٦٧.
(٤) فتوح البلدان ١٩١.
(٥) فتوح البلدان ١٨٨.
(٦) فتوح البلدان ١٨٩.
(٧) فتوح البلدان ١٩٠.

الفصل الثاني والعشرون

فتح مصر

الأرض

تقع مصر في الطرف الشمالي الشرقي من قارة أفريقيا، وتمتد أطرافها الشمالية على ساحل البحر الأبيض المتوسط، أما أطرافها الشرقية فتمتد على البحر الأحمر، وهذا ما جعلها وثيقة الصلة ببلاد البحر المتوسط وتتأثر بالقوى التي تسيطر عليها، كما جعلها وثيقة الصلة بعدد من الأقاليم الأفريقية وبإقليم الحجاز الذي يقع على الجانب الشرقي من البحر الأحمر والذي ظهر فيه الإسلام وقاعدته الأساسية للتوسع.

وأغلب أراضي مصر صحارى جرداء لا تصلح للزراعة والسكن ما عدا بعض الواحات القليلة المنبثة في مناطق متباعدة والتي يستقر في كلٍّ منها عدد قليل من السكان الذين يعتمدون في حياتهم بالدرجة الأولى على المحاصيل القليلة التي تنتجها هذه الواحات المتفرقة. وفي هذه الصحارى مناجم بعض المعادن كالزمرد والنطرون، وقد عزلت هذه الصحارى مصر عن البلاد التي وراءها، وكانت في الوقت نفسه سداً يحمي مصر من الغزوات الخارجية إلا في أطرافها الواقعة على البحر أو المتصلة بصحراء سيناء.

يخترق نهر النيل أرض مصر من الجنوب إلى الشمال، وهو يجري وسط سهل لا يزيد عرضه في أقصى اتساعه على العشرة كيلومترات، ويضيق في بعض المواضع فلا يزيد عرضه على الكيلومتر الواحد. غير أن هذا السهل يتسع

بالقرب من المصب حيث يتفرع النيل بعد مروره بالقاهرة إلى عدة فروع تسقي أرضاً منبسطة عريضة نسبياً هي الدلتا. وهذا السهل أرضه غرينية خصبة جداً، والزراعة فيه كثيفة، وهي تعتمد على ماء النيل الذي يمد الأرض بالغرين، كما أنه يروي المزارع، ويكوّن الشريان الرئيس للمواصلات. غير أن طول الوادي وضيقه جعل القرى والمدن الكثيرة الواقعة عليه متباعدة منعزلة، لا تستطيع تكوين دولة كبيرة، وبذلك تبقى تابعة للدول التي تتركز في الشمال حيث تتسع الأراضي الزراعية عند الدلتا وتكثر المدن والبلدان وتقترب من بعضها فتوفر للدول التي تظهر فيها الثروة والقوة، فالمنطقة الرئيسة التي تقرر مصائر مصر هي منطقة الدلتا، والواقع أن الغالبية المطلقة للدول التي حكمت مصر اتخذت عاصمتها في البقعة التي يخرج فيها النيل من واديه الضيق إلى منطقة الدلتا المتسعة.

الدول القديمة

ساعدت خصوبة الأرض وتوافر المياه وازدهار الزراعة في وادي النيل على ظهور وتقدُّم الحضارة منذ أزمنة قديمة جداً، وعلى ظهور حكم الفراعنة، الذي امتد عشرات القرون، شهدت خلالها مصر استقراراً وتقدُّماً وأماناً من الأخطار الخارجية. وظل حكم الفراعنة مقصوراً على مصر حتى جاءت الأسرة الثامنة عشرة في القرن التاسع قبل الميلاد وأخذ ملوكها يتَّبعون سياسة التوسع وخصوصاً نحو فلسطين وبلاد الشام، لكن هذا التوسع لم يدم طويلاً، وتلته عدة غزوات أجنبية على مصر قام بها الآشوريون ثم الميديون الذين أزالوا إلى الأبد حكم الفراعنة، وتلاهم الإسكندر المقدوني الذي ضم مصر إلى إمبراطوريته.

ثم أصبحت مصر مقر دولة البطالسة الذين كانوا إغريقاً في أصولهم وثقافتهم ومطامحهم فكانوا أجانب عن أهل البلاد، واتخذوا مصر مصدر القوة لتحقيق مطمحهم في الشرق الأوسط بصرف النظر عن مصالح أهل البلاد.

ثم استولى الرومان على مصر وضموها إلى إمبراطوريتهم ولكنهم ميزوها بأن جعلوها ملكاً خاصاً للامبراطور، وعملوا على استغلال خبراتها لمصالحهم الخاصة. وكان أهل روما يعتمدون في معاشهم على القمح الذي تستورده الدولة من مصر وتوزعه على الأهالي بالمجان.

ولما انقسمت الامبراطورية الرومانية إلى قسمين، صارت مصر جزءاً من القسم الشرقي الذي كان مركزه القسطنطينية. وقد عمل الأباطرة البيزنطيون على وضع نظام إداري دقيق لضبط النظام واستغلال مواردها الاقتصادية. وقد ظلّت مصر تموِّن أهل القسطنطينية بالحنطة التي كان البيزنطيون شأن اسلافهم الرومان يوزعونها بالمجان[1].

غير أن البيزنطيين لاقوا مقاومة في تحقيق أهدافهم، فقد قاوم الموظفون محاولة فرض إدارة مركزية، وقاوم ملاكو الأراضي والفلاحون محاولة امتصاص موارد مصر لمصلحة القسطنطينية، كما أن الروح المصرية المتأصلة بدأت تطغى على الثقافة الإغريقية التي عمل البطالسة على تثبيتها في مصر. وبذلك اتسعت الشقة بين الحكام البيزنطيين والشعب المصري الذي ازدادت ثقته بتراثه وتعاظم شعوره بسوء الإدارة البيزنطية وأنانيتها واستغلالها.

ومن أبرز ما تجلى فيه التباعد بين المصريين وحكامهم البيزنطيين هو الدين، فقد دخلت المسيحية في مصر في وقت مبكر، وأخذت تنتشر بين السكان في الوقت الذي كان حكام الامبراطورية الرومانية التي تتبعها مصر، يرتابون بالمسيحية ويضطهدون النصارى. ولما اعترفت الدولة البيزنطية بالمسيحية ديناً رسمياً للدولة، أيَّد المصريون المذهب المونوفستي الذي كان الحكام في القسطنطينية يناصبونه العداء. وقد حاولت الدولة تحويل المصريين عن هذا المذهب، واتّبعت الطرق السلمية في البداية، فلما لم تفلح اتَّبعت أساليب عنيفة، ولكن هذه الأساليب زادت من تمسك المصريين بالمذهب المونوفستي

(١) من أقيَم الكتب الكثيرة عن تاريخ مصر كتاب «مصر القديمة» لجيمس بريستد وكتاب «التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للعالم الهلنستي» لروستو فزيق. وكتاب «مصر البيزنطية» لجونسن.

وتأييدهم لرجاله وتقديسهم لشهدائه، فزاد هذا من توسيع الشقة بين المصريين المونوفستيين وحكومة القسطنطينية الأرثوذكسية، وعمَّق الكره بينهما، ثم غزا الساسانيون مصر عند ظهور الإسلام وظلوا فيها عشر سنين لم يقاومهم المصريون، ولعل كثيراً من المصريين ولا سيما المعتنقين للمونوفستية شاركوا في اضطهاد البيزنطيين ومؤيديهم ومعتنقي مذهبهم.

ولما نجح هرقل في إجبار الساسانيين على الانسحاب واستعاد: مصر، ارتاح كثير من النصارى باندحار الفرس وعودة صليب الصلبوت إلى بيت المقدس بعد أن نقله الفرس منها، غير أن هذا الفرج لم يدم طويلاً إذ إن هرقل حاول حل الخلافات الدينية بأن أوجد مذهباً جديداً يوفق بين المذاهب المتعددة، وعمل على نشره بين الناس وفرضه عليهم، فلم يرضَ به المصريون وعارضوه؛ فعيَّن هرقل على الإسكندرية بطريركاً اسمه كيروس وزوَّده بصلاحيات إدارية وعسكرية واسعة لتمكينه من فرض المذهب الجديد. وكان كيروس قبل ذلك أسقفاً في مدينة في أطراف القوقاس، ولذلك صار الناس يسمونه «المقوقس» وهو مشهور في الكتب العربية بهذا الاسم. وقد حاول كيروس جلب المؤيدين للمذهب الجديد، ولكنه لم يفلح، فبدأ باستعمال الشدة، ولكن المصريين ورجال دينهم ورهبانهم المعتنقين للمذهب المونوفستي أظهروا مقاومة عنيدة قابلها كيروس باضطهادات قاسية مرعبة، أدت إلى ازدياد عدد الشهداء وإلى ازدياد كره المصريين للبيزنطيين. ودامت سيطرة المقوقس عشر سنوات[(١)] كان الرسول (ص) خلالها قد وحَّد العرب وجعل دولة الإسلام تمتد إلى كل جزيرة العرب. ثم قضى أبو بكر على حركات الانشقاق والردة، وتقدمت الجيوش العربية إلى بلاد الشام فتوغلت فيها وأحرزت انتصارات متعددة. وقد اتصل الرسول (ص) بالمقوقس، ووجَّه له رسالة استجاب لها المقوقس بإهداء الرسول جارية تزوجها الرسول وولدت له ابنه إبراهيم.

---

(١) انظر: «فتح العرب لمصر» لبتلر، والشمال الشرقي الإفريقي في العصور الوسطى المبكرة لكويشانوف.

أهمية مصر للعرب

ولما تم للعرب تحطيم الجيش البيزنطي في معركة اليرموك، وفتحت مدن الشام وفلسطين أبوابها للعرب، قَدِمَ الخليفة عمر بن الخطاب إلى الجابية لحضور الصلح مع بيت المقدس ولتنظيم إدارة البلاد التي ضمها العرب إلى دولتهم في تلك المنطقة. وفي الجابية قرر عمر إنفاذ حملة قوامها أربعة آلاف رجل لفتح مصر بقيادة عمر بن العاص.

وعمرو بن العاص قرشي من عشيرة سهم، اشتهر بالقدرة الإدارية والدهاء، وكان قبل إسلامه قد قَدِمَ مصر أكثر من مرة للتجارة، فعرف بعض أحوالها، وأسلم عمرو قبيل الحديبية وشارك في بعض الحملات التي أرسلها الرسول (ص) إلى عدد من القبائل، ثم أرسله الرسول (ص) إلى عُمان مندوباً لدى حكامها آل الجلندى الذين أعلنوا إسلامهم آنذاك، ولما وجَّه أبو بكر الجيوش لفتح الشام اختار عمرو بن العاص واحداً من القواد الأربعة الذين جعلهم على تلك الجيوش، فأظهر عمرو نشاطاً وكفاءة وشارك في معظم المعارك الرئيسة التي حدثت في تلك الجبهة[1]. وتذكر بعض الروايات أنه تولى القيادة العليا للمعارك الرئيسة التي جرت قبل معركة اليرموك، مما يؤيد أنه كان في المراحل الأولى للفتوح، وقبل مجيء خالد إلى الشام، أبرز القواد في تلك المنطقة. وهذا الماضي اللامع يوضح الأسباب التي دفعت الخليفة عمر إلى اختياره قائداً للحملة على مصر.

يتكرر في عدد من المصادر ذكر رواية مفادها أن الخليفة عمر بن الخطاب لما أنفذ عمرو بن العاص لفتح مصر أعطاه، أو أرسل إليه، كتاباً يذكر فيه أنه إذا وصل في تاريخ معيَّن مدينة العريش فليمضِ فيما أرسل إليه، وإن لم يكن قد وصلها بعد في ذلك التاريخ فليعد أدراجه وهذه الرواية تظهر أن عمر كان متردداً في فتح مصر، وأنه كان يشعر أن إرسال الحملة لفتحها هو مجازفة غير مضمونة النتائج.

---

(١) انظر «تاريخ عمرو بن العاص» لحسن إبراهيم حسن.

غير أن هذه الرواية لا تعبِّر عن الواقع، ففتح مصر في هذا الوقت المبكر ومن قبل أن يكتمل فتح بلاد الشام أو قيسارية في فلسطين إنما كان ضرورة تقتضيها الأحوال العسكرية للدولة الإسلامية. فمصر تقابل إقليم الحجاز الذي كان فيه مقر الإسلام وقاعدة الخلافة وقلب الدولة، ولا يفصل بين مصر والحجاز إلا البحر الأحمر، وهو بحر ضيق ليس للعرب فيه أسطول يحمي شواطئه، فبإمكان أعداء العرب إذا سيطروا على مصر أن يهددوا الحجاز والمدينة وهي قلب الإسلام وقاعدته، وبذلك يكون كل توسع إسلامي معرضاً للخطر ما دامت مصر خارج الدولة الإسلامية.

ثم إن لمصر ساحلاً طويلاً على البحر الأبيض المتوسط، وفيه عدد من القواعد التي تصنع فيها السفن وترسو فيها، ففتح العرب لمصر يحرم البيزنطيين من القواعد التي تصنع وتؤوي سفنهم التي كانت تهدد البلاد التي فتحها العرب. وهذا الفتح العربي إن تم فإنه يؤمن سيطرة العرب على مقدار كبير من ساحل البحر الأبيض المتوسط وقواعده، ويؤمن لهم مصدراً من العمال والمواد لصنع السفن وعملها.

وضمُّ العرب مصر إلى دولتهم يحرم البيزنطيين من الحنطة التي كانت تستورد من مصر وتوزع بالمجان على أهل القسطنطينية، مما يؤدي إلى خلق مشاكل معاشية وإدارية محرجة للروم، ويوفر للعرب مصدراً غنياً للحنطة يمكنهم أن يزوّدوا به أهل المدينة، وهي قاعدة الإسلام، فيؤمنوا معيشتهم، وهذا ما حدث بالفعل بعد فتح مصر حيث قامت الدولة باستيراد القمح وتوزيعه بالمجان على أهل المدينة.

ويلاحظ أن العملة البيزنطية قائمة على الدينار المسكوك من الذهب المستورد بالدرجة الأولى من المناجم الواقعة في صحارى جنوب مصر والسودان، فسيطرة العرب على مصر تحرم الروم من الذهب وتجعلهم معتمدين على العرب في تزويدهم به، كما أنه يوفر للعرب الذهب ويمكِّنهم من تصديره إلى الأقاليم الشرقية التي كان يعوزها الذهب لعدم وجود مناجمه فيها.

تقدم العرب لفتح مصر

تحرك الجيش العربي من فلسطين وقوامه أربعة آلاف[1]، وسلك الطريق الشمالي الموازي لساحل البحر الأبيض المتوسط، وهو الطريق الذي سلكته معظم الجيوش بين فلسطين ومصر، فاجتاز في طريقه رفح، ثم وصل العريش في عيد الأضحى سنة ١٨ (٢ كانون الأول ٦٣٩) ودخلها دون مقاومة، ثم تقدَّم إلى الفرما وكانت فيها حامية من جند البيزنطيين أبدوا مقاومة، فحاصرهم عمرو بن العاص قرابة شهر استسلموا بعدها في ١٥ من شهر المحرّم ١٩ (٢ يناير ٦٤٠).

وبعد فتح الفرما توجَّه عمرو نحو الجنوب الغربي مبتعداً قليلاً عن ترع الدلتا ليتحاشى ما قد تسببه مياه الترع والأراضي المحلية القريبة منها من عرقلة. وكانت المنطقة التي يسير فيها منطقة صحراوية فيها عدد من القبائل العربية التي كانت قد هاجرت إلى مصر قبل الفتح الإسلامي، وكان هدفه التالي بلبيس التي كانت فيها حامية بيزنطية قوامها ثلاثة آلاف جندي فأبدوا مقاومة تغلّب عليها بعد حصار دام شهراً.

أدرك البيزنطيون بعد النجاح المطَّرد الذي أحرزته الجيوش العربية، أن هذه الحملة ليست مجرَّد غزوة وقتية، بل هي حملة تستهدف الفتح والاستقرار، فجدّوا في الاستعداد لمقاومتها، وأخذوا يجمعون ما يستطيعون من الجند، وحصّنوا أسوار المدن، وطلبوا من هرقل أن يمدهم بالنجدات.

أدرك عمرو بن العاص تزايد المقاومة التي يتوقع أن يلقاها في تقدُّمه المقبل، وأن القوة التي معه لا تكفي لتحقيق المهمة التي أرسل من أجلها وخصوصاً أن عدداً من أفرادها قد قتل في المعارك التي خاضها في الطريق،

(١) أوسع المصادر القديمة في الموضوع كتاب «فتوح مصر» لابن عبد الحكم، وينظر أيضاً: فتوح البلدان للبلاذري، أما الدراسات الحديثة فأوسعها كتاب بتلر: «فتح العرب لمصر»، وكتاب كايتاني: «الحوليات الإسلامية»، وانظر أيضاً «تاريخ عمرو بن العاص» للدكتور حسن إبراهيم حسن.

ولذلك طلب من الخليفة إمداده بنجدات تكفي للقضاء على المقاومة البيزنطية، وقد استجاب عمر لطلبه فأمده باثني عشر ألف مقاتل معظمهم من أهل الحجاز وفيهم عدد كبير من أهل اليمن، وكان في هذا المدد عدد من كبار الصحابة مثل الزبير بن العوام، وعبد الله بن عمر بن الخطاب.

لم يضيّع عمرو بن العاص الوقت في انتظار وصول الإمدادات، بل تابع سيره إلى المنطقة التي يتفرع فيها النيل إلى فروع متعددة، أي إلى رأس الدلتا، وهي بقعة مهمة كان الفراعنة قد اتخذوها مركزاً لحكمهم في معظم السنين الطويلة لملكهم، فلما جاء الرومان نقلوا مركز الحكم إلى الاسكندرية ولكنهم احتفظوا في هذا المكان بميناء للسفن في المقس (عند بولاق) كما بقيت في هذه المنطقة مدينة هليوبوليس. غير أن القاعدة الأساسية للدفاع في هذه المنطقة هو حصن بابليون (جنوب القاهرة) حيث كان محكم الأسوار، يحيطه خندق يمتلىء من مياه النيل القريبة.

وبالنظر لقلة القوات التي مع عمرو بن العاص فإنه لم يتقدم لحصار حصن بابليون، بل تقدَّم إلى أم دنين (عند الأزبكية الحالية) وعسكر فيها، فلم يلقَ مقاومة شديدة، وبعد أن أقام وقتاً في أم دنين هاجم الفيوم والبهنسا وهي مدينة غنية بمحاصيلها، فغنم غنائم كبيرة، ثم عاد إلى أم دنين حيث وصلته إمدادات الخليفة وأصبح جيشه حوالى خمسة عشر ألفاً.

ثم قرر القائد البيزنطي في حصن بابليون أن يتقدم لمقاتلة عمرو بن العاص فخرج بقوة من جيشه وتقدَّم إلى هليوبوليس التي تقع على بعد حوالى عشرة كيلومترات من حصن بابليون. وهناك اشتبك مع القوات العربية في معركة حامية انتصر فيها العرب وألحقوا بالجيش البيزنطي هزيمة كبيرة وذلك في أواخر حزيران ٦٤٠، والتجأت فلول البيزنطيين إلى حصن بابليون.

وفي أواسط أيلول تقدَّم العرب لمحاصرة حصن بابليون، وكان وقت الفيضان، وكانت فيه حامية تبلغ حوالى خمسة آلاف بإمرة قائد بيزنطي تسميه المصادر العربية «الأعرج»، وكان فيه أيضاً البطريرك المقوقس ولم يستطع

العرب فتحه لحصانته وقلة مواد الحصار لديهم، فظلوا يحاصرونه، ولما انحصر ماء الفيضان ولم تأتِ إمدادات بيزنطية لفك الحصار، استطاع المقوقس. إقناع من في الحصن بمفاوضة العرب. وبعد مفاوضات طويلة تم الاتفاق على أن يقبل من في الحصن الاستسلام، ويؤمن المصريون على أرواحهم وأموالهم على أن يدفعوا الجزية، وأن تبقى الحامية في مكانها إلى أن يقرَّ هرقل الصلح، فإذا أقرَّه خرجت الحامية بعد أن تترك ما في الحصن للعرب، وحددت المدة التي ينبغي أن يوافق خلالها هرقل على الصلح بأحد عشر شهراً.

ثم حمل المقوقس شروط الصلح إلى هرقل فرفضها هذا وأهان المقوقس ونفاه، فتجدد القتال، وازدادت حماسة المسلمين، ثم بلغ أهل الحصن خبر وفاة هرقل في آذار سنة ٦٤٠ فانهارت معنوياتهم ونجح الزبير بن العوام في تسلُّق السور وفتح أحد أبوابه، فدخل منه المسلمون، واتصل قائده بعمرو بن العاص عارضاً عليه الاستسلام، وتم الاتفاق على أن تخرج الحامية خلال ثلاثة أيام ومعها ما يكفيها من القوت لبضعة أيام، وأن يتسلم العرب الحصن وما فيه من أموال وذخائر. وفي يوم الاثنين ١٩ نيسان سنة ٦٤١ غادر الحصن آخر جنود الحامية.

فتح الاسكندرية

ولما أتم عمرو فتح حصن بابليون بدأ يستعد لفتح الاسكندرية التي كانت عاصمة مصر وأكبر مدينة فيها وأعظم معقل للثقافة الإغريقية، وكانت فيها حامية تبلغ فيما يقال خمسين ألف جندي، ولعل في هذا العدد مبالغة، فضلاً عن أنها تقع على البحر فتستطيع الحصول على معولة الأسطول وعلى إمدادات أخرى من البحر الذي يسيطر عليه البيزنطيون.

تقدَّم عمرو بن العاص في الشهر التالي لسقوط حصن بابليون، وسلك الجانب الغربي من الدلتا، واشتبك مع قوة من جيش البيزنطيين في نقيوس فتغلَّب عليها، ولم يلقَ بعدها مقاومة في الطريق، وأثار تقدُّمه اضطرابات عنيفة ومنازعات كثيرة في الإسكندرية أدت إلى تدهور معنويات أهلها.

كانت الاسكندرية محاطة بالبحر من الشمال، وبحيرة مريوط من الجنوب وقناة أم الثقبان من الغرب، فعسكر عمرو بن العاص في الجهة الشرقية منها وقطع عنها الإمدادات، وسيطر على معظم مدن الدلتا، ولكنه لم يفلح في اختراق الاسكندرية فعاد إلى حصن بابليون بعد أن ترك قوة من جيشه تحاصرها، وأرسل لدى عودته حملة إلى الجنوب وصلت إلى طيبة فأخضعها.

وفي خلال ذلك ازدادت المشاحنات في داخل الاسكندرية، كما حدثت اضطرابات في الدولة البيزنطية على أثر وفاة هرقل، وعاد المقوقس من منفاه إلى الإسكندرية، فقوبل بالحفاوة، ثم استطاع إقناع أهل الاسكندرية بمفاوضة العرب، وذهب بنفسه إلى حصن بابليون واتفق مع عمرو بن العاص على شروط الصلح وبموجبه تعقد هدنة لمدة أحد عشر شهراً، يبقى فيها العرب في مواضعهم ويتوقفوا عن القتال، وترحل حامية الاسكندرية عن البلاد، ولا يعود جيش من الروم إلى مصر، وتؤمن حياة القبط وأموالهم مقابل دفعهم الجزية، ولا يأخذ المسلمون كنائس النصارى، ويبعث الروم رهائن من مائتي شخص ضماناً لتنفيذ العقد. وقد دفع البيزنطيون قسط الجزية في أول المحرم سنة ٢١ (١٠ كانون الأول ٦٤١) وبدأ جيش الروم بالانسحاب من الاسكندرية، فدخلها العرب في آخر أيلول ٦٤١.

وفي خلال الهدنة أتم العرب فتح ما تبقّى من مدن الدلتا، فلما تم التصديق على الهدنة وانسحب الروم أذعنت بقية البلاد للعرب، وأنشأ عمرو بن العاص الفسطاط قرب حصن بابليون لتكون مركزاً دائماً للولاة والمقاتلة العرب.

ثم ولّى عمر بن الخطاب عبد الله بن سعد بن أبي سرح حكم الصعيد والفيوم وجعل إليه جباية الخراج، فلما وَلِيَ عثمان الخلافة عزل عمرو بن العاص وجعل عبد الله بن سعد والياً على مصر كلها. غير أن الوالي الجديد اشتد في جباية الخراج وزاد مقدارها فاستاء الناس من سوء معاملته، وكاتب بعض أهل الاسكندرية الامبراطور البيزنطي يعلمونه باستياء الناس من سوء معاملة الوالي العربي وبقلة الجيش العربي. وكان الأسطول البيزنطي لا يزال مسيطراً في البحر، فأعد الامبراطور حملة أحاطها بالسرية، فتقدمت الحملة

ونزلت الاسكندرية وأخرجت الحامية العربية، ثم تقدمت في الدلتا ولكنها أساءت معاملة أهل مصر فضجوا منها.

وعلى أثر هذه الأحداث أعاد الخليفة عثمان تولية عمرو بن العاص على مصر فقَدِمَ عمرو إلى الفسطاط، وقاد الجيش العربي لمقابلة البيزنطيين، ونشبت بين العرب والبيزنطيين معركة حامية قرب نقيوس، وكان المصريون يؤيدون العرب ويساعدونهم، فانتصر العرب وانهزم الروم ولجأوا إلى الاسكندرية، غير أن عمرو بن العاص لم يمهل الروم، بل لاحقهم إلى الاسكندرية فحاصرهم فيها واستطاع أن يدخلها عنوة، وقتل عدداً كبيراً من رجال الحملة البيزنطية، وركب من نجا منهم السفن وغادر الاسكندرية هرباً وقد شدد عمرو بن العاص في معاملته لأهل الاسكندرية الذين أظهروا الخيانة للعرب وساعدوا الروم عليهم.

ثم قام عمرو بن العاص بهدم الأسوار الشرقية للاسكندرية لكي لا يفكر أهلها بالاحتماء فيها، ثم عاد إلى الفسطاط التي أصبحت مركز الولاة العرب.

رحب المصريون بحكم العرب الذي كان أكثر إنسانية في المعاملة، وأخف في الجباية، فضلاً عن أنه أوقف الاضطهادات الدينية، ووفر للجميع حرية العقيدة، فتخلَّص معتنقو المذهب المونوفستي، وهم الغالبية المطلقة من المصريين، من المعاملة السيئة التي كانوا يلقونها على أيدي البيزنطيين. وسرعان ما أقبل كثير من المصريين على الدين الإسلامي فاعتنقوه.

فتح برقة وطرابلس

وتتصل بمصر في غربيها مقاطعتا برقة وطرابلس، وكانتا مرتبطتين إدارياً بمصر، غير أن هذا الارتباط كان ضعيفاً، ويبدو أن حكام شمال إفريقية مدوا سلطانهم الفعلي على هاتين المقاطعتين.

وأراضي هاتين المقاطعتين صحارى جرداء، غير أن في المناطق الساحلية مقداراً من المياه الباطنية والآبار التي يكفي بعضها لزراعة أراضٍ واسعة ولظهور

المدن، ويمر في هذه المنطقة الساحلية الطريق الرئيس الذي يربط مصر بأقاليم شمال إفريقية.

وكان أبرز سكان هاتين المقاطعتين قبيلة لواتة البربرية التي كانت معادية للبيزنطيين، وقامت بعدة ثورات أضعفت الروم وأرهقت لواتة، فلما تقدَّم العرب إلى هاتين المقاطعتين لم تقاوم لواتة الجيوش العربية بل سارعت إلى اعتناق الإسلام.

ولما انتهى عمرو بن العاص من فتح الإسكندرية، أرسل سنة **٢٢** قوة من جيشه بقيادة عقبة بن نافع فتحت برقة، ثم تقدَّم بنفسه وتابع سيره إلى طرابلس حيث فتحها بعد مقاومة، وغنم منها غنائم كبيرة، وصالح أهلها على الجزية.

وأرسل عمرو بن العاص حملة فرعية بقيادة عقبة بن نافع سارت جنوباً حتى وصلت فزان وضمت كل تلك البلاد إلى الدولة العربية.

وأرسل عمرو أيضاً حملة إلى صبرة وأخرى إلى ودان، غير أن الخليفة عمر أصرّ على عمرو بعدم الاستمرار في التقدم تحاشياً لما قد يولِّده هذا التقدم من أخطار في تلك المرحلة المبكرة.

الفصل الثالث والعشرون

فتح إفريقية والمغرب

البلاد وأهلها

إن سيطرة العرب على بلاد الشام ومصر، بما في ذلك برقة وطرابلس، كان لا بد أن يتبعها تقدُّم العرب إلى بقية أقاليم شمال إفريقية، لأن هذه البلاد متصلة جغرافياً بمصر، ولا يفصل عنها حاجز طبيعي يوقف تقدُّم العرب إليها. ثم إن الروم كانوا يسيطرون على كثير من أراضي هذه البلاد، ولهم قواعد في شواطئها يمكن أن تكون ملجأً للروم أو قواعد يهددون منها سيادة العرب في البحر المتوسط. يضاف إلى ذلك أن هذه البلاد واسعة الرقعة، كثيرة السكان، غنية الثروات فهي تقدِّم فرصة لتوسيع رقعة الدولة، ونشر الإسلام، والحصول على موارد وثروات.

ولهذه البلاد أوضاع خاصة، فموقعها بعيد عن جزيرة العرب التي كانت قلب العالم الإسلامي والمموِّن الأكبر للمقاتلة. ولم تكن فيها حكومة قوية تبسط سلطانها على كل تلك البلاد. فقد سيطر الروم على سواحلها وتركزوا في عدد من مدنها، ولا سيما في الأجزاء الشمالية الشرقية التي تشمل دولة تونس الحالية، ونظراً لبعدها عن القسطنطينية فقد كانت سيطرة الحكومة المركزية عليها ضعيفة، أما بقية أراضيها، بما في ذلك المناطق الجبلية والصحراوية الواسعة،

فكانت تقيم فيها قبائل كثيرة من البربر ليست لها حكومة تجمعها أو تنظيم سياسي يوحدها وينسق أعمالها.

ثم إن هذه البلاد واسعة جداً وفيها مناطق وعرة، بعضها جبلية وبعضها صحراوية، فالقتال فيها ليس بالأمر السهل ويستطيع الجيش أن يتخير أياً من المسالك العديدة التي تخترقها. والسكان غير موزعين فيها بانتظام، الأمر الذي يؤدي إلى صعوبة تقدير مواقع المقاومة، فقد تتجمع في مناطق ضيقة لا يستطيع الجند العربي اجتيازها إلا بعد خوض معارك متعددة ودامية، وقد يسير الجيش مئات الأميال دون أن يلقى أيَّ مقاومة في تقدُّمه غير أنه يلقاها في تقهقره.

والغالبية المطلقة من السكان الأصليين لهذه البلاد هم من البربر، لم تكن للعرب معلومات واسعة عنهم أو واضحة، ولم تكن علاقتهم بالروم علاقة ودية، وهم ميالون إلى التديُّن، ولكن لم يكن لهم دين معيَّن يجمعهم، كما أن الأديان التبشيرية الكبيرة، وخصوصاً المسيحية، لم يكن لها نفوذ عليهم، ولم تتغلغل فيهم.

ونظراً لكون مصر تقع على الطريق الوحيد الذي يربط هذه البلاد بمركز الخلافة، فقد كان لولاة مصر تأثير وتداخلات أثَّرت في كثير من الأحيان على موقف الخلفاء من هذه الفتوح. وكانت هذه التأثيرات أوضح في اختيار ولاة هذه البلاد وفي معاملتهم ومصائرهم، وكذلك في مدى وضوح المعلومات عن هذه البلاد وتقدُّم العرب فيها.

وتتكون هذه البلاد من سهول ساحلية ضيقة، ولكنها تتسع في الغرب وهذه السهول خصبة فيها زراعات عديدة وفيها موانىء كثيرة، وهي وثيقة الصلة بالبلاد الأخرى في البحر المتوسط.

وفي جنوب هذه السهول تمتد جبال الأطلس وهي سلاسل جبلية طويلة ووعرة، وتحصر فيما بينها مناطق سهلية، يجري فيها عدد من الأنهار. ثم يتلو ذلك صحراء واسعة جرداء رملية يصعب سلوكها أو سكناها، وتكوّن حاجزاً يفصلها عن إفريقية الوسطى، كما أنها تكوّن ملجأ للمتمردين.

السكان

وبالنظر لخصوبة السهل الساحلي واتصاله بالبحر المتوسط، فقد استوطن فيه منذ أزمنة قديمة عدد من الشعوب التي هاجرت من مناطق أخرى، فقد جاءه القرطاجيون من سواحل بلاد الشام واستوطنوا في عدة مناطق، وكوَّنوا دولة مركزها قرطاجنة، كما استوطنه عدد من الرومان بعد أن أزالوا القرطاجيين وسيطروا على الإقليم، ولما ضعفت روما وبدأ الجرمان يتغلغلون في أقاليمها، عبر الواندال من إسبانيا واستوطنوا في شمال إفريقية.

غير أن السكان الأصليين، وهم البربر، كانوا هم الغالبية المطلقة من السكان، يتكلمون لغة خاصة فيها مفردات تشبه العربية والمصرية، مما حمل بعض اللغويين على اعتبار هذه اللغات الثلاث من أصل واحد. وحياة البربر تشبه حياة عرب الجزيرة من حيث انتظامهم في قبائل، ففيهم حضر وبدو، فالبدو يتجولون انتجاعاً «للمراعي ويعتمدون على ماشيتهم من الشاة والبقر والخيل» (ابن خلدون ٦/ ٨٩).

وينقسمون بصورة عامة إلى شعبين رئيسين: البتر والبرانس، ويتكون كلٌّ من هذين الشعبين من عدة قبائل. فأما البتر، وكانوا بداة، فأهم قبائلهم لواتة وموطنها برقة، ونفوسة في جنوب طرابلس، ونفزاوة في جنوب تونس. أما البرانس فكانوا أكثر تحضراً وأهم قبائلهم مصمودة وهي تسكن جنوب تونس. وصنهاجة بين بجاية والجزائر، وكتامة بين بجاية وقسنطينة.

والبربر مقاتلة أشداء، إلا أنهم لم يكونوا متكتلين أو متوحدين، ولم تكن لهم دولة تجمعهم أو عقيدة تربط بينهم، أو حضارة عميقة الجذور تميِّز كيانهم، ولم يكن لهم جيش موحد يقاتل من أجلهم، لذلك كان تقدُّم العرب في بلادهم غير منسق، لأنهم لم يقابلوا جيشاً منظماً له خطط مدروسة، بل كانوا يلقون عشائر ذات مواقف غير مستقرة، إذ قد يبدون مقاومة شديدة ثم يتوقفون فجأة عن المقاومة أو بالعكس قد يبدون هادئين ثم يظهرون مقاومة فجائية عنيفة.

الأقسام الإدارية

إن الجزء الواقع بين مصر وتونس سماه العرب بأسماء أقسامه الإدارية القديمة وهي أنطابلس أو بنطابلس، وهو إقليم برقة الذي يسمى باللغات الأجنبية قورينة، وإقليم طرابلس الذي يقع غرب برقة. أما الأقسام الجنوبية من هذه المنطقة فيسمى القسم الملاصق لمصر لوبية، والقسم الذي في غربيه «مراقية».

أما الأقسام الباقية فقد أطلق عليها العرب اسم إفريقية، أو المغرب؛ فأما إفريقية فهو تعبير قديم وقد أطلقه الرومان على أملاكهم التي كان مقرها قرطاجنة. أما تعبير المغرب فهو تعبير غامض الحدود. وقد أطلقه العرب على الأقاليم التابعة لهم غرباً، غير أنه منذ العصر العباسي كان يطلق على البلاد والأقاليم كافة الواقعة غرب بغداد ثم أفردت الأندلس عن ذلك.

لقد ذكرنا أن القسم الشمالي من إفريقية هو أخصب المناطق وأغناها وأكثفها بالسكان، وكان وثيق الصلة بالبلاد الأخرى الواقعة على البحر المتوسط. والواقع أن الفينيقيين اتخذوا فيه قاعدة وكوّنوا دولة مركزها قرطاجنة نشرت تجارتها ونفوذها على عدد من المدن والبلاد الواقعة شمال البحر المتوسط. ثم قضى الرومان على الدولة الفينيقية وضموا شمال إفريقية إلى إمبراطوريتهم، وكان سلطانهم السياسي والإداري والثقافي أقوى وأوضح في المناطق الساحلية. ولما قضى الجرمان على الدولة الرومانية الغربية زالت سلطة الرومان عن هذه البلاد.

أحوال البلاد قبيل الفتح العربي

وفي عهد جستنيان ضمَّت الدولة البيزنطية شمال إفريقية اليها، وعُيِّن لها ولاة أحسنوا الإدارة وكوَّنوا علاقات طيبة مع البربر واستخدموهم حرساً لهم وجنَّدوا عدداً منهم، غير أنه تولى بعد ذلك ولاة اهتموا بجمع المال واستعملوا الشدة في الجباية وأساؤوا معاملة البربر، فتوترت العلاقة بينهم، وسرى الاستياء

إلى الجند البربر فكثر تذمرهم وضعف انضباطهم وقلَّت طاعتهم، فتقلص سلطان البيزنطيين، وتدهورت الزراعة والصناعة وتوسع سلطان البربر فأخذوا يستولون على الأراضي في الجنوب واستمر تقدُّمهم حتى انحصر سلطان الدولة البيزنطية في الساحل فقط.

وضع البيزنطيون لشمال إفريقية نظاماً دفاعياً دقيقاً، فأقاموا فيها جيشاً كبير العدد، كما أنشأوا على منافذ البلاد عدداً من الحصون، غير أن بُعد هذا الإقليم عن مركز الدولة البيزنطية، والمشاكل الكثيرة التي واجهت الدولة في أوروبا والمشرق أدت إلى ضعف التدابير الدفاعية وإلى إهمال العناية بالتحصينات.

وأخذت المسيحية تنتشر في شمال إفريقية منذ القرن الثاني الميلادي، وقد بدأت انتشارها في المناطق الساحلية، ثم امتدت منها إلى المناطق الداخلية، ولما كانت الدولة الرومانية معادية للنصارى، فقد أدى هذا إلى كره المتنصرين للدولة الرومانية. ولما اعترفت الدولة البيزنطية بالمسيحية، مال نصارى شمال إفريقية إلى البابا وصاروا يرجعون إليه ويستمعون منه، مما أدى إلى استياء الحكام البيزنطيين.

شعرت الدولة البيزنطية بتضاؤل سلطانها في شمال إفريقية فعيَّنت عليها والياً عسكرياً هو هرقل الذي اهتم بإعادة النظام في البلاد والانضباط في الجيش، غير أنه تولى عرش القسطنطينية إمبراطور ضعيف وقام الفرس بغزو الدولة فحدثت اضطرابات على الامبراطور، واستغل هرقل، والي إفريقية، الفرصة، وأعدَّ جيشاً لدخول القسطنطينية وتخليص البلاد من حكم الامبراطور فوكاس الذي كان شيخاً كبير السن وضعيفاً، وقد قسم الجيش قسمين جعل على كل قسم قائداً، ولما اقتربت الحملة التي يقودها هرقل من العاصمة حدثت فيها ثورة على فوكاس فَعُزِل ونودِيَ بهرقل إمبراطوراً.

وقدَّر الامبراطور الجديد فضل شمال إفريقية في إيصاله إلى عرش الامبراطورية، فأحسن معاملة أهلها وتقرَّب منهم، فركنوا إلى الهدوء والسكون،

وبدأت البلاد تنتعش، وظلت إفريقية يحكمها ولاة تربطهم بالامبراطور هرقل صلة القربى، مما ساعد على استقرار علاقة طيبة بينها وبين القسطنطينية مدة من الزمن.

غير أن هرقل ابتدع مذهباً جديداً يوفق بين المذاهب المسيحية المتباينة، وأراد فرضه على الناس، فعارضه معظم الناس ولقوا في سبيل ذلك اضطهادات، ولجأ عدد من القسس والرهبان المصريين إلى إفريقية يؤلّبون الناس على المذهب الجديد.

غير أن الدولة البيزنطية غيرت موقفها بعد موت هرقل، فنبذت المذهب الجديد واقتنص رجال الدين في إفريقية الفرصة، فأخذوا يضطهدون أتباعه وقوّوا صلتهم بالبابا. واستغل جريجوريوس، وهو الذي يسمى في الكتب العربية جرجير، هذه الأوضاع المرتبكة، وكان حاكماً على إفريقية، فأعلن انفصاله عن الدولة البيزنطية، وأيّده البابا في عمله هذا، وقد حدث كل ذلك في الوقت الذي كان العرب فيه يتوغلون في بلاد الشام ومصر وبرقة.

تقدم الجيوش العربية

لقد ذكرنا من قبل أن عمرو بن العاص أرسل بعد فتح الاسكندرية حملة فتحت سنة ٢٣ برقة وطرابلس، غير أن العرب انشغلوا في تثبيت حكمهم في مصر وخصوصاً بعد ثورة الاسكندرية، واستغلت طرابلس هذه الفرصة وانفصلت عن الدولة الإسلامية، كما أن جرجير حاكم إفريقية شعر بالخطر العربي فأخذ يستعد له، ونقل قاعدته إلى سبيطلة وهي في داخل البلاد.

ولما وَلِيَ عبد الله بن سعد بن أبي سرح مصر، فاتح الخليفة عثمان في متابعة فتح شمال إفريقية فاستشار الخليفة الصحابة، ثم أذن له وأمدَّه بجيش قوي فيه عدد من أبناء كبار الصحابة ومن أهل مكة والقبائل الحجازية، فلما وصل هذا الجيش مصر انضمت إليه بعض القوات العربية في مصر، وبذلك بلغ عدده عشرين ألفاً.

تقدَّم عبد الله بن سعد بن أبي سرح مع جيشه في سنة ٢٧هـ ووصل طرابلس فحاصرها، ولكنه تابع تقدُّمه قبل أن يفتحها، ومرَّ بقابس، ثم التقى الحاكم الروماني جرجير قرب سبيطلة، واشتبك معه في معركة حامية قتل فيها جرجير وانسحب الروم إلى حصن في الشمال يدعى الجم، فلحقهم العرب وحاصروهم، ثم عقدوا صلحاً ينسحب بموجبه العرب لقاء مبلغ كبير من المال. وقد استغرقت هذه الحملة خمسة عشر شهراً، ولم تتوغل كثيراً، كما لم تقض على الروم، ولعل ذلك راجع إلى كثرة الروم وتماسكهم.

وانشغل عبد الله بن سعد بعد رجوعه في إرسال حملة إلى بلاد النوبة سنة ٣١ ثم في إعداد الأسطول الإسلامي ومقاتلة الروم في البحر.

ثم انشغل العالم الإسلامي بالفتنة التي حدثت على الخليفة عثمان وأدت إلى مقتله وما أعقب ذلك من الحوادث، مما أدى إلى إغفال الاهتمام بإفريقية فزال سلطان العرب عن طرابلس. وحاول البيزنطيون استعادة حكمهم في إفريقية، ولكنهم لم يفلحوا لأن امبراطورهم كان يواجه مشاكل متعددة أعاقته عن السيطرة التامة على إفريقية.

ولما صفت الخلافة لمعاوية وتثبت ملكه، أرسل إلى إفريقية حملة بقيادة معاوية بن حديج مكوَّنة من عشرة آلاف مقاتل فيهم عدد من الصحابة والتابعين وأشراف مصر وجندها.

سلك هذا الجيش طريق الساحل حتى وصل سهل تونس فعسكر في ناحية قمونية، ثم اشتبك مع جيش كان البيزنطيون قد أرسلوه إلى إفريقية، فانتصر على ذلك الجيش وطارده، حتى اضطره إلى إخلاء البلاد عن طريق البحر. واستولى العرب على سوسة، كما فتح جلولاء وبنزرت وغنم منهما غنائم كبيرة.

ولهذه الحملة أهمية كبيرة، فهي فضلاً عن الغنائم الكبيرة التي ظفر بها المسلمون، كانت بمثابة استكشاف للأوضاع الجديدة في إفريقية ومدى ضعف المقاومة التي يمكن أن تبديها للجيوش العربية، كما أنها يسرت نشر الإسلام في هذه المناطق.

وفي سنة ٥٠هـ أمر الخليفة معاوية بن أبي سفيان بإنفاذ حملة إلى شمال إفريقية، تولى قيادتها عقبة بن نافع الفهري، وهو قرشي من عشيرة فهر كان قد شارك في فتوح برقة وطرابلس، وفي الحملة التي قادها عبد الله بن سعد، وقاد قوة استولت على فزان، ثم وَلِيَ برقة فأمن حكم الإسلام فيها، ولم يشارك في أحداث فتنة عثمان وما تلاها.

تحرك الجيش الذي يقوده عقبة في الشتاء، وسلك الطريق الجنوبي الصحراوي، فوصل إلى غدامس وقفصة وقسطيلية، ثم وصل إلى قمونية فأقام بها.

وكانت الجيوش العربية قبل هذه الحملة، تغزو وتقوم ببعض الإنجازات ثم تعود عند انتهاء أعمالها إلى قاعدتها في مصر تاركة البلاد التي استولت عليها تحت رحمة القدر، وكثيراً ما كانت تخسر كل أو معظم الأراضي التي استولت عليها، الأمر الذي كان يكلف العرب كثيراً لاسترداد ما فقدوه، فضلاً عن أن هذا الوضع كان يبقي من يعتنق الإسلام مهدداً بالأخطار.

أدرك عقبة هذه المشكلة وأخطارها فقرر إقامة قاعدة ثابتة للقوات العربية تستقر فيها وتتخذها قاعدة للفتوح فلا تضيع الوقت في العودة إلى مصر التي أصبحت بعيدة عن هذه الأقاليم التي انضمت حديثاً إلى دولة الإسلام.

واختار عقبة بقعة من الأرض مستوية، وفيرة الماء، سهلة المواصلات، تبعد قليلاً عن الساحل فتكون آمنة من أخطار الغزوات البحرية كما أنها قريبة من الأراضي المرتفعة التي يمكن أن تكون ملجأً لسكانها عندما تهددهم الأخطار. وكانت هذه البقعة خصبة منبتة، وفيها بعض آثار العمران. وبدأ عقبة بتحديد موقع المسجد ثم وزع الإقطاعات على من معه من الجند، وقضى أربع سنوات في بناء هذه القاعدة التي سُمِّيَتِ القيروان، ولم يقم خلال ذلك بأيِّ فتوحات هامة.

وفي سنة ٥٥هـ عزل عقبة بن نافع، ووُلِّيَ مسلمة بن مخلد على مصر وإفريقية، فأرسل مسلمة على إفريقية مولاه أبا المهاجر دينار الذي قبض على عقبة وأساء معاملته. كما أنشأ مدينة دكرور على ميلين من القيروان وأوطنها العرب والبربر، فأهملت القيروان وهاجر معظم أهلها إلى المدينة الجديدة.

وكانت القبيلة البربرية الرئيسة في هذه المنطقة هي قبيلة أوروبة وعلى رأسها كسيلة وهو زعيم قوي صعب المراس اتصل به الروم وجلبوه إلى جانبهم فصار مصدر خطر يهدد تقدُّم العرب وحكمهم في شمال إفريقية. وقد قضى أبو المهاجر ثلاث سنوات متوغلاً في هذه المنطقة حتى وصل تلمسان، وبذل خلال ذلك جهداً لجلب كسيلة إلى جانبه دون قتال، ونجح في ذلك، فعاد إلى دكرور ومعه كسيلة. وبعد عودته تقدَّم إلى قرطاجنة وحاصرها، ثم فتح جزيرة شريك وهي شبه جزيرة غنية تقع قرب قرطاجنة.

ويتضح مما تقدَّم أن أبا المهاجر لم يقم بأعمال حربية كبيرة، وأنه اهتم بجلب البربر إلى جانبه وعمل على نشر الإسلام وتثبيته في هذه البلاد، وهي أعمال لها تأثير عظيم على المدى البعيد.

ولما وَلِيَ يزيد بن معاوية الخلافة أعاد عقبة بن نافع على ولاية إفريقية فَقَدِمَها سنة ٦٢هـ، وقبض على أبي المهاجر وكسيلة وقيدهما وأهانهما، كما أخرب دكرور وأعاد إعمار القيروان، وجعلها قاعدة. ثم تقدَّم موغلاً في البلاد فسلك الطريق الصحراوي الذي يخترق المغرب الأوسط واجتاز باغاية، ولمبيزة، والزاب، وأربة وتاهرت، ووصل إلى طنجة حيث قابله حاكمها يوليان بالترحاب، فأبقاه، ثم توجَّه إلى وليلي (وهي في موقع سجلماسة الحالية ثم سار إلى إغمات (مراكش الحالية) ووصل المحيط الأطلسي فوقف على ساحله ثم عاد. وقد ساعده هذا التوغل الواسع على نشر الإسلام في عدد من المدن والقبائل التي واجهها، كما ازداد احتكاكه بالبربر.

ومن الواضح أن عقبة أوغل بعيداً عن قاعدته، واخترق طريقاً فيه عدد من البيزنطيين، وعدد كبير من عشيرة البسل البربرية التي عمل الروم على توثيق الصلة بها وخصوصاً بعد تقدُّم المسلمين وتوغلهم.

واستطاع كسيلة أن يهرب من قبضة عقبة فأخذ يجمع القبائل لاعتراضه في طريق عودته، واستعد لذلك بأن غور أصحابه المياه في طريق عقبة، مما زاد في مصاعبه، حيث سرح بعض جيشه وجعله يسير متقدماً قبله.

ثم فاجأه كسيلة والبربر في تهوده وطوقوا من معه من الجند، ولم يفلح في فك الطوق، فقتل شهيداً هو ومعظم من معه ووقع الباقون في الأسر، وكان ذلك في سنة ٦٥.

ولما سمع زهير بن قيس البلوي، وكان عقبة قد خلفه على القيروان، حاول أن يتقدم بالجند الذي كان مقيماً معه لقتال كسيلة، غير أن هؤلاء الجند لم يتحمسوا وتحاشوا المجازفة فانسحبوا إلى برقة، ودخل كسيلة القيروان، وبذلك فقد العرب ما كانوا قد كسبوه في عهد ولاية عقبة.

غير أن حكم كسيلة لم يكن مثبت الدعائم، لأن عدداً كبيراً من البربر كانوا قد اعتنقوا الإسلام وارتبطوا بالدولة العربية، فلم يرضوا عن حكم كسيلة وأثاروا له كثيراً من المشاكل.

ولما استقر عبد الملك بن مروان في الخلافة اهتم بأمر إفريقية فأرسل سنة ٦٩ جيشاً ضمه إلى زهير بن قيس البلوي والي برقة، فتقدَّم زهير إلى القيروان ودخلها ثم تقدَّم كسيلة وجيشه، وكان كسيلة قد انسحب إلى ممش وهي تقع على مسافة من القيروان وعلى مقربة من سفوح الجبال، وفي هذا المكان نشبت معركة حامية انتصر فيها المسلمون وقتلوا كسيلة ودمروا جيشه. وبذلك استعادوا سيطرتهم على المناطق الواقعة شرق بلاد تونس وقضوا على تهديدات قبائل البرانس وقطعوا آمال البيزنطيين باستعادة المغرب.

ثم عاد زهير إلى برقة، وكان البيزنطيون قد أنزلوا قوات كبيرة في ساحلها، فاشتبك معهم ببعض قواته ولكن الروم تغلَّبوا عليه وقتل في المعركة.

ثم أرسل الخليفة عبد الملك في سنة ٧٣هـ قائداً من أهل الشام هو حسان بن النعمان الغساني مع جيش قيل إنه يبلغ أربعين ألفاً، وانضم إليه في طريقه إلى إفريقية عدد ممن كان قد أسلم من البربر، فاجتاز طرابلس ووصل القيروان ثم تقدَّم إلى قرطاجنة، وكان الروم قد دخلوها وسيطروا عليها، فتغلَّب على الروم وأخضعهم ولكنهم ثاروا عليه من جديد، فعاد إليها ودمر معظمها، فهرب الروم منها، ولاحقهم إلى صطفورة وبنزرت وبونة ثم عاد إلى القيروان.

وكانت قد ظهرت في قبيلة جراوة، وهي من قبائل البتر البربرية، زعيمة تسمّيها المصادر العربية «الكاهنة» فعملت على تكتيل البربر في جبال الأوراس لصد تقدُّم العرب، فلما تقدَّم إليها حسان بجيشه اشتبكت معه الكاهنة بمعركة حامية في نيني، وهو أحد روافد نهر مسكيانة، فانكسر حسان واضطر إلى الانسحاب إلى برقة.

وكانت الكاهنة قد قامت بتخريب المزارع والبساتين لكي لا يستفيد منها العرب أو يقروا بإعادة فتحها، ولكن الأهالي استاؤوا من عمل الكاهنة وناصبوها العداء.

ثم أرسل الروم حملة نزلت في قرطاجنة وسيطرت على الأراضي التي حولها وعسفت بمن وجدته من المسلمين.

وعلم حسان باضطراب البلاد، فتقدَّم في سنة ٧٩، إلى الكاهنة، وكان معظم أتباعها قد انفضّوا عنها، ولكنها قاتلت المسلمين في معركتين إحداهما عند قابس والأخرى قرب حصن جم على طرف جبل الأوراس، ثم تقدَّم إليها حسان بنفسه واشتبك معها في معركة اندحرت فيها ووقعت قتيلة وتشتت جيشها، وبذلك انتهت آخر مقاومة للبربر. وقد عُني حسان بولدَيِ الكاهنة اللذين انضما إليه وولاهما قيادة بعض البربر الذين كانوا معه، فأخلصا للمسلمين وحاربا معهم بحماسة.

ثم توجَّه حسان إلى الروم الذين كانوا في الساحل فقاتلهم وانتصر عليهم وطردهم من البلاد ودمر قرطاجنة كلياً، وكانت معقلاً لهم، وبذلك تأمنت سيطرة العرب على هذه البلاد.

وقام حسان بعد ذلك بإنشاء مدينة تونس، وكانت من قبل قرية صغيرة، وأقام فيها دار صناعة للسفن استخدم فيها أقباطاً أقدمهم من مصر. وقد قام أسطول هذه السفن بحماية البلاد ومنع الروم من النزول فيها كما صارت تونس بواسطته قاعدة لتوسع العرب البحري في وسط وغرب البحر المتوسط.

واهتم حسان بتنظيم الإدارة في البلاد، فأعاد عمران القيروان وجدد بناء

مسجدها، ودوَّن الدواوين ونظم الإدارة المالية، وفرض الخراج على الروم وعلى نصارى البربر.

وأكثر حسان من استخدام البربر وإدخالهم في الجيش العربي وعيَّن منهم قواداً، ومن أشهر هؤلاء القواد في زمنه هلال بن ثروان اللواتي وابنا الكاهنة.

وأرسل الفقهاء يعلِّمون البربر القرآن واللغة العربية، وبدأ الإسلام يسود، وأنشئت مساجد وجوامع كثيرة ورافق انتشار الإسلام نشر اللغة العربية وثقافتها.

ثم عُزل حسان عن ولاية إفريقية، وولَّى الوليد بن عبد الملك في سنة ٨٦هـ عليها موسى بن نصير، وكان جده في أرجح الروايات ممن سباهم خالد بن الوليد عند غارته على عين التمر وأرسلهم إلى المدينة، ثم اتصل أبوه بمعاوية فكان على حرسه، أما هو فقد اتصل ببشر بن مروان الذي ولّاه أخوه الخليفة عبد الملك على العراق فجعل موسى على بيت مال البصرة، فلما توفي بشر غادر العراق وانضم إلى عبد العزيز بن مروان والي مصر، حيث عاش في كنفه، وكان عبد العزيز يريد السيطرة على بلاد المغرب وفتوحها، ودفعته هذه الرغبة إلى مخاصمة معظم من وَلِيَ المغرب ومنهم حسان الغساني الذي استاء من ذلك وأعلن رغبته للخليفة بأن لا يلي لبني أمية شيئاً.

ولما وَلِيَ موسى بن نصير شمال إفريقية قَدِمَ القيروان، ثم تقدَّم منها إلى طنجة وتتبَّع قبائل كتامة وهوارة وزناتة البربرية التي كان معظمها لم يخضع للعرب، وقد وصل في تقدُّمه إلى سجلماسة، وفتح طنجة وكل إقليم المغرب الأقصى إلا سبتة التي كان يليها يوليان وقد أظهر الولاء للعرب فتركه موسى بن نصير في منصبه.

ولما عاد موسى إلى القيروان اهتم بمدينة تونس وإعمارها، ووسع دار الصناعة فيها، وعُني بالأسطول، ثم أرسل حملة إلى صقلية فغزتها وغنمت منها غنائم كبيرة، فلما عادت الحملة واجهت سفنها ريحاً عاصفة فتدمر كثير منها.

وكان موسى بن نصير بعد فتحه طنجة قد عيَّن عليها طارق بن زياد، وهو قائد من أصل بربري اعتنق جده الإسلام وحارب أبوه مع الجيوش العربية، كما

ساهم هو بالفتوح مع موسى، وأظهر إخلاصاً وكفاءة جعلت ابن نصير يوليه طنجة، ثم قام بعدها بعبور البحر وفتح إسبانيا.

فتح الأندلس

إسبانيا

أصبح العرب بعد ضمهم المغرب قريبين من إسبانيا، لا يفصلها عنهم إلا مضيق لا يتجاوز عرضه اثني عشر ميلاً؛ وهي شبه جزيرة واسعة مربعة الشكل تقريباً، تفصلها عن فرنسا وأوروبا جبال البرانس الوعرة، وتطل أطرافها الغربية على المحيط الأطلسي الواسع، وأطرافها الشرقية والجنوبية على البحر الأبيض المتوسط، وأرضها متموجة تخترقها جبال ممتدة بين الشرق والغرب، وتحصر بينها ودياناً، أما الأطراف الجنوبية والساحلية فتكوِّن سهولاً واسعة في الجنوب، وتخترقها عدة أنهار أكبرها نهر الأبرو والتاجة في الشمال، والوادي الكبير في الجنوب.

وفي إسبانيا مناجم للفضة والحديد، إضافة إلى المرمر، وسهولها خصبة التربة تكثر فيها الغابات وأشجار الفاكهة وبخاصة الزيتون والكروم والإجاص والكستنا، إضافة إلى مزارع الحبوب والخضروات.

توالى على إسبانيا عدد من الدول والشعوب، فقد سيطر عليها الرومان في القرن الأول وضموها إلى إمبراطوريتهم، وأدخلوا فيها كثيراً من مظاهر الحضارة الرومانية ونظمها والفكر فيها؛ فلما ضعفت الامبراطورية الرومانية وتعرضت لغزوات الجرمان، أصاب إسبانيا منها غير قليل فغزاها القوط الغربيون، ثم الفاندال الذين استوطنت فيها أعداد كبيرة منهم، ومن آثار ذلك أن سُمِّيَتِ الأقسام الجنوبية منها «فاندلوسيا» وهي أصل التسمية العربية للأندلس، وانتشرت فيهم المسيحية، كما كان عدد غير قليل من اليهود يقيمون في عدد من مدنها.

فتح إسبانيا

بدأ فتح الأندلس عندما عبر طريف بن مالك البحر، بتحريض من يوليان حاكم سبتة، مع قوة قوامها أربعمائة مقاتل ونزل سنة ٩٠ الجزيرة التي صارت تسمّى باسمه.

وفي السنة التالية تقدَّم طارق بن زياد بقوة تبلغ سبعة آلاف مقاتل، ثم أردف بخمسة آلاف أخرى، فصارت قواته اثنا عشر ألفاً من البربر والعرب، وعبر المضيق ونزل في منطقة سُمِّيَتْ باسمه «جبل طارق»، وتقدَّم إلى شذونة فتصدى له ملكها لذريق، وكان مكروهاً من شعبه والمتنفذين فيهم لاغتصابه العرش وظلمه، ونشبت معركة في شذونة تدمَّر فيها الجيش الإسباني، واندحر لذريق واختفى ذكره، ويقال إنه قتل أو غرق، وفي رواية أنه قتل من المسلمين ثلاثة آلاف.

ثم تقدَّم طارق إلى قرطبة، ففتحها بعد حصار دام ثلاثة أشهر، سار بعدها إلى طليطلة، وانضم إليه في تقدُّمه أعداد من الاسبان الكارهين للذريق.

ثم قَدِمَ موسى بن نصير مع جيش عربي، معظمه يمانيون، ونزل الجزيرة الخضراء مقابل سبتة ومنها إلى شذونة فقرمونة فإشبيلية فماردة حيث لاقى طارق بن زياد في طلبيرة وتقدَّموا بعد ذلك إلى سرقسطة، فلاردة، فوشقة، وفتحوها، ووصلوا قشتالة وجيليقية.

ثم عاد موسى بن نصير سنة ٩٥ إلى الشام مع غنائم وتحف، غير أنه وصل وقد توفي الخليفة الوليد، فاستقبله سليمان الذي تلا الوليد بالخلافة، استقبالاً سيئاً، ويقال إنه سجنه وعذبه[1].

وكان موسى عند مغادرته اسبانيا قد حصل على ولايتها ابنه عبد العزيز الذي فتح مالقة وتدمير

---

(١) اعتمدنا في ما أوردناه هنا على كتاب «فجر الأندلس» لحسين مؤنس، وفيه تفاصيل عن فتحها وإدارتها في العهود الأولى، وعلى كتاب «الفتح العربي والاستقرار في شمال إفريقية والأندلس» لعبد الواحد ذنون وفيه عرض موجز واضح لفتحها، وتفاصيل قيِّمة عن توزع استيطان البربر والقبائل العربية فيها.

ثم وَلِيَ عمر بن عبد العزيز الخلافة سنة ٩٩، فأمر بإيقاف الفتوح، وولّى إسبانيا السمح بن ملك الذي اهتم بتنظيم الإدارة والشؤون المالية وتوزيع الأراضي بما ينسجم مع توجهات الخليفة الذي كان يحرص على مراعاة العدالة ورفع الحيف عن الأهالي الذين قدَّروا ذلك ومالوا إلى تأييد العرب.

ثم تتابع مجيء القوات العربية، وخاصة من مقاتلة بلاد الشام؛ فصارت القوات العربية ثلاثة أصناف: البلديون الذين شاركوا في الفتوح الأولى، والقوات العربية التي تلتها وجاءت مع بلج بن بشر فكانت تسمى «طالعة بلج» والبربر.

وتقدّم عبد الرحمن الغافقي فعبر البرانس ووصل إلى بواتيه سنة ١١٤، لكن الفرنج بقيادة شارل مارتل تغلَّبوا عليه وشتتوا جيشه، ولم يعاود العرب توغلهم. وتوزعت مواطن القوات العربية، فسكن أهل حمص في إشبيلية، وأهل قنسرين جيان والبيرة، وأهل فلسطين شذونة والجزيرة الخضراء، وأهل دمشق البيرة وغرناطة. وأهل مصر باجة؛ وكان كلٌّ منهم من عشائر متعددة.

أما البربر فأسكنوا الجزيرة الخضراء وشذونة وإشبيلية وقرطبة ورندة وجيان والبيرة، وبلنسية وتدمير ومرسية وشاطبة، وفي وادي الحجارة وقلعة سالم.

وحدثت بعد ذلك خلافات وفتن، وبخاصة بين الشاميين والبلديين وبين الشاميين والبربر، وساد الأندلس اضطراب استمر إلى أن أفلح عبد الرحمن الداخل في القضاء عليه وتثبيت حكم إمارته الأموية.

استقرار المقاتلة في الأمصار

وكانت للمقاتلة مكانة منبعثة من دورهم الرئيس في دحر جيوش الأعداء والقضاء على سلطانهم، وضم البلاد إلى الدولة الإسلامية، وحفظ الحدود، وتعزيز الأمن والاستقرار، ولكن الخلفاء لم ينشئوا أجهزة للسيطرة على الرأي العام أو التدخل في تفاصيل حياة الناس وتنظيماتهم ما دامت لا تعارض أسس الدين أو تهدد الأمن.

ثم إن مراكز استقرار المقاتلة كانت بعيدة عن مركز الخلافة في دمشق وعن معظم صحابة الرسول (ص) الذين كانوا أكثر تفهماً للإسلام ومبادئه والسير على متطلباته الاجتماعية والسياسية التي عمل الرسول (ص) على إقامتها، وكان أكثر هؤلاء المقاتلة من بوادي جزيرة العرب، قد ألفوا حياة البداوة ونظمها وأفكارها في الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية، وكانت مهمتهم الرئيسة التي تتطلبها الدولة منهم هي ممارسة القتال والاستعداد له، والجديد في حياتهم هو وجوب تعايشهم مع بعضهم بسلام في الأمصار مع الاعتراف بالسلطة العليا للخلافة وممثليها الولاة، ولم يأخذ القتال الفعلي إلا جزءاً من وقتهم، إذ انه بعد السنوات الأولى للفتوح كانت المعارك قليلة، والحملات تتم في الصيف فحسب، ويشارك فيها بعض، وليس كل المقاتلين. وبذلك كانت لأسرهم كل الأوقات لحياة السلم، ولهم بعض أوقات السنة. وكل هذا يسَّر لهم وقتاً واسعاً من الحياة السلمية التي كانوا يقضونها في التمتع بما يهتمون به من المحادثات والتفكير في الميادين التي كانوا يهتمون بها قبل انضمامهم إلى الجيوش الإسلامية واستقرارهم في الأمصار، وأكثر هذه الاهتمامات بالكلم الطيب من الآداب والأمثال والحكم، والشعر والأنساب، وأضيف إليها الاهتمام بالإنجازات الحربية والإدارية بعد الإسلام، كما حدث اهتمام شجعته الدولة، دون أن تفرضه قسراً بما يتعلق بالإسلام، وخصوصاً قراءة القرآن ثم تدارس ما جاء فيه من أفكار ومعلومات وتعابير.

إن استمرار استقرار إقامة العرب في كل مصر قوّى الترابط بينهم، بتأثير التعايش المشترك والاختلاط في المعاملات والزيجات، وولد سمات عامة مميزة لكل مصر، وبعض الاعتزاز به، ولم تحدث إلا مصادمات وقتية قليلة بين الأمصار. وبسبب ضعف سبل الاتصال في تلك الأزمنة فقد ازداد اثر الأحوال المحلية في تنظيماتهم ومواقفهم، وكانت المراكز البارزة هي الأمصار الرئيسة (الكوفة، والبصرة، والفسطاط، والمدينة، ودمشق، وحمص) أما المراكز الفرعية الصغرى فلم يكن لها دور متميز، وإنما كان موقف كلٍّ منها شديد الارتباط بموقف المركز الرئيس الذي ترتبط به وتتبعه هذه المراكز الصغرى.

ومن حيث العموم فإنه فيما عدا المدينة ومكة، فإن المراكز الأخرى في أقاليم شبه جزيرة العرب لم يذكر لها دور فعال في التطورات التي حدثت، ولعل كثيراً من ذلك راجع إلى هجرة كثير من العناصر الطموحة فيها إلى الأمصار الجديدة التي تؤمن مجالات أوسع للعمل والنمو الاقتصادي والفكري.

مكانة الخليفة ودوره

كانت السلطة التنفيذية العليا بيد الخليفة، وباسمه تصدر الأوامر الواجب طاعتها، وهو الذي يختار الرجال للولايات والقيادات العليا في الجيوش ويصدر إليهم التوجيهات في قضايا رئيسة وأحياناً فرعية، واقتضت الأحوال بأن يكون للخليفة الثاني (عمر بن الخطاب) وضع متميز، فقد حدثت في زمنه المعارك الكبرى التي انتصر فيها العرب المسلمون ودحروا الروم والفرس وضموا العراق وبلاد الشام والجزيرة الفراتية إلى دولتهم، وتطلَّب ذلك إشراف مباشر للخليفة على حشد القوات المقاتلة وتنظيم توزيعها على الجبهات المتعددة، ثم وضع وإقرار التنظيمات لهذه المقاتلة بما يضمن استقرارها وكفاءتها في أداء واجباتها، وكذلك وضع وإقرار تنظيمات لإدارة الأقاليم التي ضمت إلى الدولة وكان في كلٍّ منها أوضاع خاصة وتنظيمات استقرت منذ قرون طويلة سابقة للفتح الإسلامي. وقد مكّنه ما تميز به من عزم وبصيرة إدارية وإدراك نفاذ لمقتضيات المصلحة العامة، وكذلك استشاراته من وضع قواعد مقبولة ظلت في خطوطها العامة ولأمد غير قصير نافذة متَّبعة. ومما يسّر له عمله أن الأقاليم المفتوحة كانت حول الجزيرة ومتصلة بها جغرافياً ولأهلها صلات عرقية وبشرية بأهل الجزيرة، وهم يختلفون في أحوالهم وهوياتهم عن حكامهم السابقين، ونقلت المصادر روايات أن عمر أوقف عمق التوسع خارج هذه الأقاليم التي كانت في أطرافها الخارجية جبال وعرة أو صحارى شاسعة إفريقية، وسكانها كانت أحوالهم البشرية والعرقية وربما الحضارية ضعيفة الصلة بعرب الجزيرة.

دور الخليفة في التنظيم والتوجيه

كان للخليفة دور كبير في الفتوح، فهو المخطط الستراتيجي الذي يقرر جبهات القتال، ومقدار القوة التي ترسل إلى كل جبهة، والعشائر التي تكوّن هذه القوات، وهو الذي يعيِّن القادة ويعزلهم، وإليه ترسل الغنائم. وهو الذي يختار ولاة المراكز الإدارية الرئيسة (أجناد الشام الخمسة والكوفة والبصرة وكسكر وربما المدائن في العراق)، كما أنه يقر التنظيمات المالية والإدارية في الأقاليم المفتوحة (عدم توزيع الأراضي، تقدير الخراج)، وهو المرجع الأعلى في شؤون الإدارة، فهو الذي يعيِّن الولاة ويراقبهم ويعزلهم أو ينقلهم إلى إدارة مراكز أخرى، ويصدر لهم الأوامر، فهو صاحب السلطة العليا. ومن الواضح أن سلطته على أهل البلاد المفتوحة أوسع، وقد يعززها أنه حل مكان الحكام السابقين الذين كانت لهم سلطات واسعة بموجب نظم استقرت عبر فترة طويلة من الزمن.

وامتدت سلطات الخليفة على العرب، فهو المرجع الأعلى لأهل الأقاليم والأمصار كافة، وهو مصدر قوة الولاة الذين يعيِّنهم، حيث إن قوة قراراتهم نابعة من اسمه ومكانته، وهو الذي يضع التنظيمات العامة في الإدارة (حبس الأراضي المفتوحة، تنظيم توزيع العطاء، الإقطاع).

والأوامر التي يصدرها واجبة الطاعة، وهي قد تكون ذات أحكام عامة على الجميع، فهي كالقوانين، أو ذات أحكام خاصة محدودة في النطاق والمكان والزمان.

احتفظت الخلافة بمركزها المتميز باعتبارها صاحبة السلطة العليا على أقاليم الدولة كافة وأهلها من العرب والعجم بمجتمعاتها وأفرادها وقد تثبتت مكانتها بعد التوسعات في الدولة والتنظيمات التي أمنت الاستقرار والسلم فيها، ومما زاد في تثبيتها عدم ظهور معارضة صارخة لأشخاص شاغليها الأولين وعلى قراراتهم، علماً بأن كلاً منهم كان في ماضيه وثيق الصلة بالرسول (ص) والإسلام، وقد عمل أول خليفتين بسلوك لا يستثير الشكوك بأمانتهم ونزاهتهم وتجرُّدهم عن الأطماع الشخصية.

وتتم متابعة الخليفة للأوضاع في الأمصار مما تصله من معلومات يقدِّمها الولاة أو يرسلونها، وما يذكره المتصلون بالخليفة عن هذه الأوضاع له مما يرونه في زياراتهم ويسمعونه، وكذلك مما يعرفه ممن يرسلهم لدراسة الأوضاع وتتبُّع الأحوال، والوفود التي تقدم إلى المدينة ممن يختارهم الولاة من ذوي المكانة في عشائرهم أو في المجتمع، والموثقين المقدرين المأمونين عند الولاة. ولا توجد إشارات أو دلائل على وجود نظام محكم في أوائل الإسلام ييسِّر للخليفة الاطلاع الواسع المستمر على الأحوال كافة بالتتابع في الأقاليم، فمعلوماته عما يجري فيها إجمالية عامة متقطعة وليست مستمرة، وهي في الغالب عن الحوادث بعد وقوعها. فالوالي هو الذي يملك حق الاتصال المباشر المستمر مع أهل المصر الذي يتولاه، وهو أوسع أثراً في متابعة مجريات الأمور والتأثير في توجيهها.

كانت الخلافة، وهي السلطة العليا، رمز وحدة دولة الإسلام، وكان قيامها وتفرُّدها ضرورة منذ البداية، وظل عموم الناس يؤمنون بذلك ما عدا عدد محدود من المفكرين المتأخرين الذين قال بعضهم بعدم ضرورتها، وقال بعضهم بجواز وجود خليفتين في آن، ولكن آراءهم لم تقبل، فلم يكن لهم أتباع.

وكان الإسلام رابطاً أساسياً موحداً للدولة، فهو الدين الذي قامت عليه الدولة، وتمت الفتوح لإعلاء كلمته، ومثله وأفكاره ونظمه عامة في معتنقيه وأولهم العرب، ولما كان في أساسه عالمياً رحباً، فقد كان مفتوحاً للكل يدخلونه بصرف النظر عن أصولهم ومكاناتهم ومعتقدهم متساوين في الحقوق والواجبات وعليهم أخذ الأفكار نفسها، وأداء الفرائض نفسها، فهو بذلك عامل موحِّد للأفكار والممارسات والنظم الاجتماعية، وهو يتعامل مع الإنسان لا الجماعات، ويبيح للأديان الأخرى، ما عدا الوثنية، البقاء. وازدادت أهميته الرابطة على مر الأيام، ففي أواخر زمن الرسول أصبح عاماً بين العرب، فتلاحم مع العروبة، ثم امتد بعدها إلى أعداد متزايدة من أهل الدولة بعد توسعها.

وللعرب في الدولة مكانة متميزة، ففيهم بدأ الإسلام، وبلغتهم نزل القرآن، وبرجالهم قامت الدولة وتثبتت، وعلى سواعدهم توسعت وامتدت، وصينت حدودها، واستقر الأمن والسلام في أرجائها. ومن العرب كان الخلفاء وكبار القادة ورجال الإدارة والمستشارون، ولهؤلاء الدور الأكبر في صياغة السياسة العامة وتوجيهها وتنفيذها.

الفهرس

الفصل الثاني
دوافع الفتوح

الفصل الثالث
العراق عند الفتح

الفصل الرابع
الحركات الحربية في أوائل خلافة عمر بن الخطاب

الفصل الخامس
معركة القادسية

الفصل السادس
فتوح الهضبة الإيرانية

الفصل السابع
فتوح البصرة

الفصل الثامن
بلاد الشام عند الفتح الإسلامي

الفصل التاسع

توجه أهل مكة والرسول (ص) نحو الشمال

الفصل العاشر

المصادر وتتابع الحوادث

الفصل الحادي عشر

المقاتلة العرب في جبهة بلاد الشام

الفصل الثاني عشر

القواد والمعارك الأولى

الفصل الثالث عشر

الحركات الأولى ومعاركها

الفصل الرابع عشر
معركة اليرموك

الفصل الخامس عشر
فتح دمشق وشمالي بلاد الشام

الفصل السادس عشر
إكمال فتح بلاد الشام

الفصل السابع عشر
تنظيم الإدارة

الفصل الثامن عشر
فتوح الجزيرة الفراتية

الفصل التاسع عشر
موقف الروم والعرب من فتوح بلاد الشام

الفصل العشرون
نشأة البحرية العربية

الفصل الحادي والعشرون
الدفاع البري عن الشام

الفصل الثاني والعشرون
فتح مصر

الفصل الثالث والعشرون
فتح إفريقية والمغرب

المؤلف

الأستاذ الدكتور صالح أحمد العلي:

- ولد في الموصل سنة ١٩١٨.
- حاز شهادة الليسانس في التاريخ، كمتخرّج أول، من جامعة القاهرة سنة ١٩٤٥.
- حاز شهادة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة أكسفورد سنة ١٩٤٩.
- حصل على زمالة للبحث لمدة سنة في جامعة هارفرد الأميركية ١٩٥٦ - ١٩٥٧.
- رئيس مركز إحياء التراث العلمي العربي وكالة ١٩٨٠ -١٩٨٢.
- رئيس المجمع العلمي العراقي ١٩٧٨ - ١٩٩٦.
- رئيس قسم التاريخ بجامعة بغداد وأستاذ مادة التاريخ الإسلامي فيها لحين تقاعده.

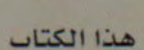
له إسهامات عديدة، فهو:

- عضو شرف هيئة كتابة تاريخ العالم في اليونسكو ١٩٨٩ فرنسا.
- عضو مؤازر - مجمع اللغة العربية في دمشق.
- عضو مؤازر - مجمع اللغة العربية في القاهرة.
- عضو المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية - عمان.
- عضو هيئة إعادة كتابة تاريخ العالم الذي تعدّه اليونسكو ١٩٨٠، ١٩٨٩.



تسلّم الجوائز والميداليات التالية:

- جائزة جلال صادق - القاهرة ١٩٤٥.
- جائزة الملك فيصل العالمية في الدراسات الإسلامية - الرياض ١٩٨٩.
- ميدالية أرسطو - منظمة اليونسكو.
- الوسام الذهبي للمؤرخ العربي - اتحاد المؤرخين العرب.
- جائزة سلطان العويس في الدراسات الإنسانية والمستقبلية ١٩٩٩.
- جائزة المجمع العلمي العراقي ١٩٩٩.
- له مؤلفات عديدة في المجالات التالية: التأليف التاريخي، التحقيق، الترجمة، الدراسات والأبحاث.
- توفي في بغداد في نهاية العام ٢٠٠٣.



هذا الكتاب

للفتوح الإسلامية الأولى أهمية بالغة في تاريخ العرب والعالم.

وقد أولى المعنيون بالتاريخ منذ فجر الإسلام اهتماماً بأخبار الفتوح، ولما عمّ التدوين ظهر عدد غير قليل من المصنّفات. كما انصبَّ اهتمام الباحثين القدماء والمحدثين على سرد خطوط سَيْرِ الجيوش والمعارك التي خاضوها تبعاً لتعاقبها الزمني، غير أن القلّة منهم عنوا بالقوات الإسلامية تعبئةً وتركيباً وتنظيماً.

الدراسة في هذا الكتاب راعت سَيْر الحركات والمعارك الكبرى، فوصفتها باقتضاب، إلا أنها تناولت بحث الفتوح تبعاً لجبهات القتال، فركزت أساساً على الجوانب التنظيمية لقوات العرب وقوات الأعداء، خصوصاً ما تعلّق منها بالأسلحة وميادين التحرّك والالتحام، مما كان له الأثر الدائم على التنظيمات التي وضعها العرب.

فالبحث يركز على دور الأمة ومُقاتِلَتِها، وأعمال الهيئات الحاكمة من خلفاء وولاة، ويحاول إبراز الثوابت في النظام وعوامل تكوُّنه.

وتبرز هذه الدراسة الجوانب التي لم تَلْقَ الاهتمام الجديرة به، فجاءت الصورة العامة التي يقدمها هذا الكتاب مبنيّة على حقائق كثير منها جزئي متفرق في ثنايا كتب منوَّعة، وذُكر كثير منها عرضاً دون توضيح أو تقدير لأهميته.

وبجمع هذه المعلومات من عشرات المصادر وتوثيقها، ووضعها في إطارها الصحيح، يكون هذا الكتاب قد أدّى خدمةً كبيرة لقرّاء التاريخ والباحثين فيه.